أبو الحسن علي الحسني النّدْويّ

في مسيرة الحياة

الجزء الأول




في مسيرة الحياة



الطبعة الثانية

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

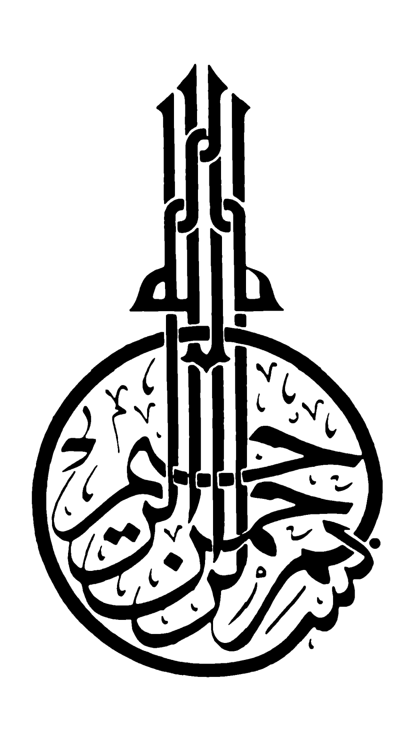
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤


ISBN 978-9933-486-10-5

أبو الحسن علي الحسني النَّدْويّ

في مسيرة الحياة

دار القلم
دمشق



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم أديب العربية الكبير الشيخ علي الطنطاوي

«في مسيرة الحياة» كتاب قيِّم، لداعية من أكابر الدعاة إلى الله في هذا العصر، وصديق من أكرم الأصدقاء، ومؤلف مُكْثِرٍ له كتب يعرفها الناس، ولكن لهذا الكتاب فضلاً عليها، لأنه يسرد سيرة المؤلف الأستاذ السيد أبي الحسن النَّدْوي، ومعه رسالة منه يشرِّفني فيها فيكلفني بأن أكتب له مقدمة الكتاب.

* * *

أنا لم أكن يوماً في موضع القيادة في الدعوة الإسلامية، ولكنني أمشي معها من يوم كنت أدرس في مصر سنة ١٣٤٧ هـ، فشهدت بداية الدعوة النظامية بإنشاء «جمعية الشبان المسلمين»، وعرفت رجالاً من أعيان الدعاة إلى الله، ومن أكابرهم كما عرفت أبا الحسن، عرفت الشيخ البنّا قبل أن تظهر جماعة «الإخوان المسلمين»، وكنت في فصل واحد في دار العلوم مع سيد قطب، وعرفت الشيخ البشير الإبراهيمي في مصر وفي دمشق وفي بغداد وفي القدس، وعرفت المودودي، ومحب الدين الخطيب خالي وأستاذي، والسيد الخضر الحسين شيخي وشيخ مشايخي والشيخ محمد محمود الصوّاف أخي وصديقي، وعرفت بالسماع لا باللقاء النورسي في تركيا، وممَّن لقيت الأستاذ علّال الفاسي، ولبثت معه أياماً في القدس وفي دمشق، والدعاة إلى الله كثير، ولكن مَنْ ذكرت من أبرزهم شخصية، ومن أخلصهم إخلاصاً، ومن أسيرهم ذكراً، وأعمقهم أثراً.

* * *

وماذا أقول وقد سدّ عليَّ أخي أبو الحسن مسالك القول، فلم يدع لي مسافة أنملة أوسعها لأدخل منها، فأكتب عنها. . لقد قرأت مذكّرات كثير من أدباء العصر ممن سار فيها مع السنين، وجاء بها مرتبة ترتيب الأيام في مجرى الزمان كأحمد أمين، ومن أخذ منها مواقف فصّلها تفصيل الأديب، وعرضها عرض المنشىء البليغ، كطه حسين، ومن أخذ مما رأى وما سمع مشاهد علّق عليها، وإن لم يستوف عناصرها ولم يجمع أطرافها كمحمد كرد علي، أما أخونا الأستاذ أبو الحسن، فقد جمع في سيرته بين الحديث عن أصله ومنبته، وعن بلده وبيته، وعن تحصيله ودراسته، وعن أصحابه وتلامذته، فلم يدع شيئاً إلّا قاله، فماذا ترونني قائلاً اليوم؟.

* * *

لقد كتب عن أسرته، أهل أبيه وأهل أمه، وإذا هو المُعِمُّ المُخْوِل[1] ، كما كانت تقول العرب، وإذا هو عالم من نسل علماء، ولقد عرفت من مطالعتي أسراً توارث أبناؤها العلم، فكانوا وكان نساؤهم من العلماء، كأسرة آل قدامة الذين كان منهم مؤلف «المغني» أعظم كتب الفقه الإسلامي، وابن أخيه صاحب «الشرح الكبير»، والحافظ صاحب «المختارة» التي هي أصح كتب الزوائد على الصحيحين، ولقد أولعت زمناً بتتبع تاريخ هذه الأسرة فحصل معي من نسائها العالمات ـ فضلاً عن رجالها العلماء ـ أكثر من إحدى عشرة سيرة!! ومن هذه الأسر في التاريخ القريب أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأنتم تعرفون من نشأ فيها من العلماء. وأسرة ولي الله الدهلوي في الهند، وأسر من أمثالها كثير، أحصيت الكثير من أخبارها. وأسرة المهلّب القائد الذي ظلمناه فلم نضعه في مكانه مع القوّاد العظام في تاريخ المعارك، والذي تسلسلت البطولة في نسله أربعة بطون، فكان منهم رَوْح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب. وأسرة طاهر بن الحسين

(١) أي الكريم الأعمام والأخوال.

في القيادة والسيادة. وأسرة قتيبة بن مسلم القائد الذي فتح من الأرض ضعف ما فتح نابليون، فذهب ما فتحه نابليون وعاد إلى أهله، وبقيت فتوح قتيبة للإسلام إلى يوم القيامة، وإن غشيتها غاشية من الكفر والكدر، فستعود إن شاء الله إلى إيمانها وإلى صفائها. وأسرة جرير في الشعر. وأسرة يمكن أن ندعوها بأسرة الوزراء، هي أسرة وَهْب الذي كان وزيراً، وابنه سليمان الذي كان وزيراً، وابن سليمان عبيد الله، والقاسم بن عبيد الله، ومحمد بن القاسم، وكلهم كانوا وزراء.

* * *

ولو عددت من هذه الأسر أسرة أبي الحسن النَّدْوي لما أبعدت، فأبوه عالم طبيب مؤلف[1]، وأخوه لأبيه عالم طبيب، وأخته مؤلفة ولها ترجمة «رياض الصالحين»[2]، وأخته الأخرى عالمة وهي أم لِعلماء، كلهم اسمه محمد، عرفت منهم محمداً الرابع الذي كان شابّاً يوم زرت الهند، وكان جزاه الله خيراً يمشي معي يدلّني ويأخذ بيدي ويترجم لي[3]، وعرفت أخاه محمداً الخامس[4]، الذي كان في إذاعة دهلي، وقد دعيت إليها فسجلوا لي أربعة أحاديث، واستقبلوني بالترحيب والإكرام، وودَّعوني بالتحية والسلام، ولكنهم لم يذيعوا شيئاً منها!!.

أما والد أبي الحسن فهو مؤرخ الهند حقيقة، ولقد استفدت من كتابه

---

(١) وأمه سيدة فاضلة، كاتبة شاعرة، صاحبة مؤلفات، صدر لكتابها «حسن معاشرة» في تعليم البنات المسلمات، ثلاث عشرة طبعة، حفظت القرآن، وهي من فضليات النساء صلاحاً وتقوى، ودعاءاً وإنابة إلى الله، وشعرها كله دعاء ومناجاة لله، ومدح للنبي ﷺ.

(٢) اسمها: «زاد سفر» رزقت قبولاً عظيماً، وطبعت مرّات، وقررت في مدارس كثيرة، أذيعت أكثر من مرة من الإذاعة السعودية، ولها ديوان شعر مقبول في الدعاء والابتهال والمدائح النبوية، وأنشأت مجلة «رضوان» للنساء المسلمات.

(٣) وهو الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي عميد كلية اللغة العربية وآدابها في جامعة ندوة العلماء، وأمين رابطة الأدب الإسلامي العالمي العام.

(٤) وهو معروف الآن بالأستاذ محمد واضح رشيد الندوي رئيس تحرير صحيفة «الرائد» العربية.

العظيم «نزهة الخواطر»[1] فوائد كثيرة في تراجم عظماء الهند التي أودعتها كتابي «رجال من التاريخ»، وفي رسالتي عن السيد أحمد بن عرفان العالم المجاهد الصالح المصلح، الذي ذهب شهيداً في المعركة الإسلامية لإعلاء كلمة الله، أصدرت عنه رسالة في سلسلة لي عنوانها: «أعلام التاريخ» ثم كتب عنه الأستاذ أبو الحسن كتابه الجامع بعد سنين، فكفى ووفى ولم يدع لقائل مجالاً لقول.

* * *

يقول العرب:

إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

فإذا اجتمع العلم والأدب مع الحسب والنسب، فتلك الغاية التي لا غاية بعدها، ولولا أن يظن أني صرت شاعراً مدّاحاً عملي الثناء لقلت إن أبا الحسن جمع الأمرين، وكان الشعراء إنما يمدحون ليأخذوا الجوائز والعطايا، وليس عند أبي الحسن ما يعطيني منه جائزة أو عطية، وليس عندي بحمد الله حاجة إليها، فأنا أقول ما أقول صادقاً لا متزلفاً.

* * *

إن أكثرنا يجهل تاريخنا في الهند، وتاريخ الإسلام في الهند يعدل ربع التاريخ العام، ذلك أننا (كما قلت من قبل) حكمنا هذه القارة الهندية نحواً من ألف سنة، وكانت يوماً لنا وحدنا، وكنا نحن سادتها، ولئن كانت لنا في إسبانيا أندلس أضعناها، فإن لنا هنا أندلساً أكبر، ولئن تركنا في الأندلس تلالاً بقايا من شهدائنا، وسواقي من دماء أبطالنا، فلقد خلّفنا في الهند أضعاف ما تركنا في الأندلس، ولئن كان لنا في الأندلس مسجد قرطبة وقصر الحمراء فإن لنا في كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه، وحضارة خيِّرة

(١) والكتاب في ثمانية أجزاء كبار، احتوت على أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة ترجمة لأعيان الهند.

وشيت جنباتها وطرزت حواشيها بالعلم والعدل، والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس، كم أنارت عقولاً، وفتحت للحق قلوباً، ولا تزال تفتح القلوب، وتنير العقول، وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهرَ هذه الأرض.

* * *

وقد قرأت الكتابين اللذين وصلا إليَّ مما ألّفه والد السيد أبي الحسن: كتاب «نزهة الخواطر» الذي جمع فيه من سِيَر أعلام الهند، ومن نشأ فيها، ما لم يجمعه كتاب غيره، فهو يغني في هذا الباب عن كل كتاب، ولا يغني عنه كتاب.

وكتابه الآخر الذي نشره «المجمع العلمي» في دمشق وسماه: «الثقافة الإسلامية في الهند»، والذي أودعه المؤلف ما لا يستطيع مثلي أن يجده في خزانة كاملة، يكب عليها، يطالع ما فيها[1].

لقد تعلمت من هذين الكتابين، ومن زيارة الهند منذ ثلاثين سنة أننا بجهلنا تاريخ الإسلام في الهند إنما نجهل ربع تاريخنا.

* * *

كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سرداً لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء ومجالس العلم، وسجلٌ اجتماعي فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند، وكان مما قرأت عن المكان الذي نشأ فيه أنه بُني على طراز الكعبة بطولها وعرضها، إلّا أنه نقص من ارتفاعها عدة أنامل تأدّباً معها واحتراماً لها، وسقيت قواعده بماء زمزم.

---

(١) ولمؤلف «نزهة الخواطر» و «الثقافة الإسلامية في الهند» كتاب ثالث مهم، وهو «الهند في العهد الإسلامي» في خطط الهند، وآثارها، وتاريخ الحكومات الإسلامية، ونظمها، والأمور الخيرية والمؤسسات التي أنشأها المسلمون في القارة الهندية.

ولم يقل ماذا أرادوا بذلك، ولم يدّع أنه قربة إلى الله، أو أنه عمل مشروع، لذلك لا أقول فيه شيئاً، لا أقره ولا أنكره، وإنما أرويه وأذكره.

وكان هذا البناء مسجداً ورباطاً، ومدرسة ومركز دعوة إلى الله، ودار تدريب على الجهاد، ولم يجعلوا له (كما يقول) قبة ولا منارة.

ووصف النهر الذي يجري تحته، فإذا هو يصف (أو كأنه يصف) نهر بردى، في قلة مائه في الصيف، وأنه إذا هطل المطر وكانت السيول هدر وزمجر، وربما طغى ودمَّر، ويصف فيضانه العظيم سنة ١٩١٥ م وكان عقب ولادة الشيخ، يصفه وصفاً حياً كأنك تراه ذكّرني ببردى لما فاض مثل ذلك الفيضان سنة ١٩١٨ م، فملأت مياهه مدرستنا، وصارت مقاعدنا كالزوارق طافية على وجه الماء، ونحن نتعلق بها، وكان يوماً من أجمل أيام حياتي في الصغر، وكنت في آخر الدراسة الابتدائية، وأنا قد سبقت الشيخ أبا الحسن في رؤية هذه الدنيا، إذ ولدت قبله بست سنين أو سبع، ولكنه سبقني في بلوغ ذرى الفضائل فيها.

* * *

لقد كانت أول معرفتي بأبي الحسن من كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين». لما رأيت هذا الكتاب لم أكن أعرف مؤلفه، فقلت: مَنْ هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي، ويحيط بأحوال المسلمين هذه الإحاطة؟ ثم علمت أنه هندي المولد ولكنه عربي الأرومة، وكثير من العرب الأقحاح الذين عرفوا بألقاب فارسية أو أعجمية، ولو أن أحدكم وضع مخطّط بلاد فارس وقرأ أسماءها لم يجد بلداً إلاّ ومنه علماء وأدباء كثر، ملأت أسماؤهم كتبنا واستقرت في أذهاننا: التبريزي، والشيرازي، والقزويني، والجرجاني، والهمداني، والرازي (نسبة إلى الريّ وهي قرب طهران)، والطبري (نسبة إلى طبرستان أما النسبة إلى طبريا فطبراني)، والشهرستاني، والنيسابوري، والإسفراييني، ومَنْ لست أحصيهم عدداً، وحسبكم بمؤلف «الأغاني» الذي يُدعى الأصفهاني، وهو أموي

مرواني صريح النسب، من خلاصة العرب، ولقد جمعت أسماء هؤلاء لأضعها في كتاب، ثم علمت أن أحد الأدباء قد ألَّف كتاباً في العرب الذين لقّبوا بألقاب العجم، ولم أرَ الكتاب، ولم أعرف مؤلفه، فمن كان عنده علم به فليتفضل وليخبرني.

* * *

وكنت أحسب أن «النَّدْوي» لقب أسرة يجمع بين أفرادها النسب، وكنت أسأل ما قرابة السيد سليمان الندوي الذي كان من أعاظم مَنْ كتب في السيرة، والسيد مسعود الندوي محرّر مجلة «الضياء» إحدى المجلات الإسلامية العربية الواعية، والسيد أبي الحسن؟ ثم علمت أنهم لا يجمع بينهم النسب، وإنما يجمع بينهم العلم والأدب، وهذا المعهد الذي ينتسبون إليه.

* * *

وأنا لا أعرف أهل معهد أو مدرسة لهم تعلُّق بمعهدهم أو مدرستهم كتعلق النَّدْويين بندوتهم، ينتسبون إذا انتسبوا إليها لا إلى آبائهم، ويجتمعون عليها أكثر مما يجتمع أفراد الأسرة على أنسابهم، فكل من دخلها حمل لقب «الندوي» فعرف به، لا بلقب أهله.

لا أعرف مثل ذلك إلاّ للأزهر الذي انتسب إليه من طلبة العلم فيه جماعة، فصاروا يعرفون في بلادهم، ويعرف بنوهم من بعدهم بـ «آل الأزهري».

و «الندوة» مثل الشاب الناشىء في طاعة الله، ما لها قدم الأزهر، ولا لها مثل أمجاده، ولكنها أسست من أول يوم على التقوى، رسم لها الطريق السوي فمشت فيه، لا الطريق انحرف بها عن الغاية، ولا هي قد تنكّبت الطريق، كان طريقاً وسطاً بين «الأزهر» بعدما شاخ وتخلّف شيئاً قليلاً عن الركب، ومعهد «ديوبند» في الهند الذي أقيم على غراره، ومشى يتبعه في

مساره، وبين جامعة «عليكراه»[1] التي أنشأها السَر سيّد أحمد خان، لتساير الزمان، فلم تجمد الندوة جمود ديوبند والأزهر القديم، ولم تَسِلْ وتمع ميعان عليكراه، بل أخذت من طرفي الأمور بأحسنها، وكانت تجربة كتب الله لها النجاح.

* * *

وكان المثل الأكمل لهذه الطريقة هو أبو الحسن، أمسك الخيرين باليدين، فما أضاع القديم ولا أهمل الانتفاع بالجديد، وإذا كان أول ما يؤخذ على أكثر علمائنا ومشايخنا[2] والدعاة إلى الله منا، أن جمهورهم لا يحسن لغة أجنبية، فأبو الحسن يتقن ثلاث لغات إتقاناً كاملاً، الثلاث التي هي أكثر ألسن الأرض ناطقين بها: العربية، والأوردية، والإنجليزية، ويعرف فوقها الفارسية، وإذا كان الشاعر القديم صادقاً حين قال: «فكل لسان في الحقيقة إنسان» فأبو الحسن ثلاثة في واحد، لا أقول إنه كتثليث النصارى، تعالى الله لا إله إلّا هو الرب الواحد، بل أقول إنه جمع الفضل مثلّثاً.

وأنا أقول هذا هنا لأن أخانا أبا الحسن ـ فوق عنايته بالدعوة إلى الله، وأنه ركن من أركانها، وعضو ظاهر من أعضائها ـ يهتم بالأدب الإسلامي، وقد أنشأ له هو وأخونا الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا رحمة الله عليه وآخرون، رابطة تربط أهله، تجمعهم وتشدُّ من أزرهم، وتعينهم في أمرهم.

ولا يزال في الناس من يختلط عليه أمر تعريف الأدب الإسلامي، ويدخل فيه كتابات إسلامية ليست أدباً، وكتابات أدبية ليست موافقة للإسلام، والذي أفهمه أنا بذهني الكليل، وفهمي القليل، أن الأدب الإسلامي هو ما

---

(١) وهي المشهورة الآن بجامعة عليكراه الإسلامية (MUSLIM UNIVERSITY ALIGARH) وهي كبرى جامعات شبه القارة الهندية التي يديرها المسلمون.

(٢) ولا تقل مشائخ لأن الياء فيها أصلية.

كان أدباً مستكملاً شرائطه، جامعاً عناصره، سواء في ذلك القصيدة والقصة والمسرحية والرواية، فالشرط فيها أن تكون بالميزان الأدبي راجحة لا مرجوحة، وأن يكون الأثر الذي تتركه في نفس قارئها إذا انتهى منها، مرغباً له في الإسلام، دافعاً له إلى الاقتراب منه، لا أن تكون بحثاً فقهياً ولا تاريخياً، ولا شرح حديث ولا تفسير آية، فهذا كله ليس أدباً، وإن كان شيئاً أغلى وأعلى وأثمن من الأدب.

* * *

ولقد كنت ممَّن دعا الأستاذ أبا الحسن إلى تأليف كتاب «روائع إقبال» ذلك أننا ما زلنا نسمع بإقبال، وبأن له شعراً، علا فيه حتى وصل إلى طبقة قَلَّ من الشعراء من يصل إليها، أو يحلِّق فيها، ثم نقرأ ما ترجم منه فلا نجد فيه مصداق ما سمعنا، ورأيت أن أقدر من يستطيع أن ينقله إلينا أبو الحسن، لأنه متمكن من اللسانين، أديب في اللغتين: في العربية وفي الأوردية، وصدر الكتاب وإذا هو لم يترجم قصائد إقبال، ولكن لخصها، ولولا أن أغضب أبا الحسن ـ وأنا واثق أن الحق لا يغضبه إن شاء الله ـ لقلت إننا لا نزال في حيرتنا نردد سؤالنا وننتظر من ينقل شعر إقبال إلينا.

* * *

كنت مرة في مقابلة إذاعية في الرائي (التلفزيون) فسألني المحــدِّث، ـ وأحسبه كان الأستاذ ماجد الشبل ـ عن المكان الذي أتمنّى أن أقضي فيه بقية أيامي، قلت: إنْ لم أستطع أن أعود إلى بلدي ـ وبلدي دمشق ـ ولم أقدر أن أبقى بجوار بيت الله هنا في مكة، فإن أحبَّ مكان إليّ هو لكهنؤ، وأن أقيم في معهد ندوة العلماء، فأجمع فيها بين الظل والماء وصحبة العلماء.

ولقد كنت أذكر اسم لكهنؤ مرة أمام جماعة من أهل الفضل فما عرفها منهم أحد، فقلت لهم: إنها مدينة أبي الحسن الندوي، فعرفوها، فكيف تريدون مني أن أعرِّف القراء في هذه المقدمة برجل هو أشهر من بلده، حتى إنها لتعرف به قبل أن يعرف بها؟.

ولم يرغبني في دار الندوة جمال منظرها وحده، ففي الأرض مناظر كثيرة فيها ما ليس في لكهنؤ من ألوان الجمال، بل لأن المُثُل العليا التي يطمح البشر للوصول إليها والدنو منها من قديم الأزمان إلى الآن هي الحق والخير والجمال، والثلاثة فيها، الجمال في موقعها، والخير في أهلها، والحق في الغاية التي تعمل لها وتسعى إليها.

* * *

إن الإسلام للحياة كلها، يصلحها ويسدّد خطاها، والحياة مادة (وشيء وراء المادة) والإسلام للناس جميعاً، والناس مؤلفون من جسم ونفس وروح، والدعوة الصحيحة إلى الإسلام ما كانت تجمع الحسنيين، على أن يكون هذا المزج بين مطالب الروح وحاجات الجسد مزجاً شرعياً، والله جعل كل شيء بقَدَر، فكما تتحد العناصر بِنِسَب معينة فلا تأتلف ذرة الأوكسيجن إلاّ مع ذرتين من الإيدروجـن، كذلك جعل توازناً دقيقاً محكماً بين الروحيات والماديات،ومن الناس من يميل ميزانه إلى إحدى الكفتين. والدعوة الصحيحة هي التي تكون للعقل من غير استغراق في المادية ودعوة للقلب من غير انحراف مع الصوفية وأن نلزم طريق الكتاب والسنة، وفي الكتاب والسنة غناء.

وهذا ما عليه جماعة الندوة، اشتغـال بالعلم مـع تثبيت الإيمان، وإصلاح القلب، وترفُّع عن المعارك السياسية التي لا غاية لها إلاّ الوصول إلى كراسي الحكم، يسلك أصحابها إلى ذلك كل طريق، المستقيم منه والملتوي، ويتخذون كل ذريعة، الطيبة والخبيثة، والإسلام يريد أن تكون الغاية حسنة وأن يكون الطريق إليها مستقيماً آمناً وأن يكون أسلوب الدعوة بعيداً عن أساليب الأحزاب السياسية التي لا تبتغي إلا المناصب والألقاب، عملها التزاحم عليها والتسابق إليها.

ولأبي الحسن والنَّدْويين عناية بالأدب، والدعوة لا تكون إلاّ باللسان والقلم، وقوام اللسان والقلم الأدب، وإذا كان من الأدباء الذين يعرفون اليوم

بالإسلاميين من يكتب ويقول غير ما يعمل، ومنهم من لا يؤدي الفرائض ولا يدع المحرمات، ولا يلتزم بالسلوك الإسلامي، ومنهم من كتب في الإسلام لما رأى سوق الكتب الإسلامية مقصودة وبضاعتها رائجة، فجعل يسوق ما يعجب السوق، فإن أبا الحسن وجماعته ملتزمون بالإسلام قولاً وعملاً، كتابةً وسلوكاً، يعمل ما يعمل ابتغاء رضا الله لا رضا الناس، والرسول عليه الصلاة والسلام كره التكلُّف، وأنا لم أرَ فيمن عرفت من الناس من هو أبعد عن التكلُّف وأقرب إلى البساطة (بالمعنى المتعارف لا بالمعنى اللغوي) من أبي الحسن، فهو في لباسه كما وصف الشاعر إقبال يلبس أيسر لباس، وأرخصه، وأبعده عن الزهو والتعالي، قميص طويل تحته سراويل واسعة، وهو لباس أكثر من عرفت من علماء الهند.

قرأت له أولاً، ثم عرفته واتصل حبلي بحبله في لكهنؤ سنة ١٩٥٤، وفي موسم حج سنة ١٣٨١ هـ، وكان من قبل قدم دمشق أستاذاً زائراً في جامعتها، وما كُتِبَ لي أن ألقاه، لأنني معتزل، بعيد عن مجامع الناس، أمضيت شبابي في ذلك، وامتدَّ معي إلى شيخوختي، فأنا لا أكاد أخرج من داري، ولا ألقى إلَّا نفراً من إخواني ومن أصحابي، فلما عرفت أبا الحسن من قرب، صار أحد الذين اصطفيتهم وأحببتهم واحترمتهم.

والناس عندي أصناف ثلاثة: منهم من أحبه وأحترمه، ومنهم من أحترمه لعلمه وفضله، ولكني قد لا أحبه لغلظته وثقل ظله، ومنهم من أحبه ولكني لا أحترمه، فكان أبو الحسن من النفر القليل الذين أوليتهم حبي واحترامي، والذين أنطلق حين أكون معهم على سجيتي، أظهر ما أخفيه، وما أكتمه عن الناس أبديه، أقول ما يخطر على بالي، أكون معهم آمناً مطمئناً إليهم، واثقاً بهم.

جمعني الحج سنة ١٣٨١ هـ - وأنا مقيم في مكة - بأبي الحسن، وبالشيخ المعمَّر الصالح الشيخ حسنين مخلوف مفتي مصر الأسبق، والشيخ القلقيلي، الذي كان مفتي الأردن، وكان صديقاً عزيزاً، فدعينا إلى القصر الملكي في الأبطح أي في (المعابدة)، فاعتذرت على عادتي، ولكن المُفْتِيَيْن

وأخي وصديقي الأستاذ الصوّاف ألزموني الحضور، وكانت جلسة مباركة، حضر أولها الملك سعود رحمة الله عليه، ثم تولى رياستها المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمة الله عليه، فولّى إدارتها عنه أخانا أبا الحسن، فبدا لي في ذلك المجلس جانب جديد من عبقريته المتعددة الجنبات لم أكن أعرفه من قبل، وهو أسلوبه في الإدارة، وهو أسلوب (زياد) تشبه فيه بالرجل الذي دعاه رسول الله بالعبقري، ولم يدع بذلك غير عمر بن الخطاب، شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وأنا أقول من قديم: إن القوة قد تكون مع اللين أكثر مما تكون مع الخشونة، فالفأس على لينها ونعومتها تقطع الحطبة على خشونتها. وكانت هذه الجلسة نواة «رابطة العالم الإسلامي»، وكان هؤلاء الأعضاء هم المؤسسين الأولين لها، وكنت واحداً منهم، ولكنني لعلمي أنني لا أصلح لها اعتذرت عنها. واجتمعت به في تلك السنة في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة، وخرجت منه أيضاً، وإن بقيتُ فيه وفي الرابطة وفي كل عمل إسلامي جندياً يعاون على كل ما ينفع المسلمين، لكنني لا أربط نفسي بأحد، فأنا أمشي في طريقي لا أبدِّله، فمن وجدته يمشي فيه رافقته وأعنته على ضعفي وعجزي على ما يريد من الخير، وإن انحرف عنه، أو سلك غيره لم أمشِ معه.

عرفت أبا الحسن من قريب في مكة وفي المدينة وفي دمشق، وعرفته قبل ذلك في الهند، فوجدته في الأحوال كلها مستقيماً على الحق، عاملاً لله، متواضعاً زاهداً زهداً حقيقياً، لا زهد المغفَّلين الذين يعيشون وراء أسوار الحياة، لا يدرون ما الدنيا ولا يعرفون ماذا فيها، بل زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها، فقد رأى الشرق والغرب، وزار الحواضر والأمصار، ولقي الكبار والصغار، وعاش صدر حياته في قصر الأمير نور الحسن ابن الأمير السيد صدِّيق حسن خان العالم السلفي والأمير الكبير، أسكنوه فيه بعد موت أبيه، فذاق حياة الترف والنعيم، ولكنه زهد فيها، فزهده ليس زهد الحرمان، ليس زهد الجائع الذي لم يجد الطعام، فوطَّن نفسه على فقده، بل زهد الذي فقد شهوة الأكل والأكل أمامه، يحضر المؤتمرات، ولكنه

يجتنب الفنادق الكبار، التي ينزلون فيها الوفود، وينزل في بيوت تلاميذه، وما أكثر هؤلاء التلاميذ.

وإذا كان من بنى حصناً أو قاد جيشاً عدَّ في العظماء، فأبو الحسن بنى للإسلام من نفوس تلاميذه حصوناً أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمة صغيرة من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين.

* * *

وجدت أبا الحسن قد أكرمه الله فاستكمل مزايا الداعية الإسلامي الذي نطلبه ونفتش عنه، وتحت يدي وأنا أكتب هذه المقدمة محاضرة لي ألقيتها في مكة في موسم حج سنة ١٣٧٣ هـ، وأنا في العادة لا أكتب محاضراتي لذلك تضيع عند الناس، وأسأل الله أن لا تضيع عنده، لكن هذه المحاضرة كتبها إخوان ودونوها، فبقيت لديَّ، كان موضوعها «طرق الدعوة إلى الله»، ركزت ذهني فيها على ما أعرف من طرق الدعاة، من السرهندي[1] الذي دُعي مجدّد الألف الثاني، لأنه عمد إلى صرح الكفر الذي شاده الأمبراطور أكبر في الهند، فجاءه من القواعد بلين وهدوء كهدوء الماء ولينه، إذ يتسرب إلى أساس البناء، حتى إذا تشرَّبه ألانه، ثم جرفه فهدَّه. لقد هوى بناء الكفر، وقام من أحفاده الأمبراطور الذي قبس من نور الشيخ بل من ضياء الإسلام، فسار على هذا الطريق وهو أورنك زيب، فأقام صرح الإيمان. والإيمان معه دائماً العز والنصر، وله الدوام إلى آخر الدهر، ولو قامت في سبيله العقبات واعترضته الموانع فإن النصر له والعاقبة للمتقين، ثم تكلمت عن طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي كان من نتيجتها ومن تحالفه مع الإمام محمد بن سعود أن وحد الله الجزيرة ونقلها من حال إلى حال، فصار تحولها مضرب الأمثال.

ومن كان أسلوبه في الدعوة بثُّ الأفكار، وتنبيه الناس، ومن عمد إلى الصحف والمجلات يدعو فيها إلى الإسلام، وقد وجدت عند أبي الحسن وندوة العلماء النافع من هذه الطرق كلها، فهم يتخذون وسيلة التعليم وهي

---

(١) هو الإمام المصلح الكبير الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ).

أصدق الوسائل التي يتوصل بها الدعاة، وإن كان ثمرها قد يتأخر في الظهور ولكنه مضمون، وما قيمة عشر سنين في تاريخ الأمم التي تمتد أجيالاً وأجيالاً، فأولى ما يقوم به الدعاة إلى الله هو أن يُعْنَوا بالتعليم لإعداد الجنود لمعركة الكفر والإيمان، ولو بعد موعدها، فلقد أضعنا عشرات وعشرات من السنين.

أنا شهدت في حياتي ست عشرات من يوم كنت شاباً وأدركت ما حولي، ضاعت علينا، ولو أننا سلكنا فيها هذا الطريق الواضح لوصلنا، أليس هذا هو طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام؟، ألم تنتقل الدعوة الإسلامية من واحد إلى واحد؟، لقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يشبه المحاضرة مرة واحدة لما جمع الناس عند الصفا، فانبرى له أبو لهب بتلك الكلمة الفاجرة، فلم يَدْعُ الناس بعد إلى مثلها، بل كان إذا دهم المسلمين أمر دعاهم وحدهم إلى الصلاة الجامعة في المسجد.

* * *

فيا أخي أبا الحسن اُثبُت أنت وجماعتك على ما أنتم عليه، فإنني لا أعرف اليوم في أساليب الدعاة من هو أصح منكم أسلوباً، واعذرني إذا لم أكتب المقدمة التي أمرتني بها.

إن المقدمات إنما تكون للتعريف لمؤلف مجهول، وأنت أعرف مني، ومثلك لا يحتاج إلى من يقدمه للناس وأنا أستطيع أن أكتب فيها مثل ما كتبت عنك وعما عرفت منك وعن أخيك الدكتور رحمة الله عليه.

وبعد يا أخي أبا الحسن: لقد امتثلت أمرك، وكتبت، ولكن هذا الذي كتبته كله لا حاجة إليه، ولا محل له من الإعراب، فعمَّ أعرب وأنت مستغنٍ بمعرفة الناس إياك وبما احتواه كتابك، ممن يعرفك؟ فاقبل معذرتي، وأسأل الله أن يشدّ من أزرك وأزري، وأن يوفقك ويوفقني، وأن ينفع الناس بعلمك وفضلك وجهادك، والسلام عليك ورحمة الله.

علي الطنطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنه قد صدرت بقلم المؤلف كتب ورسائل في موضوع العقائد والعبادات وتفسير الآيات القرآنية الكريمة والسيرة النبوية العطرة ـ الموضوع الدقيق الجليل الخطير ـ بما إلى ذلك من موضوع التاريخ والسير والتراجم الذي يتطلب المسؤولية التاريخية الحساسة إلى موضوع الكتابة عن الشخصيات المعاصرة، الحرج الشائك الوعر، إلى مواضيع الأدب والشعر اللطيفة الرقيقة، وموضوعات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية الواسعة المهمة، فقد صدرت عشرات من الكتب بقلم المؤلف في هذه المجالات الفسيحة المتنوعة، ولكنه لم يواجه في بدء أي تأليف جديد هذا الصراع العقلي والتردد النفسي الذي واجهه في بدء هذا المؤلف عن حياته، وقصة ماضيه، وقد مضت أعوام وسنون، والمؤلف يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، يتهيب الخوض في هذا الموضوع، ولا يجرؤ على الكتابة فيه.

وقد كان لذلك أسباب عديدة، منها تلك الكلمة المأثورة الحكيمة (ما هلك امرؤ عرف قدره) التي كنت في ضوئها أستصغر نفسي في مجال التنويه بها وأتضاءل أمام الرجال الذين كتب في سيرتهم وتراجمهم، أو تناولوا تقييد المذكرات لحياتهم، فلم أكن يوماً سياسياً بارزاً، ولا قائداً محنكاً، ولا

صاحب شهرة وجاه عريض، أو تربية وإرشاد، ولا نابغة من نوابغ العلم والفن، لم يكن شيء من ذلك حتى يسوغ لي التأليف عن نفسي.

ثم إنه ليس من الممكن المضيّ في هذا التأليف خطوة أو خطوتين بدون ذكر أحداثي ووقائعي، وقصص رفقتي وزملائي ومعاصريّ - التي لو خلت منها قصة حياة لكانت قصة باردة ميتة مجردة عن الحيوية، بعيدة عن الطبيعة البشرية - ويخشى فيها في كل موضع من المواضيع من الزلات والهفوات، وخداع النفس والغرور بالذات، كما يخاف فيها من الإساءة إلى الأصدقاء والزملاء، وتجريح شعورهم بعدم توفيتهم حقوقهم، أو من المغالاة في تقريظهم، والمبالغة في الثناء عليهم.

ثم إنه لا يتوقع من إنسان حيّ واع، يملك ضميراً حياً، وشعوراً يقظاً، أن يغمض عينه حين الحديث عن قصة حياته عن أحداث البيئة وظروفها وأوضاعها، والحركات والجماعات التي عاشها، والحوادث والوقائع التي احتك بها، لا سيما إذا كان المؤلف له صلة بالدين الحي الخالد والأمة الحية، التي تملك لتكوينها الخاص قدرة غير عادية على التأثير في الأوضاع والظروف، وحساسية زائدة لما يقع حولها، وخاصة إذا كان للمؤلف صلة بجماعة، بلغت «حمايتها» لقيم ومثل خاصة إلى حد «الحمية» وعدم الرضا بأضدادها إلى حدّ الامتعاض والكراهية، ثم يكون قد صادف زمناً يقطع التاريخ فيه مسافة قرون في سنين، ومسافة أعوام وسنين في أسابيع وأيام، وتقع فيه من الحوادث والوقائع ما لا تقلب الخارطة السياسية العالمية ظهر البطن فحسب، بل تغير قوالب الحياة، وملامح الإنسانية وتؤثر بصورة خاصة على حال الأمة ومستقبلها، التي يرتبط بها مصير الكاتب وقلبه وضميره.

في مثل هذا الوضع لا يستطيع أكبر مؤرخ محايد حتى أي قاصّ محترف - يحكي القصص للمتعة والتسلية - أن يجرد القلم عن القلب، والعواطف عن الحوادث، وأحداث العالم عن قصة الحياة الشخصية

وأحداثها، ويحكي قصته في تجرد تام وحياء كامل، فكلما ألحّ عليّ الأصدقاء الأعزاء في الكتابة عن حياتي، أو وجدت اندفاعاً إليها في نفسي، صرفتني مشاكل الطريق وعقباته نظراً إلى الحكمة المأثورة (في السكوت سلامة وفي الكلام ندامة)، ومضت الأعوام والسنون في هذا الصراع، وقد ودعنا في هذه المدة أولئك الأصدقاء الأعزاء، الذين كانوا يطالبون بالكتابة ويلحون عليها ـ بصفة خاصة ـ والذين كان يتيسّر لي الرجوع إليهم في الكشف عن تفاصيل بعض الأحداث والوقائع وجزئياتها، وسنينها[1]، كما انتقل إلى رحمة الله تعالى بعض المحبّين الصادقين الذين كانوا ليتلقوا هذه القصة في شوق ورغبة، ويقرأوها في حب وتذوق.

وصادف أن انتهيت في ديسمبر عام ١٩٨٢ م من ثلاثة أو أربعة أعمال تأليفية، كانت قد استقطبت منذ شهور كل عنايتي واهتمامي، ولم يكن يمكن لي قبل إكمالها أن أتوجه إلى موضوع آخر، وليس أشدّ وأشقّ وأجهد عليّ من بقائي عاطلاً، لا شغل لي من كتابة أو مطالعة، فهو نوع عذاب وعقاب، خطر لي في أثناء هذه الفرصة السانحة التي كانت تبدو مدتها قليلة محدودة جداً، ولم تكن قد تهيّأت لديّ أسباب البدء في عمل تأليفي مهم آخر، أن أشرع في الكتابة حول هذا الموضوع، وظهر أمامي جانبان مهمان من جوانب الخير والنفع فيه:

١ ـ إنه باستعادة ذكريات حياتي وأحداثها، والتأمل في صنع الله تعالى بعبده الضعيف، أتذكر قول الله تعالى، فأرى تفسيره في حياتي، وهو قوله تعالى:

---

(١) في مقدمة هؤلاء ابن أختي العزيز الشيخ محمد الثاني الحسني الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى في ٢١/ ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢/٢/١٦ م، رحمه الله رحمة واسعة، وأغدق عليه شآبيب رضوانه، وقد كان نسابة أسرته ومؤرخها، والمطلع على الوثائق التاريخية، ورافقني في كثير من الرحلات والأحداث.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ، أوَلم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

إن ما شاهدت في حياتي ـ رغم صغر نفسي وضآلتها، ورغم البيئة المحدودة والأوضاع النابية والوسائل القليلة الضئيلة ـ من رحمة الله تعالى، وقدرته المطلقة، وفضله العظيم، وتربيته وكرمه، أكد لديّ تأثير دعاء الوالدين وفوائد تعليم المعلمين المخلصين العطوفين الحريصين على تربية تلاميذهم، واحتضان عباد الله الصالحين، ودعواتهم المجابة أو سرورهم بتحقيق هذا الطالب بعض مطالبهم ورغباتهم، ورأيت بأم عيني نتائج اختيار الغايات الصالحة وأهداف الحياة الصحيحة ـ التي لا تتيسّر إلاّ بتوفيق الله تعالى ـ والتقيّد، رغم الضعف وانحراف الصحة، وقلة الهمة وخمود القريحة، ببعض المقرّرات والمبادىء، ومحاولة الارتباط الدائم والصلة الوثيقة بعباد الله المخلصين الصالحين.

قلت في نفسي: إنه لو مرت بالقراء ضمن قصتي المتواضعة هذه الحقائق الجليلة لكانت زاداً للعبرة والعظة، ودافعاً إلى علو الهمة والطموح، وتعليق الرجاء بالله تعالى وحسن الظن به، وإنه لا يتيسر تلقين هذه الحقائق والعظات والعبر في مقال علميّ رزين أو خطاب ديني جليل كما يتيسر في قصة ساذجة وحكاية مرسلة عن النفس وأحداثها ووقائعها، وإنه يتجلّى في حياة معاصر متواضع، من تجارب الحياة ونتائج الأحداث ما لا يتجلى أو يستخرج ـ أحياناً ـ من تراجم الشخصيات المرموقة العظيمة في التاريخ، وحياة النوابغ من السلف الأقدمين، فلا تنبعث منها عاطفة تقليدهم ومحاكاتهم ودوافع الأخذ بتجاربهم، كما تنبعث من قصة حياة المعاصرين أو صغار السن، إذ لا مجال هنا للاعتذار بتفاوت الأعصار والفوارق بين عهد اليُمن والبركة، وعهد الفتن والشرور.

---

(١) سورة حمٓ السجدة: ٥٣.

٢ ـ السبب الثاني أن هناك كثيراً من المواضيع والأحداث والوقائع والمؤسسات والحركات، والشخصيات والجماعات، وتصوير البيئة والأعراف، ونظام التربية السائد في البيوتات، لا يتيسر الحديث عنها إلاّ في تضاعيف قصة حياتي ومذكرات رحلة عمري، فإننا لو ألقينا الضوء على كل واحد منها بصورة منفردة مستقلة لاحتاج ذلك إلى مجلدات مفردة، زد إلى ذلك المسؤوليات التاريخية والالتزامات التأليفية، التي قد تحول دون تناول كثير من الحقائق ولباب الحديث الذي يسهل إيراده في قصة الحياة الشخصية في غير ما تكلف واهتمام، وهكذا تتحول حياة فرد ـ إذا كان لا يعيش في دنيا الأحلام والرؤى، وقد وهبه الله تعالى شعوراً حياً بالأوضاع والظروف، والبيئة والجو، وصلاحية التأثُّر بها والتجاوب معها، وملكة العرض والكتابة عنها ـ تصويراً صادقاً ناطقاً لعهده، ومذكرة حية له، وقد يعثر فيها المؤرخ والمؤلف على تلك المواد المفيدة الضرورية، التي لا يجدها في كتب التاريخ العرفي التقليدي، وحياة العباقرة الجليلة المليئة بالبطولات.

وكان من الممكن أن يكبح عنان المؤلف الشعور بأنه يقدم على ارتكاب «بدعة تأليفية» وأن الوقت الذي كان ينفقه في التأليف عن حياة المصلحين والمجددين وعباد الله الصالحين، وإبراز مآثرهم وجلائل أعمالهم، بدأ ينفقه في إطراء نفسه والتنويه بشخصه، ويضيع بذلك ساعات العمر، ويهيىء أسباب فضيحته ومعايبه، وإن كانت قد صدرت كتب ذات قيمة أدبية وتاريخية في هذا الموضوع بأقلام الكتاب والأدباء العرب المعروفين، يحتل فيها كتاب مؤلف سلسلة «فجر الإسلام» و «ضحى الإسلام» و «ظهر الإسلام» الدكتور أحمد أمين بعنوان «حياتي»[1]، مكان

---

(١) ويجدر بالذكر في هذا الصدد كتاب «الأيام» للدكتور طه حسين، وكتاب «أنا» للأستاذ عباس محمود العقاد، ومذكرات (١، ٢، ٣) للعلامة محمد كرد علي، الكتب التي قرأها المثقفون في شوق وإعجاب ورغبة، وظهر أخيراً كتاب «ذكريات» للكاتب الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي.

الصدارة والرجحان، الذي لا يتناول أحداث حياته وقصتها فحسب بل يصور مجتمع عصره ومدنيته، ونظام التعليم والتربية فيه وحياة مصر كلها في عهده، ولكن لم يكن يقنع المؤلف ـ الذي عاش في البيئة الدينية الهندية ـ ويبعث فيه الهمّة والعزيمة، وجود هذه الأمثلة، فقد كتبت في هذا النصف من القرن الحالي عشرات من الكتب في قصص الحياة الشخصية في أوربا وفي الهند[1] أيضاً، وصادفتني ثلاثة أمثلة لأفراد الطبقة العلمية الدينية ومشايخي وأساتذتي الموقرين، أحدهم شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني ـ رحمه الله تعالى ـ الذي ألف كتابه «نقش حياة» وكان قد بدأه بقصة حياته، ولكن أنهى هذه القصة للأسف على صفحة ١٣٠، وبدأ يكتب فيما بعد قصة جهاد التحرير الذي كان لشيخه ومرشده شيخ الهند محمود حسن الديو بندي فيه القدح المعلى والدور القيادي العظيم، وانتهى المجلد الثاني أيضاً من الكتاب في تفصيل هذه الحكاية وبيان أسبابها وعواملها وخلفياتها.

وكان المثال الثاني لبركة العصر وريحانة الهند شيخنا شيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي ـ صاحب «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك» ـ الذي ألف حياته في سبعة مجلدات لم تقتصر على حياته فقط بل تناولت عهده وبيئته، والنظام التعليمي الديني في عصره، وخصائصه ومزاياه وقصصاً من حياة خريجي هذا النظام والقائمين عليه، وطبيعتهم ودورهم ومنهجهم.

وكان المثال الثالث للأستاذ الأديب الكبير الشيخ عبد الماجد الدريابادي صاحب «تفسير القرآن» بالأردية والإنكليزية، الذي ألف في حياته كتاباً في أسلوبه الفريد الخاص، فهو يثير العظة والاعتبار ويعلم الأدب والسلوك، وهو تسجيل ناطق مؤثر لعهد طفولته وشبابه وكهولته.

كانت هذه الأمثلة الثلاثة لهذه الشخصيات الكبيرة التي أعترف ـ مع تفاوت مراتبهم ومكانتهم ـ بفضلها وأتشرف بمعاصرتها، حافزة على هذا

---

(١) مثل كتاب «البحث عن الحق» للزعيم غاندي، وكتاب «قصتي» لجواهر لال نهرو، وكتب بأقلام أدباء الهند المسلمين والكتاب المشهورين.

العمل ومدعمة له، ورأيت أن هذا العمل التأليفي لم يعد في وسطنا وطبقتنا «بدعة محدثة» وإن كانت فهي «بدعة حسنة».

وقد كان من الدوافع إلى هذا التأليف أنني سوف أجد عن طريقه فرصة طيبة ضمن بيان عقليتي وتفكيري، وتطوراتهما، وتاريخ الإنشاء والكتابة والتأليف في حياتي، وأهم الأحداث والوقائع، والحركات والدعوات في عهدي، لعرض آرائي وأفكاري، ومشاهداتي وانطباعاتي، ودعوتي ومنهجي بصورة مختصرة، وعرض النقاط الأساسية الرئيسية من كتاباتي ومؤلفاتي، وتقديم مقتطفات مهمة منها، وهي منشورة مبعثرة في كثير من مقالاتي ومحاضراتي ومؤلفاتي، التي بلغت أكثر من خمسة وسبعين مؤلّفاً، ليس من اليسير أن يقف عليها من يريد الاطلاع على آرائي فيها في وقت واحد.

وسوف يجد القراء الكرام في محتويات الكتاب إطناباً وإطالة أحياناً، ولكن الذي أراه أنه لا بد من الاعتراف بالفرق الطبيعي بين كتب التاريخ والتراجم وكتب الحياة الشخصية، إذ أن المؤلف في كتب التاريخ والتراجم يكون ممثلاً عن تلك الشخصيات التي يكتب عنها، ومحامياً لها ومدافعاً عنها، ومتقيداً بكثير من الالتزامات فيها، ويكون هو حراً طليقاً في الكتابة عن حياته نفسه، وممثلاً لذاته، ومتحدثاً عنها، فلا يصح - إذن - أن تقاس محتويات كتب الحياة الشخصية بمقياس الاتزان والتناسب الدقيق، الذي تقاس به محتويات كتب التاريخ والتراجم فالواجب أن يسمح للمؤلف عن نفسه أن يستخدم الإيجاز أو الإطناب والإجمال أو التفصيل، حسب وجهة نظره، وحسب انطباعاته في حياته واعتباره للأهمية والخطورة لشيء دون آخر، وإلاّ فسوف ينعدم الفارق المطلوب بين الكتاب عن النفس والكتاب عن الغير.

وكان من تقدير الله تعالى وتيسيره، أنني وجدت لأسباب طبيّة فرصة الفراغ والاستجمام لمدة محدودة، حيث لم أكن أستطيع لبعدي عن مقرّي

ومكتبتي أن أشتغل بعمل تأليفي كبير أضطر فيه إلى مراجعة الكتب المكررة والرجوع إلى كثير من المصادر والمراجع مرة بعد مرة، فبدأت بهذا العمل الذي كان ملأً للفراغ وتسلية، متوكلاً على الله راجياً منه الخير، قاصداً التذكير لنفسي أولاً بنعم الله التي تستوجب الحمد والشكر دائماً ويجب أن لا تغيب عن البال أبداً والاعتبار بالحوادث، والانتفاع بالدروس وتجارب الحياة بها، ثم إشراك القراء الأعزاء من إخواني وأصدقائي وتلاميذي وأبنائي في استخراج النتائج الصحيحة من الحوادث الماضية والانتفاع بها، والاعتبار من الأخطاء والعثرات فيبتعدون عنها، ومشاهدة آيات الله في الأنفس والآفاق، ونعمه على عباده وخلقه، فيتعرضون لها ويجربونها، ويستجلبونها بالرجاء والدعاء.

والسعيد من وعظ بغيره، والعاقل من انتفع بتجارب الآخرين، فإنها ثروة مشتركة، وحق مشاع، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال:
«الحكمة ضالّة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها».

ويشكر المؤلف العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي أستاذ دار العلوم ندوة العلماء على أنه وفر وقتاً وجهداً للقيام بمهمة نقل الكتاب من اللغة الأردية التي ألّف فيها إلى اللغة العربية الفصيحة على كثرة شواغله وقيامه بمُهمّة التدريس والدعوة، وهو أحد أعضاء الأسرة الذين تعتز بهم، وابن بنت أخ المؤلف الأكبر ومربّيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني رحمه الله، وأهل البيت أدرى بما فيه، وقد تصفحه المؤلف وتناوله بشيء من التهذيب والتنقيح والحذف والزيادة.

والحمد لله أولاً وآخراً.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

٥/ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ
١٥/ ٢/ ١٩٨٦ م

الفصل الأوّل

الأسرة، الوطن، البيئة
آثار وانطباعات عن عهد الطفولة

وفرة المادَّة التاريخية عن الأسرة:

لم يزل دأب المؤرخين والكتّاب والمؤلفين (الذين يولدون في أسرة كريمة، تُعرف بشرف أصلها، وتُنجب في كل عهد من عهود التاريخ أو إلى فترة طويلة من الزمن نوابغ في العلم والفضل وشخصيات كبيرة مرموقة) إطالة النَّفَس في الحديث عن حياة أسرتهم وتاريخها وشرفها ونجابتها، وإبراز مآثر النابغين والنابهين فيها، وتمتزج بتأليفهم للحوادث والوقائع عاطفيتهم وقدرتهم البيانية والإنشائية، ولعل هذا أمر طبيعي ونفسي إلى حدٍّ كبير.

إلّا أن كاتب هذه السطور لا يحتاج إلى إطالة النَّفَس والإفاضة في هذا الموضوع، فقد كفى مؤونة ذلك توفّر المادة التاريخية في ما يتصل بالأسرة الحَسَنية القُطبيّة التي ينتمي إليها، في كتب الأنساب والتاريخ والكتب التي ألفت في حياة أعيانها وعظمائها، نكتفي هنا بنبذة ونُحيل على الكتب

الموسّعة التي أُلّفت في تراجم أعيان هذه الأسرة من المصلحين الكبار والمؤلفين العظام[1].

ينتهي نسب هذه الأسرة إلى محمد ذي النفس الزكية، بن عبدالله المَحْض، بن الحسن (المثنّى)، بن الإمام الحسن السّبط الأكبر، بن أمير المؤمنين؛ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، لذلك اشتهرت الأسرة بالحَسَنية.

وأول من جاء إلى الهند من أجداد هذه الأسرة هو الأمير السيد قطب الدين محمد المدني (٥٨١ هـ - ٦٧٧ هـ). قدم إلى الهند عن طريق بغداد وغَزْنة في فتنة المغول في أوائل القرن السابع الهجري مع جماعة كبيرة من أصحابه، وتولّى مشيخة الإسلام في دهلي مدة من الزمان، ثم خرج مجاهداً في سبيل الله، (ولم تكن الهند قد خضعت للدولة الإسلامية كلياً)، فكان أولو الهمة والرغبة في الجهاد يفتحون البقية الباقية من البلاد، أو ما خرج من الحكم الإسلامي وثار عليه، ويضمونه إلى المملكة الإسلامية، وأبلى فيه بلاءً حسناً، وفتح القلاع ونشر الإسلام، وربّى جماعة كبيرة من أهل الصلاح والعقيدة السليمة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، وكانت وفاته في كَرَه مانك بور (قريباً من مدينة إلّه آباد - المدينة الشهيرة في الولاية الشمالية الهندية: أترابرديش).

وقد بارك الله تعالى في ذرية الأمير قطب الدين، وتقبلها بقبول حسن

---

(١) يرجع إلى ترجمة العلامة السيد عبد الحي الحسني في مقدمة الجزء الأول من كتابه «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في تراجم علماء الهند وأعيانها في ثمانية أجزاء، طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند، وكتاب «إذا هبت ريح الإيمان» في أخبار السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد للمؤلف، طبع مؤسسة الرسالة في بيروت ودار القلم في الكويت، وكتاب «العلامة السيد عبد الحي الحسني» تأليف الدكتور السيد قدرة الله الحُسيني طبع دار الشروق جدة، وكلها بالعربية.

ونفع بها المسلمين، وكثر فيها علماء ومربون[1] ودعاة إلى الله ومجاهدون في سبيل الله، تبنوا الدعوة الإسلامية وقادوا الحركات الدينية في أزمان مختلفة، كان أشهرهم في القرن الحادي عشر الهجري العارف الكبير والمربّي العظيم السيد عَلَم الله بن السيد فُضَيل الحسني (م ١٠٩٦ هـ)[2] مؤسس الأسرة الحسنية ومنشىء المركز الديني التربوي الكبير في «راي بريلي» في آخر القرن الحادي عشر الهجري التي لا تزال موطن هذه الأسرة الرئيسي الأكبر في شبه القارة الهندية، وكثر في ذريته العلماء والمُربُّون الذين دَعَوا إلى العقيدة الصحيحة والتمسك بالسنّة السَّنِيَة، والربانية الصافية، وإعلاء كلمة الله، وإدالة الدين والمسلمين من القوات المحاربة للإسلام والشريعة المطهرة.

كان أشهرهم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) قائد حركة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله الكبرى في تاريخ الهند الإسلامي، ومؤسس الحكومة الشرعية على منهاج الخلافة الراشدة في الحدود الشمالية الغربية للهند، التي قصرت مدتها بسبب عداء الرؤساء المسلمين أصحاب الأنانيات والمصالح الفردية، واستشهاد قائدها وخاصة أصحابه في معركة بالاكوت[3] بأيدي السيخ المهاجمين في ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ هـ (٦/ من مايو ١٨٣١ م)[4] وكان هدفه الرئيسي إجلاء الإنجليز من الهند وتحرير البلاد، وتأسيس حكومة إسلامية شرعية، من الهند إلى الأقطار الإسلامية الحُرَّة في شمال غرب الهند.

ونبغ في الأسرة مؤلفون كبار، ومؤرخون وأدباء خلّفوا بمفردهم مكتبة

---

(١) يُرجع إلى الجزء الأول من «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني، وتقرأ ترجمة الشيخ أحمد بن محمد المدني، الطبعة الثانية ص/١٥٧ ـ ١٥٩، طبع دائرة المعارف العثمانية.

(٢) اقرأ ترجمته الحافلة في المجلد الخامس «لنزهة الخواطر»، ص/٢٨٦ ـ ٢٨٨.

(٣) بالاكوت واد وقرية في مديرية هزارا في غربي باكستان، وكان طريقاً إلى كشمير.

(٤) تقرأ ترجمته الحافلة في «نزهة الخواطر» ج/٧، وفي رسالة مؤلف هذا الكتاب «إذا هَبَّت ريح الإيمان» و«الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف».

تنوء بمجامع علمية كبيرة، أكبرهم السيد فخر الدين بن عبد العلي الحسني (م ١٣٢٦ هـ) مؤلف موسوعة «مهر جهان تاب» الكبيرة بالفارسية، احتوى الجزء الأول منها على ١٣٠٠ صفحة بالقطع الكبير[١]، ومؤلفات كثيرة ودواوين شعرية كبيرة، وولده الشهير في الآفاق العلامة السيد عبد الحي الحسني صاحب «نزهة الخواطر» (١ ـ ٨)، و«الهند في العهد الإسلامي» و«الثقافة الإسلامية في الهند»[٢]، عدا كتب في تاريخ بعض الولايات الهندية التي مثلت دوراً كبيراً في الأمجاد الإسلامية، وحكمها ملوك صالحون، ونهض منها علماء ومحدِّثون كبار، كولاية كُجْرات، فله تاريخ يعدّ نموذجاً في تاريخ الأقاليم والبلاد اسمه «يادأيام» (تاريخ كجرات)، وفي تاريخ الشعر الأردي وشعرائه ككتابه «كُلِ رَعْنا» (الوردةُ الرشيقة) الذي أصبح من المراجع في الموضوع، وقرّر تدريسه في عدة جامعات كبار، هذا علاوة على رسائله في التعليم الديني والإصلاح الخلقي والاجتماعي في أردو، وبعض الكتب في الحديث والفقه[٣]، وكل ذلك يضعه في صف كبار مؤلفي عصره، وقد قام بعمل تأليفي وتحقيقي تنوء به العصبة أولو القوة في العلم والتأليف.

لا تُستثنى أسرةٌ من الأسر البشرية
من قانون الازدهار والسقوط:

ولا بدَّ أن ننبّه هنا على نكتة تاريخية، وهي أنك لا تقرأ تاريخاً أو كتاباً في سيرة أسرة من الأسر العريقة في الدين والعلم والسياسة في الهند، إلاّ وتجدها يصورها المؤرخ بريئة من كل العيوب، سليمة من كل نقص وضعف، أسرة خيالية مثالية من الناحية الدينية والخلقية والروحية والاجتماعية، لا يوجد لها نظير ولا تجد في التاريخ لها من مثيل، ويتخيل القارىء لهذه الكتب أن هذه الأسر لم تزل منذ أول يومها إلى آخر عهدها في

(١) مع الأسف لا يزال الكتاب خطّياً لم يطبع بعد.
(٢) أصدر مجمع اللغة العربية في دمشق طبعتين للكتاب.
(٣) كـ «تهذيب الأخلاق»، ورسالة في الغناء وحكمه في الشرع، وكتاب «القانون في انتفاع المرتهن بالمرهون» كلها بالعربية.

وضع ديني علمي اجتماعي موحّد، ويتخيل أحياناً أنه لم يولد فيها إلاّ وليٌّ من الأولياء الكاملين أو عبقري من العباقرة النابغين، وأفراد غير عاديين، وبالجملة فإن الأسرة كلها سلسلة ذهبية متصلة الحلقات من النبوغ والكمال.

وبالعكس، إن الحقيقة التاريخية تشهد أن الشعوب والملل والقبائل والأسر لا تزال عرضة للصعود والهبوط، والازدهار والسقوط والنبوغ في العلم والفضل، والانحطاط في الخلق والعمل على حد سواء، ولا يخلو دور من أدوارها من أمثلة الحالتين المتضادتين، ونماذج الوجهتين المتعاكستين، فلا تزال طوارق الدهر والأجواء الملائمة والمعاكسة، وتطورات المجتمعات والحكومات، واختلاف المربين والمصلحين في الجهود ومدى نجاحهم فيها، وتفاوت همم أفراد الأسرة في الأخذ بالعزيمة وقوة الإرادة، تعمل عملها في الأجيال الجديدة الصاعدة، فيأتي بتأثير كل ذلك أحياناً دور الازدهار والرقي، ونبوغ الشخصيات الجليلة والرجال والأبطال، فيتباهى بهم الأبناء، ويتسابقون في التنويه بشأنهم وإبراز دورهم ومكانتهم، فيقول الواحد منهم:

أولئك آبائي فجِئْني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

ويطلع أحياناً دور السقوط والهبوط وأزمة الرجال ذوو النباهة والخطر، فلا تجد إلاّ خاملاً مغموراً، وتبحث عن الرجال الأكفاء، فلا ترى لهم عيناً ولا أثراً، وينشد بعض أبناء هذه الأسرة ذوي الشعور المرهف:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم بقي الذين حياتهم لا تنفع

هذه سنة الله في الناس لا تُستثنى منها أمة من الأمم ولا أسرة من الأسر.

يقول القرآن الكريم:

﴿ وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سَعَى، وأنَّ سَعْيَه سوف يُرى ﴾[1].

---

(١) سورة النجم: ٣٩ - ٤٠.

ويقول: ﴿ ليس بأمانِيِّكم ولا أمانِّي أهلِ الكتاب، من يَعْمَلْ سوءً يُجْزَ به ﴾[1].

ويقول: ﴿ انظر كيف فضَّلْنا بعضَهم على بعض ﴾[2].

هذا هو القانون الجاري في سائر البشر، يشمل الملل والشعوب والأفراد والقبائل، يسيطر عليهم وينفذ فيهم، وقد أوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحقيقة بقوله: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[3].

وأسرتنا في ذلك كسائر الأسر، مرَّت بأدوار الرقي والازدهار والسقوط والانحطاط، والأخذ بالرخص والعزائم، ولم يزل هناك تفاوت واختلاف كبير في أجيالها السابقة وأعقابها اللاحقة، وبين أفراد الأسرة في عهد واحد ومكان واحد، ومن المقطوع به أن تكون في مختلف أدوارها قد عراها الضعف في الخلق والدين، وأن لا تكون مصونة ـ كلياً ـ من تأثيرات البيئة والزمن، وقد شاهدتُ بنفسي في العصر الذي بدأتُ أعي فيه وأعقل كثيراً من مواطن الضعف، ورأيت انشغالاً عن الدين وحبّاً للدنيا، وخصومات بين أفراد الأسرة قد تصل إلى حد المرافعات في المحكمة، ومقاطعات وقطع علاقات تستمرُّ أحياناً إلى أعوام وسنين، لا تستثني منها إلّا مناسبة مأتم وعزاء، وشاهدت غفلة عن العلوم الدينية، وشوقاً زائداً ورغبة جامحة في العلوم العصرية، وتركاً لكثير من السنن، ورواجاً لعدد من التقاليد البعيدة عن الإسلام في مناسبات الأعراس والأفراح، ونظاماً إقطاعياً بعلّاته، وتأثيرات التعليم الغربي وسيئاته.

خصائص وميزات متوارثة:

ولكن بالرغم من هذه الوهدات والنتوءات التي هي من خصائص الحياة

---

(١) سورة النساء: ١٢٣.

(٢) سورة الإسراء: ٢١.

(٣) رواه مسلم وأبو داود.

البشرية، ومقتضيات الفطرة الإنسانية، بل هو تاريخ الملل والشعوب والأسر والقبائل أو قدرها اللازب بالرغم من ذلك كلما أمعنّا النظر في تاريخ أسرتنا القديم، وحدّقنا النظر في عهدها الأخير الذي عاصرته، وجدنا عدداً من الأمور المشتركة (Common Factors) لم تزل هي الغالبة في جميع أدوارها وعهودها، ويقتضي منا الإنصاف أن نشير إليها، ومهما تلمست قلبي وعقلي وحاسبتُ نفسي؛ لا أجد في ذكرها وتحديدها من عصبية للأسرة أو اندفاع عاطفي (وهما مما يصعب التحرّر منهما والتخلّي عنهما) والعلم عند الله تعالى، وهي كما يلي:

١ ـ في ضوء ما حفظ من تاريخ الأسرة، وما اطلع عليها من أحوالها وأوضاعها يمكننا القول بأن هذه الأسرة قد حافظت على نسبها إلى حد المبالغة والمغالاة الذي لم تكلِّف الشريعة به، ولم يعتبر شيئاً ضرورياً في كثير من البلدان لا سيما البلدان العربية (التي نزحت منها هـذه الأسر للأشراف وغيرهم من الأسر الكريمة)، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى جوّ الهند وهيكلها الطبقي والاجتماعي، وعاطفة الحفاظ على ميزات الأسرة وخصائصها وتقاليدها الموروثة، وصيانة العِرق والدم في هذه البلاد التي يسكنها الأكثرية غير المسلمة، فشعرت معظم الأسر والقبائل العربية الأصل بهذه الضرورة، ووصفت ذلك بالمغالاة والمبالغة، لأن هذه الأسرة لم تصاهر إلّا في «الأشراف» (ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أولاد الحسن أو الحسين رضي الله عنهما) أو في بعض الأحيان من يسمّون في الهند بـ «الشيوخ» (أي البكريين، والعمريين، والعثمانيين، والعلويين) ممَّن يعرف نسبهم، وإذا صاهر أحد منهم في غير «الأكفاء» فإن الأسرة مع اعتباره من أفرادها ومعاملته بالمساواة والأخوة الدينية، قطعت علاقات المصاهرة معه، وصرحت في الأنساب أنه انحرف عن القاعدة المقررة في الزواج[١]، وتناقل ذلك أفراد الأسرة، وتوارثوا العلم به.

(١) انظر «سيرة السادات» لجدّي السيد فخر الدين بن عبد العلي الحسني.

وقد أفاد ذلك من ناحية الحفاظ على الخصائص والتقاليد السُّلالية إلى حد كبير، ولا سيما بقيت العقائد الصحيحة محفوظة لم تنحرف عن الجادة، ولم تتمكن البدع والأعمال الشركية من التسلّل والتسرّب، ثم بلغت المغالاة في هذا إلى حدٍّ أن ضاقت الدائرة جداً، وانحصرت في حدود ضيقة، فأنتج ذلك تأثيراً سيئاً على الصحة البدنية في الأجيال اللاحقة وملكاتهم العقلية والفكرية، وتوارثت الأسرة بعض العلل والأمراض، ويذكرنا ذلك بوصية مربّي الأمة الكبير سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي أوصى بها إحدى القبائل العربية، فقد شاهد عمر رضي الله عنه أن أفراد تلك القبيلة نحاف قصيرو القامة بصورة متميزة، فسألهم: (ما لكم ضويتم؟) قالوا: (قرب أمهاتنا من آبائنا يا أمير المؤمنين) فقال لهم: (اغربوا أنجبوا)، وهناك من الشواهد والدلائل في كلا الطرفين، ومن التجارب المتعارضة ما لا تدع مجالاً لأن تؤخذ هذه كليَّة مطَّردة في كل عهد من العهود وفي كل فترة من الفترات.

٢ ـ يطلعنا تاريخ الأسرة القديم والمعاصر على حقيقة لها شأنها، وهي أن هذه الأسرة منذ قدومها إلى الهند (وقد تمّ ذلك بورود الأمير الكبير السيد قطب الدين محمد المدني مؤسس هذه الأسرة في الهند في أوائل القرن السابع الهجري كما مرّ) إلى عهدنا هذا، لم تزل متمسكة بعقيدة التوحيد الخالص، بعيدة عن الأعمال الشركية، متجنبة للبدع والمحدَثات، مصونة من تأثير العقائد الشيعية[١]، وكانت الدعوة إلى التوحيد واتِّباع السنة المطهرة شعارها الدائم وميزتها البارزة.

ومن الأدلة على ذلك أنه لا يوجد لأحد من العلماء والصالحين من هذه

---

(١) قد تشيَّع عدد كبير من الأسر الشريفة الارستقراطية التي تنسب نفسها إلى ذرية الرسول، لرغبة في الإقطاعات التي تقطعها الأسرة الشيعية الحاكمة في الولاية الشمالية، أو بتأثير المصاهرة في البيوتات الشيعية الإمامية، وقد حفظ الله الأسرة الحَسَنية القُطبيّة من هذه المساومة، وقد جاء في بعض رسائل الإمام الدهلوي الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي إلى بعض شيوخ هذه الأسرة: (إن وجود الشريف السُنّي في البيوتات الكريمة أصبح من النوادر، وقد امتازت بذلك أسرة السيد علم الله الحسني).

الأسرة الذين كانوا من كبار مشايخ عصرهم وكـانوا يعـدون من الأولياء والصالحين المعروفين قبر مُجَصَّص، ولا توجد على قبر أحدهم قبة ولا عمارة، وإذا وجد هناك قبر مجصّص أو حائط يضم عدة قبور بصورة استثنائية فذلك للحفاظ من الفيضانات، أو من صنع بعض المريدين والمحبين، لا من صنع أفراد الأسرة، ولم يسمع كذلك في تاريخ الأسرة بالاحتفال بمناسبات الميلاد أو الاجتماع على القبور، أو العمل بالطقوس والتقاليد التي راجت في الهند، واتخذها الناس شعاراً على قبور الأولياء والصالحين، أما القبور التي هي في قرية نصير آباد ـ بمديرية رايء بريلي ـ مركز هذه الأسرة الأول، وبدارة الشيخ علم الله ـ على مقربة من مدينة رايء بريلي ـ المركز الثاني، فهي تشبه قبور جنة البقيع في المدينة المنورة، وجنة المَعْلاة في مكة المكرمة في عهد المملكة السعودية، فهي قبور طينية عادية لا كتابة عليها ولا لوحة ولا شيء من المعالم، ولا تزال الأسرة ـ حفظها الله وحماها من الشرور والفتن ـ في حدود علمي ـ رغم ما تكون فيها من عِلّات ومواطن ضعف ـ بعيدة عن الإشراك والبدع والمحدَثات إلى هذا اليوم، والغيب عند الله، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً.

٣ ـ يستفاد من كتب التراجم والأنساب، وكتب التاريخ المستفيضة لهذه الأسرة أن خصيصتها المميزة التي ما زالت في مختلف أدوارها وعهودها، هي خصيصة الرجولة والحمية الدينية وعاطفة الجهاد التي يمكن أن تعبِّر عنها بالجملة كلمة «الفتوّة».

وقد كان من نتيجة ذلك أن ظهر في هذه الأسرة مرات على مدار التاريخ قادة كبار، ورجال أبطال من أولي العزم الأكيد والهمة العالية، قاموا في عهودهم بالجدّ والجهاد، وخاضوا معارك حربية، وسعدوا بنعمة الشهادة، فقد شارك ثلاثة من أبناء الشيخ علم الله في الجهاد، واستشهد اثنان من أحفاده السيد عظيم الدين بن السيد آية الله، والسيد محمد جامع بن السيد محمد حسن بن السيد آية الله، وأحد أبناء أخيه وخَتَنه السيد عبد الرحيم بن

السيد هداية الله في معركة الجهاد[١].

وقد كان الشيخ أبو سعيد ابن حفيد الشيخ علم الله وأحد خاصة أصحاب الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ومن خلفائه الأجلاء كثيرَ التقدير كبير الاهتمام بازدهار الإسلام وعلو نجمه في هذه البلاد وبقائه واستحكامه فيها، ويبذل جهوده ومساعيه وحيويته ونشاطه لكل ما يقوِّي الإسلام في هذه البلاد، ويوحّد صفوف المسلمين، ويظهر شوكة الإسلام، وتفيد إحدى رسائل الشيخ السيد محمد نعمان أنه خاطر بنفسه مرة ودخل لَظَى الحرب ليصلح بين فئتين متقاتلتين من المسلمين، وقد كفَّ الله به شر الحرب ونجت الفئتان من مزيد من الاشتباك والنضال، وقد أبدى الإمام الدهلوي على هذا الحادث سروره واغتباطه، يقول السيد نعمان في رسالة إلى الشيخ أبي سعيد كتبها بعد وفاة الإمام الدهلوي:

(نحمد الله تعالى على ما رأينا من سرور الإمام بك، ورضاه عنك، واهتمامه البالغ بشأنك، بحيث لا نقدر على وصفه بالكلمات، فقد تحدّث عن غارة الأبداليين، ووصولك في حال اندلاع الفتنة وانطفاء شعلة الحرب والنهب والسلب بك)[٢].

وتفيد القصص التي تناقلها أفراد الأسرة والكتب التي ألفت في حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد: أن السلطان تِيْبو الشهيد[٣] الذي كان يصدق

---

(١) انظر «تذكرة الأبرار» و«سيرة السادات» (هما بالفارسية) و«سيرة السيد أحمد الشهيد» (بالأردية) ج/١، ص/٩٣ - ٩٤.

(٢) انظر مجموع «مآثر الأبرار» (مخطوطة).

(٣) هو الأمير فتح علي المشهور بتيبو سلطان ابن الأمير حيدر علي حاكم ميسور، خلف أباه سنة ١١٩٦ هـ، كان مقداماً باسلاً، شجاعاً، عالي الهمة، بعيد النظر، ألمعيّاً، شعر بخطر الأخطبوط الإنجليزي في القارة الهندية، ومراميه البعيدة، وتصدّى للتخلص من نفوذه وتأمين البلاد التي حكمها المسلمون ثمانية قرون، فلفت نظر الأمراء والقوات الوطنية إلى التركيز على محاربته، والقضاء عليه، وراسل الخليفة العثماني ونابليون ـ فضلاً عن أصحاب الإمارات وقادة الجيوش في الهند ـ وكذلك كان الإنكليز يرون فيه العدو اللدود والخطر الأكبر لهم، فركبوا إليه بعساكرهم سنة ١٧٨٣ م - ١١٩٨ هـ، فهزمهم السلطان، وأكثر فيهم القتل =

عليه قول العلامة الدكتور محمد إقبال: (إنه السهم الأخير في كنانة مسلمي الهند) والذي كان آية في غَيْرة المسلم وفراسة المؤمن وحمية المجاهد الإيمانية، والذي آثر أن يعيش كالأسد لحظة على أن يعيش كابن آوى قرناً كاملاً[1]، وبيَّض وجهه بسعادته بالشهادة في معركة «سرنغابتن» الحاسمة ضد الإنكليز، وبيَّض وجوه المسلمين وحَمَى عِزَّهم ومجدهم، كان هذا السلطان الشهيد وأسرته كلها على اتصال بالشيخ أبي سعيد، وابنه الجليل الشيخ أبي الليث ـ الذي كان خال الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ اتصال بيعة واسترشاد وسلوك.

وقد بقيت هذه العاطفة الجهادية في هذه الأسرة متجلّية واضحة إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجري، ولا عجب إذا كان لها دور يذكر في تنشئة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد تنشئة عقلية وفكرية خاصة، وتكوين سيرته وحياته على النحو الذي عاشها، ولقد كان من نتائجها أن اشترك أفراد هذه الأسرة وذوو قربى الإمام الشهيد في حركته الجِهادية بشوق ورغبة

= والأسر، وقامت معارك عديدة، كانت الحرب فيها سجالاً، حتى زحف إليه الإنكليز أخيراً سنة ١٧٩٨ م ـ ١٢١٣ هـ، وقاتلوه قتالاً شديداً، وضايقوه غاية المضايقة حتى قتل السلطان في قلعة سرنغابتن (على مسافة بضعة أميال من مدينة ميسور في ولاية كرناتكا جنوب الهند) سنة ١٢١٤ هـ ـ ١٧٩٩ م، وانقرضت دولته، وكتب على ضريحه بحق ذهب (عزّ الهند والروم كلها) (تستخرج من الجملة سنة ١٢١٤ هـ) ولما علم القائد الإنجليزي Hoarse شهادة السلطان، ذهب إلى جثة البطل العظيم ووقف أمامه وقال: «اليوم أصبحت الهند ملكاً لنا»، والتاريخ يصدق ذلك.

وكان السلطان الشهيد سليم العقيدة، مستقيم السيرة، صاحب غَيْرة دينية وحمية إسلامية، له ميل إلى معالي الأمور ومعرفة للأدب، وصحبة أهل الفضائل، حصلت له ألقاب السلطة من سلطان تركيا، وأخلاقه وأخباره تدل على أنه كان لا بدّ على اتصال بمركز تربوي توجيهي سنّي، ولا غرابة في أن يكون هذا المركز أسرة السيد علم الله الحسني في راي‌ء بريلي، وقد بلغت المؤلف أخبار المراسلات والاتصالات بين أمراء هذه الأسرة الحاكمة في الجنوب وشيوخ هذه الأسرة الداعية إلى الله في الشمال من ثقات هذه الأسرة وشيوخها.

(١) كلمته المأثورة التي ردّدها المؤرخون واستشهد بها مرة الزعيم غاندي إعجاباً وتقديراً.

وحماس، فكان في رفقة السيد في سفره للجهاد ثلاثة من أبناء أخته، وهم السيد حميد الدين، والسيد أحمد علي، والسيد عبد الرحمن، وأحد أسباطه السيد حسن مثنى بن السيد أحمد علي، وعدد من أفراد أسرته نخصّ منهم بالذكر السيد أبو محمد، والسيد أبو الحسن النصير آبادي، وقد لقي منهم السيد أحمد علي وابنه اليافع الناهض السيد حسن مثنى، واثنان من أقربائه الآخرين السيد أبو محمد، والسيد أبو الحسن الشهادة ببطولة نادرة وشجاعة باهرة.

وقد كانت الأسرة بجملتها تؤيد هذه الحركة وتواليها، وقام حي «القافلة»[١] في مدينة «تونك» على أساس هذه العلاقة الحركية والعاطفة الجهادية، ولم تزل شرارة هذه العواطف مشتعلة تحت الرماد، وقد كانت هذه العاطفة والحمية الدينية التي حملت أحد أبناء السيد أحمد علي ابن أخت الإمام الشهيد السيد أبي القاسم الطونكي، أن يسجل فتوح مصر وبهنسه في منظومة كبيرة باسم «قمقام الإسلام» كما دفعت حفيد السيد حميد الدين ابن أخت السيد أحمد الثاني وهو السيد عبد الرزاق «كلامي»[٢]، ابن السيد محمد سعيد، ابن السيد حميد الدين، أن ينظم ملحمة مؤثرة مثيرة لفتوح الشام باسم «صمصام الإسلام» الذي يحتوي على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيت.

وكانت عواطف هذه الأسرة وميولها في الفتنة الهائلة عام ١٨٥٧ م مع أولئك المواطنين الذين كانوا على حرب ضد الإنكليز، وأدّى ذلك إلى أن لجأ أحد أفراد الأسرة من أعيانها ووجهائها وهو جدّي السيد فخر الدين إلى الاختفاء والتستّر في بعض القرى لمدة طويلة، وقد آثر أفراد الأسرة في تلك الفترة أن يتوظّفوا في الولايات الهندوسية ببُنْدَيل كَهنْد مثل «ناكهر» و «ريوان»،

---

(١) سميت الحارة بالقافلة، لأن فلّ المجاهدين تحت راية السيد في الحدود الشمالية الغربية، الذي عاد إلى الهند على دعوة حاكم إمارة تونك الأمير وزير الدولة تديّر هناك وألقى رحله.

(٢) لقب شعري على عادة شعراء إيران والهند.

أو الولايات الإسلامية كحيدر آباد، وبهوفال، وطونك، على أن يتوظفوا في الحكومة الإنكليزية ويتعاونوا معهم.

٤ ـ ليس من الخطأ إذا استنتجنا من دراسة حياة معظم أفراد الأسرة، والأحداث المتكررة والتجارب الكثيرة أن أفراد هذه الأسرة على الأغلب وبصفة عامة لا يتصفون ـ بصفة عامة وغالبة ـ بما يصح أن يسمى «بالشطارة»، وهو الدهاء البالغ الذي يسوِّل للنفس قضاء المآرب الشخصية والوصول إلى النتيجة بالذكاء والحيل، ولو كان على حساب الأبرياء وأهل الحقوق، بل يتّسمون ـ من دون بلادة وغباوة ـ بنوع من السذاجة والوداعة، وهم أقدر في عامة الأحوال على أن يكونوا مظلومين من أن يكونوا ظالمين، ويفضِّلون أن يتنازلوا عن بعض حقوقهم ويتحملوا الخسارة على أن يجنوا على غيرهم ويكبدوهم الخسائر، ولا يعني ذلك كلية معدومة الاستثناءات، بل لا بد أن تكون هناك استثناءات، وكما أن قوله تعالى: ﴿وما أبرّىء نفسي، إنَّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾ ينطبق على فرد من الأفراد، كذلك من الطبيعي والمعقول أن ينطبق على الأسر والجماعات، من المعقول والجائز أن تكون هناك تعدّيات وأخطاء صدرت من أفراد هذه الأسرة في مختلف أدوارها، فليس ذلك من المستحيل ولا البعيد، ولكنه لا يعارض تحديد هذه الطبيعة العامة الغالبة والخلق المتوارث الغالب في الأسرة، الذي أشرنا إليه، فإنه أكثري وأغلبي لا كلّي جامع شامل.

٥ ـ يقدّر من دراسة تاريخ الأسرة وكتب التراجم والأنساب المعتمدة عليها أن هذه الأسرة ظلَّت على اتصال متين بأي وجه من الوجوه بـ «الشريعة والطريقة» كما يقولون، أي بالناحيتين العلمية المحضة والروحية والسلوكية، فإذا كان يظهر فيها العلماء الراسخون في جانب، يظهر المشايخ الروحيون في جانب آخر، ومنهم من وصلت سلسلته إلى الأصقاع النائية البعيدة، وتعلَّق بها كبار المشايخ الربانيين والشيوخ المربين، كما أن أفراد هذه الأسرة (الذين كانوا يظمأون إلى تزكية النفس والتكميل الروحي) لم يتردَّدُوا لحظة

في الرجوع إلى مشايخ عصرهم من أصحاب الفضل والكمال والعقيدة السنّية الصحيحة والدعاة إلى الالتزام بالسنة، فاستفادوا منهم وتربّوا على أيديهم وجمعوا بين تحصيل العلم وتزكية الروح، ولم يمنعهم من ذلك ـ أبداً ـ الإدلال بالنسب أو الشعور بالكبرياء أو الحياء، ولم يبالوا في سبيل ذلك ببُعد الشُقّة وطول العناء والمسافات الشاسعة، ولذلك فإن جميع أفراد الأسرة بعد دور الإمام السرهندي التجديدي والإصلاحي في الهند[1] اتصلوا بخليفته الجليل السيد آدم بن إسماعيل البِنّوري (١٠٥٣ هـ)، كما أنهم لم يزالوا على اتّصال بأبناء المجدّد السرهندي وأحفاده للاستفادة منهم والرجوع إليهم، ثم اتصلت الأسرة في عهد الإمام وليِّ الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) وابنه الجليل الأكبر الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وأصبحت من حملة أفكاره وآرائه ودعوته وإصلاحه، وجنّدت نفسها في سبيل ذلك.

٦ ـ ويفيد تقصّي أحوال هذه الأسرة ودراسة حياة أفرادها أيضاً أنها لم تكن في أي فترة من فترات التاريخ ذات ثروات طائلة وأموال سائلة، بل قضت أكثر حياتها في التقشف والضنك والمكابدة، وأكثر ما تيسر لآحادهم هو قدر الكفاف لا ينقص ولا يزيد، ولعله من ثمرات الدعاء النبوي الكريم الذي دعا به ﷺ لآله قائلاً: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[2].

هذه هي بعض الخصائص والميزات المشتركة بين أفراد الأسرة التي حاولنا تحديدها بطريقة الاستقراء، والتتبع للأمثلة، ولا يمكن الادّعاء في تحديدها وتعيينها بالحياد التام، والتحرر المطلق مائة في المائة من الحب الكامن في اللاوعي، أو التفكر الناشىء الممزوج بالرغبة والاتجاه النفسي، فكثيراً ما تخلق الرغبة والرضا صوراً وأشكالاً لا وجود لها، ورضي الله عن الإمام الشافعي إذ يقول:

وعَيْنُ الرضا عن كـلِّ عَيْب كليلةٌ   كما أنَّ عَيْنَ السُّخْط تُبدي المساويا

---

(١) يُقرأ كتاب المؤلف «الإمام السرهندي» طبع دار القلم الكويتية.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق.

الأخوال والأعمام والصلات القريبة بينهم:

لا أريد هنا أن أتعرض لحياة جدّي السيد فخر الدين الحسني، ولا لحياة جدّي من أمي السيد ضياء النبي الحسني، ولا أرى لذلك من حاجة، فقد جاء الحديث عن حياتهما ومكانتهما بتفصيل في كتابي «حياة عبد الحي»[1]، وفي «نزهة الخواطر» المجلد السادس لسيدي الوالد السيد عبد الحي الحسني، ولا حاجة أيضاً إلى ذكر والدي الكريم والوالدة الكريمة السيدة خير النساء[2]، وليس من السهل اليسير جمع البحر في وعاء صغير، كما يقول المثل الأردي.

إلا أنني لا بدَّ أن أذكر كيف تمّ هذا الاتصال القريب بين الأعمام والأخوال، أو بين أسرة الوالد وأسرة الوالدة (وهما فرعان منفصلان من أسرتنا)، وكيف بارك الله تعالى في هذه الصلة وكثر خيرها، سأنقل في ذلك مقتبسات من كتابي: «ذكر خير» فإنها تضم دروساً للعبرة وزاداً كافياً للموعظة الطيبة:

(بقدر ما كان في بيت جدّي لأمي في أسرتنا هذه من الرخاء والرفاهية، ورغد العيش والوجاهة في الناس، بقدر ذلك كان بيت جدي لأبي يفقد كل متاع من هذا القبيل، فلا أراضي واسعة، ولا إقطاع منذ زمن طويل، فقد كان هذا الفرعُ يغلب عليه العلم الديني، وتتصل سلسلة العلماء فيها من الأجداد

---

(١) طبعة ندوة المصنفين بدلهي، وراجع أيضاً كتاب «حياة العلامة عبد الحي الحسني» بقلم الدكتور قدرة الله الحسيني، مع تقديم لكاتب هذه السطور، طبع دار الشروق بجدّة.

(٢) كانت رحمها الله تعالى من السيدات الفاضلات، المُربيّات النادرات، والمؤلفات المعدودات، والشاعرات المطبوعات، تحفظ القرآن، وتكتب وتؤلف وتقول الشعر، وكان من أعظم ما أكرمها الله به حسن الصلاة والغرام بالدعاء والابتهال، والوصول إلى معانٍ عجيبة فيه، والإيمان القوي بوعود الله تعالى وأخباره، وإيثار الدين على الدنيا في ما يتصل بأولادها وبمستقبلهم، وحسن التربية، ونشرت لها عدة كتب ومجموعتان للشعر، وكله مناجاة لله تعالى، ودعاؤه ومدائح للنبي ﷺ، تلقيت بالقبول، وقد صدرت لكتابها في حسن العشرة وآداب الاجتماع أكثر من ١٣ طبعة، توفيت إلى رحمة الله تعالى لست خَلَون من جمادى الآخرة ١٣٨٨ هـ (٣٠ / أغسطس ١٩٦٨ م)، وللمؤلف كتاب في سيرتها في أردو اسمه «ذكر خير».

الأقدمين، فكان بيتنا لأجل ذلك معروفاً ببيت العلماء أو «المطوّعين» (في لغة أهل نجد والخليج)، فكانت الكتب والتراث العلمي بدلاً عن الأراضي والإقطاعات، ينتقل في هذا الفرع جيلاً بعد جيل، فهو إقطاعه وأملاكه وثروته وتراثه، وكانت العيشة في البيت لا سيما في العهد الذي أؤرّخه، عيشة جهد وضنك، وقد كان جديّ طبيباً حاذقاً، وفاضلاً كبيراً، ومؤلفاً جليلاً، إلّا أنه كان كبيراً غني النفس، كبير الاعتداد بالذات، لم يلتفتْ أبداً إلى كسب المعاش كل الالتفات، فلم يكن غريباً أن يمر بعض الأيام ولا يوقد في بيتنا نار، أو تمضي بعض الغدوات والعشيات بدون غداء أو عشاء.

أما والدي فكان ـ أولاً ـ موظفاً في إدارة الأمانة العامة لندوة العلماء، وكان يتقاضى ثلاثين أو أربعين روبية شهرياً، ثم تخلّى عن هذا المرتب، فلما خطب جدي لابنه في هذه الحالة إلى الشيخ السيد ضياء النبي ابنته السيدة خير النساء ـ وكان هذا زواجاً ثانياً[1] ـ ترددت جدتي لأمي في قبول هذه الخطبة مليّاً، والنساء في هذه الشؤون أكثر حساسية وأبعد نظراً، وقد كان بيتنا ملاصقاً لبيتها، فلم يكن يخفي عليها حال البيت، وقد سبق أن خطب ابنته هذه أحد أبناء عمه الذي كان من الإقطاعيّين الكبار وأصحاب الأملاك الواسعة في هذه المديرية، فلم يكن من المعقول لديها أن تؤثر هذه الخطبة من بيت فقير، وإن كان هو كفواً تماماً في النسب والعرف، على تلك الخطبة، وليس من اللائق والمقبول أن يورط ابنته ـ على علم وبصيرة ـ في ضِنك ومشقة، ولكن جدي لأمي المربِّي الكبير السيد ضياء النبي الحسني[2]، كان يحب والدي حباً شديداً، وكان الوالد تتلمذ عليه، واستفاد منه شيئاً كثيراً في التربية والتسليك، ولم يكن ليخفَى على الجدّ علمه وفضله ونبوغه، فما أن سمع بالخطبة حتى تهلّل وجهه، وانطلقت أساريره، وكأنه

---

(١) كان الزواج الأول بابنة خاله السيدة زينب بنت السيد عبد العزيز الحسيني الهنسوي، وقد توفيت رحمها الله سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م)، وخلّفت ولداً هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني أخو المؤلف ومربّيه، وخليفة أبيه، وسيتكرّر ذكره مراراً وتكراراً.

(٢) اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء الثامن من «نزهة الخواطر».

وجد بغيته، فصارح جدتي بأن السيّد[1] شابٌ صالح، عالم ناهض، لا أوثر عليه غيره، وليست عندي أية أهمية للفقر والمال، والضيق والرخاء، إنما المهم العلم والصلاح.

في أثناء هذا الصراع النفسي والتردد والترقب الذي وقعت فيه جدتي رأت أمي ـ ولها دائمة مناسبة خاصة بالرؤى الصالحة ـ رؤيا كانت فيها إشارة إلى بيت والدي، وأنه إذا اتصل هذان البيتان، والتقت هاتان الأسرتان كان ذلك مصدر خير كثير وبركة عظيمة، ورأت في أثناء هذه الأيام رؤيا مبشِّرة سارة جداً، كانت تتسلّى بها دائماً طول حياتها، وكلما ذكرتها ظهر أثرها في وجهها وصوتها، تقول:

(رأيت ليلة من الليالي أنه حصلت لي بعناية الملك الكريم، الرحمن الرحيم، ولطفه العميم آية، لم أزل أرددها إلى الصباح، إلاّ أن الخوف منعني من التصريح بها، وقرأتها، لأني ما كنت أعرف معناها، فلما راجعت معنى الآية، امتلأت بهجة وسروراً، ونسيت كل الهموم والآلام، وأحسست بالفخر والاعتزاز على هذه السعادة، وذكرت هذه الرؤيا فغبطني عليها كل من سمعها، حتى بكى والدي من شدة الفرح بسماعها، وها هي ذي الآية الكريمة:

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءاً بما كانوا يعملون ﴾[2].

وأخيراً غلبت عزيمة جدي لأمي، وتحتَّمت إرادته، وتمت هذه العلاقة الزوجية عام ١٣٢٢ هـ، الموافق ١٩٠٤ م في خير وسلام، وكان جدّي الذي كان هو الباعث الحقيقي على ذلك[3] مبتهجاً مسروراً، على غاية من الرضا والطمأنينة بهذا الاختيار.

---

(١) كان الاسم الشائع له في الأسرة.

(٢) سورة السجدة: ١٧، «الدعاء والقدر» ص/٢٣.

(٣) وقد كان في ذلك دخل لأمر آخر، وهو أن جدَّيَّ السيد فخر الدين والشيخ ضياء النبي ـ عدا =

صورة من بيتي قبل ولادتي:

فلما جاءت الوالدة إلى هذا البيت الجديد وجدته صورة صادقة، لما كانت تسمع عنه، عسر وضيق، بسط حيناً وقبض حيناً آخر، شبع تارة ومسغبة أخرى، وفي البيت عدة أفراد، ودخل الجد قليل. هذا وكانت الجدة لأمي دائمة التجسس ـ لشدة شفقتها وعطفها ـ كيف تعيش بنتها في بيتها الجديد؟ هل هي في راحة أو ضيق ومشقة، وكانت تبعث بالخادمة أحياناً لترى هل يطبخ في البيت شيء، وقد حكت لنا الوالدة مراراً أنها كانت إذا رأت أحداً قادماً من بيتها تضع القدر على الموقد، وتشعل النار، حتى يظن أن الطعام يطبخ، مع أنه ليس في القدر إلاّ الماء، وكانت الجدة أحياناً تتفطن بفراستها إلى الحاجة، فتبعث بالمائدة تأتي بها الخادمة.

وبعد قليل من الزمن أراد الوالد أن يفتح العيادة الطبّية، كانت الوالدة تقول إنه استشارني في ذلك، فأيدته كل التأييد، وفتحت العيادة، وما أن بدأ العمل في العيادة حتى زالت المحنة وبدأ الدخل يرد البيت، ولم نلبث طويلاً حتى كان من البركة والرخاء أن تغير وضع البيت والجو الذي يسود عليه، وعلت همة الوالدة ونشاطها ببناء البيت الذي كان أكثره طينياً غير مجصص.

وفي هذا البيت ولدت أختي الكبرى[1] السيدة أمَة العزيز عام ١٣٢٤ هـ الموافق يونيو عام ١٩٠٦ م، والدة الأعزة الفضلاء النجباء: السيد محمود حسن، والسيد محمد الثاني ـ رحمهما الله تعالى ـ، والسيد محمد الرابع، والسيد محمد الواضح (واضح رشيد الندوي) ـ حفظهما الله تعالى ـ، ثم أختي الكبيرة الثانية السيدة أمَة الله عائشة عام ١٣٢٥ هـ الموافق

= كونهما قريبين ـ كانا تلميذين مسترشدين للسيد الشيخ خواجه أحمد النصير آبادي، تربيا على يديه وتخرجا عليه، وأجيزا منه بالإرشاد والتسليك، ولأجل ذلك كانت بينهما صلة خاصة ومناسبة روحية.

(١) أما أخي الأكبر السيد عبد العلي الحسني رئيس ندوة العلماء سابقاً الذي تولّى تربيتي وتثقيفي بعد وفاة والدي، فكان في الحادية عشرة من عمره، وفي حضانة أمي التي أصبحت له أماً ثانية بعطفها ورعايتها.

عام ١٩٠٧ م مؤلفة «زاد سفر» ترجمة «رياض الصالحين» بالأردية، و «قصص الأنبياء للأطفال» وكتاب في السيرة للأطفال، وغير ذلك من المؤلفات، ثم كانت ولادتي في ٦/ محرم الحرام عام ١٣٣٣ هـ الموافق عام ١٩١٤ م.

دارة الشيخ علم الله أو تكيّة كَلَان:

قبل أن أذكر حـال طفولتي، والبيئة التي تسود حينذاك، وآثار التربية والذكريات الأولى، أحب أن أعطي صورة لهذه المعمورة القروية الصغيرة التي أسسها عام ١٠٥٠ هـ الشيخ الجليل العالم الرباني السيد علم الله النقشبندي خليفة الشيخ الجليل السيد آدم البنوري، بتلك النية والعاطفة الصادقة التي ورثها عن جدها الأول ومؤسس الملّة الإسلامية سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهو ذلك القصد النبيل العظيم الذي تجلّى في هذه الألفاظ الطيبة: ﴿ ربنا ليقيموا الصلوٰة ﴾ لقد أنجبت هذه المعمورة الصغيرة في عهودها المختلفة كبار العلماء الصالحين والعارفين الربانيين، والمجاهدين والمصلحين، الذين يتجلّى من بينهم اسم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد[١] وعمله التجديدي العظيم ألمع وأسطع، وأقوى تأثيراً وإنتاجاً.

فأنت عندما تتقدم من مدينة رايء بريلي[٢] نحو الشرق والشمال تتراءى لك على بعد ميل، أو ميل ونصف، معمورة صغيرة تضم عدة بيوت لأعضاء أسرة واحدة وهي الأسرة الحسنية القطبية، على شاطىء نهر «سئي»، ولا يصل هذه القرية الصغيرة بالمدينة إلاّ طريق صنعته أقدام السابلة، يمر من بين المزارع والحقول، وهو طريق طيني، يصعب المرور عليه أيام المطر.

لقد كان في هذه القرية الصغيرة في صباي ثمانية بيوت فحسب، ويقوم أمام هذه البيوت في غرب الجنوب منها ذلك المسجد التاريخي المبارك الذي

---

(١) انظر للاطّلاع على حياته وفضله وعظيم مكانته كتاب «السيد أحمد الشهيد» للمؤلف الفاضل غلام رسول مهر اللاهوري المجلد الأول، وكتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» لكاتب هذه السطور، وكتاب «تذكرة الشيخ علم الله» بقلم العزيز المرحوم محمد الحسني.

(٢) تبعد من لكهنؤ ثمانين (٨٠) كيلومترات.

بدأ بناؤه المجصص عام ١٠٨٣ هـ على يد الشيخ الجليل علم الله النقشبندي، وقد سقيت قواعده بماء زمزم، وبنى على طراز الكعبة المشرفة بطولها وعرضها تقريباً، وبدون قبة ومنارة، ونقص من ارتفاع الكعبة المشرفة عدد أنامل تأدباً معها واحتراماً لها، وقد كان هذا المسجد مدرسة ورباطاً، ومعسكراً تربوياً للجهاد في عهد الإمام الشهيد، ومقراً لجماعة المجاهدين حيث لا يسعهم إلاّ هذا المسجد، وتقع بجانبه الشرقي مقابر ليست عليها أي معالم أولوحات، أو ما يميز قبر أحد من المشايخ من غيره.

ويجري تحت المسجد نهر «سئي»، يتراءى لك متواضعاً حقيراً، لا يضر ولا يؤذي، ولكن إذا غزرت الأمطار وسالت الديار، فلا تسأل عن فتنته وغضبه وزمجرته.

وتأتي فيه الفيضانات، ولذلك لا بد هنا من معرفة فن السباحة لكل ساكن من سكانها، وتتصل في الجانب الغربي من بيوت هذه القرية سلسلة من البساتين فيها نخلتان تشهدان ـ من غير صوت ـ بأن الأسرة عربية الأصل، نشأت بين النخيل، ولا تزال تعتبرها شعارها، وفي الجانب الشرقي والشمالي سلسلة مترامية الأطراف من الحقول الخضراء، بحيث تخال هذه المعمورة الصغيرة كأنها جزيرة في هذا البحر الأخضر، ويزداد رونقها وجمالها ـ بصفة خاصة ـ أيام المطر.

إلاّ أن الفيضانات التي تكرُّ عليها بعد كل فترة من الزمن تأخذ الجباية الفادحة لهذا الموقع الجميل المغبوط، والمناظر الطبيعية الجذابة، ويضطر سكانها في معظم هذه الفيضانات إلى الهجرة عن هذا الوطن المحبوب، واللجوء إلى موضع في المدينة أو قرية قريبة عالية، وقد يفكر أهل القرية لأجل المتاعب التي تسببها هذه الفيضانات أن ينتقلوا من مقاربة النهر ويختاروا لسكناهم مكاناً مرتفعاً بصورة مستقلة دائمة، حيث يتجنبون أضرار الفيضانات، ولكن يعاودهم حب الوطن والانجذاب إليه وعاطفة الحفاظ على

المسجد والمقابر، ويأخذ بمجامع تفكيرهم الشعور بالتسهيلات المتوفرة فيها التي لا تتوفر في كل مكان.

وهكذا قضت هذه الأسرة ثلاثة قرون كاملة في هذه القرية الصغيرة، ولا يعلم ما سيأتي إلاّ الله.

عهد الطفولة في «تكية» وبعض الأحداث والشخصيات:

إن أهم الأحداث الذي وقع بعد ولادتي والذي لا تزال ذكراه في القلوب وحكاياته على طرف اللسان، هو ذلك الفيضان الهائل الطاغي عام ١٩١٥ م، الذي كان نموذجاً صغيراً في هوله وجلاله للطوفان في عهد نوح عليه السلام، وقد كنت آنذاك ابن سنة وبضعة أشهر، وإذا بالسيل العرم في شهر أكتوبر عام ١٩١٥ م يفاجىء القرية ويكذب كل القياسات، ويفوق كل الفيضانات، وقد كان ـ كما يعلم من تاريخ هذه الأسرة والقرية ـ أكبر فيضان وأشده في مدة ثلاثة قرون، فخرج سُكان القرية في حال شديدة من المحنة وقلة الزاد، وكانت المشكلة الكبرى انتقال النساء والأطفال، فقد اضطرهم الفيضان إلى أن يخرجوا من بيوتهم في الماء الذي يصل إلى الحقوين.

ولكن نحمد الله تعالى على سلامة الأنفس والأرواح، والأملاك الغالية الثمينة في هذه المحنة العمياء، إلاّ أن بيتنا الذي كان نصفه مجصصاً ونصفه الآخر طينياً سقط وتهدم، ومن الجدير بالذكر أن كبار أفراد أسرتنا لم يفقدوا رشدهم في هذه الحالة من الفوضى والاضطراب، ولم ينسَوا تلك المكتبة القيمة العامرة التي كانت تشتمل على المخطوطات الغالية والمراسيم والوثائق والشهادات والسندات والفتاوى والمسوَّدات، ولا يمكن أن يقدر قيمتها، فحملوها معهم، ورأوا حفظها أولى من حفظ أنفسهم، ولا تزال على بعض المخطوطات آثار من ذلك الفيضان.

ولا بد هنا أن أذكر لمحة عن خالي الشفوق الذي كان شخصيته محببة ملء السمع والبصر في هذه القرية، وكان له الأثر الأول في ثقافتي

ومشاعري، واليد المبسوطة في تربيتي الخلقية والعقلية، أنقل فيما يلي بعض المقتطفات من كتابي «براني جراغ» (المصابيح القديمة) الجزء الثاني (وهو يشتمل على لمحات عن حياة بعض أساتذتي ومشايخي وعلماء عصري):

«كان خالي الحافظ السيد عُبيد الله يملك شخصية محببة تجذب القلوب، وتجمع بين مختلف الصفات والملكات، بل كان حسب تعبير بعض رجال الفكر البصيرين نموذجاً حياً للحياة الإسلامية، كان حافظاً جيداً للقرآن الكريم، يتلوه بصوته الواضح الرخيم، بحيث يخلب القلوب ويأخذ بمجامع النفوس، وكان بالرغم من كونه يملك الأراضي الواسعة ويُعَدّ من الإقطاعيين الكبار في المديرية، مجتهداً دؤوباً ملتزماً بالمواعيد، نشيطاً مجدّاً، يتجلّى من مشيته جِدُّه وصرامته وعزيمته، ويقف طوال الساعات يراقب الأعمال، وكان إمام مسجد الحيّ في الصلوات الخمس، ومراقباً لأراضيه وإقطاعه، ومديراً لأعمالها في وقت واحد، فلو رآه أحد في المسجد ظن أنه لا شأن له بالدنيا والأرض والإقطاع، وإذا رآه في مراقبته لحقوله ومزارعه ظن أنه يشق عليه التزام الصلوات، ولكن مستحيل أن يقصِّر في أحد الأمرين، وكان موضع ثقة وتقدير من أهل القرى القريبة، فكان الناس يضعون عنده الأمانات ويودعون الأموال ويأمنون.

لقد كان غاية في التواضع ودماثة الخلق ومراعاة دقائق الآداب والأخلاق، حتى إذا جاءه بعض أقربائه من صغار السن أو أبناء أصدقائه الذين كانوا كأولاده وهو مستلقٍ ومضطجع، يقبض رجليه، ويجلس، ولم يواجه ـ أبداً ـ أيّ واحد من خدمه وعماله بكلمة نابية أو قول فظ غليظ، ولعله كان غير قدير ـ بطبيعته ـ على الإيذاء، أو صلاحية الإضرار وتجريح القلوب»[1].

وكانت أكبر شخصية محترمة موقرة في الأسرة حينذاك شخصية السيد خليل الدين، الذي كان يدعوه أبناء إخوته وأخواته وأسباطه وأحفاده بـ «بابا»

---

(١) «براني جراغ» (المصابيح القديمة).

وكان مهيباً وقوراً، وكان في نفس الوقت عطوفاً مشفقاً، ذكياً فطناً، يحسن إدارة الأمور وتنظيمها، راسخ العقيدة، ملتزماً بالمسلك السُنّي الذي تتمسك به الأسرة التزاماً شديداً، وكان ينظر إلى الأسرة لأجله بعين الإجلال والاحترام.

وقد شاع حفظ القرآن الكريم - في تلك الأيام - في نساء الأسرة وبناتها، فكان لهن شغف خاص بحفظه وشوق زائد إلى التنافس فيه والمسابقة إلى مذاكرته، وقد شاهدت في أيام طفولتي خمساً من النساء، الحافظات لجميع القرآن الكريم في الأسرة، وكان فيهن التزام بإقامة صلاة التراويح فيما بينهن بناء على فتوى بعض علماء لكهنئو الكبار، فكانت إحداهن تتقدم للإمامة وسائر النساء يقتدين بها، وقد كانت والدتي من هؤلاء النساء والحافظات، وكانت تقرأ في صلاة التراويح إماماً، وكنت أتسمع لها، فأحس بقراءتها، كأنَّ سحابة تمطر مطراً منعشاً، قراءة مرتلة بمخارجها الصحيحة، مع الحدر الجميل، والرقة واللطف ولوعة الأنوثة، نور على نور.

بعض الخصومات في الأسرة والقضاء عليها:

لما بدأت أعقل وأعي كانت تلك الخصومات والنزاعات التي تحوَّلت إلى صورة مقاطعة دائمة انتهت بجهود والدي - رحمه الله - وقضي عليها بتاتاً، وقد كان الوالد لكونه عالماً دينياً، ومشتغلاً بالحديث الشريف والسنة النبوية، وبطبيعته التي عجنت طينتها بالحب والتسامح والمداراة، قلقاً جداً، مضطرب الخاطر، فحاول جهده في علاج هذا الوَضع، فتوسط نتيجة جهوده هذه شيخ كبير السن من مشايخ الأسرة وهو السيد قطب الدين بين الفريقين المتخاصمين، وانتهت تلك الخصومة الطويلة، وتحسنت العلاقات بين فرعين من الأسرة - كانا من أبناء الأعمام وأحفاد جد واحد وهو السيد آية الله بن الشيخ علم الله - وقد كان الوالد ألَّف رسالة لهذا الغرض باسم «إصلاح»[1] ذكر فيها ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد الشديد على قطع

---

(١) هذه الرسالة في الأردية، طبعتها أولاً مطبعة كلشن أحمدي عام ١٩١٨ م - ١٩١٩ م، وطبعها =

الصلة، وما يؤدي ذلك إلى أضرار دينية ودنيوية، كما ذكر فضائل إصلاح ذات البَيْن، وما ورد فيه من ترغيب ومثوبة كريمة، مع الحكايات والقصص المؤثرة المرقِّقة النافعة في عهود مختلفة بدأها من عهد الرسول والصحابة، ولم أجد رسالة بلغت هذا التأثير في هذا الموضوع لا في الأردية ولا في العربية، وقد أدت هذه الرسالة دور مصلح كبير أصلح بين فئتين متخاصمتين.

فرع الأسرة النازل في طونك
وخصائصه ميزاته:

ويجب هنا أن نشير إلى حقيقة، وهي أن أسرتنا كانت تنقسم في الأصل إلى فرعين، كان أحدهما نازلاً في موطن آبائه القديم «دارة الشيخ علم الله»، وكان الفرع الثاني انتقل بعد شهادة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد على دعوة من النواب وزير الدولة إلى طونك كما سبق، وقد كان فيه مع أفراد الأسرة الذين كانت لهم صلة قريبة بالإمام الشهيد والبقية الباقية من جماعة المجاهدين والمتصلين بهم، الذين لجأوا إلى طونك قادمين من ساحة الجهاد أو السند أو بعض المناطق الشرقية، وسمي الحيّ الذي نزلوا فيه لأجل ذلك بـ «القافلة».

ولئن كان فرع رايء بريلي يمتاز بصحة معتقداته والالتزام بالفرائض والشعائر الدينية وكثير من مواضع الخير، ولكن كان هذا الفرع النازل في طونك أفضل منه في مظاهر الأخوة الإسلامية والمساواة بين الأفراد، والاهتمام بصلة الأرحام والتواضع والبساطة، والمعاملة الحسنة مع الخدم والعمال على قدم المساواة، وإكرام الناس والحفاوة بهم، وقد كان ذلك نتيجة صحبتهم للإمام الشهيد وتربيتهم على يديه، وبتأثير أخلاق المهاجرين

= حديثاً الحاج محمد نور ولي والشيخ عبد الحفيظ السورتي لتكون صدقة جارية يصل ثوابها إلى والديهما، ووزعت مجاناً على النطاق الواسع، وترجمت إلى بعض اللغات المحلية، وقامت بنشرها مكتبة الإسلام كوئن رود ـ لكهنؤ (الهند).

والمجاهدين وحياتهم الطيبة الإسلامية، وكان فرع رايىء بريلي بإزاء ذلك متأثراً بحضارة ولاية أوده، والنظام الإقطاعي فيها، فكانت عليه مسحة منها وصبغتها الظاهرة، ولذلك كنا نحن الأطفال عندما يزورنا أقرباؤنا من طونك نحس بهذا الفرق الواضح ـ رغم صغر سنّنا ـ بين الفرعين، ولا سيما عندما اضطر هذا الفرع بعد جلائه من طونك[1] إلى الانتقال منها والإقامة برايىء بريلي، فشاهدنا هذا الفرق أجلى مما كان.

---

(١) سيأتي سبب ذلك وتفصيله قريباً.

الفصل الثاني

بعض الأحداث المهمة في الطفولة
والإقامة بلكهنؤ، وعالم الكُتُب، وحركة الخلافة

بعض الأحداث المهمة في الطفولة:

والشيء الرابع الذي استرعى انتباهي ووعته ذاكرتي منذ أيام صباي المبكِّرة، هو ذكرى شخصية ابن خالتي المحامي السيد محمد أحمد الحَسَني، كان قد رجع عام ١٩١٥ م (قبل حادث الفيضان الهائل بقليل) من إنكلترا حاملاً شهادة الحقوق من لندن، وشهادة الماجستير في الفلسفة من جامعة «إدنبره» وقد كان استقباله على مقدمه في هذه القرية الصغيرة والأسرة المحدودة استقبالاً فخماً رائعاً، واهتم به اهتماماً كبيراً، ولعله لم يكن هناك في تلك الأيام في طول هذه المديرية وعرضها لا سيما في أسر الأشراف والإقطاعيين المسلمين من حاز هذا الامتياز، ونال هذه الشهادات «الجليلة الأجنبية»، والقصة ترجع إلى طفولتي المبكِّرة، وقبل بدء وعيي، وقد سمعت قصص السرور الغامر والاستقبال الرائع الذي ظهر على مقدمه، وقد كان العهد عهد أوج الدولة الإنجليزية وعلوّ نجمها، قد بلغت حضارتها وشوكتها القمة من المجد، فكان ينظر إلى كل شيء يمتُّ إلى حكام البلاد بأي صلة بإجلال ومهابة ورهبة، ولم يزل لهم هذا الجلال الرهيب والتأثير البليغ في

القلوب والعقول إلى عهد حركة الخلافة، وحركة الاستقلال.

والشابُّ الثاني الذي سافر من أسرتنا، بل من بيتنا، بعد الأخ السيد محمد أحمد خارج البلاد، كان هو ابن خالي السيد سراج النبي الحَسَني الذي رحل عام ١٩٢١ م إلى أمريكا، ولم يكن الطلّاب في الهند في تلك الفترة الزمنية يقصدون الولايات الأمريكية المتحدة إلّا نادراً، إذ أنه لم تكن الشهادات المعترف بها في جامعات الهند إلّا شهادات جامعات إنكلترا وكلياتها، فهي الكفيلة بالحصول على الوظائف، وهي المقبولة، ولا ندري كيف خطر بباله خاطر أمريكا، وقد كان سافر قبله بقليل أحد أقربائنا وأعضاء الأسرة، وهو السيد محمد عمر الحَسَني إلى ألمانيا واليابان، وقد حاز الشهادات العالية في الهندسة والعلوم، واختير عضواً في المجامع العلمية المعروفة بها، وشغل مراكز ذات شأن في الإمارات الهندية، مع دين متين وتواضع جمّ، وخلق كريم، ولكنه كان أكثر إقامته في طونك، فما حفظت الذاكرة حادث سفره.

الوضع الاقتصادي في الأسرة
ومحاولة إصلاحه:

لا أتحدث عن الزمن السابق لوعيي وشعوري، ولكن من حين أن بدأت أشعر رأيت أن النظام الإقطاعي (الذي كان ينظر إليه في ولايتي بهار وأترابرديش ـ بصفة خاصة ـ باحترام وتقدير) نظام فاشل، وأن هذه الوسيلة للكسب لا تدر رزقاً كثيراً، فهي قليلة المنافع والأرباح، كثيرة المشاكل والهموم، فلم أشاهد نتيجة ذلك ثراءً ورخاءً في البيوت، إلّا ما كان يتمتع به أهلها في المديرية من جاه وعز وسلطان، فكانت الجبايات لا تحصل إلى بصعوبة بالغة، ولكن ما كان يدفعه أصحاب الأملاك و «الأطيان» من جبايات وضرائب إلى الدولة يكلفون بتسديدها، وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى الاستقراض والرهن.

ولعل هذه الأوضاع السيئة دفعت بعض أفراد الأسرة إلى أنواع أخرى

من المكاسب، من إقامة مصنع للقرميد، وغير ذلك، ولكن لم يستمر هذا الآخر أيضاً مدة طويلة، إذ لم يغلّ كثيراً.

بيئة لكهنؤ وعهد الصبا،

الشوق الزائد إلى الكتب والخطاب الأول:

ننتقل الآن إلى لكهنؤ التي تبعد عن رايء بريلي ثمانين كيلومتراً، وكانت أجرة القطار إذ ذاك أقل من روبية، لقد كان بيت والدي السيد عبد الحي في لكهنؤ في حيّ أمين آباد، الحيّ الرئيسي المشهور، وكان في واجهة الدور الأرضي عيادته الطبية، فكانت تسكنه أسرتنا الصغيرة التي كانت تشتمل على أب وأم، وأخوين وأختين، كان الأخ الأكبر هو الذي عرف فيما بعد بالدكتور السيد عبد العلي الحسني أمين عام ندوة العلماء سابقاً، وأصغر منه الأخت أمَة العزيز ـ والدة الأعزة الفضلاء: محمود حسن، ومحمد الثاني ـ رحمهما الله تعالى ـ ومحمد الرابع، ومحمد الواضح ـ سلّمهما الله تعالى وبارك في حياتهما ـ، والآن هي بركة هذه الأسرة الصغيرة، وأصغر منها الأخت أمَة الله تسنيم التي كانت تعرف في الأسرة بـ «السيدة عائشة بي»[1].

وقد كان البيت في عامة الأحوال منزلاً عامراً بعدد من أفراد الأسرة والضيوف النازلين المقيمين، والطارئين المسافرين، فكان البيت مملوءاً حركة وبهاءً، وجيئة وذهاباً، وكان الأقرباء من رايء بريلي لكونها الوطن الأصلي، ولقرب المسافة يترددون ـ دائماً ـ إلى لكهنؤ، ويَرِدون ويصدرون.

وقد كانت لنا علاقات طيبة قريبة ببعض البيوتات الكريمة في لكهنؤ، لا سيما بيت الأمير السيد نور الحسن البهوفالي، الابن الأكبر للأمير العلّامة السيد صدِّيق حسن خان القنّوجي والي بهوفال، وكانت الزيارات بيننا متبادلة، إلّا أن أولاد الأب الواحد لم يتجاوزوا أربعة.

---

(١) وهي سيدة كاتبة أديبة شاعرة، لها سلسلة قصص الأنبياء للأطفال في أردو، وكتاب صغير في السيرية النبوية، وقد نالت ترجمتها لكتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي، وقد أسمته «زاد سفر»، قبولاً ورواجاً عظيماً، وقرئت على الإذاعة السعودية تمامها مرتين، وقررت في المقررات الدراسية في عدة مدارس، ونقلت إلى اللغة الهندية.

وقد كان الوالد يصرف جلّ أوقاته في الكتابة والتأليف، وفي العيادة الطبية، والشؤون الإدارية لندوة العلماء، وكان مجبولاً على الانصراف التام إلى العمل، قليل الكلام، مشغولاً ليس عنده فراغ، يحب العزلة والخلوة، فينفرد في حجرته، مشغولاً بالتأليف أو المطالعة، ورغم حبه وعطفه البالغ علينا كنا نهابه، ولا نكثر التردد إليه، والانبساط معه، فإذا جاء إليه أحد الشيوخ المبجلين من أقربائنا، كنا نحن الصغار نجتمع عندئذ معه، ونراه متكلماً مبتسماً بشوشاً، وكان أخي الأكبر طالباً في الكلية الطبية بلكهنؤ، وكانت دراسة الطب ـ ولا سيما في ذلك العصر ـ تتطلب جهداً مضنياً شاقاً، فكان هو يقضي سائر أوقاته في الدراسة والمطالعة، وإعداد الدروس، والتردد إلى الكلية مجيئاً وذهاباً، وكان متزوجاً وكانت زوجه (وهي أم السيد محمد الحسني وشقيقاته) كالأختين الشقيقتين لنا، وكانت أختي الكبيرة متزوجة، فكانت تسكن أكثر أيام السنة في بيت زوجها براي بريلي، وأما زوج أخي الأكبر فكانت تسافر إلى بيتها في قرية هَنْسوَه بفتحبور، وقد تغيبان عن البيت في لكهنؤ عدة أشهر متواصلة، ولذلك كان أكثر اتصالي ومعايشتي بالأخت الثانية السيدة عائشة أَمَة الله.

ولم تزل أسرتنا أسرة العلماء والمؤلفين، فقد كان الوالد من كبار المؤلفين في عصره، وللبيئة والوراثة تأثير كبير لا ينكر، ولا يزال ينتقل هذا التأثير من جيل إلى جيل، ويطبع الصغار والكبار، والبنين والبنات بطابعه في قليل أو كثير، فكان الطابع الوراثي، وذوق الوالد وانهماكه في الكتب كغاشية أو سحابة تغشى المحيط المنزلي، وتظلّل على الأسرة كلها، وقد تجاوز هذا التذوق إلى الحب الشديد للقراءة وإدمانها، بل إلى حدٍّ أن أصبح هواية، فما أن وقع بصرنا على كتاب مطبوع إلاّ تلقفناه وأتينا عليه قراءة ومطالعة، وكل ما يقع بأيدينا من النقود لمصروفاتنا الصغيرة، أو إذا زارنا أحد الأقرباء وأهدى إلينا عند عودته شيئاً من الروبيات ـ كما كانت العادة في الأسرة إذ ذاك ـ، فكان أحب مصرف لدينا لهذه النقود شراء الكتب.

أذكر في هذا الصدد قصة لي طريفة، كانت قد اجتمعت عندي طائفة من النقود لا تجاوز قرشين، وكنت في الخامسة أو السادسة من عمري، لا أعرف أن الكتاب لا يباع إلاّ في المكتبات، وأن لكل شيء دكاناً خاصاً، فغدوت إلى سوق أمين آباد، ودخلت صيدلية من الصيدليات، ودفعت النقود لصاحب الدكان وطلبت الكتاب، وتفطن صاحب الدكان إلى أن هذا طفل ساذج بريء من أسرة كريمة، وكان عنده فهرس الأدوية بالأردية، فقدّمه إليّ، وردّ معه النقود أيضاً، فلا تسأل عن سروري وبهجتي، فقد وجدت الكتاب ورجعت بالنقود أيضاً، ووصلت إلى البيت وأنا رافل في الفرح والسرور، وزينت بهذا الكتاب مكتبتي الصغيرة التي تكونت من تلك الكتب والرسائل التي كان والدي يستغني عنها ويتركها في مكان، أو يضعها في سلة المهملات، وهكذا كان حال أختيَّ في حبهما للكتاب والشوق الزائد إليه.

وقد كنا جميعاً نشارك في قراءة هذه الكتب ـ التي تكون تارة منظومة وأخرى منثورة ـ، وقرأت في تلك الفترة كتباً ورسائل صغيرة بالأردية في السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ، فنفذت في القلب والعقل، وقرّت منهما في قرار مكين، ولا أتذكر أسماءها الآن، إلاّ أن الذي أذكره أن قراءتها أنشأت فيّ رغبة حسب عادة الناس في ذلك الزمن أن أعقد جلسة في السيرة النبوية أو احتفالاً بالمولد النبوي[1]، فدعوت الأطفال الصغار مثلي ومن أترابي، ودُرت لأجل ذلك على بيوتهم واحداً واحداً، ولاثت إحدى أختيَّ عمامة صغيرة على رأسي، وكنت لم أتجاوز الثامنة من عمري، وأخذت كتاباً من تلك الكتب المجموعة عندي، وقد كانت معرفتي وعلمي بالموضوع بحيث كنت أدعو سيد قريش وجدّ نبينا محمد ـ ﷺ ـ عبد المطّلب، بعبد المطلب، بإسكان الطاء وفتح اللام، وكان الوالد ـ رحمه الله ـ قد وقف بجانب من هذا المجلس يسمع ابنه وهو يقرأ من هذا الكتاب، ولا تسأل عن موجة الفرح التي كانت تغمر جوانحه، فقد رزقه الله تعالى حظاً

(١) وكانت عادة منتشرة في البلاد خارج أسرتي التي لم تقتبس هذه العادة ولم تكن من أعرافها.

وافراً من حبّ النبي ﷺ، وبه تتحلّى كتاباته بما تتحلى به من رونق ورواء، وطلاوة وجمال، ويمكن أن تقدِّر سروره بابنه الصغير، ولسانه ـ على صغر سنه ـ يلهج بذكر النبي الحبيب عليه الصلاة والسلام، الذي هو مصدر كل خير وبركة، ورشد وهداية، وهو بذلك يفسح المجال في الدخول في السعداء الذين يكتب لهم الاشتغال بالسيرة العطرة حديثاً وتأليفاً.

وسط الحيّ:

لقد كان الحيُّ الذي كنت أسكنه من أحياء المدينة المعدودة، التي كان يعمرها أصحاب العقيدة السنيَّة الصحيحة من سُكّان المدينة، ولم تكن توجد فيها التقاليد والطقوس التي عرفت بها مدينة لكهنؤ وأكثر مدن البلاد بتأثير الشيعة وأهل البدع، وكان من أسباب ذلك صلات القبيلة التي كان أكثر سكان الحي منها، وهي المعروفة بالقريشيين ـ ويشتغلون بالجزارة ـ بعلماء أهل السنة، وعلاقاتهم الطيبة مع المشايخ الذين كانوا يستنكرون البدع والخرافات، ويحملون دعوة الإصلاح وتصحيح الأفكار، وقد كان الشيخ منشي عبد الغني عمدة الحي والقبيلة ـ الذي كان من أصدقاء والدي المحبين وأصحابه المجالسين له ـ يحضر مجالس وعظ العلامة عبد الحي الفرنجي محلي[1].

وكان السبب الثاني لذلك إقامة الوالد منذ زمن الطلب في هذا الحي، وقدوم العلماء والمشايخ إليه، وسكنى بعضهم فيه، والقرب من دار العلوم ندوة العلماء التي كانت إذ ذاك في حيّ قريب من هذا الحي[2]، وكان يقع ولا يزال على بضع خطوات من البيت الذي كان يسكنه الوالد في الجانب الشمالي منه مسجد، وقد استمر فيه الوالد يعظ ويذكر بعد صلاة الجمعة

---

(١) هو فخر المتأخرين العلامة عبد الحي بن عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي، صاحب المؤلفات العظيمة الكثيرة، وأستاذ الأساتذة المحققين في عصره، راجع لترجمته الجزء الثامن من «نزهة الخواطر».

(٢) كانت دار العلوم التابعة لندوة العلماء، وإدارتها ومكتبها في بناية وملحقاتها قبل أن تنتقل إلى مبنى دار العلوم الكبير الحالي في سنة ١٩١٥ م.

أعواماً وسنين، وكان كل من يزور لكهنؤ من العلماء الكبار والمشايخ المعروفين، يزور لعلاقته بالوالد أو بالندوة هذا الحي، ويؤم هذا المسجد، وكان يؤم في هذا المسجد في الصلوات الخمس والجمعة أصحاب العلم والفضل من أفراد الأسرة بصفة عامة، أو بعض العلماء المعروفين، وكانت الإمامة من قبل موكولة إلى الوالد، ثم أسندت إلى أخي الأكبر بعد تخرجه في العلوم الدينية، وأمَّ فيه الشيخ محمد بن حسين بن محسن الأنصاري اليماني سنين، ثم ابنه وأستاذي الشيخ خليل بن محمد بن حسين رحمهم الله جميعاً.

وكان يسكن في حجرة ملاصقة للمسجد المؤذن الراتب فيه، ثم إمامه من بعد، الحافظ محمد سعيد، وكان يدرِّس الأطفال في الصباح، فكان كتّاب الحي، وقد كنت بدأت بالقراءة ـ التي كان يحتفل بمناسبتها في الأسر العلمية والدينية ـ في رائي بريلي على عمّي السيد عزيز الرحمن الندوي، ودخلت الآن في هذا الكتّاب الذي كان قريباً من البيت.

ذكريات من الطفولة:

لو قارنت بين مدة إقامتي برائي بريلي، ومدة إقامتي بلكهنؤ رجحت كفة الإقامة في لكهنؤ، والسبب في ذلك أن الوالد لعلاقته بالندوة، ولشغله بعيادته الطبية، كان يقيم في لكهنؤ بصورة مستقلة، وتزور الوالدة ـ أحياناً ـ رائي بريلي، إذا كانت هناك مناسبة من المناسبات العائلية، تدعو إلى الزيارة، وتمكث أياماً ثم ترجع إلى لكهنؤ.

وكان لنا منزل آخر لرحلتنا سوى رائي بريلي، وهي قرية «هَنْسوَه» بمديرية فتحبور، حيث كان يسكن أخوال الوالد، وأخوال الأخ الأكبر وأصهارهما، وكان يسكن بها فرع محترم من الأشراف الحسينيين الواسطيين منذ قرون، ويتحلّى بالجاه والمنصب، والمكانة المرموقة، وكانت لها وجاهتها الدينية بسبب العالم الربّاني والمربّي الكبير مولانا السيد عبد السلام

الواسطي، الذي كان من كبار خلفاء الشيخ الرباني أحمد سعيد المجدِّدي[١].

ومن ذكريات تلك الفترة من الزمن التي أذكرها جيداً، أن الناس ـ بما يعرفون أن والدي عالم كبير وطبيب نطاسي ـ يطلب بعضهم مني الوعظ، ويسأل أحدهم أن أجسّ نبضه، ويطلب آخر أن أكتب له الوصفة، وكل ذلك في حب ومداعبة، ولم يكن عمري يتجاوز ٦ أو ٧ سنوات، فكنت إذا طلب مني الوعظ أتلو قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهلِيكم ناراً﴾[٢].

ثم أترجمه إلى اللغة الأردية، ثم يسأل آخر أن أجسّ نبضه وأصف له دواءه، فأحاكي والدي في إملاء الوصفة، وأسمي الأدوية والعقاقير، وأصف لهم الحمية، وأحدِّد لهم الغذاء المناسب[٣]، ولا أذكر من الذي لقنني هذا الدرس، هل أخذته من سماعي للوالد وهو في عيادته، أو حفظني أحدهم للنكتة، والآن عندما أقرأ هذه الآية الكريمة في ندوات هيئة التعليم الديني التي أرأسها واحتفالاتها حول ضرورة التعليم الديني وأهميته والتأكيد عليه، تعود إليَّ تلك الذكريات الحلوة، ويمتلىء القلب حمداً وشكراً لله العلي القدير.

مع الوالد:

لقد كان الوالد منهمكاً كل الانهماك في التأليف، فكل ما بقي له من الوقت واتسع بعد الأمور الإدارية لدار العلوم ندوة العلماء وعيادته الطبية، صرفه إلى تأليف «نزهة الخواطر». وأذكر جيداً أنه كان له سرير في الغرفة،

---

(١) راجع لترجمة الشيخ عبد السلام الهنسوي الحافلة «نزهة الخواطر» ج/٧.

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم.

(٣) لقد كانت كل القرائن تدل على أنني سوف أتعلم الطب بعد تخرجي في المدرسة وأختاره كمهنة وراثية، وقد أجلسني أخي الأكبر في العيادة أياماً، وعلمني كتابة الوصفات، وبدأت أتعلم كتاباً في الطب «نفيسي» أو «سديدي» على عمي الشيخ طلحة الحسني، ولكن سرعان ما أدرك أخي الأكبر أن لا رغبة لي في الطب ولا تطاوعه نفسي فوقف ذلك.

وبجانبه كرسي مريح، كان يجلس عليه مشتغلاً بالتحرير والتسويد، والجمع والترتيب، وكنت رغم صغر سني أجتهد أن أتناول معه الطعام، فأجلس طويلاً أحياناً أنتظر فراغه، وكان الوالد مقلاً من الطعام بصورة غير عادية، إلاّ أن طعامه كان لطيفاً خفيفاً ساذجاً، ولكن شهياً لذيذاً، وكنت أشاركه في الفطور أيضاً، ويكتفي فيه بكوب من شاي وحبة أو حبتين من البسكويت مع زبدة، فإذا جاءه صديق قديم من الخارج تكلَّف له في الطعام، وصنع مأدبة سخية، وكأننا وجدنا العيد.

وكانت الوالدة بارعة في إعداد أنواع من الأطعمة الشهية، بل كانت مجتهدة في هذا الباب تملك قدرة عجيبة من الإبداع والابتكار فيه، ولا أدري من أين اشتدت بي الرغبة في أن أصحب الوالد كلما زار مريضاً للعلاج، حتى تتحرك العربة التي يجرها حصان وأنا أحاول الركوب فيه، كما كنت أصحبه بما أنا فيه من ملابس، وإذا زار الوالد أحد أعيان البلد، أو بعض الوجهاء من المتصلين بندوة العلماء، كان الوالد يأخذني معه لعطفه وشفقته عليَّ، ولبُعده عن المظاهر وأنواع التكلف.

وكان أكثر ترددنا في المدينة إلى بيت الأمير السيد نور الحسن خان في قصره الفخم، ولم تكن صلة النواب ـ الذي كان أكبر أبناء الأمير العلامة السيد صدِّيق حسن خان ـ رحمهما الله تعالى ـ صلة الصداقة فحسب، بل صلة أخوة وحب ومودة، فلم يكن يمر أسبوع إلاّ ويزور الوالد أو الوالدة هذا البيت لمناسبة من المناسبات، وكانت بيننا وبين هذه الأسرة علاقات قرابة أيضاً، وكانت قرينة الأمير السيد نور الحسن تعاملنا معاملة الخالات والعمات.

وقد كنت وأنا ابن ست أو سبع سنوات أحب الورود والأزاهير، فكنت أقطف الأزهار من حديقته، وأفرح بها، وأذكر أنه عدا هذه البيوت التي كنا نزورها وكانت بيننا وبينها علاقات متنوعة، ذهبت بعض المرات مع الوالد إلى احتفال دار العلوم ندوة العلماء السنوي في السيرة النبوية على صاحبها

الصلاة والسلام، الذي كان يعقد باهتمام بالغ، وحفلات كادت تعقد بمناسبة الترحيب ببعض الأعضاء الكبار للندوة لا سيما الأمير الشيخ حبيب الرحمن خان الشرواني.

لقد كانت بيئة الوالد بيئة علمية تأليفية محضة، فكان يشتري كثيراً من الكتب، وكان المؤلفون والكتّاب يبعثون بمؤلفاتهم إليه أيضاً، فكان ينظر في كثير من هذه الكتب والرسائل والمجلات نظرة، ثم يضعها في جانب، ويستغني عن بعضها، فكنت أفتش في هذه الكومة ـ التي كان يستغني عنها الوالد ـ عن الرسائل والمجلات وفهارس الكتب للمكتبات التجارية، وأختار منها، وكان هناك دولاب مفتوح في صحن البيت، فأضع هذه الكتب فيه وأصففها، وقد هيأت لافتة لهذا الدولاب كتبت عليه «مكتبة أبي الحسن علي».

الدراسة النظامية:

كنت بدأت بقراءة حروف الهجاء، ثم الكتب الصغيرة في أردو، وأنا أتردد بين رائي بريلي ولكهنؤ، إلّا أنني ختمت القرآن الكريم في لكهنؤ حيث كان غالب إقامتي، ولا أزال أذكر تلك المأدبة المتواضعة التي صُنعت بهذه المناسبة السارة، ثم أُدخلت الكتّاب في مسجد الحيّ، فلما تقدمت بعض الشيء بدأت أذهب إلى العم المكرَّم الشيخ عزيز الرحمن الندوي، الذي كان موظفاً في إدارة ندوة العلماء في حيّ قريب، وقد كانت المسافة بين حيّنا وبين مكتب ندوة العلماء بالنسبة إليّ في عمري بعيدة بعض الشيء، وقد كان يقيم بها الشيخ غلام محمد الشملوي الذي لم ترزق الندوة في تاريخها الطويل سفيراً أكثر منه وجاهة، وأروع منه خطابةوأنشط منه عملاً وجدّاً، وأكثر منه إخلاصاً، وكان من عادته أنه يدعوني إليه، ويناولني ما جاء به من مدينة «شِمْلَة»[1] من ثمار وفواكه وحلويات وغيرها، ولم تزل هي عادته إلى ما بعد وفاة الوالد رحمه الله تعالى ورفع درجاته.

---

(١) كان المصيف الرسمي الحكومي للحاكم العام الإنجليزي، ومقرّ مكاتب الحكومة وإداراتها أيام الصيف، ومقرّ الأغنياء والأمراء الهنديين.

وبعد أن درست مبادىء اللغة الأردية بدأت في اللغة الفارسية بالكتاب الأول والثاني إعداد جمعية حماية الإسلام في لاهور، وقد اختير لتدريس مادة اللغة الفارسية معلم حاذق بارع ينتمي إلى إحدى أسر العلماء القديمة في هذا البلد يُدعى الشيخ محمود علي، وقد نبغ فيها كبار العلماء والخطّاطين، لقد كان هذا المعلم مهذباً مثقفاً، شفوقاً، مارس مهنة التعليم من زمن طويل. وقد قرأت في هذه الفترة الكتب التي ألّفها والدي للصغار، منها كتاب «تعليم الإسلام» و«نور الإيمان» وتعلمت من الشيخ الذي كان خطاطاً جيد الخطِ الخطَ على اللوحة، والورقة، الذي كان جزءً مهماً من المقررات الدراسية في ذلك العصر.

لم يكن أخي الأكبر منصرفاً إلى دراسته وتعلمه فحسب، كان مستغرقاً فيه، ومنقطعاً إليه كلياً، فكان قد بدأ بعد تخرجه في العلوم العربية والشرعية في دار العلوم ندوة العلماء، ودار العلوم ديوبند، باللغة الإنكليزية، والطب، فكان إذ ذاك في السنة الثالثة أو الرابعة من كلية الطب في لكهنؤ، وكانت الكلية حينذاك تحت عمادة أحد العمداء الإنجليز، وكان في موظفي الكلية عدد من الأساتذة الإنكليز، فكانت دراسة الطب لا سيما لمثل أخي الأكبر في جدّه وواقعيته وكبر همته تحمل دوافع كثيرة للشغل والجهد والانصراف، فلم يكن عنده في الوقت متسع، وأذكر أنني كنت أراه دائماً في الدراسة والمطالعة، وأحياناً أدخل في غرفته فلا أشعر فيه بأي نوع من الشفقة والحب والملاطفة، والواقع أنني لم أشعر به إلاّ بعد أن ارتحل الوالد، فإذا به فجأة ينقلب انقلاباً عظيماً، ويصبح مثل الوالد في عطفه ولطفه، بل مثل الوالدة في بعض الجوانب في حبها وحنانها.

كان والدي مقلاً من الكلام، تعلوه السكينة والوقار، وكان يخيِّم بسبب ذلك على بيتنا نوع من الصمت والهدوء، ولم يكن يتحرك هذا الجو الساكن إلاّ إذا جاءت عمتي، وزوجها العم المكرم الشيخ السيد طلحة الحسني من لاهور، التي كان مدرساً في الكلية الشرقية Oriental College بلاهور، في

الإجازة الصيفية، أو إذا جاء جدّنا السيد عبدالله ابن الشيخ الجليل المصلح الكبير السيد خواجه أحمد النصير آبادي من بهوفـال، فكنّا عند ذلك نرى الوالد يتكلم ويشارك المجالس في البيت، ونجد في البيت حركة وسروراً واهتزازاً، وقد كان يسكن في غرفة الدور الأرضي التي تفتح على الزقاق ابن خالي السيد حبيب الرحمن وبعض أبناء الأعمام من قرية هنسوه، الذين كانوا يدرسون في إحدى مدارس البلد أو في دار العلوم، فكانت تصل إلينا عن طريقهم أيضاً بعض نفحات الخارج، ونطّلع على بعض حوادث البلد.

حركة الخلافة:

لقد كان بدء شعوري وكنت بلغت الثامنة من عمري، إذ انفجر بركان حركة الخلافة في الهند، ولم يبق بيت من بيوت المثقفين الهندوس أصحاب الشعور والحساسية المرهفة فضلاً عن المسلمين إلّا وفيه ضجة وصدى لهذه الحركة، وكانت الهند كلها كأنها مرجل يغلي، فلا تجد مسجداً ولا مجلساً ولا بيتاً ولا نادياً ولا دكاناً إلّا وهذا الموضوع شغله الشاغل، وحديثه الحبيب الأثير، وكانت مدينتنا لكهنؤ التي لم تزل مركزاً للحركات السياسية من زمن طويل سابقة في هذا الميدان، فقد كان أحد كبار قادة هذه الحركة الشيخ عبد الباري الفرنجي محلي يسكن في هذه المدينة، وكان منزله في فرنجي محل مقراً لقادة هذه الحركة المسلمين والهندوس، وكان الزعيم غاندي أيضاً ينزل هناك ويكون ضيفاً عليه، أما الزعيمان محمد علي وشوكت علي فكان هو شيخهما ومرشدهما الروحي، وكانت أناشيد الخـلافة يُغنّى بهـا في كل مناسبة، وكانت تكأة كل خطيب وشاعر.

وكان الواحد يشعر في البلد بأن حكومة الإنكليز قد انتهت، وأن الحكم لمحمد علي وشوكت علي وغاندي، وأذكر مقدم ولي العهد البريطاني (Prince of Wells) إلى لكهنؤ أيضاً، خرجت من البيت لحاجة من الحوائج فرأيت المدينة يسيطر عليها السكون، ورأيت الأسواق العامـرة والشوارع المكتظة خالية موحشة، ليس بها أنيس ولا داع ولا مجيب، وقد كانت

الأقمشة الأوروبية يشعل فيها الحريق في منتزه أمين الدولة، وكان من يلبس الملابس الأوروبية يزورٌ عن الطريق، لقد شاهدت الزعيم محمد علي والزعيم غاندي عند ذاك، وكان ابن خالي السيد حبيب الرحمن يدرس في مدرسة ثانوية حكومية بأمين آباد، فترك المدرسة لحركة «ترك الموالاة» والتحق بمدرسة أهلية، وقد رأيت الوسامات الفخرية أو الوسامات التقديرية التي منحت للسبق والامتياز، وكانت عليها أسماء الحكام الإنكليز أو الكتابة الإنكليزية، تداس بالأرجل، يدوسها أقرباؤنا وأهل حارتنا، وترك آلاف من الناس الملابس الإنكليزية، بل التقاليد الإنكليزية كلها، واختاروا الملابس والتقاليد الوطنية، وحدث في حياتهم انقلاب كبير.

لقد كانت أسرتنا كذلك مؤيدة لحركة الخلافة كل التأييد، وكان ذلك ينسجم مع تقاليد الأسرة وحميتها الإسلامية، وتاريخها المجيد في الجهاد والبطولات، ورغم أن الوالد كان يحب العزلة والانقطاع، صموتاً يقل من الكلام، إلاّ أنه نشر دعوة إلى تأييد حركة الخلافة والدفاع عنها، ووقف نتيجة لهذه العاطفة الإسلامية تلك المعونة الحكومية التي كانت تمنح لندوة العلماء، ولما جاءت السيدة أم محمد علي في بعض جولاتها إلى راي‌ء بريلي حضرت إلى قريتنا لزيارة الوالدة وتعزيتها على مصابها بالوالد، وكانت تقضي أيام العِدّة، وأذكر جيداً أن كبار أفراد أسرتنا استقبلوها باحترام وتوقير كبير، فأجلسوها على السرير إلى بيتنا.

الإجراء المشؤوم بإلغاء الخلافة:

لقد كانت عواطف مسلمي الهند مع حركة الخلافة وشغفهم بقضيتها توقد، وحميتهم الإسلامية لها وغَيْرتهم الدينية عليها على حق وصواب، فقد كانت الخلافة منصباً دينياً محترماً، والحفاظ عليها فريضة من فرائض الدين، ولم يكن المسلمون في القرون الأولى ليتصوروا أن المسلمين يعيشون فترة ولو قليلة من الحياة بدون أن يكون عليهم «خليفة المسلمين».

وعندما يبدأ العلامة المؤرخ ابن كثير في كتابه: «البداية والنهاية» تأريخ

تلك السنوات التي فقد فيها أحد الخلفاء العباسيين في إحدى المعارك، في أواخر عصر الدولة العباسية، ثم عند استشهاد المستعصم بالله الخليفة العباسي الأخير حيث بقي عرش الخلافة خالياً لمدة سنين يقول:

«استهلت سنة. . . والمسلمون بلا خليفة».

وقد قال العلامة شبلي النعماني في قصيدته المعروفة التي عنونها بـ «كارثة البلقان»:

(إن زوال الدولة العثمانية في الواقع زوال ملك المسلمين وملتهم، فيا أيها الأحبّة إلى متى التفكير في البيت والأهل والبنين).

وأخيراً، قُضِيَ على ذلك المنصب الجليل الذي لم يزل قائماً من بعد وفاة الرسول ﷺ في شكل من الأشكال، وحافظ الأتراك العثمانيون ـ مع جميع علاتهم وما يؤاخذ به عليهم ـ على عظمته وجلاله، وأدخلوا الرعب في قلوب الأوروبيين، وحافظوا على الحرمين الشريفين. قُضي عليه بتحريك شفة وجرّة قلم على يد كمال أتاتورك ـ الذي بقي مسلمو الهند مدة من الدهر يمدحونه ويقرظونه ـ وكان ذلك في ٣٠/ مارس عام ١٩٢٤ م الموافق ١٣٤١ هـ، ولو سُئل أي يوم أنحس وأشأم للعالم الإسلامي في تاريخ القرون الأخيرة الطويل، فلا يسع أي مؤرخ بصير واقعي إلاّ أن يقول إنه يوم ٣٠/ مارس من عام ١٩٢٤ م، حيث حكم المجلس الوطني بالقسطنطينية بحل الخلافة والقضاء عليها، وبذلك انهدم ليس سور الأماكن المقدسة فحسب، بل سور عرض المسلمين وعزهم وكرامتهم الذي بناه الأتراك العثمانيون بتضحياتهم الجسيمة وقوتهم العسكرية، وبمكانة الخلافة المقدسة.

لقد كان هذا الحكم الصادر الجائر بإيعاز من القوى الغربية بل بإصرار منها، لا سيما الحكومة البريطانية، يقول المؤلف الفاضل لتاريخ الدولة العثمانية الدكتور علي حسُّون:

(واعترفت إنكلترا باستقلال تركيا تقديراً لنصيرها الأول مصطفى كمال،

وانسحبت من إستنبول والمضائق، وغادر (هارنجتون) البلاد ظافراً، وقد قام أحد النواب الإنكليز إثر ذلك واحتج على (كرزون) في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا، فأجابه هذا:

إن القضيــة هي أن تركيا قد قُضِيَ عليها، ولن تقوم لها قائمة، لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها وهي الخلافة الإسلامية)[١].

ومن الحقائق التاريخية أيضاً أن اللورد كرزن رئيس الوفد البريطاني في مؤتمر توران كان قد تقدم بأربعة شروط للاعتراف بتركيا:

١ ـ القضاء على الخلافة الإسلامية.
٢ ـ جلاء خليفة المسلمين.
٣ ـ مصادرة جميع أملاكه وعقاراته.
٤ ـ وإعلان الدولة العلمانية (اللادينية).

وهذه الشروط وإن لم يعترف بها الوفد التركي، ولكن جهود كمال أتاترك ومحاولاته أدت أخيراً بالبرلمان التركي إلى قبولها والاعتراف بها، وتحققت بذلك أحلام القوى الغربية، وعلى رأسها بريطانيا ـ التي كانت تحلم بها منذ زمن بعيد ـ وتمت هذه الخطة على يد قائد تركي يظن به أنه منقذ تركيا، وصدق ما قال الدكتور إقبال في أحد أبياته:

(لقد خرق الجاهل السفيه قباء الخلافة، فانظر سذاجة المسلم وشطارة الأجــانب).

وقد كنت لم أتجاوز بعد العاشرة من عمري عندما وقع هذا الحادث المشؤوم، ولذلك لم أكن أشعر عند ذاك بفداحة الخطب وهول الواقع ونتائجه البعيدة، ولكن عند ذكر حركة الخلافة التي يبدو لي الحديث عن قوتها

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية، ص/٢٧٣، علي حسـون، طبع في المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.

وحماسها واضطراب المسلمين من ذوي الغَيْرة والحمية وقلقهم لها كأنها حديث أمس، لم يستطع قلمي أن يكفَّ عن إبداء هذه العواطف والحقائق التي كان إدراكها وسَبْر غَوْرها فوق عمري وشعوري.

الفصل الثالث

وفاة الوالد، دراسة في البيت، بدء دراسة اللغة العربية عند الشيخ خليل بن محمد اليماني، دراسة الأدب الأردي، الوسط والهوايات، تحصيل اللغة العربية والأدب العربي.

وفاة الوالد:

كان اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة عام ١٣٤١ هـ - وكان يوم جمعة - الموافق ٢/ فبراير عام ١٩٢٣ م، هو اليوم التاريخي الفاصل الذي انقلبت فيه صفحة هذه الفترة الهنيئة من العمر بسرعة، بل انقلبت صفحة تاريخ هذه الأسرة الصغيرة الذهبية، وكان البيت انقلب رأساً على عقب، فقد فارق الوالد بعد مرض دام بضع ساعات هذه الحياة العارضة، وأسلم نفسه لبارئها، وقد كان ممَّا قدّر الله أنه لم يكن عنده حين وفاته إلّا أصغر أولاده الذي لم يجاوز عمره تسع سنوات إلّا شهوراً[1]، كان هو مشغولاً بالذكر القلبي، فلما انقطع صوته عرفت شقيقتاي وخافتا أن يكون قد حدث بالوالد حَدَث، وكان أستاذي الشيخ محمود علي رجع بعد إجازة يوم الجمعة التي كان يقضيها في بيته في المدينة، وجاء أحد الأطبّاء وأحد أصدقاء الوالد أيضاً، فتأكدّا من أنه فارق هذه الدنيا الفانية.

---

(١) يعني بذلك الكاتب نفسه.

وقد انتشر نبأ وفاته كالبرق في سائر البلد، وبدأ أصدقاؤه ومحبّوه يأتون البيت أرْسالاً، وكانوا يجلسون في عيادة الوالد في الدور الأرضي، وكان مركز مواساتهم وتعزيتهم ولد صغير لم يكن يفقه ما وقع بغتة، وما يجبُ عليه في مثل هذا الموقف، ومن هم هؤلاء الزائرون، ما هي مكانتهم ودرجتهم، وكيف وبماذا يجيبهم!!

فكان منهم من يجلسني حباً وشفقة بجنبيه، ومنهم من يضمّني إلى صدره، ومنهم من يمسحني حبّاً وحناناً، كانت العيون تدمع والقلوب ترقّ وتحنّ، أما الذي كان يستحق هذه التعازي، ويقدر على شكرها، وإيفاء الموقف حقه ـ وهو أخي الأكبر ـ فقد كان على مسافة ألف ميل في مدراس، ولم يكن عنده أي فكرة عن الحادث.

مع عطف الأخ الأكبر وإشرافه:

كان أخي الأكبر فاجأه هذا النبأ في بومبائي، فقد أخبره بذلك أحد أصدقاء الوالد، فلما رجع إلى لكهنؤ توجه من وقته إلى رائي بريلي، وقصد قبر الوالد أولاً، وصحبته أنا أيضاً، وكأنني أراه الآن وهو يبكي على القبر بدموع غزار، ومن يوم ذلك شعرنا فيه بتحول كبير، فلم يكن هو الآن الشاب الطالب الذي كان منصرفاً إلى دراسته، لا شأن له بقضايا البيت وشؤونه، بل كان هو الآن الأب الشفوق لنا، نحن الأخوة والأخوات الصغار، والابن البار بالوالدة، بل خادمها المطيع البار، فلم أكن أرى فيه الشفقة الأبوية فحسب بل كان يبدو منه حنان الأم أحياناً.

وأقدِّم هنا بضعة أسطر من رسالة عزاء كتبها إليَّ الأمير السيد علي حسن المرحوم ـ ابن الأمير العلاَّمة السيد صدِّيق حسن القِنَّوجي البهوفالي، الذي كان من أصدقاء الوالد ـ وهي رسالة تناسب عمري وتراعي حالي، وتلقي الضوء على ما كان يساور نفس المفجوع الصغير الحساس:

(لا ينبغي أن يجول في خاطرك أن «بابا»[1] غير موجود، فكيف أتعلم

---

(١) كنت أدعو الوالد «بابا».

وأدرس؟، فقد سمعت أنك تقول ذلك للناس في حزن واضطراب، فبارك الله في حياة أخيك الأكبر الحنون، فسوف يوفر لك كل وسائل التعليم، وعلاوة على ذلك، فإن أنظار كل الناس متجهة إليك، فلا تدع للفزع والاضطراب إليك سبيلاً، فإنك سوف تتعلم ـ إن شاء الله ـ بكل هدوء وسهولة، وأدعو الله تعالى أخيراً أن يطيل عمرك ليرفع بك منارة أسرتك).

الإقامة المؤقتة في القرية في تربية الوالدة:

لم يكن هناك أي داع ومبرّر لبقاء الأسرة في لكهنؤ بعد وفاة الوالد، فقد ذهبت العيادة الطبية ومسؤولية الإشراف على ندوة العلماء مع ذهاب الوالد رحمه الله تعالى، وكان أخي الأكبر في السنة الرابعة من كلية الطب، ولم يكن عندنا مورد آخر ولا عقارات، فكان الأخ الأكبر نفسه يواجه مشاكل اقتصادية في استمراره في الدراسة، ودراسة الطب في ذلك الزمن تكلف نفقات كبيرة، والإقامة في لكهنؤ غالية، وجزى الله تعالى خيراً زوجة الأمير السيد نور الحسن وابنيه: السيد ظهور الحسن، والسيد نجم الحسن، برّد الله مضجعهم وأطاب مثواهم، فقد أثبتوا أنهم أقرب من الأقارب في علاقاتهم الكريمة وحبهم وعطفهم، فقد عرضوا علينا الإقامة بمنزلهم الفخم، وتركنا بيتنا الذي كان مستأجراً، فقبل أخي هذا العرض الكريم، وسلَّموا هم جانباً من قصرهم الفخم الكبير الذي كان منفصلاً بعض الشيء، ومستقلاً عن سائر البيت، لينقطع فيه إلى مطالعته ودراسته، وتمَّ نقل مكتبتنا الغنية بالمخطوطات والكتب النادرة ـ وفيها مسوَّدات الوالد الثمينة ـ من ذلك البيت إلى هذا المقرّ، وقد استضافت هذه الأسرة الكريمة أخي الأكبر، بل عاملته كأحد أفراد الأسرة إلى نهاية مدته الدراسية، ولم تفرق قط بينه وبين أولادها الأعزة، أما أنا والوالدة والأخوات فقد انتقلنا ليلة وفاة الوالد إلى رائي بريلي.

لقد كانت دراستي للغة الفارسية مستمرة، وقد بقي الشيخ الذي كان يدرسني الفارسية بلكهنؤ، ولكني استمررت في دراسة الفارسية عند عمي

السيد محمد إسماعيل[1] وكان حاذقاً للغة الفارسية، وكنت أتعلَّم الحساب والخط الأردي عند أستاذ آخر كان يأتينا من قرية مجاورة.

لقد كانت والدتي ـ لعدم وجود الرجال في البيت ـ هي المسؤولة الأولى عن مراقبتي وتقدّمي وتربيتي الدينية، وقد حفّظتني بعض السور الكبيرة من القرآن الكريم في تلك الفترة، ورغم أنها كانت معروفة في الأسرة يضرب بها المثل في الشفقة والحنان، وكانت لرحلة الوالد تداريني وتلاطفني وتحنُّ عليّ أكثر من عامة الأمهات، إلّا أنها كانت ذات صرامة وشدة في أمرين، كانت لا تتحمل أبداً التساهل والكسل في الصلاة، فإذا نمت قبل العشاء مثلاً فلا بدَّ أن توقظني وتأمرني بالصلاة، ولو كنت في نوم ثقيل، كذلك كانت تصحِّيني في الفجر وترسلني إلى المسجد، ثم تأمرني بتلاوة القرآن.

والأمر الثاني الذي لم تكن ترعَى فيه شيئاً ولم يكن يحول دونه أي حب وشفقة، هو أنه إذا تعدَّيت مثلاً على أبناء الخادم أو الخادمة أو أي طفل من أطفال الفقراء والمساكين أو عاملته بالعجب والكبر أو احتقرته، عاقبتني على ذلك وأمرتني بأن أطلب منه العفو، وأتصاغر أمامه مهما شعرت في ذلك بإهانة وجرح كرامة، وقد انتفعت بذلك كثيراً، واستولى عليَّ الخوف من العجب والكبر والظلم والعدوان، وبدأت أشعر بأن إيذاء شخص وكسر قلبه واحتقاره كبيرة من الكبائر، ولذلك سهل عليَّ دائماً الاعتراف بالخطأ والإقرار بالغلط.

ويحلو لي وأنا أذكر هذا النمط من تربية الوالدة أن أذكر حقيقة كتجربة عملية وتوجيه للمربين والمربيات: أن في نشأة الأطفال الدينية والخلقية، واستعدادهم لأن يوفقهم الله تعالى لخدمة دينه ويشرفهم بقبوله دخلاً كبيراً لأمرين، أولهما: أن يجنَّبوا من الظلم والتعدِّي وكسر القلوب، حتى لا يؤثر أنين رجل جريح القلب أو دعاء مظلوم معتدَى عليه على مستقبلهم، والثاني:

---

(١) هو حفيد بنت السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وقد انتقل من طونك إبان حركة الخلافة إلى وطنه القديم رائي بريلي، وسكن في بيتنا للقرابة القريبة.

أن يكون طعامهم حلالاً بعيداً كل البعد عن مال الغصب والمال الحرام والأموال المريبة، وقد هيأ الله تعالى لهذا العبد الضعيف هذين الأمرين، فقد كان أجدادنا لم يمتلكوا الأراضي والعقارات والأموال والحقوق المشتركة منذ زمن طويل، وكان دخل الوالد من خالص عيادته الطبية، ولم يحفظني الله تعالى من أموال الشبهة فحسب بل حفظني من طعام البدع والرسوم والتقاليد الهندية الشائعة، كطعام يطبخ على موت أحد الأقارب ويدعى إليه الناس أغنياء وفقراء.

وكان من أعراف الأسرة وتقاليدها الطيبة أنه إذا أصيب أهل البيت بحادث حزن أو أسى، وفجعت القلوب وضاقت النفوس أو ألمت بنا ملمة، اجتمع أفراد الأسرة في بيت من بيوتها وتشاغلوا ساعة أو ساعتين بإنشاد منظومة الجهاد وغزوات الصحابة التي جاءت في «فتوح الشام» للواقدي، وقد ترجمه في الشعر أحد مشايخ أسرتنا زوج عمة الوالد السيد عبد الرزاق كلامي[1]، واشتملت هذه المنظومة أو الملحمة الإسلامية على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيت يمتلىء قوة ودفقاً وحماساً، ويصور المعارك الحربية كأنها قائمة على قدم وساق، وتغلي الدماء غَيْرة وحمية، ويذكر الشهادة بصورة تضطرب بها القلوب وتتمنى الموت في سبيل الله، وينسى الإنسان في خضم آلام الصحابة والمجاهدين وجراحاتهم همومه وأحزانه.

وكانت خالتي الكبرى السيدة صالحة بنت السيد ضياء النبي الحسني التي كانت تحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب تنشد هذه المنظومة التي تسمى «صمصام الإسلام» في لحن مؤثر شجي جَميل، وقد ذلَّ لسانها بالكتاب لكثرة قراءتها وإنشادها له، كان يعقد هذا المجلس للإنشاد بعد العصر بصفة عامة، فكان الأطفال أيضاً يصلون وهم يرتعون ويلعبون إلى أمهاتهم، أو يأتونهن لحاجة، وحاجات الأطفال كثيرة، ومتنوعة وهي مربوطة غالباً بالأمهات، فيجلسون حيناً عن قصد وحيناً عن غير قصد، أو تجلسهم

---

(١) لقب شعري على عادة شعراء إيران والهند.

الأمهات عندهن ليسمعوا، فكانوا يجدون فيه من الطرب والاهتزاز ما ينسيهم ألعابهم، فيشاركون المجلس ويستمعون.

الطفولة اليائسة:

ولا بأس أن أصارح هنا بأن طفولتي لم تكن مرجوةً تُعَلَّقُ عليها في ظاهر الأمر الآمال الكبار، بل كانت طفولتي يائسة لا تبعث الآمال ولا تبشر بمستقبل زاهر، بل إن كثيراً من أترابي وأطفال الأسرة كانوا يَفْضُلونني بصفة عامة في الذكاء والشعور، وكانت والدتي ـ بطبيعة الحال ـ تحزن لذلك، وكانت كثير من نساء الأسرة ورجالها يعلقون على هذا الوضع بما يهيج حزنها ويزيد من شعورها المرير.

ولكن ذلك جاء بفائدة كبيرة، فقد أفرغت والدتي ما في كنانتها من أدعية وابتهالات لتربيتي وصلاحي وتحصيلي للعلم، وقبولي عند الله وعند الناس، ونجاحي في جميع الأمور، وأصبحت هذه الأدعية الحارة الخالصة وِرْدها الدائم، وصدر من قلمها ولسانها منثوراً ومنظوماً في هذا الصدد ما يقلّ نظيره في أدعية الأمهات وابتهالاتهن في هذا العهد، وكانت تحكي لي أنها في هذه الحالة من الاضطراب والقلق رأت والدها المرحوم[1] في المنام، يذكِّرها بمنامها القديم الذي رأت فيه أن شخصاً يبشرها بقوله تعالى: ﴿ فلا تَعْلَم نفسٌ ما أُخفي لها من قرة أعين ﴾ وقال: لماذا تضطربين وتخافين!؟.

والواقع كما أعتقد أن ما قدَّر الله لي من الخير، وما آتاني به من الفضل والزلفى لدى عباد الله الصالحين، وما منحني من عطفهم وأدعيتهم، كل ذلك يرجع إلى تلك الأدعية المضطرة التي كانت تدعو بها والدتي، وصدق الله العظيم:

---

(١) هو المربّي الكبير، العابد الزاهد الأوّاب، السيد ضياء النبي بن السيد سعيد الدين الحَسَنِي، الذي وصفه صاحب «نزهة الخواطر» بقوله: (بركة الدنيا، ولُبّ لباب العرفان) توفي في ١٥/ من ذي القعدة ١٣٢٦ هـ.

﴿أمّن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه، ويَكْشِفُ السوءَ، ويجعلكم خلفاءَ الأرض﴾[1].

ولما بدأت أشدو وأكتب، نصحتني والدتي وأكّدت الأمر بأن أبدأ كل ما أكتب بـ (بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم آتني بفضلك أفضل ما تُؤتي عبادك الصالحين) وقد بقي ذلك عادتي ودَيْدَني مدة من الزمن، ولا أزال أذكر في مناسبات كثيرة هذه الكلمات الصالحة.

يوم تاريخي مشهود:

ممَّا يجدر بالذكر من أخبار تلك البيئة التي كنا نعيشها ونطاقها المحدود، قصة عودة ابن خالي السيد سراج النبي الحسني من أمريكا ١٩٢٥م، فقد قام عند ذلك أبناء أخوالي وأعمامي، وشباب الأسرة الأعزة باستعدادات كبيرة لاستقباله، صنعوا الأعلام وأقواس النصر واشتغلوا بها أياماً، ثم خرج من كبار أفراد الأسرة وصغارها كل من كان يقدر على الخروج إلى المحطة، وكان يوماً تاريخياً مشهوداً في أسرتنا، وقد كنا نحن الأطفال والشباب فرحين مغتبطين.

ونشكر الله تعالى على أن ابن خالتي المحامي السيد محمد أحمد الحسني الذي مرَّ ذكره، وابن خالي السيد سراج النبي الحسني، عادا من إنكلترا وأمريكا بسلامة عقائدهما ودينهما، وتمسكهما بالصلاة وتلاوة القرآن الكريم واحترام الدين وأصحابه وحَمَلته، وقد علمنا أنهما حافظا على الصلوات والصيام في تلك المدن والبلاد، الموبوءة الثائرة على الدين والأخلاق، وبقيا محافظَين على مسلكهما ومعتقداتهما، وقد كان الشباب في القرية نظموا عند مقدم الأخ سراج النبي برامج منوَّعة للألعاب، وشهدت القرية أياماً حركة وسروراً وبهاءً.

الإقامة بمنزل الأمير السيد نور الحسن رحمه الله:

لما اطمأنَّ بأخي الأكبر المقام في منزل الأمير السيد نور الحسن

(١) سورة النمل: ٦٢.

المرحوم دعاني إليه، وبدأت أدرس «الفارسية» هنا على عمي السيد عبد الرحمن الذي كان بيته في هذه الدار، وكان أبناء السيد ظهور الحسن، والسيد نجم الحسن (نجلي الأمير السيد نور الحسن) أترابـاً لي نلعب سوياً، ونأكل سوياً، ونتصارع أحياناً، وكانت جدتهم تنظر إلينا نظرة سواء.

وقد أفادتني هذه الإقامة في هذا البيت الذي كان من قصور الأمراء العامرة، أن زالت عن عيني غشاوة المهابة للزينات والزخارف، ولم تبهر عيني قط مظاهر الإمارة والثراء، فقد شاهدت في هذا القصر أفخم وأفخر ما يمكن من مظاهر الزينة والثراء، فقد شهدت هذه الأسرة الكريمة العريقة في النسب والعلم دور الإمارة والرئاسة في عهد جدها العلاَّمة الأمير السيد صدِّيق حسن في «بهوفال» بلوازمه من خدم وحشم، وثراء ورخاء، وترف وظرف، مما لا يتوفر إلاّ في قصور الأمراء الكبار والملوك الصغار، ورأيت الطبقة الارستقراطية المترفة وآثار إمارة الولايات وشوكتها وجلالها، ولم يَبْقَ شيء من ذلك غريباً عليَّ أو طريفاً مستطرفاً يجلب الألباب ويبهر الأبصار.

وقد كان أخي الأكبر يلتزم في هذا الوسط بأمرين اثنين التزاماً شديداً، ويلاحظهما عليّ: الأول هل أصلِّي الصلوات مع الجماعة أم لا؟ فكان إذا جاء من كلية الطب ـ وكان مجيئه بعد المغرب أكثر الأحيان ـ سألني أحياناً: هل صليت الظهر والعصر والمغرب؟، فأجيب بالإثبات، وإذا شكَّ حيناً في جوابي أمرني بأن أصلِّي هذه الصلوات الثلاثة أمامه، والأمر الثاني أن لا أجالس المستخدَمين وحاشية السراي، وكان عددهم كبيراً، ولا أخالطهم، وأن لا أتناول كتاب رواية أو مسرحية من أحد وأقرأه، بل كان هو يختار لي الجيّد النافع من الكتب من مكتبتنا الشخصية ويأمرني بمطالعتها، وكان أول كتاب ناولنيه من هذه الكتب هو كتاب «سيرة خير البشر»، ثم طالعت بعد ذلك كتاب «رحمة للعالمين» وكلاهما في السيرة النبوية.

وقد كان أخي رحمه الله يجمع بين الثقافة الدينية والثقافة العصرية، وكان ذا اطلاع واسع وخبرة عميقة بمقتضيات العصر، وكان يعلم بأن اللغة

الفارسية يُطوى بساطها من الهند، وأن عهد اللغة العربية قادم، لذلك وقف دراستي الفارسية عند المرحلة المتوسطة، وقد حصل لي من معرفة الفارسية وأدبها ما أستطيع به أن أطالع كتب الطبقات والرجال والحقائق والمعارف في الفارسية، ورسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي، وإزالة الخفاء للإمام الدهلوي، وقد بدأت بأمره وإشرافه بتعلم اللغة الإنجليزية في تلك الفترة.

وعهد بتدريسي اللغة العربية إلى أحد أصدقائه وأستاذ اللغة العربية المنقطع النظير الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الأنصاري اليماني البوفالي، وقد كانت هذه الأسرة اليمانية تتلمذ عليه عقبان من أسرتنا، فقد كان والدي تلميذ جده الشيخ حسين بن محسن الأنصاري في الحديث، وتلميذ والده الشيخ محمد بن حسين في الأدب العربي.

بدء تعلم اللغة العربية:

بدأ تعلمي للغة العربية في أواخر عام ١٩٢٤ م، ولما عهد بذلك أخي الأكبر إلى الشيخ خليل بن محمد بأن يدرسني العربية، كتب الشيخ الدروس الأولية من الصرف على الدفتر وحفظتها، ثم بدأ بعد أيام بكتابه المختار في المقرر الدراسي عنده «المطالعة العربية»[١].

كان الشيخ خليل محاضراً في جامعة لكهنؤ المدنية، وكان يدرسنا في منزله منصرفاً إلى ذلك بكل همة، وكان فيه أنشط منه في الجامعة، وكان لي زميل واحد في هذه الدراسة وهو أخوه حسين بن محمد، فكان الصف يتكون من هذين الطالبين، ولأجل أننا كنا اثنين اقتسمنا رصيدنا من إقبال المعلم

---

(١) هذا الكتاب أعدته وزارة التعليم المصرية باسم «المطالعة المصرية» وجاء به أحد الأساتذة للغة العربية في بنغال الشرقية، ونشره باسم «المطالعة العربية» بطباعة حجرية، وكان قد ألف على طريقة المقررات الابتدائية الجديدة، وكانت دروسها تلائم ذوق الأطفال وسنهم وبيئتهم، فكان الدرس الأول فيها على سبيل المثال «بقرتي» وكان هو الكتاب الأول في مقرره الدراسي للغة العربية.

الحاذق ورغبته في التدريس مشاطرة، له نصف ولي نصف، وهذا من سعادة حظ الطلاب، والآن لا يحصل الطلاب في الصفوف الكبيرة إلا ٥، أو ١٪ في المائة من نصيبهم لكثرة عددهم، وقد اطّلع الشيخ بصغر الحلقة على كل شيء فينا، فكان يعرف مواطن الضعف ومواضع التفوق في كل واحد منّا.

لقد كانت دراستي للغة الإنجليزية اسمية فقط، أما دراستي للغة العربية فكانت على قدم وساق، وقد كان للشيخ خليل مقرر دراسي خاص اختاره باجتهاده، اشتمل على بعض الكتب المصرية المقررة في مدارسها كـ «الطريقة المبتكرة» (١ ـ ٤) و «مدارج القراءة» (١ ـ ٣) وكتاب «كليلة ودمنة» و «مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع»، وألزمنا بعد أيام الكلام بالعربية، وإذا تكلمنا بالأردية غرمنا أربعة فلوس أو فلسين، وقد لزمتنا هذه الغرامة مراراً، وكان التركيز عنده في الصرف والنحو على التمرين وصحة القراءة وفهم وجوه الإعراب وبيانها، كما كان التمرين على الإنشاء مقرراً أيضاً، وكان طريق التدريس اليومي أن نحضر لديه بعد إعداد الدرس إعداداً كلياً، ثم نسمعه، وكان هذا الالتزام في كتاب «كليلة ودمنة» أكثر، وكانت نسختي من هذا الكتاب مليئة بالأخطاء، فكان من اللازم تصحيحها، وإعداد الدرس منها.

وقد ألقى الشيخ علينا الدروس الابتدائية في النحو من كتاب «الضريري» للمؤلّف أبي الحسن علي الضرير، وقد استوعب هذا الكتاب جميع المسائل الضرورية في النحو التي تمس إليها الحاجة عملياً، وهو خلو من فقه النحو أو فلسفة النحو، وقرأت بعض كتب النحو والصرف المقررة في المدارس الهندية على العم السيد عزيز الرحمن الذي كان يدرِّس هذا الكتاب بجد واهتمام بالغ لا تساهل عنده في ذلك ولا مسامحة، وكنت إذا جئت إلى رائي بريلي لعدة أيام أدرس عليه الكتب العربية أيضاً التي كنت أقرأها على الشيخ خليل، وكان من الواجب علينا في «مجموعة من النظم والنثر» أن نحفظ النثر أيضاً، ونسمعه.

ولما انتهينا من هذه الكتب الابتدائية جاء دور الكتب القديمة المهمة «كنهج البلاغة»[1] و«مقامات الحريري» و«دلائل الإعجاز» للجُرجاني و«القصائد العشر».

لقد كان الشيخ فريداً لا يوجد له مثيل في تطعيمه للطلاب بذوقه ورأيه، فكان يملك صلاحية غريبة مدهشة في صبغ الطلاب بأفكاره وآرائه، بحيث تتغلغل في أحشائهم وتمتزج بلحومهم ودمائهم، ونفخ الروح في الكتاب الذي يدرسه، وإنشاء الذوق الصحيح والملكة الصالحة في الفن الذي يتناوله، وتقريب الطلاب إلى مؤلف الكتاب ذوقاً ومسلكاً ومشرباً، لقد كان هو نادرة في هذا الأمر، لا يوجد مثله في الآلاف إلّا الواحد بعد الواحد من الأساتذة البارعين وأصحاب النبوغ الماهرين، وهي ملكة موهوبة وليست بمكتسبة.

لقد شاهدت في الشيخ ملكة عجيبة في التذوق الصحيح للعربية وآدابها ولغتها، ونقلِ هذا التذوق إلى الطلاب، لعلها يندر نظيرها في الأوساط العلمية والعربية في البلاد العربية، فضلاً عن الهند التي كانت محرومة من قرون من الذوق الصحيح للعربية وطريقة التدريس الصالحة.

توفيق من الله:

لقد ابتليت أيام القراءة على الشيخ خليل مرة بمحنة كانت في بادي الأمر هيِّنة تافهة، ولكنها كانت ذات أثر حاسم في نجاحي في تحصيل اللغة العربية وآدابها ودراستي للعلوم العربية، حدث أن شكا أستاذي في اللغة الإنجليزية وأخذ عليّ قلة الأدب معه، وكان ناشئاً عن سوء تفاهم، وكان الشيخ كبير الثقة به والتقدير له، وتأثر الشيخ بذلك، واستأذن أخي الأكبر أن يؤدبني على ذلك، وقد كانت عنده حِدَّة، فزاد هذا الحادث الطين بلة، واشتعل الشيخ غضباً، وضربني على ذلك ضرباً شديداً موجعاً زاد على حجم

---

(١) مجموع خطب ورسائل منسوبة لسيدنا علي بن أبي طالب جَمْع الشريف الرَّضي.

الخطأ والحادث، وأحسَّ الشيخ فيما بعد أنه أفرط وخرج عن حدِّ الاعتدال واعتذر إليّ في ذلك.

ووصل الخبر بطريق من الطرق إلى الوالدة برائي بريلي، فسألتني وقالت علمت أن الشيخ خليل ضربك ضرباً مبرّحاً تخطّى الحد، فهل الخبر صحيح؟ ووفقني الله تعالى عند ذلك، فدافعت عن الشيخ وأثبتُّ أن الحق كان معه في تأديبي وضربي، واطمأنت الوالدة، واستمرت دراستي، وأنا أعتقد أن هذا الموقف المشرف السعيد الذي كان نتيجة توفيق من الله تعالى ليس غير، لعب دوراً حاسماً في مستقبلي فيما وُفّقت له من تذوّق اللغة العربية وآدابها ومساهمة متواضعة في خدمة العلم والدين عن طريقها، فإنه لو كان الوضع بالعكس من ذلك، ودافعت عن نفسي، وبرَّأت ساحتي، واتهمت أستاذي ومربيّ بتخطّي الحد المعقول في العقوبة والتأديب، لكانت النتيجة بالعكس، وحرمت ثمرات تعليمه وتدريسه، ونجاحي في اللغة العربية وآدابها، وذلك من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر.

مطالعة اللغة الأردية وآدابها
وبعض الكتب النافعة:

لقد كان من حسن حظي أنني قرأت في سنيَّ المبكرة وأيام دراسة اللغة العربية الأولى كتباً تعتبر في القمة في اللغة الأردية وآدابها، ومعلوم أنَّ الدعاة والعلماء الذين لا تسع لهم الفرصة في سنيِّهم المبكرة لدراسة لغة البلاد وآدابها والتذوق لها، أو يطالعون كتبها في الكبر، يواجهون صعوبة كبيرة في القيام بدعوة مؤثرة، وتفسير المفاهيم الدينية وتعليمها، وشرح الفكرة الإسلامية وغرس المقاصد والأهداف الدينية في نفوس الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، وتخلو كتاباتهم وإنشاؤهم من القوة والتأثير والروعة والجمال الذي لا بدَّ منه في هذا العصر.

وقد كان ابن خالي السيد حبيب الرحمن يدرِّس في الجامعة المليَّة بدلهي، وكان له شغف زائد بالشعر، وكان من عادته أن يسأل الطلاب الصغار عن معاني بعض الأبيات لِكبار الشعراء، ويعقد بينهم مسابقات كتابية وخطابية

في الأردية، وقد ساعدني سماعي لأبياته المختارة وشرح معانيها ومفاهيمها على طلبته في التركيز الذهني في ذلك، وفهم الأبيات الغامضة الدقيقة، كما أن لأخيه الأكبر السيد أبي الخير أيضاً منة عليَّ في فهم الشعر وتذوقه والاستنتاج منه، وقد كان هو شغوفاً بمناهج أهل اللغة[1] الذين يُعتمَد عليهم، ويُحتجُّ بكلامهم وأساليبهم وصحة الألفاظ، وكان حجة في التعبيرات اللغوية وتذكير الكلمات وتأنيثها، كان يقرض الشعر ويجيد فيه.

وقد كثرت في ذلك العصر حفلات إنشاد الشعر والمساجلات الشعرية، فقد عقدت في قريتنا الصغيرة عدة حفلات من هذا القبيل، وحاولت أيضاً ـ تقليداً وتأثراً بما شاهدت ـ أن أنظم شيئاً، وجزى الله تعالى أخي الأكبر فقد منعني من ذلك بشدة، وانقطع هذا العمل الذي كان يخشى منه ضياع الوقت والجهد.

وتأثرت في الكتابة الأردية أولاً بأسلوب الوالد رحمه الله التاريخي الأدَبي، الذي هو نموذج جميل لكتابة متينة رصينة، يحمل مع جِدّيّة التاريخ ودقته رونق اللغة ورواءها، وقد تجلّى أثر تقليد هذا الأسلوب في مقالي الأول في أردو كان عنوانه: «الأندلس».

وأذكر من حوادث تلك الفترة أنني مرة وقع نظري على اسم كتاب «رحمة للعالمين» في قائمة مكتبة شبلي التجارية في لكهنؤ للقاضي محمد سليمان المنصور فوري، ووجدت في نفسي فور قراءة اسمه انجذاباً وشوقاً إليه، فطلبت الكتاب بالبريد، وجاء الكتاب، ولم يكن عند والدتي ما تدفع به ثمن الكتاب، فاعتذرت عن تسلُّم الكتاب، فلجأت إلى البكاء وهو ملجأ الأطفال الأخير والشفيع الذي لا يرد شفاعته، وتطوَّع أحد الأقارب الشيوخ فدفع الثمن حتى تسلَّمت الكتاب، وقرأته في شغف وشوق وانقطاع إليه وتفان

---

(١) كانت العمدة في ذلك الزمن ـ ولا يزال إلى حد كبير ـ على لهجة لكهنؤ ودهلي، وكانت تعتبر كلغة قريش أيام الجاهلية وأيام الإسلام الأولى.

فيه، وقلَّ ما كان لكتاب آخر من التأثير في قلبي وعقلي مثل ما كان لهذا الكتاب[1]، فكان إخلاص المؤلف وإيمانه، وطرازه الخاص في الدعوة والتربية، وبساطة حوادث السيرة وجمالها وتأثيرها الذي نفذ منه إلى جسمي وروحي تيّار كهربائي، وأرى أن هذا الكتاب من الكتب التي لها منّة جسيمة عليَّ، وأنا دائم الترحم على المؤلف والدعاء له بالقبول عند الله تعالى ورفع الدرجات.

الإقامة الثانية في لكهنؤ

في الحَيّ القديم:

كان عام ١٩٢٥م إذ حضر أخي الأكبر اختبار السنة الأخيرة لكلية الطب ونجح فيه، وأُعطي في نوفمبر ١٩٢٥م شهادة (M.B.B.S) «بكاليورس في الطب» وتأهل لفتح عيادته الطبية وفتح ـ فعلاً ـ في يناير عام ١٩٢٦م عيادته في الحيّ القديم[2] قرب عيادة الوالد القديمة، واستأجر بيتاً بمقربة منه في زقاق، وكان هذا البيت الجديد مقابلاً لبيت الشيخ خليل الذي كانت فيه مدرستنا الصغيرة، وبذلك سهل علينا الذهاب إلى المدرسة أكثر.

احتفال ندوة العلماء بكانفور:

كان احتفال ندوة العلماء بكانفور في ٥ ـ ٧/ نوفمبر عام ١٩٢٦م احتفالاً تاريخياً حضره كبار العلماء وقادة الفكر والدعوة في الهند غير المنقسمة، وقد أخذني أخي الأكبر الذي كان مساعد الأمين العام لها حينذاك في سفره معه إلى كانفور، وتركني في المكان الذي أعدَّ ليكون مقرّاً للضيوف، وكان أخي الأكبر يحضر عيادته الطبية ثم يأتي إلى كانفور ويحضر جلساته يومياً، وبقيت هناك حوالي ثلاثة أو أربعة أيام، ووجدت فرصة للزيارة

---

(١) اقرأ التفصيل في سلسلة مقالاتي الكتب التي عشت فيها، في كتاب «شخصيات وكتب». طبع ندوة العلماء في لكهنؤ (الهند).

(٢) ويسمى هذا الشارع الفرعي في الحي الكبير (أمين آباد) بـ«Gwynne Road».

لعدد من كبار أعيان الهند لأول مرة، فكان حاذق الملك حكيم أجمل خان[1] رئيس الاحتفال، ورأيت مولانا محمد علي جوهر[2] ومولانا ظفر علي خان[3]، لأول مرة وسمعتهما، وزرت من العلماء والمؤلفين الشيخ سليمان الفلواروي، والقاضي محمد سليمان المنصور فوري (مؤلف كتاب «رحمة للعالمين»)، والشيخ أبو عبدالله محمد السورتي، والدكتور ذاكر حسين نائب رئيس الجامعة المليَّة بدهلي الذي أصبح فيما بعد رئيس جمهورية الهند، وكثيراً من العلماء والأدباء والشعراء، وتحدثت مع بعضهم أيضاً.

وقد كنت بفضل تعليم الشيخ خليل وتربيته وتمرينه بدأت أتكلم بالعربية، فكان كلامي باللغة العربية عن حاجة أو لغير حاجة، وملبوسي الذي كان يزهو بلونه وكان منسوجاً بكلمة «ملبوس العافية» بلحمته وسداه التي كانت تلمع حروفها ونقوشها[4]، وكان ذلك لفت الأنظار إليّ، وكان من الحضور في الاحتفال الشيخ سعد الدين بَرّاده[5] من أدباء المدينة المنورة وشعرائها، وكان هو يحتاج أحياناً إلى من يستفسره عن الطريق أو يتكلم معه، فكنت أساعده بلغتي العربية المُكسَّرة، فشاع في وسط الضيوف المحترمين أن هناك ولداً في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره يتكلم بالعربية بطلاقة، فأحب الدكتور ذاكر حسين الذي كان رجع جديداً من ألمانيا والشيخ أبو عبدالله محمد السورتي لقائي ومشاهدتي، ودعواني إلى غرفتهما، ووجها إليّ بعض الأسئلة اختباراً، وقد أجبت عليها حسب فهمي وشعوري.

---

(١) هو من قادة حركة التحرير في الهند مشاركاً للزعيم غاندي، ومن مؤسسي الجامعة الملّية، والكلية الطبيّة في دهلي، وأول عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق من الهند.

(٢) زعيم المسلمين الأكبر وقائد حركة الخلافة، والصحافي والخطيب بالإنجليزية الكبير، دفين القدس.

(٣) الشاعر القدير المُفْلِق والزعيم الإسلامي، منشىء صحيفة «زميندار» الصادرة من لاهور.

(٤) كان هذا الملبوس من صنع بغداد، وأهدى بعض أصدقاء الوالد إليه في سورت.

(٥) هو ابن السيد عبد الجليل براده أحد أدباء المدينة المنوّرة وشعرائها المعروفين، الذي كان تلميذاً نجيباً لإمام الأدب في عصره الشيخ محمود التركزي الشنقيطي.

بيئة تلك الفترة وهواياتها:

وفي تلك الأيام التي أقمت فيها إقامتي الثانيـة في لكهنؤ ما بين ١٩٢٦ م - ١٩٢٨ م شُغفت بلعب «الهوكي» بل فُتِنتُ به، فكان هنا على مقربة منا ميدان فسيح فيه ناد للرياضة، شاركت فيه أنا والأخ أبو بكر[١]، وبدأنا نخرج إليه للعب الهوكي، وقد كان الأخ أبو بكر من اللاعبين المتفوّقين للهوكي، حتى إنه كان يعدُّ في اللاعبين الممتازين بجامعة لكهنؤ، وكان يشارك كعضو ممتاز في الفرق التي تدخل في المباريات والمسابقات، أما أنا فلم أتجاوز في هذا الميدان الحد المتوسط، وقد كان من أسباب ذلك عقليتي وفلسفتي المبكرة التي تنافي روح الألعاب وتحول دون الرقي فيها، وهي أنه لا أهمية لإصابة الهدف، فلا داعي إلى حماس زائد وجهد كبير، فذلك الذي منعني عن التفوق في هذا المضمار.

وقد شعرت أنا إلى أي حد استشـرى الفساد في أبنـاء المدارس والكليات العصرية والمجتمع، وقد كان يشاركنا في هذا النادي شباب من الأحياء القريبة كان عدد منهم من أبناء الأسرة المحلية وعدد من المسيحيين، فكنت أسمع منهم كلمات وألفاظاً تنم عن فساد المجتمع وانحرافه، بل نتنه وتعفنه، وكانوا أحياناً إذا رأونا قادمين يسكتون أو يتناجون، ولكن الآذان كانت تتلقف منهم بعض الكلمات. كانت هذه الفترة من عمري وهي فترة المراهقة الفكرية والجسمية فترة محنة وابتلاء، وكانت فترة مظلمة إلى حد ما، لا أشعر فيها لمعاني الرجولة والأخلاق الفاضلة.

مع الأستاذ خواجه عبد الحي الفاروقي:

وقدم في تلك الأيام الأستاذ خواجه عبد الحي الفاروقي أستاذ التفسير بالجامعة الملِّيَّة بدلهي، على دعوة من أخي الأكبر، وكان أحد أصدقائه وزملائه في الدراسة، وأقام في بيتنا، ودرَّسني على طلب من أخي عدة سور

---

(١) هو السيد أبو بكر الحسني ابن عمّي ومن أترابي، كان أستاذاً في جامعة نهرو بدلهي، وقد تقاعد.

من الجزء الأخير، وكان هذا أول تعرف لي على منهج الشيخ عبيد الله السنّدي في التفسير والتفكير، إذ كان هو من جملته، ولأجل ذلك لم أشعر بأي غرابة في دروس فضيلة الشيخ أحمد علي اللاهوري الذي تشرفت بالتتلمذ عليه بعد أربع سنوات.

الاستفادة العلمية

من الشيخ السيد محمد طلحة الحسني:

وقرأت في تلك الأيام أيضاً على العم الشيخ السيد محمد طلحة الحسني، ولم يكن هو أستاذاً في الصرف والنحو فحسب، بل كان إماماً فيهما، وكانت له اليد الطولى في التمرين فيهما بصفة خاصة، وقد استفدت منه كثيراً في فهم القواعد النحوية والصرفية الضرورية، بحيث أصبحت جزءً من عقلي، وكان الشيخ لا يسمح أبداً بالخطأ النحوي أو الصرفي أو الغلط في العبارة، وكان ينكت بالطالب إذا وقع منه ذلك، ويتندّر عليه بالكلام اللاذع، وكان طالبه لأجل ذلك يأخذ بكل حذر ويقظة، واستفدت منه فوائد أخرى كثيرة غير اللغة العربية وقواعدها، كما استفدت منه في نضج تفكيري وتربيتي العقلية والذوق التاريخي والثقافة المتنوعة التي كان يمتاز هو فيها بين أقرانه.

كانت هذه الفترة التي لم أكن أحمل فيها ذوقاً دينياً خاصاً، ولا تشرفت بصحبة أحد الصالحين، ولم يكن عندي شغف واهتمام بشيء غير اللغة والأدب والألعاب، ولم تكن في البلد أي حركة أو دعوة دينية تقوم بالتربية والإصلاح حتى أستفيد منها وأشتغل بها، إنما كانت تعقد أحياناً احتفالات قومية وسياسية بمقدم مولانا محمد علي، أو مولانا أبو الكلام آزاد، وقد رأيتهما ورأيت مولانا ظفر علي خان في تلك الأيام وسـمعت خطاباتهم.

الالتحاق بجامعة لكهنؤ:

كانت أوائل أغسطس عام ١٩٢٧ م، وكنت إذ ذاك في رائي بريلي، اقرأ حسب إرشاد الشيخ خليل ومقرره الدراسي على العم السيد طلحة، إذ

جاء أخي الأكبر من لكهنؤ، وقال للوالدة: سأذهب بعلي إلى لكهنؤ لأنه سوف يلتحق بجامعة لكهنؤ في صف دراسة الأدب العربي[1]، وكنت لم أتجاوز ١٤ سنة من عمري، وكنت كـ «الميت في يد الغسَّال» كما يقولون، فلم أكن أستطيع أن أراجع أخي العطوف وأستاذي الشفيق الشيخ خليل فيما يقرران ويحكمان، فضلاً عن أن أخالفهما، ولكن هذا القرار كان منافياً لذوق الأخ الأكبر واتجاهه الشخصي، إذ أنه كان بطبيعته يخالف الدخول في الاختبارات الشرقية، في الجامعات المدنية الحكومية، ولعله قد قرر ذلك بناءً على رأي الأستاذ خليل وإصراره، الذي كان يدرس في صفوف الليسانس والماجيستر في الآداب، وكان يرى فائدة الاختبارات العربية في الجامعات، لأنها تمهد السبيل للاختبارات الإنكليزية والوظائف الرسمية.

وعلى كل فقد سافرت مع أخي اليوم القادم، ووصلت في ٨/ أغسطس عام ١٩٢٧ م إلى الجامعة للفحص الأول عند الالتحاق، وكان الأخ أبو بكر أيضاً من طالبي الالتحاق، وأذكر أنني كنت أصغر المرشحين سناً، فقد كان طلبة الالتحاق أكثرهم من خريجي المدارس العربية وأصحاب اللحى من الشباب، حتى قال لي أحد الشباب الجامعي هازئاً: يا هذا كيف سمحت أمك بمجيئك إلى هنا؟، وقد كان من الممتحنين للالتحاق شمس العلماء الشيخ حفيظ الله عميد دار العلوم ندوة العلماء، والدكتور زبير الصدِّيقي رئيس القسم العربي، والشيخ علي أصغر أستاذ القسم. ووضع أمامي «رسائل أبي بكر الخوارزمي» فقرأت عبارة الكتاب بكل سهولة، وفسَّرت المعنى، وأجبت عن الأسئلة، وقبلت للالتحاق، ولكن رغم هذا الالتحاق وحضوري في الفصل بالجامعة واصلت قراءتي على الشيخ خليل أيضاً حسب السابق، وقد كان هذا الدرس في البيت أنفع وأجدى وأكثر غرساً للذوق وقوة الفهم، وكان يشاركني في هذا الدرس عدد من زملائي في الفصل.

لم يكن هنالك مغمز في مقررات «قسم الأدب العربي» بالجامعة، فقد

---

(١) كان يسمى هذا القسم في الدراسات الشرقية في الجامعة بـ «فاضل أدب».

كان اختيار هذه المقررات وترتيبها بناءً على توجيه الشيخ خليل الأساسية، الذي كان صاحب نفوذ وتأثير كبير على القسم العربي، حتى إن الموظفين من غير المسلمين كانوا يحترمونه ويُجلّونه، وكان رئيس القسم كذلك يستفيد منه وينتفع به، ولا حاجة لي إلى تفصيل القول في مقررات الصف، فقد كانت أكثر كتبه مما كنت قرأتها من قبل، وكانت الصعوبة أمامي في شيئين: أحدهما فن العروض الذي كان المقرر فيه كتاب «محيط الدائرة» وليست لي مناسبة بهذا الفن لا قديماً ولا حديثاً، وثانيهما المسائل النحوية الدقيقة وشقّ الشعرة فيها، ولم أكن أملك في هذا العلم إلّا المسائل العملية الضرورية من النحو وفهمها والتمرينات لها.

وقد عقد الامتحان السنوي في أبريل عام ١٩٢٨ م، وقد أجبت إجابات جيدة في جميع المواد لا سيما مادتي الإنشاء والتحرير، وكان خطى بالأردية والعربية أيضاً جيداً، ولكن لما ظهرت النتيجة دهش الجميع برسوبي في الامتحان، وعلم أن رسوبي يرجع إلى كتاب الحماسة، وقد كـانت في الامتحان أسئلة نحوية دقيقة فوق متناولي وأخبرني المطلعون على القسم أنني لو نجحت لكنت مبرزاً، ولقد حزنت وحزن أخي وأستاذي ولا سيما الوالدة لهذا الرسوب، ولم يخل من حكمة إلّهية في التربية، فقد أراد الله أن أجرب الرسوب والإخفاق وأتحمله وأصبر عليه وأضطر للجد والجهد مرة ثانية.

وفي اختبار العام الثاني أي عام ١٩٢٩ م استعدت من الرسوب كل حقوقي، وبرزت في الامتحان وكنت ممتازاً في فصلي، وتحققت لي المنحة والميدالية الذهبية، وكانت المنحة يشترط لها الالتحاق بأحد الفصول في هذا القسم، فرأيت من المصلحة أن ألتحق بفصل «الفضيلة في الحديث» أي التخصص في الحديث، ودرست سنة كاملة وتسلمت المنحة، أما الميدالية الذهبية التي كنت أستحقها فلم تكن من حظّي لأن أي ثريّ من الأثرياء لم يكن قد تبرَّع ذلك العام لهذا الغرض، فبقيت أمنية الحصول على الميدالية حبيسة في الصدر، ولعل قيمتها لم تكن تعدو مائة روبية في ذلك الوقت، ولو

تنبأ متنبّىء في تلك الأيام أنك سوف تنال جائزة من حكومة موقرة محترمة كالسعودية التي تتشرف بخدمة الحرمين الشريفين، وسوف تمنح وساماً ذهبياً غالياً[1] لا تساويه هذه الميدالية الذهبية في قليل ولا كثير؛ لم يصدق به أحد، ولكن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزوّدِ
ويأتيك بالأخبار من لم تَبِعْ له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعدِ

وفي هذا العام ١٩٢٩ م قام حاكم الولاية الإنجليزي سرمالكم هيلي بتوزيع الشهادات في حفلة تخريج الطلاب وتوزيع الشهادات (Convocation)، وتسلمت أيضاً مع زملائي الأخ أبو بكر وغيره الشهادة، وهكذا صُدمت في حياتي بأن أتسلم شهادة في اللغة العربية وآدابها من حاكم إنجليزي وأحد أفراد الشعب المعادي للإسلام، ولكن ينبغي أن يحكم على كل شيء باعتبار المكان والزمان ويوزن بميزان عصره وبيئته، فلم يكن ذلك معيباً في تلك البيئة التي أتحدث عنها والعصر الذي أؤرخه.

لقد اشتركت في امتحان «فاضل الحديث» من دون جهد ودراسة ونجحتُ فيه، إلا أنني عندئذ قد ملكت من الشعور ما منعني من تسلم شهادته إلى يومنا هذا، وقد مضى عليها نصف قرن.

حرمان:

لقد كان في تلك الأيام في أسرتنا نموذج حيٌّ للسلف الصالحين وأحد العلماء الربانيين، يدعى بالشيخ السيد محمد أمين الحَسَنِي النصير آبادي، كان هو في فرع أجدادنا بنصير آباد لعله كان قد بايع شيخ عصره السيد خواجه أحمد النصير آبادي في طفولته، إلّا أن تربيته الروحية كانت على يدي جدي لأمي الشيخ السيد ضياء النبي الحسني، وقد كان من كبار حماة السنة والمدافعين عنها والمحاربين للبدع والخرافات، وكان يقدِّم الجزء الأول من

---

(١) إشارة إلى جائزة الملك فيصل التي نالها المؤلف في ٢٦/ صفر عام ١٤٠٠ هـ - ١٦/ يناير ١٩٨٠ م، وتأتي حكايتها في مكانها.

حديث رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، فيعمل بالتغيير باليد جهد المستطاع، وقلما يضطر إلى الدرجتين التاليتين من الحديث، وقد أحيا الله به سنناً كثيرة، ونشر على يديه الصلاح والاستقامة في مديريات قريبة، وتاب على يديه آلاف مؤلفة من الناس من البدع والمنكرات، وتمسكوا بالسنن والطاعات وشعائر الإسلام، وقد رزقه الله تعالى قبولاً عظيماً وجاهاً عريضاً، وكان قد أقام في وسط دعوته وعمله حكومة شرعية صغيرة، تنفذ فيها شريعة الله وأحكام الدين[1].

ومن العجيب أن الشيخ توفي في جمادى الآخرة عام ١٣٤٩ هـ الموافق عام ١٩٣١ م، وقد بلغت سنّ الرشد وكنت أتعلّم اللغة العربية، ولا تبعد نصير آباد من رائي بريلي إلاّ ٢٠ ميلاً، وكانت موطناً ومسكناً قديماً للأقرباء، ولا أدري لماذا لم يفكر أولياء أمري في إرسالي إليه والاستفادة وطلب الدُّعاء منه، وأنا على يقين أنني لو زرته لأبدى حبه وعطفه، لأنه كان يثني على والدي، ويعترف باستقامته وفضله، وكلما تذكرت ذلك تأسفت على حرماني من زيارته ولقائه.

---

(١) راجع ترجمته في «نزهة الخواطر» ج/ ٨.

الفصل الرابع

رحلة تاريخية إلى لاهور، مَقْدَم الشيخ تقي الدين الهلالي إلى دار العلوم ندوة العلماء ، توجيه الأخ الأكبر العلمي والفكري، الشغف الزائد بدراسة الإنجليزية ثم الانصراف عنها، وشهور في معهد ديوبند الكبير.

رحلة تاريخية إلى لاهور:

عندما سمعت عمتي ـ زوجة السيد طلحة ـ بلاهور بخبر نجاحي بامتياز كتبت إلى والدتي تطلب رحلتي إلى لاهور كجائزة على نجاحي، وكرمز للسرور والتشجيع، وقبلت الوالدة والأخ الأكبر هذا الاقتراح، وسافرتُ إلى لاهور في يوم من أيام يونيو عام ١٩٢٩ م مع أحد أقربائي الكبار الأستاذ السيد إبراهيم الندوي الذي كان يعمل في دار الترجمة في حيدر آباد، وقد كانت لاهور حينئذ أكبر مركز ثقافي وأدبي وصحافي في شبه القارة الهندية، فكانت تصدر منها عشرات من الصحف الأردية وكانت صحيفة «زميندار» لها الكلمة النافذة والصوت المسموع، كما كانت تصدر منها مجلات أدبية موقرة، وأهم من ذلك كله أنها كانت بلد الشاعر الإسلامي الكبير الدكتور محمد إقبال.

لقد كانت هذه أول رحلة لي إلى بلد بعيد، ولا أنسى تلك البهجة التي كانت تغمرني والسرور الذي كان يموج في صدري ويملأ جوانحي عند

مغادرة وطني وسكني، وتحتل هذه الرحلة في حياتي محل مَعْلَمة الطريق، فقد جمعني العم فضيلة الشيخ السيد طلحة مع جميع أهل الفضل والنبوغ والكمال من كل طبقة من الطبقات، وكنت إذ ذاك في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من سني، إنه كما منحني فرصة الاجتماع بالدكتور محمد إقبال ولقائه جمعني بالشخصيات العلمية المرموقة في البلد، إنه قدَّمني إلى المصارع العالمي بطل عصره ورستم زمانه «كَاما بهلوان» وقد حضرت في هذه الرحلة مجلس صاحب الملحمة الإسلامية الشهيرة «حفيظ جالندهري» وتناولت معه الطعام، وقد أنشدنا على طلب مني بعض قصائده.

وقد كان في تلك الأيام لكتاب الوالد «كل رعنا» في ذكر الشعراء المفلقين بالأردية، واستعراضهم ونقد شعرهم، الذي كان صدر قبل عدة أعوام، صدى كبير وجولة في أوساط لاهور الأدبية، وكنت أُعـرَّف إلى الشخصيات التي أزورها بأني ابن مؤلف «كل رعنا» في أكثر الأحيان، وأحياناً يُعَرّف بي بأنه ولد يتكلم اللغة العربية بطلاقة، وكان تعريفي إلى الدكتور محمد إقبال بأني ابن مؤلِّف «كل رعنا»، وأني نقلت بعض قصائده إلى النثر العربي، وقد كان العم السيد طلحة متوسعاً يجود بوقته وينشط دائماً للذهاب بأقربائه الذين يقدمون لاهور لأول مرة إلى كبار الشخصيات وأعيان البلد ومشاهير العلماء والفضلاء، والأماكن الأثرية التاريخية، يتفرغ لهذا العمل بنفسه، ويمتع هذا الخروج بثقافته الواسعة ومعلوماته المتنوعة ويزيده فائدة وخيراً، وقد استفدت كثيراً جداً في طول حياتي بكل ما تعلمته منه في هذه الرحلة وشاهدت ورأيت.

ولا أستطيع أن أنسى منته عليَّ فهو الذي ذهب بي إلى الشيخ الجليل مولانا أحمد علي اللاهوري، وكان واسطة في اتصالي به وتعرفي عليه، ثم نلت ما نلت من عطفه الخـاص وتربيتـه التي تركت على حياتي أثراً عميقاً، بعيد المدى، وسافرت إليه على هذا الأساس في العام القادم لأحضر دروسه الخاصة في التفسير، ولم تزل هذه الصلة التربوية والدينية في نمو وازدياد.

توجيه سـديد:

وذهب بي العم السيد طلحة في هذه الرحلة ـ وكان هو أستاذاً محاضراً للغة العربية في الكلية الشرقية بلاهور ـ إلى عميد الكلية الأستاذ محمد شفيع، الذي كان من مربِّي الجيل الجامعي المثقف الجديد وموجهيه ومن كبار رجال التعليم في بنجاب، وقد عرف هو فيما بعد بخان بهادر البروفيسر الدكتور الشيخ محمد شفيع، ومنح بعد قيام باكستان لقب «نجم باكستان»، وقد كان الدكتور محمد شفيع يحتل مكاناً ممتازاً مرموقاً بين الأساتذة الفضلاء الذين درسوا العلوم العربية والإسلامية في الجامعات البريطانية واشتغلوا بالتعليم والتدريس في الكليات والجامعات الهندية، وكانت له ملكة راسخة في العربية، ولعلها ترجع إلى دراسته الأولى في المدارس الأهلية الدينية، ولكنه كان معروفاً بتقيده بالنظام وبصرامته وجديّته في وسط زملائه والموظفين الذين يعملون تحت إشرافه، قال له العم: من فضلك لو تُلقي نظرة على مقالات هذا الولد بالعربية وتشير علينا في أمر دراسته، أي خط يختاره من التعليم، فقال الدكتور: ليس هكذا، تفضّلوا إلى البيت على العشاء معنا وهناك سوف أنظر في إنشائه وتحريره بطمأنينة وأدلي برأيي، وكان ذلك غريباً للناس فإنهم لم يتعودوا هذا التلطّف والدماثة منه.

وعلى كل فقد ذهبنا إلى بيته في الليل، حيث قرأ بعض مقالاتي باهتمام وعناية، ثم قال: رأيي فيه أن يتخذ اللغة العربية موضوعه ويركز عليها ويختص فيها، ولا بأس بأن يتعلم قدراً ضرورياً من الفرنسية لأنها تحمل ثروة ضخمة في المواد الإسلامية، إلّا أن اشتغـاله الـرئيسي ينبغي أن يكون بالعربية، ويحاول فيها النبوغ وبلوغ الكمال، وقد كان هذا الاقتراح يختلف عن آراء كثير من المدرسين والدارسين في الكليات والجامعات والمتخصصين في شؤون التعليم، الذين كانـوا يشيرون عليّ بتعلم الإنكليـزية والتهيؤ والاستعداد للوظائف الحكومية المحترمة التي كان لها نفوذ عجيب وسلطة كبيرة في الهند، وكان يُنظر إليها نظرة تقدير واحترام أكثر من أي وظيفة أخرى، ويغبط عليها.

ثم وفقني الله ـ تعالى ـ للاستمرار في رحلتي العلمية والاشتغال باللغة العربية، وسافرت بعد قيام باكستان إليها لأول مرة، كان الدكتور شفيع عندئذ قد تقاعد من جامعة بنجاب، وأسند إليه الإشراف على عمل دائرة المعارف الإسلامية الأردية، وقد كان راسلني أحياناً في موضوع كتاب «نزهة الخواطر» للوالد، وكان يعرفني عن طريق كتابي «سيرة السيد أحمد الشهيد»، فذهبت خصيصاً لمقابلته، وكان جالساً في مكتب دائرة المعارف الإسلامية الذي كان يقع في محيط مكتبة جامعة بنجاب بلاهور، فذكرت له توجيهه السديد ونصيحته المفيدة التي كان قد نسيها، فسرّ بذلك بطبيعة الحال وعرف أنها لم تكن في غير محلِّها، ولله الحمد والفضل.

في حلقة درس الحديث الشريف
بدار العلوم ندوة العلماء:

بعد عودتي من لاهور انخرطت في سلك الطلاب النَّدْويِّين لدروس الحديث الشريف التي كان يلقيها شيخ الحديث العلاَّمة الشيخ حيدر حسن خان الطونكي بدار العلوم ندوة العلماء، وابتدأ ذلك من يوليو عام ١٩٢٩ م، وقرأت على الشيخ الصحيحين: (البخاري ومسلم)، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، حرفاً حرفاً، وقرأت عليه شيئاً من تفسير البيضاوي أيضاً، وألقى علينا الشيخ برغبته عدة دروس في المنطق، وأقمت عند الشيخ عامين كاملين في غرفته التي كانت دار الحديث أيضاً، وقد كان الشيخ ـ لأجل العلاقات القديمة الوطيدة بين أسرتنا وبين أسرته في طونك وعلاقته الخاصة بوالدي، إذ كان هو والوالد تلميذين عزيزين لإمام الحديث في عصره العلامة الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني ثم البهوفالي ـ يحبني ويعطف عليّ عطف الآباء على الأبناء، وكنت أكيله وشريبه أيضاً، وكان حساب مصروفاته ونفقاته كذلك عندي، كما كنت أرافقه في السفر والحضر.

وقد كان منهج تحديثه على طريقة المحدِّثين المحقِّقين، يحمل خصائص محدِّثي اليمن، وكان صورة من درس الشيخ حسين بن محسن،

وكـان يستخدم الـطلاب في دروسـه في المـراجعـة والتحقيق والفحص والتفتيش، لم يكن يدعهم يسمعون وانتهى، بل كان يشركهم معه في الإحالة إلى المصادر والمراجع والاقتباس منها، والبحث عن المواد العلمية المطلوبة في كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل وتحرير المسائل، الأمر الذي يوسع آفاق الطلاب ويكسبهم تجارب عملية في البحث والنظر والتحقيق.

وكان الشيخ خليفة للشيخ الأجل إمداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة، تغلبه الرقة والبكاء في الصلاة، وكان يعتاد الصلوات الطويلة والسجود الطويل في الليل، يغلبه فيها البكاء والخوف، وقد كانت البساطـة في المعيشة والتساوي مع الزملاء والتلامذة والمشاركة في كل عمل طبعية فيه.

كان فيه علاوة على العرق والدم الأفغاني دخل كبير للمجتمع الذي ولد وعاش فيه في «طونك»، إن دراستي للحديث الشريف مدينة كلياً لحبه وشفقته وبراعته في الفن، وقد كان من عادة الشيخ عند إجازة الطلاب المتخرجين أن يعطيهم إجازة مكتوبة بقلم شخص يجيد الخط، ثم يوقع عليها، وقد كتبت بخطِّي أيضاً بعض الأحيان، ولكنه لما أراد أن يجيزني، فرغم عدم تعوده للكتابة والنقل وعسر الكتابة عليه كتب لي الإجازة بخطه وأعطاني، وكان ذلك دليلاً على عنايته الخاصة وعطفه الأبوي، فالحمد لله على ذلك.

الاطلاع على ثروة الكتب المحفوظة في الأسرة:

كانت تنتقل إلينا عبر الأجيال ثروة قيّمة من الكتب التي تشتمل على بعض المخطوطات المهمة المتعلقة بتاريخ الأسرة، وكتب خطية مهمة، ورسائل الأعيان، وثروة كبيرة من الوثائق والشهادات والفتاوى قلما يتوفر مثلها في مكتبة شخصية، وقد حفظها سلفنا وحافظوا عليها رغم السيول والفيضانات والانتقال كَرَّة بعد كَرَّة، وقد كان أخي الأكبر يوصيني كثيراً ويؤكد على أن أحافظ عليها وأراقبها، ولعل قصده من ذلك كان أيضاً أن أطَّلع على تراث

الأسرة ومخطوطاتها ومطبوعاتها العلمية، وأقدّرها وأحافظ عليها، وكنت بعنفوان شبابي وغلبة الذوق الأدبي عليّ منصرفاً زاهداً في الكتب المخطوطة القديمة «الصفراء» وتقليب أوراقها ومطالعتها، ولما رأى أخي أنني أتساهل في هذا الأمر كتب إلى الوالدة أن تؤكد هي عليّ، فجاءني كتاب من الوالدة توصيني بذلك وتعزم عليّ.

وعلى كل فقد راجعت هذه المكتبة، وكما يقول المثل الأردي «الوسيط لتاجر الفحم أسود اليد دائماً»، لمَّا حملت هذه الكتب وقلبتها ازددت معرفة بذوق الأسرة وطبيعتها وخدمات السلف العلمية والدينية، وكان في قسم المطبوعات ثروة كبيرة من كتب تاريخ الهند وتراجم العلماء والأعيان وكتب الرجال والطبقات، لأن الوالد كان يحتاج إليها في تأليف «نزهة الخواطر»، والذين كانوا على معرفة بتأليفه لهذا الكتاب كانوا يرسلون إليه بأمثال هذه الكتب والمذكرات التي تحفظ ذكر سلفهم، ويقيد ذلك عن طريقها في هذا الكتاب، وقد استفدت كثيراً بإلقاء نظرة عابرة في هذه الكتب، ونشأ عندي تذوق لتاريخ الهند الإسلامي الديني وشغف واهتمام به مما عاد عليّ بفائدة كبيرة فيما بعد.

منعطف في الحياة:

كان شهر رمضان عام ١٩٣٠ م وكنت أقضي الإجازة في رائي بريلي وأحب الانصراف إلى دراسة الحديث الشريف، إذ أصيب أحد أبناء أختي السيد محمود حسن بوجع شديد في الكلية أو المثانة، فطلبه أخي مع أختي إلى لكهنؤ، وأدخله في الجناح الأوروبي بالكلية الطبية الأميرية، وهيّأ الوسائل للعملية الجراحية، وكانت عملية كبيرة، قام بها جراح ماهر، وقد كنت أنا وأحد أقربائي نبيت في المستشفى نسهر على المريض الذي كان ابن تسع سنوات وتمريضه، وكان هذا الولد يأنس بي كثيراً، فيناديني كلما شعر بحاجة ويشكو إليّ ألمه، وأقضي أحياناً أكثر الليل سهران، وفي طلب الممرضات، وكان جو المستشفى بطبيعته يقدم دلائل قوية على ضعف

الإنسان وقلة وفاء القوة والصحة وأن لا ثقة بالحياة، وقد أحدث كل ذلك تغيُّراً نفسياً كبيراً في نفسي التي كانت تألف القراءة والكتاب وتتذوق الأدب والشعر، يمكن أن أعبر عنه بحالة الإنابة والإخبات، وقد عملت هذه الإقامة بالمستشفى التي كانت نوعاً من المجاهدة والمكابدة عمل رباط ديني روحي، وصحبة الصالحين، ومالت نفسي إلى الإصلاح والرقي والاتصال بالله تعالى.

وجاء العيد ونحن في المستشفى في حالة الغربة، وبين أنين المرضى، فتركت هذه الظروف كلها تأثيراً عميقاً في عقلي وقلبي، وخرج العزيز صحيحاً معافىً بحمد الله تعالى، ولكن المستشفى أصبح للممرِّض أيضاً دار شفاء وعلاج.

وأقمت بصدد علاج الوالدة عندما أُصيبت بنزول الماء (Cataract) في المستشفى في جناحه الخاص مرتين لعدة أسابيع، ورزقت بذلك خدمتها، كما استفدت من جوّ المستشفى تلك الفائدة التي قدمت ذكرها.

مقدم الشيخ تقي الدين الهلالي:

من أهم أحداث هذه الفترة التي صنعت تاريخاً مجيداً، مَقْدَم العلاّمة المحقق في اللغة العربية وآدابها والمعلم الناجح: الأستاذ تقي الدين الهلالي المراكشي إلى دار العلوم ندوة العلماء، وهو من أساتذة اللغة العربية وفضلائها المعدودين الذين يحتج برأيهم وحكمهم على صحة الكلمات وأصالتها، ويكفي لإبراز مكانته الممتازة أنه إذا حدث خلاف بين العلامة السيد رشيد رضا رئيس تحرير مجلّة «المنار» الغراء وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان صاحب تعليقات «حاضر العالم الإسلامي» في قضية من قضايا اللغة العربية وتعبيراتها، كان الحَكَمُ بينهما هو الأستاذ الهلالي[1].

وكان الأستاذ الهلالي لوحشة وسوء تفاهم وقع بينه وبين الملك عبد العزيز ابن سعود في قضية من القضايا غادر السعودية إلى الهند، وأقام عند

---

(١) انظر كتاب العلاّمة الأمير شكيب إرسلان «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة».

صديقه الشيخ عبد المجيد الحريري بمدن بوره بنارس، وكان الشيخ خليل يعرف فضله ومكانته، فذكره لأخي والعلامة السيد سليمان الندوي، وأشار عليهما بدعوته إلى دار العلوم وتعيينه مدرساً فيها، ووافق الاثنان على ذلك، وقد درَّس في دار العلوم عدد من الأساتذة العرب من قبل كالعلامة محمد طيب المكي ثم الرامفوري، والشيخ محمد بن حسين اليماني البوفالي، فوجها الدعوة إلى الأستاذ ليكون مدرساً في دار العلوم ورئيس القسم العربي فيها، فقبل الدعوة وتعين أستاذاً في دار العلوم وبدأ التدريس بانتظام[1] وكأنه حل فصل الربيع في وسط دار العلوم وأبنائها.

والواقع أن العمل الذي بدأ به الشيخ خليل من نشر الطرق الصحيحة لتعليم العربية وإنشاء ذوقها وملكتها، تمَّ وبلغ كماله على يد الأستاذ الهلالي، وقد استفدت منه كثيراً في غير نظام، فكنت أحضره يومياً، وأنتفع بصحبته ومجالسه، ولكن قرأت عليه ديوان النابغة بنظام وقيدت فوائده ونكته، وكان يعطف عليّ بصفة خاصة لأجل العلاقة بأخي الأكبر والشيخ خليل، ويمنح الفرصة الكاملة للاستفادة منه، وقد انتفع به بصورة خاصة الأستاذ مسعود الندوي والأستاذ محمد ناظم الندوي وكانا في تلامذته المبرزين.

قام الأستاذ الهلالي في أواخر عام ١٩٣١م بجولة في بنارس وأعظم كره، ومئو ومبارك فور، كان الغرض منه لقاء الشخصيات المحترمة والأصدقاء والأحباب في هذه المنطقة، واختارني لمرافقته وصحبته، وقد استفدت منه في هذه الجولة ـ التي رافقته فيها ليلاً ونهاراً ـ كثيراً، وفي هذه الرحلة كان الاتفاق على إصدار مجلة «الضياء» في مجلس من مجالس العلامة السيد سليمان الندوي بأعظم كره، وتعيَّن المشرف عليه العلامة الندوي، والأستاذ الهلالي، وعيَّن صديقي الأستاذ مسعود الندوي رئيس تحريرها.

---

(١) عين الأستاذ الهلالي مدرساً بتاريخ ١٤/ سبتمبر عام ١٩٣٠م براتب ١٢٥ روبية شهرياً (نحو تسع جنيهات).

بدأ صدور هذه المجلة في محرم عام ١٣٥١ هـ الموافق لمايو عام ١٩٣٢ م، وكانت لسان حال الندوة، ووسيلة فعالة للتعريف بندوة العلماء وانتشار صيتها، والتي ربَّت جماعة من المنشئين والمحررين وأصحاب الأقلام القوية، وبدأ بذلك عهد جديد للصحافة العربية في الهند، وقد استمر صدور «الضياء» لثلاث سنوات ثم توقَّفت، ولكن كانت هذه هي البذرة التي أنبتت فيما بعد مجلة «البعث الإسلامي» وجريدة «الرائد».

أساليب أخي في التعليم والتربية
وكتابتي للمقالات والإنشاء:

لقد رُزِقَ أخي ملكة خاصة موهوبة للتربية والتعليم، فقد كان يجتهد فيها ويختار طرقاً وأساليب جديدة، كان بوده أن أتعرف على حقيقة دعوة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأزداد شغفاً به وبسيرته ودعوتـه، إذ كان أجدادي متصلين به اتصالاً روحياً وعائلياً وفكرياً، وكان لفرع أجدادنا علاقة خاصة به، وقد صدر في تلك الأيام مقال للأستاذ محيي الدين قصوري في مجلة «التوحيد» التي كانت تصدر برئاسة تحرير فضيلة الشيخ داود الغزنوي[(١)] «بأمر تسر»، وكان عنوان المقال «مجاهد الهند الأعظم»، وقد عُرضت فيه دعوة الإمام الشهيد وسيرته بأسلوب عصري وطريقة جديدة لأول مرة، وكان عمنا الحاج السيد خليل الدين مشتركاً في المجلة، فأشار عليّ أخي بنقل المقال إلى العربية، وأوصاني بأن أقرأ قبل عملية الترجمة بعض كتب السير والتراجم الموثوق بها والتي ألفت في أسلوب خفيف سلِس، وأقيد التعبيرات الخاصة وأساليب الأداء التي يحتاج إليها في كتابة التاريخ والتراجم، فراجعت لهذا الغرض «الكامل» لابن الأثير، وقيدت ما وجدت من ألفاظ وتعبيرات

---

(١) كان أمير جماعة «أهل الحديث» السلفيين في باكستان بعد التقسيم، وكان من الشخصيات الإسلامية البارزة التي تتمتع باحترام عام، وكان جامعاً بين العلم والديانة والنشاط السياسي والخبرة بواقع البلاد والمجتمع المسلم، مع تسامح وسعة صدر، توفي في ١٦/ ديسمبر ١٩٦٣ م.

أعجبتني أو شعرت أني ربما أحتاج إليها في التعبير والتحرير، وتيسرت لي الترجمة بعد ذلك.

كنت أعددت هذه الترجمة إذ جاء الشيخ تقي الدين الهلالي، فعرضتها عليه، فتناول بعض المواضع بالتصحيح، وقال لي: إذا أحببت ابعث بهذه الترجمة إلى العلامة السيد رشيد رضا ينشرها في «المنار»، ولكن خذ بالك أنه دقيق النقد، وأن مستوى الصحة عنده عال جداً، فإنه يستخرج الأخطاء من مقالات الكُتّاب الكبار. فأبديت رضائي، وبعث الأستاذ بترجمتي مع رسالة للتعريف بي، ولم يقتصر العلامة السيد رشيد رضا على نشرها فحسب، بل كتب إلى الأستاذ الهلالي أن صاحب المقال لو أحب أن ننشره في رسالة مستقلة لفعلنا، وأي فخر ومكرمة لشاب هندي ناهض أكبر من أن ينشر رسالته العلامة السيد رشيد رضا بمصر.

ولم يمض كثير وقت حتى جاءت تلك الرسالة من مصر بعنوان «ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» مجدد القرن الثالث عشر، وكان يوم فرحة وسرور لا أعرف مداه، وكنت قد نيفت على السادسة عشرة من عمري، وقد كان هذا أول مؤلف لي طبع ليس في الهند بل في مصر[1]، وأحمد الله على هذه الكرامة التي قدرها لي والميزة التي أنعم بها عليّ، إذ لا أحسب أن هندياً نشر له شيء في مصر في هذه السن المبكرة وعلى يد عالم جليل ومصلح كالعلامة السيد رشيد رضا رحمه الله.

الانصراف إلى دراسة الإنكليزية وقلق الوالدة:

لقد كانت دراستي للإنكليزية تسير ببطء جنباً إلى جنب دراستي للعربية، فكان يسكن في حيّنا الشيخ خليل الدين الهنسوي الذي كانت بينه وبين أخي وأقاربنا في «هنسوه» علاقات أخوية، وهو وإن كان موظفاً في

---

(١) كنت أعددت هذه الترجمة في جمادى الآخرة عام ١٣٤٦ هـ الموافق ١٩٣٠ م وطبعت في صورة رسالة مستقلة بمصر عام ١٣٥٠ هـ.

مصلحة البريد، ولكنه لتعلمه اللغة الإنكليزية في عهد ازدهارها وقوتها كان يجيد الإنجليزية، وكان ذا ملكة واستعداد في التعليم، وقد فرغ لنا من وقته لتدريس اللغة الإنجليزية، وكنت زمن إقامتي في رائي بريلي أدرس الإنكليزية على خالي الأكبر السيد أحمد سعيد الذي تلقى اللغة الإنكليزية عن الإنكليز أنفسهم، وكانت له قدرة كبيرة على الأمثال الإنكليزية والحوار فيها، ثم لما أقمت بدار العلوم استمرت دراستي الإنجليزية على أستاذها البارع الأستاذ محمد سميع الصديقي الحائز على شهادة الماجستير والمتخرج في كلية المعلمين، ثم بدأت أذهب لدراستها عام ١٩٢٩م إلى الأستاذ محمد الفاروقي الذي كان أستاذاً في القسم الفارسي بجامعة لكهنؤ، ثم أصبح رئيس المدرسين في مدرسة سيتابور الحكومية.

ولما نجحت في التخصص في الأدب العربي أردت أن أجتاز اجتيازاً في المرحلة المتوسطة (Matric) وكان ذلك موافقاً لمقتضيات ذلك الجو وتلك البيئة، فقد كانت الدولة للغة الإنكليزية والثقافة الإنكليزية، وكانت لهما صولة وجولة، وكان أحد أقربائنا السيد إسحاق الحسني الذي اختير لوظيفة حكومية إدارية لها مكانة كبيرة في المجتمع الهندي قد عاد قريباً من لندن بعد الحصول على التدريب بهذه الخدمة، وكان ذلك حديث النوادي في الأسرة والشغل الشاغل، وكان جميع أبناء الأسرة ـ غيري وغير الأخ أبو بكر الحسني الذي التحق بمدرسة إنكليزية بعد التخصص في الأدب العربي ـ يدرسون الإنكليزية، وكان شيخنا الشيخ خليل اليماني أيضاً يقيم للدراسة الإنكليزية العصرية وزناً كبيراً، وكانت لها عنده قيمة وأهمية، اعترافاً بالواقع ومجاراة للزمن، وكان يتمنى أن يتخذها الدارسون للعلوم الدينية وسيلة للدعوة إلى الإسلام والتأثير في الشباب المثقف، ولكل امرىء مانوى.

كانت هذه هي الفترة التي أصبت فيها باستغراق في دراسة الإنكليزية وحماس زائد، فاشتريت الكتب المقررة في ميترك، وبدأت أدرس الرياضيات على أستاذ في الحي واللغة الإنكليزية على الأستاذ الفاروقي، ثم لما غادر هو

لكهنؤ بدأت بنفسي أدرس وأطالع الكتب، ثم بدأت أراجع كتب المرحلة الثانوية وأطالعها ـ ولعلها تكون بمستوى الليسانس ـ وأحل عباراتها عن طريق المعاجم.

ولم أكن قد شاركت امتحان هذه المرحلة إذ علمت الوالدة ـ ولعل ذلك عن طريق أخي ـ بهذا الشغف الزائد بالإنجليزية، فكتبت إليّ رسائل رقيقة مرققة تفيض إيماناً وغَيْرة على الدين، وتدل على علو همتها وبعد نظرها، ومدى إيثارها للدين على الدنيا، واحتقارها للمناصب العالية، والجاه العريض، والرخاء والثراء اللذين يأتيان عن طريق الشهادات الجامعية والاختبارات الحكومية، وقد كان ذلك مما يتنافس فيه المتنافسون في ذلك العصر، ويفتخر به الآباء والأمهات، ويهنئون لذلك أولادهم ويرون ذلك منتهى السعادة والشرف.

لقد كان من تأثير أدعية الوالدة المخلصة وابتهالاتها الضارعة أن بدأ قلبي يشعر فجأة بالسآمة والنفور من المزيد من دراسة اللغة الإنكليزية، ووزعت الكتب المقررة التي كانت لديَّ لغيري على مبتغيها، إلّا أن هذا الانصراف الشديد الذي لم يكن فيه الاتزان والنظام أفادني من حيث إنني حصَّلت في مدة قريبة مادة استطعت أن أنتفع بها في أعمالي التأليفية العلمية وفي رحلاتي إلى إنكِلْترا أو أمريكا، وقد تمكنت بهذه الدراسة أن أقرأ الكتب التي ألفت في المواضيع الإسلامية والتاريخ بالإنكليزية بسهولة ولا أزال أستفيد بها وأنتفع.

إقامة الشيخ المدني عندنا:

لقد أقمنا في البيت الصغير في الزقاق أربع سنين، وسافر أخي أثناء هذه المدة للحج والزيارة، وعاد بخير وسلام، وكان ذلك عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) حين انعقد المؤتمر الإسلامي الأول على دعوة الملك عبد العزيز بن سعود، وأنهيت دراستي عند الشيخ خليل، وكانت عيادة أخي تدرّ عليه ريعاً لا بأس به، وقد زاد الدخل اليومي، كما زاد أفراد الأسرة، ولم نزل متعلِّقين

بذلك البيت القديم الذي قضينا فيه طفولتنا، وقضى فيه أخي عنفوان شبابه، وكانت لنا به صبابة لإقامة الوالد الطويلة فيه، وصادف أن خلي ذلك البيت فأسرع أخي واستأجره، وكان أخي في تلك الأيام قد اتصل بالشيخ الجليل العالم الرباني الشيخ حسين أحمد المدني اتصال التربية الروحية والإصلاح والتهذيب، وقد أحبه شيخه وتوثقت به صلته، وقامت بينهما من الثقة والاعتماد ما جعله ينزل في بيته في لكهنؤ دائماً - حيث كان مجيئه كثيراً لأجل الاحتفالات السياسية والاجتماعية المختلفة - ولم يعدل عن ذلك أبداً مهما كانت الظروف، وكنت قبل ذلك زرت الشيخ في المؤتمر العام لعموم الأحزاب السياسية المنعقد بلكهنؤ عام ١٩٢٨ م.

ولكن لهذه الإقامة التي كانت تتكرر في أوقات قريبة، وكانت تطول إلى عدة أيام أحياناً، وجدت الفرصة سانحة في مشاهدته عن كثب، وخدمته لكوني أصغر أفراد الأسرة المميزين سنّاً، ولم تكن لي معرفة بالكمال الباطني والمدارج الروحية، إلّا أنني أذكر جيداً أننا كنا نشاهد بحلول الشيخ في البيت رونقاً خاصاً وبركة ونوراً، حتى نجد في الطعام العادي - الذي كان الشيخ يؤكد عليه ويحتج ضد التكلف فيه - لذة مضاعفة، ومذاقاً غريباً، وقد كان الشيخ يعطف عليَّ كثيراً، وقد أوصى مرة - كما أُخبرت بذلك - أخي الأكبر برعايتي والاهتمام بي بصفة خاصة، كانت هذه أول شخصية دينية روحية من العلماء الربانيين تعرفت عليها، وتأثرت بها، ولم يزل يزداد حبي لها على مر الأيام.

مطالعة الصحف والمجلات العربية
والتمرين على الإنشاء والكتابة:

كان أخي شغوفاً بمطالعة الصحف والمجلات العربية، ولعله لم يكن في الهند إذ ذاك من يعرف الصحف والمجلات العربية ويهتم بها إلّا أفراد معدودون، ولما رجع هو من سفره للحج والزيارة عام ١٣٤٤ هـ الموافق ١٩٢٦ م كان مشتركاً في صحيفة «أم القرى» الصادرة من مكة المكرمة، وقد

اتفق بعد مع أحد الفضلاء الندويين السيد سعيد أشرف ـ الذي كان يشتغل مترجماً من العربية إلى الأردية في صحيفة «همدم» الأردية على أنه بعد اشتغاله بالصحف العربية واستفادته منها يردُّ بها إلى أخي.

وكانت في الصحف التي تصل إلى أخي عن طريق السيد سعيد أشرف صحيفة «فتى العرب» الصادرة من دمشق، وصحيفة «الجامعة الإسلامية» الصادرة من فلسطين، وقد كانت عربيتهما فصيحة مؤثرة لا سيما «الجامعة الإسلامية» التي كانت لسان حال سماحة الحاج السيد أمين الحسيني، كانت افتتاحياتها قوية بليغة ناصعة البيان، تشتعل ناراً كأنها كتبت بقلم من نار، وكانت تذكر بافتتاحيات «الهلال» التي كان يكتبها مولانا أبو الكلام آزاد.

ورغم أنني كنت قد درست الكتب النهائية من الأدب العربي، إلّا أنني كنت أجد شيئاً من الصعوبة في فهم هذه الصحف، وكان أخي يساعدني ويحل لي المشكلات، ويشرح التعبيرات والمصطلحات الجديدة، وهكذا تدرجت إلى قراءتها من دون كلفة وعسر، وانتفعت بها في الإنشاء والتحرير، لأن الصحف ـ كما هو العهد بها ـ تحمل مادة منوعة مكررة، وقد كان مدير التحرير لكلتا الصحيفتين من الصحافيين الفصحاء، القديرين على اللغة العربية، والتعبير الصحيح البليغ.

وكانت تأتي إلى دار المطالعة لجمعية الإصلاح بدار العلوم ندوة العلماء ـ وهو نادي اتحاد الطلبة ـ عدة صحف ومجلات كـ «المنار» و «الهلال» و«المقتطف» و «مجلة الزهراء» و «المجمع العلمي» و «العرفان» التي كانت تصدر من صيدا وغيرها، وكنت لصداقة الزميل الشيخ مسعود الندوي وصحبته نَهِماً لهذه الصحف والمجلات، أطالعها بشوق ورغبة، ولما جاء الشيخ الهلالي، عرفنا بمجلة الأستاذ محب الدين الخطيب الأسبوعية «الفتح»، ورغَّبنا في الاشتراك فيها وقراءتها، وكانت يكتب فيها ـ حينئذ ـ عدد من أمراء البيان وأصحاب الفكر الإسلامي من أهل الأقلام، كالأمير شكيب أرسلان وغيره، وقد أفادتنا هذه المجلة التي كانت تجمع بين الفكر الإسلامي

السليم، والأدب العربي الرصين كثيراً، وبدأنا نحن أنا والأخ مسعود نكتب، فنشر لي مقال حول الشاعر الإسلامي الفكاهي أكبر حسين الإلّه آبادي في عدة حلقات، وقد تحدثت فيه عن نقده للغرب والتعليم الغربي وترجمة أبياته في هذا المعنى، وعرض خلفياتها وأسبابها[1]، وصدرت مقالات أخرى في مناسبات مختلفة.

وقد كانت مطالعتنا عند ذاك وميولنا الأدبية محدودة في النطاق الأدبي الذي يحمل الطابع الإسلامي، ويتسم بالحمية الدينية، إلّا أن عنان القلم وأسلوبه لم يكن قد صُرف إلى الدعوة، ولا كانت هناك سعة في المطالعة والمعلومات، وعمق في الأفكار والآراء، وصقلت مجلة «الضياء» هذا الذوق والتمرين الكتابي وحركته إلى الأمام، وكانت السبب الأول في سيلان القلم وتفتق القريحة، واتساع الأفق. ولكن ـ رغم ذلك ـ لم يكن القلم قد تعرف على الروح الدعوية، وكان ينقص الكتابة عنصر القوة والاندفاع، فإن هذا يرجع قصته إلى عام ١٩٤٠ م التي سوف نوردها بتفصيل.

وكانت مجلة «الضياء» ترد إليها جرائد ومجلات أدبية موقرة من مصر، ولبنان، والعراق، والشام على سبيل التبادل الصحافي، وبعض الكتب القيمة لمؤلفين كبار للتعليق عليها وإبداء الرأي، وكان الأخ مسعود الندوي وأنا والزميل الكريم الأستاذ محمد ناظم الندوي نطالع هذه الكتب والمجلات، قبل أي واحد، وقد أصبحت الشخصيات الأدبية الموقرة في مصر والشام وأصحاب الأقلام، وأصحاب مدارس خاصة في الكتابة والتأليف ـ بفضل صحبة الشيخ الهلالي ومطالعة هذه الجرائد والمجلات، والكتب الجديدة الواردة إلينا منها ـ شخصيات معروفة مألوفة لدينا كأننا شاهدناهم وخبرناهم، مثل أدباء الهند وأصحاب الأقلام فيها، وكنا نتحدث عنهم في مجالسنا، ونبدي آراءنا حولهم، وننتقدهم ونوازن بينهم، ونحكم لأحدهم على آخر.

---

(١) طبعت هذه الرسالة بعنوان «الثقافة الغربية الوافدة، وأثرها في الجيل المثقف» من المجمع العلمي الإسلامي ندوة العلماء، ومن دار الصحوة في القاهرة.

وكان من أثر ذلك أنني لما سافرت عام ١٩٥١ م إلى مصر لم يكن لي فيها اكتشاف جديد، ولا استطلاع غريب، ولا بهر عيني مشهد أجد منهم، ولا خضعت عقليتي لأحد، وقد كان كل ذلك بفضل تلك البيئة الإسلامية الأدبية الناضجة التي عشتها، وهيأت الحكمة الإلّهية أسبابها ووسائلها من قبل.

الإقامة في لاهور، وديوبند:

سافرت إلى لاهور بين عام ١٩٣٠ م و ١٩٣١ م مرتين للاستفادة من الشيخ الجليل أحمد علي اللاهوري، ولما ذهبت عام ١٩٣٠ م إليه لم تصادفني تلك الفترة التي كانت تُلقى دروسه فيها بصورة منتظمة للعلماء وخريجي المدارس العربية، والتي كانت تبدأ من شعبان وتستمر إلى ذي القعدة، ويكون بعد ذلك اختبار ـ إلّا أن الشيخ خصّص لي وقتاً خاصاً، وقرأت عليه بداية سورة البقرة، وكان يحضر معي في هذه الدروس ابن عمي السيد أحمد الحسني، وفي العام القادم أي ١٩٣١ م قدمت إلى لاهور لحضور دروس الشيخ في كتاب «حجة الله البالغة»، وحضرت فيها، واشتركت في الامتحان.

الإقامة بديوبند:

في عام ١٩٣٢ م عرضني أخي الذي كان يُعنَى بإصلاحي وتربيتي ورقيِّي دينياً وروحياً باهتمام بالغ على الشيخ حسين أحمد المدني في مناسبة من مناسبات قدومه إلى لكهنؤ ونزوله عندنا، فتقدمت إلى الشيخ، وتحدثت إليه ببعض أحوالي، فأشار الشيخ على أخي أن يبعثني إليه بديوبند، وكانت السنة الدراسية التي تبدأ في جميع المدارس العربية في الهند في شوال، قد انقضى نصفها، ولم يكن قصد الشيخ بالنسبة لي أن أتعلم هناك بانتظام، وانخرط في سلك عامة الطلاب، بل أن أعيش معه وأرافقه لأيام.

فتوجهت إلى ديوبند في ربيع الأول أو ربيع الثاني عام ١٣٥١ هـ،

الموافق يوليو أو أغسطس عام ١٩٣٢ م، فأنزلني الشيخ عنده، وقد كانت دروس الحديث في ذلك الوقت في أوجها وشبابها، وكان الشيخ يدرِّس صحيح البخاري وسنن الترمذي، فبدأت أحضر هذه الدروس بصورة منتظمة، وعلاوة على دروس الحديث التي كان يظهر فيها بجلاء تمكن الشيخ من الحديث، وقدرته الفائقة على العطاء والتدريس، ويخيم فيها جو الهدوء والسكينة والوقار، سألت الشيخ أن يسمح لي ببعض الوقت للاستفسار عن بعض مشكلات القرآن الكريم، فسمح لي بأن يكون ذلك كل جمعة، وكثيراً ما كانت تمر الجمع بغيابه لكثرة جولاته ورحلاته السياسية، ومع ذلك استفدت قدر المستطاع، وشعرت بملكة الشيخ في تدبُّر الكتاب الحكيم وإدراك معانيه ودقائقه.

وقد كانت مائدة الشيخ من أوسع الموائد، بل قد تكون أوسع الموائد في الهند، يحضرها القاصي والداني، والصديق والعدو، والمعروف والغريب، وكان يتردد إليه كثير من العلماء والزعماء والقادة من مختلف ولايات الهند، نخص منهم بالذكر الشيخ أبا المحاسن محمد سجاد البهاري[1]، الذي كان يتردد إليه كثيراً ويقيم أياماً، وقد كانت هذه الدروس في الأشهر الأخيرة من العام الدراسي، تستمر ـ خارج الأوقات الدراسية ـ بعد العصر، وبعد العشاء إلى ساعة متأخرة من الليل.

وقد كنت كتبت بعد بضعة أعوام حينما كنت مدرساً في دار العلوم ندوة العلماء مقالاً في مجلة عربية كانت تصدر من ديوبند بعنوان «صلتي بمولانا حسين أحمد المدني، أو صفحة من صفحات حياتي»، ذكرت فيه مشاعري وانطباعاتي عنه، وتجاربي ومشاهداتي[2].

---

(١) كان من كبار قادة المسلمين الدينية السياسيين، ومن العقول المفكرة، وهو صاحب الفكرة الأول في تأسيس الإمارة الشرعية في ولاية بهار، وأريسة، وكان من الزاهدين المخلصين، ومن الفقهاء الراسخين في العلم. كانت وفاته سنة ١٣٥٩ هـ.

(٢) جاء هذا المقال في كتاب المؤلف «شخصيات وكتب» طبع ندوة العلماء.

الإقامة بلاهور، والاشتغال بإكمال

دروس الشيخ أحمد علي اللاهوري:

سافرت في أواخر شعبان أو أوائل رمضان لعام ١٣٥١ هـ (لعله شهر ديسمبر عام ١٩٣٢ م) إلى لاهور، وأصبحت طالباً منتظماً في مدرسة «قاسم العلوم» وكان لا يحضر هذه الدروس التي كان يدرس فيها القرآن الكريم كله إلاّ خرّيجو المدارس العربية أو الطلاب من السنوات الأخيرة، وكان يُدْعى هذا الصف بـ «صف العلماء»، وكان يبدأ من أواخر شعبان وينتهي في أواسط ذي القعـدة.

ولما وصلت والتحقت بهذا الصف كان فيه خمسون طالباً، أكثرهم من خرّيجي دار العلوم بديوبند، وكانت هذه الدروس تتطلب جهداً مضنياً، وذاكرة قوية، فكان من اللازم أن يحفظ الطالب خلاصة الدرس الذي يكون في مجموع من الآيات، ويحفظ مراجعه ومصادره، ويمتحن في الدرس السابق قبل بدء الدرس اللاحق، ويكون ذلك متناوباً بين الطلاب، فأيهم الذي جاءت نوبته عليه أن يسمع الأستاذ خلاصة درسه في ألفاظه وعباراته المحددة، ومصدره من القرآن الكريم، ولم أكن قوي الذاكرة في فترة من الفترات، فاضطرني ذلك إلى جهد شاق، ثم برد لاهور القارس، وضعف جسمي، وتعوّدي على حياة البيت وأكله بدلاً من حياة «رواقية» في مدرسة نظامية، والواقع أن الإقامة بلاهور كانت مجهدة شديدة، ولكن الله تعالى أعانني ولطف بي، وكان الاختبار في أوائل ذي القعدة عام ١٣٥١ هـ الموافق أوائل مارس عام ١٩٣٣ م.

وحضر الشيخ عبد الحي الفاروقي من دلهي على طلب من الشيخ لامتحان كراسات الامتحان، وكان من قدر الله ـ تعالى ـ أنه أعطاني أكبر العلامات، لعلها كانت ٧٠ أو ما يزيد قليلاً، وأثار هذا سخط الزملاء، فعقدوا تجمّعاً لـلاحتجاج ضـد ذلك، واتهمـوا الممتحن بقلة الإنصاف والتحيّز، وأعلن الشيخ أحمد علي اللاهوري على ذلك بأنه سوف يمتحن

الكراسات بنفسه، فكان من قدر الله ـ وقدر الله غلاَّب ـ أنه لما راجع الكراسات زاد في علامات الزملاء شيئاً وزاد علاماتي، فجعلها ٩٨، وانتهت القضية.

وعقد بعد ذلك في ١٥ ذي القعدة عام ١٣٥١ هـ، الموافق ١٢/مارس ١٩٣٣ م في مدرسة قاسم العلوم التي كنا نقيم فيها، وكانت تحت إشراف جمعية خدام الدين بلاهور احتفال توزيع الشهادات على المتخرجين، وشرَّف الشيخ حسين أحمد المدني على دعوة من الشيخ أحمد علي ووزع علينا الشهادات.

الفصل الخامس

في سلك أساتذة دار العلوم ندوة العلماء
وعشر سنوات في مجال التعليم والتدريس

في دار العلوم كمدرس:

لقد كنت استكملت في عام ١٩٣٤ م عشرين سنة من عمري، وانقضت فترة التعلُّم والدراسة المنتظمة، وبدأت فترة المطالعة الذاتية والجهد الشخصي الذي لا يُحدُّ بحدّ وأمد، والواقع أن الدراسة المنتظمة والكتب المقررة ليست إلّا لتفتح آفاق الدراسة والمطالعة، وتهيىء للتدبُّر والتأمُّل والإفادة من جهود المتقدمين، واقتطاف ثمرات العلم من حديقته الغنّاء، وإن التخرج في المدارس والجامعات وسيلة لا غاية، وهو عبارة عن بدء السير والشروع في الرحلة الطويلة في مسار العلم الشاسع البعيد، ولذلك يرى بعض أصحاب البصيرة أن استخدام لفظ الفراغ[1] من التعليم - يعني التخرُّج - خطأ في التعبير ووضع الشيء في غير محله.

إن حاجات الإنسان الذي رزق شيئاً من الإباء وعزّة النفس - لا سيما

(١) شاع استعمال «الفراغ» بمعنى الانتهاء، و«الفارغين» بمعنى «المتخرجين في أوساط المدارس والجامعات الإسلامية في الهند، وإلى ذلك يشير مؤلف الكتاب».

بعد أن يكون قد دخل مرحلة الشباب ـ ليست محصورة في المأكل والملبس وحاجيات المعيشة العادية، ولئن كان في شفقة أخي وعطفه الأبوي ورعايته واهتمامه بي، وحنان أمي المحبة الوالهة التي ورثت عن أبيها بعض «الأطيان» وأراضي واسعة، كفاية لحاجات الحياة الحقيقية الضرورية، إلّا أن الشعور ـ من عامين أو ثلاث ـ بتعطُّلي، وعدم اشتغال بوظيفة حرة، كان يزداد على مرّ الأيام ويقوى، ومن الذي يمنع ألسنة الناس، لا يستثني من ذلك أي أسرة شريفة ولا أي بيئة صالحة، فقد كنت أسمع أحياناً عبارات فيها طعن وتنكيت، وأسمع انتقادات الأقرباء، زد على ذلك أنه كان في شتاء هذا العام بعد ٤ أو ٥ أشهر سيتم زواجي، فكانت الحاجة ماسة إلى أن أقوم على رجلي وأحصل على وظيفة كريمة حُرّة.

وتقدم الشيخ مسعود علي الندوي أحد أعضاء اللجنة التنفيذية لندوة العلماء في إحدى جلساتها المنعقدة في ١٥/ يوليو عام ١٩٣٤ م باقتراح تعييني مدرساً في دار العلوم، وسكت أخي على ذلك لكونه أخي الشقيق وأمين عام ندوة العلماء، ولكن أيَّده العلاَّمة السيد سليمان الندوي، ووافق عليه جميع الأعضاء، وهكذا قبل الاقتراح، وتم تعييني مدرساً على راتب[١] رمزي، وبدأت العمل بانتظام من أوّل أغسطس عام ١٩٣٤ م كمدرس للأدب والتفسير.

الانسجام الفكري والملائمة العقلية:

لم تكن حركة ندوة العلماء لإصلاح المناهج والمقررات الدراسية. وترقية المناهج التعليمية ورفع مستواها، وتطويرها حسب مقتضيات العصر، حركة محدودة محلية مؤقتة، بل كانت مدرسة فكرية مستقلة تشتمل على العقائد الصحيحة، والنظريات التعليمية السديدة، والتصور الخاص السليم

---

(١) يساوي جنيهين تقريباً، وكانت الرواتب للمدرسين المتوسطين في ذلك العهد يتجاوز هذا القدر في دار العلوم، وكان العميد يتقاضى أكبر مرتب وهو لا يزيد عن ١٢٥ روبية شهرياً، يعني نحو تسع جنيهات.

للتاريخ، والمعايير الخاصة المتزنة للثقافة والحضارة والعلوم والآداب.

وإن الحضارة الإسلامة الهندية التي ظهرت بفضل المسلمين وتفاعلهم مع هذه البلاد، حضارة تمتاز بالروعة والجمال، والتواضع والبساطة، والسهولة والصلابة، والعمق والسَّعَة، والرقة والقوة، والاستقامة والسماحة. إنها تجمع في دائرة نفوذها بين الحكمة والفلسفة والشريعة، وبين الأدب والشعر، والفقه والتصوف، وبين سلامة الذوق، ولطافة الحس. وإن مجالات عملها ونشاطها تجمع بين القلاع الحصينة، والمكتبات العامرة، والمدارس والزوايا ومراكز البحث والتحقيق، ونوادي الشعر والأدب. إنها حضارة تتسم بالثقة والجدّ، والدعابة وخفة الروح. إنها تملك الشِدّة واليسر، وقوة المراس ولين الجانب. وإن وسيلة إبدائها لخواطرها وآرائها، ونبوغها وكمالها، اللغة العربية، والفارسية، والأردية، والهندية.

إن عقليتي التي تعامل في تكوينها كل من تأثيرات أسرتي: الوالد والوالدة، والبيئة الأسرية وتقاليدها، والذوق الأدبي والتأليفي الذي استمر في ثلاثة أعقاب متوالية، وسعة الأفق ورحابة الصدر، وحب الدفاع عن الدين والحمية له، نتيجة العلاقة والانتماء إلى أسرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته، وفوق كل ذلك صحبة أخي الأكبر وتربيته الذي كان جامعاً بين خصائص التعليم القديم والجديد، وقد هضمها هضماً كاملاً، والذي كان مجمع بحار العلوم الشرقية والغربية، ويصح أن يقال فيه: ﴿مَرَج البَحْرين يلتقيان بينهما بَرْزَخ لا يَبْغِيان﴾.

ورغم قلة علمي وقصر باعي، وحالتي المتواضعة، كان من مقتضيات تلك الفترة من العمر أن يكون هناك انسجام بيني وبين طبيعة ندوة العلماء الفكرية والدينية، والثقافة التي تمثلها وتحمل لواءها، ولذلك لم أضطر لتكيفي مع هذه البيئة ووضع نفسي في مكانها اللائق فيها إلى هجرة عقلية، أو رحلة ذهنية طويلة، بل شعرت كأنني انتقلت من حجرة أو زاوية في البيت إلى زاوية أخرى، وقد كان من الأسباب وراء ذلك أيضاً أنني نشأت من

البداية النشأة العقلية والعلمية في جو ندوة العلماء وفي ظلها، وقد تلقّفت أذني من الصغر أحاديث وروايات عرَّفتني بتاريخ ندوة العلماء، ورجالها ومؤسسيها الكبار، ووقفتني على آرائها وأفكارها، فقد كان مربيٍّ ووليٍّ أمري أخي الأكبر، وأستاذي الشفوق الحبيب الشيخ خليل بن محمد اليماني، وأستاذي الآخر هو عمنا السيد طلحة الحسني الذي تناول في بعض الجوانب تربيتي العقلية، كان كل واحد منهم خِرّيج الندوة والمقتطف من ثمراتها والمستفيد بها.

وكان من حكمة الله تعالى في تعييني مدرساً في دار العلوم ندوة العلماء عدا هذه الموافقات العلمية والعقلية والعلاقات القديمة أن الفرص التي كانت تتاح لي للعمل في هذا الجو بحُرِّية، واستخدام صلاحياتي المتواضعة والتقدم بها وترقيتها، لم أكن لأجدها في أي مدرسة أخرى، فقد كان أخي الأكبر أمين عام ندوة العلماء، وكان العلامة السيد سليمان الندوي الذي كان لعلاقة التتلمذ على الوالد، وعلاقة الحب والود، ووحدة الفكر مع أخي الأكبر، كأحد كبار الأفراد من أسرتنا ـ مدير التعليم فيها، وكان أستاذي الشفوق الشيخ حيدر حسن خان عميد دار العلوم وشيخ الحديث فيها، وكان زميلي وصديقي الشيخ محمد عمران خان الندوي الأزهري نائب العميد ومدير الإدارة، وكان في صف الأساتذة والمدرسين عدد من أصدقائي وزملائي، كالأستاذ مسعود الندوي، والأستاذ محمد ناظم الندوي، والشيخ محمد العربي، ثم جاء بعد فترة من الوقت الأستاذ عبد السلام القِدْوائي الندوي، والأستاذ أبو الليث الإصلاحي الندوي[1]، والأستاذ محمد أويس النجرامي الندوي، فلم يكن يحول لأجل ذلك أي صعوبة إدارية أو عائق إمارة وسلطة دون القيام بعمل التدريس والتعليم، والاتصال المباشر بالطلاب والعمل فيهم، والإقدام إلى تجارب تعليمية جديدة لو خطرت

---

(١) أمير الجماعة الإسلامية في الهند حالياً.

بالبال، حتى التقدم بمقترحات متواضعة حول المناهج والمقررات الدراسية بكل حرية.

وحضرت دار العلوم بعد أن عُيِّنت مدرساً، فأقمت في إحدى غرف البناء الرئيسي لدار العلوم التي كان يقيم فيها الأستاذ مسعود الندوي[1] أيضاً، فكانت حجرتنا لأجل ذلك مسكناً لنا ومكتباً لمجلة «الضياء» كذلك، وقد كانت بيننا ألفة قديمة، ومودة راسخة، حتى كأننا أخوان شقيقان أو صديقان حميمان، ونديمان قديمان.

وكان في جماعة الطلاب الذين كنت أدرسهم في الصف السادس (السنة الثالثة العالية الآن) عدد من الطلبة الأذكياء، جيدي الاستعداد، وكان أكثرهم أكبر مني سناً أو يساوونني في العمر، وكانوا يدرسون مختصر تفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم على الأستاذ عبد الرحمن الكاشغري أحد الأساتذة الفضلاء والمدرسين البارعين الناجحين، وتشتمل هذه الأجزاء على كثير من آيات الأحكام والمباحث الفقهية والكلامية، فكان عليّ أن أجهد نفسي وأكثر من المطالعة حتى أثبت استعدادي وصلاحيتي للتدريس، وكان الأستاذ مسعود ـ لإخلاصه ونصحه ـ يسأل الطلاب عن مشاعرهم وانطباعاتهم نحوي، وكان بودِّه أن لا أكون مدرساً فاشلاً. وقد أبدى الطلاب ـ بصورة عامة ـ اقتناعهم وطمأنينتهم، وأثنوا على المدرس، ولكنهم أشاروا إشارة لطيفة إلى أن المدرس في حاجة إلى الإكثار من المراجعة والمطالعة، وقد أخبرني الأستاذ مسعود بانطباعات الطلاب، فأخذت من المكتبة مراجع التفسير القديمة الكبيرة، والمصادر الأساسية المهمة، قرأت بعضها كتفسير «الكشاف» و«معالم التنزيل» للبغوي و«المدارك» من أولها إلى آخرها حرفاً حرفاً، واستفدت كثيراً من تفسير «المنار» و«ترجمان القرآن» لمولانا أبي الكلام آزاد، من التفاسير الجديدة.

---

(١) كان الأستاذ مسعود الندوي تم تعيينه مدرساً في ١٢ يوليو عام ١٩٣٥ م، وكان قبل ذلك مسؤولاً عن إدارة تحرير «الضياء»، وكان يدرس بعض الحصص في الأدب والإنشاء.

واستعنت في الرد على أسئلة الطلاب وفي مادة التدريس بـ «روح المعاني» للعلامة الآلوسي، وبدأت أراسل للحصول على معلومات جديدة ودراسة مقارنة للقرآن الكريم، الشيخ عبد الماجد الدريابادي، الذي كان منصرفاً إلى وضع ترجمة وتفسير للقرآن الكريم في اللغة الإنجليزية، وكانت عنده مكتبة غنية في الموسوعات العلمية والدراسات المقارنة، واستعنت في حل تلك المسائل والقضايا التي أثارتها الكشوف الجديدة، ومقتضيات العصر، وسافرت لأجل ذلك إلى درياباد قرية الشيخ عبد الماجد عدة مرات، واستفدت منه، واستغرقت في مطالعة هذه الأشياء، والاستعداد الجيد الكافي للدروس، وأحمد لله تعالى على أنني تمكنت قبل نهاية العام الدراسي أن أقنع الطلاب إقناعاً كاملاً.

الجو العام في دار العلوم:

لقد كان يسود دار العلوم ندوة العلماء في تلك الفترة ـ لإقامة الشيخ الهلالي، وإصدار مجلة «الضياء»، وبتأثير أولئك المدرسين الشباب، الذين كانوا على اتصال مباشر بالطلاب، وكانوا أقدر على تأليفهم والتأثير فيهم ـ جَوُّ اللغة العربية، والأدب العربي، والخطابة والإنشاء بالعربية، ودراسة آداب اللغة الأردية، والتاريخ، كان هذا هو الذوق الغالب، وكانت ترد بالتبادل مع مجلة «الضياء» مجلات مصر والشام والعراق وجرائدها الموقرة المعروفة، فكانت تأتي «المنار» و«الفتح» من مصر، و«العرفان» من الشام، و«الصفا» من لبنان، وكذلك كانت تصل «الرسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات، و«الثقافة» للدكتور أحمد أمين، وكانتا تنشران مقالات كبار أدباء مصر وصفوتها المختارة وكبار أصحاب الأقلام فيها.

وكانت ترد إلى مكتب المجلة (لكونها المجلة العربية الوحيدة في الهند) كتب بعض المؤلفين المعروفين، للتعليق والتعريف، فكانت حجرتنا الصغيرة حين ذلك. وهذا الوسط المحدود، جزيرة عربية في بحر الهند، وتعرفنا بهذه المطالعة وهذا الجو الأدبي على أصحاب الأقلام والأدباء من

أصحاب الأساليب البيانية، والمفكـرين الفضلاء من أصحـاب المدارس الفكرية المستقلة، وألفناهم، كمعرفتنا لأدباء الهند وشعرائها ونقّادها ومفكريها، بل كانت معرفتنا لبعض الأساليب الخاصة لهؤلاء الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين العرب أكثر، من معرفنا لنظرائهم في البلاد، وقد كنا نبدي آراءنا حولهم ونعلق عليهم ونتحدث عن محاسنهم ومساويهم، وانحراف بعضهم الديني والفكري، ونصنف مراتبهم ودرجاتهم.

وقد شعرت بفائدة ذلك كلياً عندما سافرت عام ١٩٥١ م إلى مصر، فلم تواجهني هناك شخصية جديدة تسحر العقول وتدهش النفوس، أوخـذ بسحرها وأخضع لهيبتها وجلالها، ولا كانت لي هناك مكتشفات جديدة، وإنه لمن الأهمية بمكان للدعاة والعاملين في مجال التعليم والتربية والدعوة أن يكونوا قبل سفرهم إلى البلاد الخارجية ـ لا سيما تلك التي يسيطر علمها ورقيها وحضارتها على العقول والقلوب، ويكون لها سحر في النفوس ـ قد درسوا أدبها ولغتها وثقافتها دراسة ناقدة بصيرة، وسبروا غورها، وتعرفوا على حلوها ومرها، قبل أن يطأوا أرض هذه البلاد، ويخالطوا رجالها وقادة الفكر فيها.

ومن حوادث تلك الفترة الطريفة أن وقعت في جمعية الإصلاح مناقشة أدبية، بل معركة أدبية عربية، كان موضوعها «من هو أكبر رجل في العالم الإسلامي؟» وقد كان الخطباء من الشباب يشاركون هذا النقاش الحامي بكل حماسهم وجدهم وإصرارهم، كأنهم ما جلسوا إلاّ لاختيار أكبر شخصية من شخصيات العالم الإسلامي الآن، وسوف يختارونها فعلاً ويضعون على رأسها تاج الخلافة العظمى، وقد شارك في هذا النقاش أحد الصحافيين السوريين الأستاذ محمود خير الدين الدمشقي، الذي كان قدم منذ أيام، وقد رجحت ميول الأستاذ مسعود الندوي، وحكم رئيس جلسة النقاش ـ وهو كاتب السطور ـ كفة الأمير شكيب أرسلان، واتفق أكثر الحضور على ذلك، وصوّتوا في حقه، وكنا قد طالعنا تعليقاته القيّمة على كتاب «حاضر العالم

الإسلامي» للمؤلف الأمريكي (Stoddard) قريباً، وكنا نقرأ مقالاته الإسلامية الفائضة بالقوة والحماس في «الفتح»، فكانت شخصيته لأجل ذلك متغلغلة في أحشائنا ومسيطرة على عقولنا.

وقد سُمع صدى هذه الندوة في مصر أيضاً، إذ نشر الأستاذ محمد طاهر محضر الجلسة في صحيفته «الشورى» المصرية بإشارة من العلامة السيد رشيد رضا، واطَّلع عليه الأمير شكيب أرسلان، فكتب رسالة شخصية إلى الأستاذ مسعود يشكر فيها محبيه الذين لم يروه على حسن ظنهم وثنائهم، ولكن صرَّح ـ بكل جراءة وإخلاص ـ أن هذا اللباس لا يستقيم في الواقع إلّا على المجاهد الكبير المعروف الغازي عبد الكريم الريفي، الذي أنزل ـ بصلاحيته وعبقريته الحربية الموهوبة واستعداده المنقطع النظير ـ ضربات قاصمة على إسبانيا وفرنسا، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» هذه الندوة، ويمكن أن يقدر بذلك مستوى عقليتنا في ذلك الوقت، وذوقنا ودراستنا ومنهج تفكيرنا.

الـــزواج:

في شهر نوفمبر لهذا العام نفسه أي ١٩٣٤ م تمَّ زواجي ببنت خالي السيد أحمد سعيد، وهي حفيدة الشيخ الجليل السيد ضياء النبي، وبنت بنت السيد عبد الرزاق كلامي مؤلف «صمصام الإسلام» ترجمة «فتوح الشام» للواقدي في الشعر وخطب الشيخ حيدر حسن خان شيخ الحديث بدار العلوم خطبة الزواج، ونظَّم أخي الأكبر ـ لشفقته وعطفه وللشعور بأن الوالد غير موجود ـ وليمة كبيرة، ومأدبة سخية عظيمة، على مستوى عال وبرحابة صدر وسرور.

تجربة جديدة في تعليم العربية:

كان من تأثير هذا الجو السائد للعربية، ومنهج التعليم المختار لدى الشيخ الهلالي، الذي كان يرى الاستعانة في تعليم لغة بلغة أخرى خطأ من الأساس، وصحبة الأستاذ محمد العربي ليلاً ونهاراً ـ أن خطر ببالنا تعليم

اللغة العربية بالطريقة المباشرة (Direct Method) وأسند إليَّ عدد من طلاب الصف الأول بإذن أخي الأكبر وتشجيعه وسماح العميد بذلك لهذه التجربة الجديدة، وعدد آخر إلى بعض المدرِّسين المحترمين الشيوخ لتدريسهم على المنهج القديم، واختيرت جماعة من الطلاب للأستاذ أبي الليث الإصلاحي الندوي ليدرسهم حسب منهج العلامة حميد الدين الفراهي، ثم امتحنهم أخي الأكبر نفسه في آخر العام، فكانت جماعتنا هي الأولى، وقد استفاد الطلاب بهذا المنهج كثيراً، ولكن استفدنا نحن المدرسين بهذا المنهج أكثر، وكان لنا بذلك مران على الطلاقة في الكلام بالعربية وتمرين على الخطابة والإفهام، كان أساساً فيما بعد لتلك الخدمات المتواضعة التي تحقَّقت بفضل الله تعالى في مجال الدعوة والتربية.

وكنت بطبعي ولتأثير ذلك الجو والبيئة أنست بطلاب الصفوف التي كنت أدرسها وألفتهم، وكان من الحب والثقة والعلاقة ما يشترط للإفادة والاستفادة، فكنت أحرص دائماً على أن يتشربوا هذا العلم، ويتلقوا هذه العاطفة الجياشة للتطوع بالتعليم وصبغ الطلاب بصبغة العلم التي كنت ورثتها من أستاذي الشفوق الشيخ خليل التي كانت تجيش في الصدر، فلا قيود ولا التزام بالضوابط المدرسية، والأوقات التعليمية المحددة والمواعيد المقررة، والمكان المحدد، إنما هو شغف بتمرين الطلاب وتعليمهم العربية، نختار لها الطرق الحديثة، ونجرب لها التجارب الجديدة، ونخترع لها ما تسعفنا عقليتنا، وتمدنا معلوماتنا، وقد كنا نستفيد كثيراً في هذا المجال بالأستاذ محمد العربي الذي كان شقيق الشيخ تقي الدين الصغير.

الدروس والمواد الأخرى:

أما الدروس والمواد الأخرى كالحديث وغيره، فقد أعانني الله تعالى فيها وأيدني بفتح منه، فكان الشيخ حيدر حسن خان يسأل طلاب سنن الترمذي عن انطباعاتهم، وقد أبدى لي مرة سروره واقتناعه بعد أن أخذ آراء الطلاب واستفسرهم عن انطباعاتهم، وألقيت دروساً في المنطق أيضاً، فكنت

أمثل الاصطلاحات والأصول القديمة والجديدة بالأشياء العادية والمشاهدات اليومية، وقد استعنت فيه بكتب المنطق الجديدة.

ولعل حصة تاريخ الأدب العربي كانت من نصيبي بصورة مستقلة بعد عام، وكان «تاريخ الأدب العربي» للأستاذ أحمد حسن الزيات مقرراً في الصف السابع (السنة العالية الأخيرة) وكان هذا أحب موضوع لديّ وأرضاه، فدرَّست هذا الكتاب باستمرار عدة سنين، ودرَّست في الأعوام الأخيرة من علاقتي التدريسية بدار العلوم (الكتب المختارة) كتاب الوحي، وكتاب الإيمان وكتاب العلم، من صحيح البخاري، ووجدت فيه لذة ومتعة، ورأيت أنني لو وجدت فرصة من الوقت للمطالعة والجدّ فيه لدرّستُ صحيح البخاري كله كأحسن ما يدرَّس، وبدأت تدريس صحيح البخاري كله، ولكن حالت دون الاستمرار فيه كثرة جولاتي ورحلاتي وضعف بصري الذي بدأت أشعر به زمن مراجعتي لشروح صحيح البخاري وحواشيه الدقيقة، ولا أزال آسف عليه، ودرَّست عاماً واحداً كتاب «حجة الله البالغة» لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهولي.

دعوة الدكتور أمبيدكر إلى الإسلام
والرحلة إلى بومبائي:

كان قد مضى على بدء عملي التدريسي في دار العلوم عام واحد، وكنت لم أتجاوز الواحد والعشرين من عمري إذ أمرني في شهر أكتوبر عام ١٩٣٥م أستاذي العطوف الشيخ خليل وأخي الأكبر السيد عبد العلي أن أسافر إلى بومبائي، وأدعو الدكتور أمبيدكر[١] الذي كانت تتناقل الصحف بحثه عن الدين الصحيح لشعبه المتخلِّف المنبوذ (Depressed Classes) وأنه سيقدم في وقت قريب على اختيار دين من الأديان لنفسه ولطبقته التي يتزعمها ويمثلها، والتي يبلغ عدد أعضائها إلى ملايين من البشر.

---

(١) كان من كبار الحقوقيين في الهند، واختير وزيراً للقانون في أول حكومة مستقلة، وهو الذي وضع الدستور الهندي، وكان ينتمي ـ ولادة وتناسلاً ـ إلى إحدى الطبقات المنبوذة: (De pressed Classes).

وقد كان أستاذي وأخي الأكبر يغلب عليهما ذوق الدعوة الإسلامية في غير المسلمين، وكانا يقومان بنشاطهما في هذا المجال في نطاقهما المحدود وبأساليبهما الخاصة، ويتلمسان كل وسيلة وسبيل لنشر تعليم المساواة الإسلامي بين هؤلاء المنبوذين والطبقات المتخلفة، وينتهزان كل فرصة، ولا أدري كيف وقع اختيارهما لهذا العمل الخطير الدقيق عليّ وأنا لا أزال في ريعان شبابي.

كان الدكتور أمبيدكر حينذاك عميد كلية القانون ببومبائي، معروفاً في الأوساط السياسية والتشريعية، وكان يعتبر قائد الطبقة المنبوذة في الهند، وكان يرى أن أي خطوة يتخذها هو في هذا السبيل تكون لها آثار سياسية وخلقية واجتماعية بعيدة المدى، وسوف يكون لها تأثير كبير عميق على مستقبل الهند السياسي وخريطتها السياسية، وقد بدأت المحاولات من أصحاب الديانات المختلفة المسيحية، والبوذية، والإسلام، لاقتناص هذا العقاب، كل حسب وسائله وإمكانياته وطموحه ووجهة نظره.

وكانت تقع المسؤولية الكبرى على عاتق المسلمين في هذه القضية، فإنهم مأمورون من الله تعالى بهذه الدعوة، مبتعثون لها، وإن دينهم دين الدعوة والإنسانية، ودين الأخوة والمساواة، ولا أدري ما هي المؤسسات والمراكز والشخصيات التي قامت بتوجيه الدعوة إليه للدخول في الإسلام، إلّا أن الذي أذكره أن إمارة حيدر آباد كذلك كانت لها جهود ومحاولات لجذبه إلى الإسلام.

وقد كنت أيضاً بفضل تربية أخي الأكبر وأستاذي العطوف وصحبتهما أجد في نفسي شوقاً وانجذاباً إلى هذا العمل، وأرى أنه قربة وعبادة، وسعادة أي سعادة، ولكن الذي تقتضي هذه المهمة من صلاحيات وكفاءات، وشخصية موقرة جذابة مؤثرة، وقدرة فائقة على اللغة الإنكليزية، كنت عاطلاً عنها، فقد كنت نحيل الجسم والعود، ناهضاً في الشباب من حيث العمر، لا تؤثر شخصيتي من حيث المظاهر والملابس، ولكني لم أجد بدّاً من النزول

على أمرهما، فأخذت بعض الرسائل والكتب الإنجليزية التي كانت أكثر من منثورات «سيرت كميتي بتي»[1]، ولعلي أخذت ترجمة بِكْتهال للقرآن الكريم أيضاً.

وكنت بعد ما نزلت بومبائي كلما ذكرت هذه المهمة لأحد ضحك وحدَّق فيّ، وصعَّد بصره ونزل، وقد سألت ـ بحَيْطة بالغة، وسرّ وإخفاء ـ عن عنوان بيت الدكتور أمبيدكر، وكان الترام موجوداً في بومبائي حينئذ، فأخذت هذه الكتب والرسائل التي جئت بها من لكهنؤ وركبت الترام وغدوت إلى بيته، كانت الساعة ٧ أو ٨ صباحاً، فقيل لي: إنه راح يتنزّه ويتمشى، ورأيت في غرفة الانتظار أناساً كثيرين جالسين صفوفاً، فاستصغرت نفسي في جنب هؤلاء الزوار، وتضاءلت أمامهم، ولكن فوَّضت الأمر إلى الله وجلست.

وما إن استقر بي المقام حتى دخل الدكتور البيت، مفتول الجسم مع السِّمَن، معتدل القامة، أسمر اللون يميل إلى البياض، وفي يده عصاه، ألقى نظرة خاطفة على الزوار، وأشار إليَّ أن تعال، فذهب بي إلى غرفة مطالعته، وأشار بالجلوس، ورأيت في الكتب التي كانت على الطاولة ترجمة القرآن الكريم لبكتهال، وكان فيها بيرق يدلّ على أنه قرأ إلى الموضع الفلاني، وكنت قد خطَّطت في نفسي لحديثي، فكنت مطَّلعاً على مكانتي المتواضعة وصلاحيتي الضعيفة، لذلك كنت عزمت على نفسي، على أنني سأكون صريحاً بسيطاً معه في الحديث كمسلم ساذج، وداعية صرف لا أمزج كلامي بأي إغراء سياسي أو اجتماعي.

وبدأت معه الحديث، فقلت: أيها الدكتور، لعل كثيراً من كبراء مختلف الديانات زاروك وقابلوك وكلموك كلاماً من مستوى عال، أما أنا فإنني لا أتجاوز القول بأنك إذا كنت تريد لنفسك ولشعبك النجاة، وتبحث ـ عن

---

(١) كانت «سيرت كميتي بتي» لجنة السيرة النبوية التي كان روحها المحرّك العامل الشيخ عبد المجيد القرشي، وكانت تصدر جريدة «إيمان» كلسان حالها، لجنة عاملة ومؤسسة دعوية منتجة في ذلك العهد.

إخلاص ونية صالحة - عن الدين الصحيح، فأنا أدعوك بدعاية الإسلام، ولا أقدم لهذه الدعوة أي إغراء مادي أو رشوة اجتماعية وسياسية، ولا أطمعك في شيء من الدنيا.

ولا أذكر كل الحديث الذي تحدثتُ به معه، إلّا أن جوهر الكلام وروحه كان يدور حول هذا، وقد استمع الدكتور إلى كلامي في جدّ وإكرام، وأجاب بأن الأمر جدّ الجدّ، يتطلب التأمل والتفكير، ولا أزال في دور المطالعة والتأمل، ثم أقضي وأبرم شيئاً ما.

ونسيت أن أذكر أن أستاذي الشيخ خليل كان قد قال لي في أذني عند توديعي أنه إذا توقف الحديث بينكما على أنه قال: إذا دخلت الإسلام، فأي أسرة مسلمة نستطيع أن نصاهرها ونتزوج فيها؟، فقل له إن أسرة عربية شريفة من أنصار اليمن مستعدة كل الاستعداد لتزوجك بنتها، وأسمح لك بأن تعطيه الوعد، ولا أزال أذكر أن الشيخ خليل كان قد قال لي هذه الكلمات وفي عينيه دموع، وفي صوته خشوع، وكان لو وقع هذا الأمر لكان عنده استعداد لذلك.

فلما رأيت أنني قد بلّغت الدعوة، ولا مجال للحديث بعد ذلك، تقدَّمت إليه بتلك المنشورات الإنجليزية، وسألته أن لا بدَّ من مطالعتها، وودعني الدكتور باحترام وإكرام، ورجعت، ثم كان من قدر الله الذي لا رادّ له، ويفسر قوله تعالى: ﴿ إنك لا تَهدي من أحببتَ، ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أنه أعلن فيما بعد اختياره الديانة البوذية لنفسه ولشعبه، ولعلَّه قد شعر بخطئه في هذا الاختيار في حياته، وأنه ما عمل بذلك شيئاً، وأن النتيجة صفر، ولئن لم يشعر هو بذلك فإن شعبه، ولا سيما المثقفين منهم بدأوا يشعرون بشدة أن هذا التغيير للديانة لم يقدم شيئاً ولم يؤخر في مصاير أمرهم، يتضح ذلك جلياً من كتاب «(Ambedkar And His Conversion) (الدكتور أمبيدكر واعتناقه البوذية) لمؤلفه (V.T. Rajshekar).

الفصل السادس

بدء تأليف «سيرة السيد أحمد الشهيد»، مجالس الشيخ الجليل التهانوي، أحداث ورحلات مهمة، الشغف بشعر إقبال.

السفر إلى طونك وبدء تأليف سيرة «السيد أحمد الشهيد»:

وجاءت فترة مباركة سعيدة تعدُّ في حياتي مفترقاً حاسماً للطريق، بل بداية لعهد مبارك جديد. قدَّمت أن رسالتي عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد بالعربية كانت قد نشرها العلامة السيد رشيد رضا بالقاهرة عام ١٩٣١ م بعنوان «ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد»، وقد بدأت بهذه الرسالة سلسلة مطالعاتي المباركة لحياة الإمام الشهيد، ولشدَّة ما أعجبني وأثر فيَّ من الكتابات حول حياة الإمام الشهيد والتعرف على شخصيته هو مذكِّرة والدي لرحلته في دلهي وما يجاورها من المدن والمراكز الدينية، وكانت محفوظة عندنا في صورة مخطوطة.

وقد كان الأستاذ مسعود الندوي معجباً بالإمام الشهيد وجماعته إعجاباً كبيراً، يتحمس لها ويَغار عليها ويدافع عنها، وكنت أذاكره وأتحدث معه في ضرورة القيام بعمل علمي حول سيرة الإمام الشهيد وجهاده وإصلاحه بأسلوب عصري جديد، واتفقنا أخيراً على أن أتولى الكتابة عن سيرته وحياته، ويتولَّى هو الكتابة عن جماعته وحركته.

وصادف أن وجه إلينا ـ أنا ومدرسين آخرين في دار العلوم: الشيخ محمد العربي، والأستاذ عبد السميع الصدِّيقي ـ شيخُنا حيدر حسن خان الطونكي الدعوةَ إلى السفر معه إلى طونك، وسافرنا إلى طونك، وقد كان يشوِّقني إلى زيارتها أن فرعاً كبيراً لأسرتنا كان يسكن هناك لا سيما من أعقاب الإمام الشهيد، وقد ظفرت في طونك بأوثق مصدر وأكبره عن حياة الإمام في كتاب «وقائع أحمدي» في عدة مجلدات، وقد استفدت منه كثيراً، لقد تجولت في هذه الرحلة في أنحاء طونك، وتمرنت في هذا السفر على الرمي بالبندقية على يد أحد الأساتذة البارعين فيه الأمير عبد الرحمن خان الذي كان خَتَن والي إمارة طونك.

في هذه الرحلة عندما كنت مقيماً مع شيخنا على شاطىء نهر «بناس» الذي لعلَّ الإمام الشهيد وجماعته المجاهدين الأبرار توضئوا منه مرات وكرات، جلست في وقت الصباح الصافي قبل طلوع الشمس على صخرة ورجلاي في النهر، وكتبت مقدمة «سيرة السيد أحمد الشهيد» وعليها تاريخ مايو عام ١٩٣٦ م، والتي أدرجت في الكتاب بعنوان «نظرة إجمالية على سيرة الإمام الشهيد» ولا أحب هنا أن أتقدم قبل أن أنقل مقتطفاً من هذه المقدمة، فإنها تلقي بعض الضوء على مؤلف ناهض ومنهج تفكيره، وأسلوب كتابته:

(لقد هبت رياح الإيمان واليقين المباركة الطيبة مراراً وتكراراً في تاريخ الإسلام، ولكن هذه الريح الطيبة الرخية السعيدة للإيمان واليقين والإخلاص والربانية التي هبت على يد الإمام الشهيد، لم نرَ لها مثيلاً ـ في حدود علمنا ـ قبلها في هذه البلاد، ولا شاهدنا قبل ذلك مثل هذه النماذج الرائعة وعلى هذا النطاق الواسع، للتوكل والعزيمة، والإيمان والاحتساب، والحنين إلى الجهاد والشهادة، والإيمان بالآخرة، وإن لم تكن مثل هذه الحوادث المدهشة المحيرة للعقول لصناعة الرجال، وتربية الأجيال، والإصلاح وانقلاب الأحوال، فإنها نادرة قليلة الوجود في تاريخ الإصلاح والتربية)[1].

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد ص ٥٤.

لقد كانت هذه بداية مباركة سعيدة ويبدأ بها في حياتي عهد جديد، وما كنت أتوقع نفسي أيضاً أن هذا العمل سوف يحدث في حياتي تغييراً ويفتتح عهداً جديداً، وأن هذا الكتاب سوف ينال من القبول والحظوة في الناس ما ناله، ويكون سبباً للتعريف بي في الأوساط الدينية والتقرب لدى عباد الله الصالحين.

عدت من طونك عند نهاية الإجازة الصيفية، ورجعت إلى لكهنؤ وقد صحَّت عزيمتي على إكمال هذا الكتاب الذي كان حاجةَ الوقت، ونداءَ الضمير.

قدوم الشيخ أشرف علي التهانوي إلى لكهنؤ ومجالسه:

قدم المُربّي الجليل، العالم الرباني مولانا أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى لمداواة بعض ما كان يشكوه من علل في شهر أغسطس عام ١٩٣٨ م إلى لكهنؤ، وأقام بها أربعين يوماً، وقد كانت زيارته هذه كرامة ساقها الله لأهل لكهنؤ، وللطالبين في مدن مجاورة، فقد كان الشيخ قد ترك السفر والتنقل لعلو سنه وضعفه منذ زمن، ولم يكن بدّ للطالبين والمسترشدين السالكين إلا أن يذهبوا إليه في «تهانة بهون»[١] ولكن قدم المعالج الروحي بغية علاج جسمه إلى المرضى، وبدأ أخي الأكبر ـ الذي كان يعرف قدر هذه الفرص الطيبة وقيمتها، وكان معترفاً بجلالة قدره وسمو منزلته ومعجباً به ـ يحضر كطالب من الطلاب «هذه المدرسة»، التي كانت تقوم بعد الظهر في البيت الذي نزل فيه الشيخ ضيفاً، وبعد العصر في «مسجد الحي»، وكان لازماً أن يأخذني معه إلى هذا المجلس، فكان هذا سبب تقربي إليه وحضوري في مجالسه.

الزيارة الأخيرة للدكتور محمد إقبال:

إلى عام ١٩٣٤ م ـ ١٩٣٥ م لم يكن لي كبير شغف وعناية بشعر الدكتور

---

(١) قرية كبيرة قديمة في مديرية مظفر نكر في الولاية الشمالية.

محمد إقبال، وما كنت أعرف من دواوينه الشعرية إلا ديوان «بانك درا» الذي كان باكورة دواوينه الشعرية، ولم يكن فيه ذلك السمو الفكري والتحليق المعنوي الذي اتسمت به مجاميع شعره المتأخرة، وكما أسلفت أنني كنت ترجمت قصيدته المعروفة بالقمر، وأنه كان نظر فيها عند سفري الأول إلى لاهور في مايو عام ١٩٢٩ م.

ولكن لما وقع بصري على شعره الأخير في «ضرب كليم» تفتحت عيني، وسحرني شعره، وسمو فكره، ثم لما قرأت «بال جبريل» زاد إعجابي وتأثري، فقد وجدت فيه مع سموّ الأفكار، جمال النغمة وحلاوة الجرس، وقرأت دواوينه الشعرية الأخرى في الفارسية، وتأثرت به عقليتي وتفكيري وقلبي تأثراً لا أعرفه - في حدود الأدب والشعر والفكر الإسلامي القوي - بأي شخصية معاصرة أخرى.

لقد كان من أسباب إعجابي وتأثري بشخصية إقبال، أنني كنت مطّلعاً على مصادر بحوث العلماء، وما تدبّجه أقلام الكتاب والأدباء، وأعرف من أين يستمدون موادهم ومعلوماتهم، وكنت في قليل أو كثير، على خبرة بها وبصيرة، وكانت لي مشاركة ما مع التفاوت في العمر والعلم والمطالعة.

وكنت أرى أني أقدر بالجهد والدراسة، وإتقان أسلوب الأداء، وطول المران، على الوصول إلى هذا المطلوب أو أقارب حدوده، ولكن تراءى لي أن مصدر آراء إقبال وأفكاره وخواطره، ومنبع نغماته وأناشيده فوق قدرتي ووراء إدراكي، وكنت أشعر بسماعها أو قراءتها كأنها خواطر عالم آخر وأفكاره، وأن علاقتها ليست بالعلم والذكاء وسعة المطالعة وكثرة المعلومات، إنما هو فيض ربّاني، ورشحة من الرشحات العلوية، إنها عبقرية لا تدين للذكاء وسعة العلم وقوة التعبير، إنما هي هبة من هبات الله التي لا نهاية لها.

ويحلو لي أن أنقل هنا بعض السطور من كتابي «روائع إقبال» التي كنت كتبتها في تعليل هذا الإعجاب وتفسيره:

«إن أسباب الإعجاب بشعر محمد إقبال كثيرة، وللمعجبين به أن يتحدَّثوا عن أسباب إعجابهم، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس، فالإنسان إنما يحب نفسه ويطوف حولها، ويعيش فيها، ويحب كل ما وافق نفسه، وترجم عن ضميره، ولا أبرّىء نفسي، فربما أحببت شعر محمد إقبال لأني رأيته يـوافق هواي، ويعبـر عن ضميري وخواطري، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري.

إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطمـوح والحب والإيمان، وقد تجلَّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم ممَّا تجلَّى في شعر معاصر، ورأيت نفسي قد طُبعت على الـطُّموح والحب والإيمان، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح، وسمو النفس، وبعد النظر، والحرص على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذيان الحب والعاطفة، ويبعثان على الإيمان بالله تعالى والإيمان بمحمد ﷺ وبعبقرية سيرته وخلود رسالته وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها.

إنني أحببته وشُغِلتُ به كشاعر «الطموح والحب والإيمان» وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية»[١].

وكان من حسن المصادفة أن الأستاذ مسعود الندوي كان معجباً به كذلك غاية الإعجاب، وأسير أدبه وشعره، فكنا نتناشد شعر إقبال، ونتمتع به ونتذوقه، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور وإطراء له في مجلة عربية أو ترجمة لبعض شعره فيها، وقد كان ذلك عامّاً في الأوساط الأدبية في الشرق العربي،

---

(١) روائع إقبال ص ١١ ـ ١٢ طبعة المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، الهند.

حتى إن أديب مصر الشاب الناهض الناقد سيد قطب أيضاً كان معجباً به ومعترفاً بفضله، وكان يرى أن شعره يمثل روحانية الشرق في الشعر والتعبير عن المعاني والحقائق غير المادية والحسية - أروع تمثيل وأجمله - غاظنا ذلك، وأثار فينا سخطاً وامتعاضاً، وتحمسنا لتعريف شعر إقبال في العالم العربي.

وقد اعتذر الأستاذ مسعود الندوي عن نقل شعره إلى العربية، لأن قريحته لا تطاوعه في ترجمة الشعر، فوكل هذه المهمة إليّ، ووعد بأنه يتولى التعريف بفكره وترجمة حياته، والتعليق على شعره وآرائه، فصح عزمنا وشرعنا في العمل، ونُشرت بعض مقالات الأستاذ مسعود في مجلة «الفتح» الغراء، وجاءت حصيلة جهودي بعد سنين في صورة كتاب «روائع إقبال».

صادفت هذه الفترة من الشغف بشعر إقبال والهيام به رحلة لي إلى بنجاب، وقد كانت عدة دوافع وأسباب تدعو إليها، منها وجود عمتي، والعم السيد طلحة هناك، ووجود شيخي وأستاذي الشيخ أحمد علي اللاهوري، فقمت في ١٦/ رمضان المبارك عام ١٣٥٦ هـ، الموافق ٢٢/ نوفمبر عام ١٩٣٧ م بزيارته في منزله في الصباح، وكان معي العم السيد طلحة الحسني وابن عمي السيد إبراهيم بن إسماعيل الحسني، وطالت الجلسة معه وطابت، ولا ندري ما السبب في أنه أتاح لنا وقتاً طويلاً بصورة غير عادية، فقد كان معتكفاً في بيته لمرض طال به وأضناه، ونصحه الأطباء بالهدوء التام والاستجمام الكامل، وصادفنا من نفسه - رغم مرضه الذي كان المرض الأخير - نشاطاً وطيباً، وكان خادمه يقاطعه حيناً بعد حين إشفاقاً على صحته، لينفض المجلس ويأخذ العلاّمة راحته، وقد أراد الخادم ذلك عدة مرات، ولكن العلاّمة اعتذر، واسترسل في الكلام.

وضع المنهج الدراسي لقسم الدراسات الدينية في الجامعة الإسلامية بعليكراه، والإقامة القصيرة بها:

في عام ١٩٣٨ م أعلن رئيس قسم الدراسات الدينية بالجامعة

الإسلامية بعليكراه فضيلة الشيخ السيد سليمان أشرف في الصحف اليومية أن القسم في حاجة لمرحلة الليسانس إلى كتاب ديني يشتمل على بيان العقائد الإسلامية، والأحكام الضرورية، ومعلومات مبدئية عن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، تكون على مستوى طلاب مرحلة الليسانس. وكان في الإعلان أيضاً أن الكتاب إذا وافق المستوى المطلوب، فسوف تمنح عليه مكافأة مالية.

وتوكلت على الله وكتبت إلى الأستاذ سليمان أشرف بتهيُّئي لتأليف هذا الكتاب، وقبل هذا العرض، ولعل السبب في ذلك كان تدريسي بدار العلوم ندوة العلماء، ولِمَا كان بين الشيخ وبين والدي العلامة السيد عبد الحي الحسني من معرفة سابقة وتقدير واحترام. وأعددت هذا الكتاب في شهرين أو ثلاثة وأرسلته إلى فضيلة الشيخ، فارتضاه وقبله، ولكنه أرسل إليّ عن طريق الشيخ أبي بكر الفاروقي مدير القسم أن أحضر عليكراه لأيام وأقيم في رحاب الجامعة، لأنه يريد أن يبادل مَعِي الأفكار في بعض مواد الكتاب، فإذا كانت حاجة إلى تعديل أو زيادة كان أيسر، فذهبت إلى عليكراه ومكثت هناك قرابة شهرين، وأنزلني الشيخ أبو بكر في إدارته للقسم الديني الذي كان في الجانب الجنوبي الشرقي من المسجد الجامع برواق سرسيد، وكنت ضيفاً عليه، أحضر في المساء مجلس الأستاذ سليمان أشرف، وأتبادل معه الآراء حول بعض المحتويات في الكتاب، وقد استفدت من تجاربه الطويلة في مجال التعليم والتدريس، وتوجيهاته القيمة النافعة.

طبع كتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» ورواجه وقبوله في الناس:

كان من نتائج الدور الذي مثّلته العصبة الإسلامية (Muslim League) الحزب الذي كان يتمتع بحماية المسلمين وتحمسهم له والذي نادى بباكستان، ولِمَا أنشأته من عاطفة اعتزاز في الجماهير المسلمة تجاوزت الحدود، وكذلك تهوُّر بعض المنظمات والحركات الإسلامية في الشباب، وما كان يلاقيه المسلمون من موقف اعتدائي متطرف من مواطنيهم الهنادك،

وما فطر عليه المسلمون من حُبّ العز والكرامة، وتقدير البطولات والتضحيات، كان من نتائج كل ذلك رغبة ملحة في الشعب الإسلامي الهندي إلى كتابات دعوية تنشىء فيه الاعتداد بالنفس والطموح والذاتية، وتدعوه إلى تكوين أمة ذات شأن لهـا قيمتها ومكانتها ووزنها بدلاً من تلقينهم طرائق العبودية والخضوع للغرب، وقضاء الحياة في الهند كرعايا تابعين خاضعين، مقطوعي الأيدي والألسنة، وكان فيه استعداد غريب وتجاوب لما ينفخ فيه روحاً جديدة قوية بتعريفه بجهاد أسلافه الميامين وجلائل أعمالهم ومآثرهم الخالدة.

وقد أحدث في جانب آخر موقف المواطنين ـ الذي كان يجربه كل من عمل معهم مرة بعد مرة ـ وشعورهم بالكبرياء ومركب الاستعلاء، بل الشعور بأنهم وحدهم هم سادة البلاد وأبناؤها البررة، وقد أحدثت حركة المؤتمر الوطني الشعبية الأخيرة ومشروع اتصالها بالجماهير المسلمة بطريق مباشر (Mass Contact) ردة فعل عنيفة، حركة قوية وشعوراً حياً في صفوف المسلمين لوحدتهم القومية، وموجة قوية لنهضة جديدة ويقظة جديدة، ردة فعل لم تكن كبيرة الوضوح، ولا مؤسسة على وعي كامل، فكانوا في حاجة إلى تغذية دينية صالحة وتوجيه سليم، ووقاية لهم من الانحرافات والتطرف.

كان من قدر الله تعالى وحده أن ظهر في نفس الوقت كتابي «سيرة السيد أحمد الشهيد» في بداية عام ١٩٣٩ م، بالقطع الصغير مشتملاً على ٤٦٤ صفحة، وقد حلَّت جيدَه مقدمةٌ فاضلة مثيرة بعنوان «مسافر الإسلام في دار الغربة بالهند» بقلم العلامة السيد سليمان الندوي، وقد أفاض فيها العلامة وأرسل النفس على سجيتها في التعريف بمأثرة الإمام الشهيد التجديدية والإصلاحية العظيمة، وشجع المؤلفَ الناهضَ الذي كان هذا الكتاب باكورة مؤلفاته، بل زاد من قدره ومكانه، وتمتاز هذه المقدمة حتى من بين كتابات العلامة السيد الأدبية والتاريخية بمكانة فريدة، تتجلى فيها ـ بوضوح ـ عاطفته القلبية، وإعجابه وتأثره. وقد ضمَّ الكتاب آراء وتقريظات

من الشيخ الجليل المجاهد السيد حسين أحمد المدني، والأستاذ عبد الماجد الدريابادي. وقد كنت كتبت إهداء هذا الكتاب إلى خالي الشفوق العطوف الشيخ حافظ السيد عبيد الله الذي كان توفي إلى رحمة الله تعالى في ٣٠/ يونيو عام ١٩٣٨ م (قبل نشر الكتاب بأشهر).

لقد كان هذا الكتاب ـ على علاته ـ أول كتاب أُلِّف حسب اتجاه العصر وطبيعته، وكانت فيه أول محاولة لعرض أهداف دعوة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وحركته البعيدة الأثر وغاياتها ومراميها العالية، وقد جاء فيه عرض جامع لما امتازت به جماعته ورفقته من نفحات إيمانية، وخصائص خلقية، وتنظيمات مدهشة، وجهود جليلة، وتضحيات جسيمة.

وقد ذكر فيه لأول مرة أن قصد الإمام الشهيد من جهاده الذي قام به لم يكن حماية المسلمين في ولاية بنجاب، وردّ الظلم والعدوان عنهم فحسب، بل إنما كان غرضه الأكبر إحياء الخلافة الإسلامية وإقامة الحكومة الإسلامية على منهاج الخلافة الراشدة، ولم يكن مجال جهوده وجهاده حكومة السيخ في بنجاب، بل كانت غايته بلاد الهند كلها التي كان الأخطبوط الإنجليزي قد بدأ يبسط نفوذه على شبه القارة وينشب أظفاره فيها.

وقد ضم هذا الكتاب قصة مفصَّلة عن الجهود الضخمة الكبيرة التي قامت بها جماعة الإمام الشهيد ضد الإنجليز، ووقائع الصبر والجلادة، والاستقامة والاستماتة التي قدَّم أمثلتها الرائعة المجاهدون المضطهدون الذين زج بهم في سجون الهند ومنفى إنْدمان، ضد تعسف الإنكليز وظلمهم ووحشيتهم، مما يثير النفوس والقلوب، ويبعث على الإيمان واليقين، ويقدِّم دروساً وعبراً حية، لا يملك أقسى قلب وأبرده إذا مرَّ بها وقرأها إلا وتشتعل فيه الحرارة الإيمانية، ويلتهب غيرة وحمية وأنفة.

والواقع أن عظمة الموضوع بالنسبة إلى مكانة صاحب السيرة والالتزامات والآداب التأليفية لم تكن تتناسب مع سني وممارستي ككاتب

ومؤلف، وقد كنت في الثانية والعشرين من عمري، ولم تكن تكفي لتأليف هذا الكتاب تلك المدة القليلة التي تم العمل فيها، والمصادر القليلة التي توفرت لدى المؤلف واعتمد عليها، ولكن كان كل ذلك من آثار تقبل الله لعمل المُترجَم الإمام الشهيد ومكانته عند الله جلَّت قدرته، ومقتضى الوقت وحاجة العصر، حتى كأن شخصاً ضمد جراح الأمة المكلومة، وأطلق قيثارتها، وفكها من إسارها، فتهافت الناس على الكتاب، وتنافسوا في اقتنائه، وقرأوه في حبٍّ وإجلال، وقرىء في المساجد والمجامع، وجاءت إلى المؤلف الناهض الخامل رسائلُ خطابات التقريظ والإطراء لم تكن تخطر منه على بال. وأخبرت بتأثيره في بعض الشباب المثقفين الذين كانوا قد يئسوا من حيوية الإسلام وصلاحيته للبقاء والقيادة، وإعادة الحياة، ووقعوا أسرى الشيوعية والإلحاد، فإنه قد نفخ فيهم روح الإيمان وأيقظ فيهم الشعور الديني والنزعة الإيمانية، وقد قرأه بعض القراء ثماني أو عشر مرات، وذلك من فضل الله تعالى.

صدور مجلة «الندوة» للمرة الثالثة:

إن مجلة الندوة التي كانت قد طلعت في يوليو عام ١٩٠٤م تحت رئاسة تحرير العلاّمة شبلي النعماني والسَّرِيّ الفاضل حبيب الرحمن خان الشيرواني على أفق الهند العلمي كنجمة جديدة لامعة، كان ظهور مقالة فيها ولو كانت بقلم كبار أهل العلم وأصحاب الأقلام مفخرة ووسيلة تعريف وتنويه، فقد كان مولانا أبو الكلام آزاد ـ قبل أن يصبح البدر المنير على أفق الهند السياسي والأدبي ـ هلالاً[١] في هذا النظام الشمسي كنائب مدير التحرير الذي لفت بعد برهة قصيرة من الدهر ـ كهلال العيد ـ أنظار المسلمين من أهل الهند كلهم[٢].

---

(١) إشارة إلى صحيفة «الهلال» التي أصدرها مولانا أبو الكلام آزاد، وهام بها المسلمون في أرجاء الهند.

(٢) كانت المجلة مستمرة في الصدور إلى ديسمبر عام ١٩١٢م.

ثم صدرت المجلة للمرة الثانية في يوليو عام ١٩١٤ م في إدارة تحرير الشيخ إكرام الله الندوي، وتوقفت في ديسمبر عام ١٩١٦ م، ثم لما قويت عناية العلامة السيد سليمان الندوي واهتمامه بندوة العلماء، وأراد أن يجدد العهد الراحل، عزم على إصدار «الندوة» عام ١٩٤٠ م للمرة الثالثة.

كان من نتائج أزمة الرجال أن وقع الاختيار لتحريرها عليّ وعلى الزميل الموقر الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي المرحوم، والمجلة وإن لم تبلغ ـ لتغير الظروف والأوضاع، وعدم شهرة المسؤولين عن الإدارة وقلة إتقانهم ورسوخهم ـ ذلك المستوى الرفيع الذي كانت تحتله في عهدها الأول، إلا أنها اعتبرت مجلة علمية ودعوية موقرة محترمة، تحمل المعلومات الجيدة، والفكر الصالح المستقيم، وتثير العقل والقلب، لا سيما عندما بدأت تنشر فيها مقالات العلاَّمة السيد سليمان الندوي، والأمير الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني، والأستاذ عبد الماجد الدريابادي، والشيخ ضياء الحسن العلوي الندوي.

وخطر ببالي في نوفمبر عام ١٩٤٠ م أن أنشر فيها سلسلة مقالات، موضوعها «الكتب التي أفادتني»، وأدعو للكتابة فيه كبار العلماء، وقادة الفكر ورجال التربية، والكتّاب والأدباء، فراسلت في ذلك الحين الشخصيات البارزة المعروفة ـ في حدود علمي ـ في الهند، من الأوساط القديمة والحديثة، وطلبت منهم أن يكتبوا في هذا الموضوع، وقد جاءت إلينا ردودهم المشجعة التي باركت هذه الخطوة، وكتب حوالي ١٥ شخصاً من كبار أصحاب الأقلام والعلماء مقالاتهم في هذا الموضوع، التي نشرت فيما بعد في صورة كتاب مستقل، وتوقفت المجلة للأسف الشديد مرة ثالثة للخسارة المالية في شهر فبرائر عام ١٩٤٢ م.

في عام ١٩٣٩ م كانت زيادة ذات قيمة وشأن في عدد الأساتذة والشيوخ بدار العلوم، لم تقتصر فائدتها على الطلاب، بل استفاد بها المدرسون والأساتذة توجيهاً وتربية وتعليماً، ألا وهي زيادة المحدِّث الشيخ

حليم عطا السلوني وتعيينه أستاذ الحديث في دار العلوم، وقد كنت على معرفة به من أيام الطلب، فقد كان أحد أفراد الأسرة الفاروقية المعروفة بشرفها ووجاهتها في قرية سلون المجاورة لمديرية رائي بريلي ومنحدراً من أسرة المشايخ والمربين الروحيين، وكنت لما زرته عام ١٩٣١ م مع العم السيد طلحة والسيد زبير، زرت أيضاً مكتبته العامرة، وتأثرت بذاكرته القوية غير العادية، ودراساته المستفيضة ومطالعته الكثيرة، فقد كان آية ونموذجاً للسلف الكرام في قوة الذاكرة، وشغفهم بالعلم، واشتغالهم بالمطالعة.

ولعلّه لم يكن في الهند من تكون له مثل معرفته الدقيقة العميقة الواسعة بآثار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيِّم وابن رجب، وابن عبد الهادي وابن الجوزي ومؤلفاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم، فكان يحفظ صفحات من كتبهم عن ظهر غيب، ورغم أنه كان من أبناء المشايخ الصوفية، كان صحيح العقيدة والمسلك، متزناً في الرأي والمذهب، مقدِّراً للسنة المشرفة والحديث الشريف قدرهما، شغوفاً بهما.

وقد انتفعت به أيضاً في البحوث والدراسات القديمة، فكان يعطف عليّ كثيراً لعلاقاتي الأسرية والوطنية القديمة، وقد كنت أنا السبب في استقدامه إلى دار العلوم، وكان للشيخ ذوق أصيل في الأدب العربي، عارفاً بالأدباء المجيدين وأساليبهم وخصائصهم، وكانت دراسته على الطراز القديم، إلا أنه لم يفقد الاطِّلاع على الحديث الأحدث، وكان مطِّلعاً على مواطن الضعف في المؤلفين المحدَثين، وقد كان مجيئه إلى دار العلوم زيادة مباركة للدار، وخيراً وبركة لجوها العلمي، بل سبباً كبيراً لتقويته وتوسيعه وتنميته.

وسافر في تلك الأيام أحد رفقائنا وزملائنا القدامى الشيخ محمد عمران خان على منحة من بوفال إلى مصر للدراسات العليا، والتحق في الجامع الأزهر بقسم الوعظ والإرشاد بكلية أصول الدين، وتخصص فيه، وعاد بعد تخرجه فيه إلى دار العلوم عام ١٩٣٩ م، وبدأ عمله كنائب العميد في دار

العلوم، وقد قوي بعد مجيئه نشاط الأمور الإدارية، ونفخت فيها الحياة، وبذلك ازداد من رفاقنا وزملائنا شخص كان يملك صلاحية جيدة للأمور الإدارية التنظيمية.

ولكن مع هذه الزيادات المفيدة القيمة تحملت دار العلوم خسارة علمية دينية كبيرة، وتفصيل هذا الإجمال أن شيخنا شيخ الحديث وعميد دار العلوم الشيخ حيدر حسن خان دبّ إليه عام ١٩٤٠ م الملل والسآمة لأسباب مختلفة من الإقامة بدار العلوم والقيام بمسؤولياته الإدارية، وكانت سنه أيضاً تقتضي أن يقضي بقية أيامه في وطنه طونك، التي كان يوافقه طقسها وجوُّها، بصورة مستقلة في راحة وهدوء، كما كانت المدرسة الفرقانية التي أسسها هو تجذبه وتحتاج إليه، وقد غادر الشيخ[1] في ٣/ ذي الحجة ١٣٥٨ هـ لكهنؤ إلى طونك بصورة مستقلة، وهكذا حرمت دار العلوم إشراف وعمادة محدِّث جليل، وشيخ كبير، وعالم متبحِّر فاضل.

---

(١) انتقل الشيخ إلى رحمة الله تعالى في ١٥/ جمادى الأولى عام ١٣٦١ هـ، الموافق ٣١/ مايو عام ١٩٤٢ م، انظر ترجمته بشيء من التفصيل في كتابنا «المصابيح القديمة».

الفصل السّابع

بدء محاولة وضع المقررات الدراسية في دار العلوم ندوة العلماء، وكتب جديدة في اللغة العربية والأدب العربي وقواعد العربية.

أهمية وضع المناهج والمقررات الدراسية من جديد:

لقد كانت حركة ندوة العلماء مؤسسة على وجهة نظر تعليمية خاصة، ومطالعات ودراسات، وتجارب معينة، لقد كان القصد منها نفخ روح جديدة في أنظمة التعليم الديني ومناهجه، وتطويرها حسب مقتضيات العصر المتغير، والظروف المتغيرة الطبيعية المشروعة، وكانت تدعو إلى الاهتمام بالفن نفسه أكثر من الكتاب المقرر، وبالمقاصد والغايات أكثر من المباحث الجانبية والقضايا الفرعية، وإحياء منهج المتقدمين الذي كان يغذي العاطفة والعقل، ويقوم على فكرة ترسيخ العلم وإنشاء الذوق بدلاً من النزاعات والخلافات اللفظية، والافتراضات العقلية، وشق الشعرة، وصنع القُبّة من الحَبّة، وصرف كل الذكاء والعبقرية في الشروح والحواشي عند المتأخرين، وكانت ترمي إلى تعليم اللغة العربية كلغة حية نابضة يخاطب بها العرب أنفسهم وتكون وسيلة الدعوة الإسلامية فيهم، وتنشأ في طلاب المدارس العربية وخريجيها ملكة الخطابة والإنشاء والتحرير، وقد أنشأت هذه الحركة لأجل هذا الغرض ولتحقيق هذه المشاريع والخطط، وعرض نموذج حيّ

لذلك أمام المدارس الإسلامية في الهند، دارَ العلوم المركزية التابعة لها في لكهنؤ عام ١٣١٢ هـ باسم «دار العلوم ندوة العلماء».

وقد كان هذا الغرض يقتضي أمرين:

١ ـ إعداد منهج دراسي يحمل هذه الخصائص والميزات، ويغني عن تلك الكتب التي لا تتفق مع هذا المستوى والغرض، وقد اضطر إلى اختيارها لعدم وجود المطلوب. إن اختيار منهج تعليمي لا يتفق مع وجهة نظر أيّ مؤسسة تعليمية وأهدافها وغاياتها، ويسوق الطلاب ويوجه علمهم وذوقهم توجيهاً معاكساً وفي طريق آخر، نوع من التعارض ومحاولة مؤثّـرة ـ عن وعي أو غير وعي ـ لإثبات خيبة تلك المقاصد والأهداف التي أُنشِئت المؤسسة لها، وعلى أنها غير عملية.

٢ ـ والحاجة الأساسية الثانية هي تربية المعلمين وإعداد المدرِّسين الذين لا يتفقون مع وجهة نظر تلك المؤسسة التعليمية وتصوراتها فحسب، بل يتحمسون للدعوة إليها والتبشير بها، ويقومون من أنفسهم نماذج حية عملية لها، ويبذلون كل ما في وسعهم من صلاحية وكفاءة علمية وتدريسية بكل اهتمام وتركيز وعناية في إنجاح المناهج التعليمية المُطبَّقة فيها، وإثبات أنها تتميَّز عن الأنظمة والمناهج الأخرى بكثير من الجودة وحسن الاختيار.

ولم يكن من الممكن أن يتهيأ في بداية الأمر مثل هؤلاء الأساتذة والمدرسين الذين تكونت ثقافتهم وعقليتهم في ظل هذا النظام والمنهج الذي لم يطبق بعدِ كما ينبغي، ولكن لم يكن من العسير استقدام أولئك الأساتذة والمعلمين والحصول على خدماتهم التعليمية الذين يتفقون مع هذه الفكرة ووجهة النظر التعليمية، ويعترفون بفائـدتها ونفعهـا، ولكن البحث عنهم والعثور عليهم كان يحتاج إلى دقة نظر وملاحظة، وفحص واختبـار كثير.

ولكن هذا لم يتهيأ في عهد قيام ندوة العلماء الابتدائي، ودام هذا الوضع إلى عهد إدارة مديرها السادس أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي

الحسني الندوي (B. Sc. M.B.B.S) وقد وجد الدكتور أطول عهد (٣٠ عاماً) للإدارة، ووجد فترة طيبة نال فيها ثقة تامة من أعضاء ندوة العلماء ومساعدتهم وتأييدهم، وكانت فترة بعيدة عن كل نوع من الفوضى والاضطراب والصراع في غالب الأحوال.

وقد كان مما يمتاز به أخي الدكتور السيد عبد العلي أنه كان يجمع بين الثقافتين القديمة والجديدة والعلوم الشرقية والغربية، في اقتناع وإتقان، فكان خريج دار العلوم ندوة العلماء في جانب، وخريج دار العلوم ديوبند الممتاز في جانب آخر، وقد حصل على وسامين فخريين من جامعة إلّه آباد المدينة الشهيرة كطالب ممتاز في العلم (Science)، كما كان فاضلاً في الطب العربي القديم، والطب الحديث، وطبيباً نطاسياً يعالج ويداوي.

وفوق كل ذلك فإن طبيعته السليمة، وطلبه للعلم (Science)، وبصره بالأوضاع والظروف، ومطالعته العصرية كل ذلك أوجد فيه حب الواقعية، ومن أكبر أسباب نجاحه أيضاً أن مدير التعليم العلامة السيد سليمان الندوي كان بجواره يثق به ويؤيده، كذلك كان الشيخ مسعود علي الذي كان له اهتمام وشغف كبير بشؤون دار العلوم، والشيخ احتشام علي أمين صندوق ندوة العلماء والمشرف على شؤونها المالية، كان أحد أعضاء الندوة القدامى وأحد المؤسسين، والأمير حبيب الرحمن خان الشيرواني العضو التأسيسي فيها، ومن كبار المشرفين عليها المهتمين بها يعترفون بفضله، ويؤيدون آراءه ويدافعون عنه، ولكل ذلك كان ذلك العهد وتلك البيئة من أخصب العهود وأكثرها موافقة لإصلاح المناهج الدراسية ورفع مستواها وإجراء التعديلات فيها، وتكميل المشاريع البنائية الأخرى.

تأليف كتاب «مختارات من الأدب العربي»:

لقد فكرت أولاً في وضع مختارة من قطع النثر الأدبي في اللغة العربية تحتوي على النماذج الأدبية العالية من القرن الأول إلى العصر الحاضر، تتحرر من قيود السجع والتكلف، وتعبر عن العواطف والمشاعر والوجدان،

والتصورات السليمة الصالحة والمقاصد والغايات السامية، ولا تعرض اللغة العربية في نغم واحد وصبغة واحدة نرى نموذجها المثالي في «مقامات الحريري» التي كانت تسيطر على أوساط الهند العلمية والأدبية منذ ستة قرون، وكأنها نموذج وحيد للغة العربية.

وكانت هذه الفكرة الأساسية الدافع الأول إلى تأليف «مختارات» وعلى أساسها ألف كتاب «منثورات»[1] وكتب أخرى، وبناء على هذا التصور والفكرة الأساسية أقيمت الندوة العالمية للأدب الإسلامي بتاريخ ١٧ ـ ١٩ أبريل عام ١٩٨١ م، التي حضرها لفيف من الفضلاء والأدباء العرب وعدد من الشخصيات العلمية والأدبية الموقرة، ورؤساء أقسام الأدب العربي بالجامعات العربية.

وقد كنت من أيام تدريسي للحديث الشريف في دار العلوم أشعر بأن ثروة الأحاديث الصحيحة تشتمل على روايات طويلة حكى فيها أحد الصحابة أو إحدى الصحابيات ـ رضي الله عنهم وعنهن ـ حادثاً من حوادث حياتهم، أو تفاصيل إحدى رحلاتهم وأسفارهم، أو بعض الوقائع المهمة التي تتعلق بحياتهم في أسلوب مرسل طبعي، بعيد عن الكلفة والصنعة، وجاءت فيها اللغة اليومية وبساطتها وعدم كلفتها، والتعبير الصادق عن المشاعر والعواطف، والتصوير الصحيح الدقيق لحالات النفس الإنسانية في جمال وروعة، وقد بلغت فيها القوة البيانية وفصاحة اللسان أوجها وذروتها الأدبية البلاغية، وليست هناك نماذج أسمَى وأروع منها، بعد كتاب الله تعالى في اللغة العربية، والكلام المطبوع، والتعبيرات الجميلة البسيطة الأخاذة، في تاريخ اللغة العربية والأدب العربي كله.

ولما صدرت مجلة «الضياء» كان أول مقال كتبته لأول عدد منها بعنوان

---

(١) من تأليف الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي عميد كلية اللغة العربية وآدابها في جامعة ندوة العلماء.

«الأدب النبوي» ولما اختارني المجمع العلمي[1] بدمشق الذي هو من أقدم المجامع العلمية وقد طبَّق صيته الآفاق، عضواً فيه عام ١٩٥٧ م، وطلب مني على عادته أن أكتب مقالاً حول جانب من جوانب اللغة العربية، ينشره في مجلته، كتبت مقالاً بعنوان «المكتبة العربية في حاجة إلى بحث وغربلة جديدة» لبيان الحاجة إلى استعراض الأدب العربي وتاريخه استعراضاً جديداً، واستخراج تلك الجواهر واللآلىء منه التي لم تزل مغمورة مطمورة تحت الركام، ولفت الأنظار في هذا الصدد إلى تبنّي الأفق الواسع، والنظرة الواسعة إلى الأدب، والخروج من حدوده التقليدية المرسومة، وعلى كل فقد كان هذا رأيي القديم ولا يزال، الذي أبديته لا عن اللغة العربية بل عن كل لغة حية.

بدأت العمل بإذن أخي الأكبر بالجمع والترتيب، وانتهيت عام ١٣٥٩ هـ، الموافق ١٩٤٠ م من إعداد مجموعة، وقد حلَّينا هذا الكتاب - سوى روايات الحديث والسيرة النبوية التي هي الأمثلة العليا في عذوبة اللغة والبيان السّلسال - بكتابات تلك الشخصيات التي لا يظن في الأوساط الأدبية التقليدية بأنها من الأدباء والكتاب من أصحاب الأساليب البيانية، ويعتقد أنها تهمة عليهم، أو حسن ظن زائد بهم، مثل سيدنا الحسن البصري، وابن السماك، والمسعودي، والغزالي، وابن الجوزي، وأبي حيّان التوحيدي، والبُستي، وشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم، والعلامة ابن خلدون، والإمام ولي الله الدهلوي وغيرهم.

لقد نال «مختارات» قبولاً كبيراً في وقت قريب، وأكثر ما كان قبوله كمقرر للغة العربية في الأوساط الحديثة وفي أقسام اللغة العربية في بعض الجامعات في الأقطار العربية، وقد قرر بجهود الشيخ عبيد بن محمد شقيق الشيخ خليل بن محمد الأصغر، الذي كان عضواً في كثير من اللجان للمناهج الدراسية للغة العربية، وكان قد فاز بالجائزة العربية من رئيس

---

(١) ويسمى الآن بمجمع اللغة العربية.

الجمهورية الهندية، في جامعات عليكره، وإلّه آباد، وحيدر آباد، ومدراس وغيرها، ولكن كان من الغريب أن مدارسنا العربية القديمة لم تقبل عليه إلا بصعوبة، ولم تصبر عليه طويلاً، فإنها تعمل بالوصية: (انظر إلى من قال ولا تنظر إلى ما قال) بدلاً من أن تعمل بوصية (انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال).

القراءة الراشدة:

لقد درست سلسلة القراءة الرشيدة التي تمّ إعدادها تحت إشراف وزارة التعليم بمصر عدة سنين داخل الفصل وخارجه أيضاً، والكتاب ناجح من حيث صحة اللغة، وأصول التدريس، وملائمة سن الطالب ونفسيته ومعلوماته العامة، ولا يخلو كذلك من الروح الدينية والتعاليم الخلقية، ولكنه أُعدّ خصيصاً لطلاب مصر الذين يشكل فيهم الطلاب المسيحيون والقبطيون أيضاً عدداً لا بأس به، ثم إن عليه بطبيعة الحال طابعاً محلياً إقليمياً، ويدور كثير من دروسه حول الآثار والأماكن والمواد المصرية، مثلاً: جزيرة الروضة، الأهرام، القناطر الخيرية، حوار بين مصر والإسكندرية، وفي الأعياد والمهرجانات المحلية «عيد وفاء النيل»، وفي الشخصيات محمد علي باشا، كل ذلك يدور حوله درس مستقل، زد على ذلك النشيد المصري الوطني الذي تُغُنِّي فيه بعظمة مصر، وذكرت فيه خصائصها وميزاتها، فما معنى التغنِّي للطالب الهندي بهذا النشيد، وما هي الجاذبية فيه والضرورة إليه؟ كذلك «عيد وفاء النيل» الذي يهتم به المسيحيون في مصر، ما مطابقته لأوضاع الهند وظروفها الخاصة؟.

وبدأ تدريجياً يدغدغ نفسي وضع سلسلة جديدة من الكتب الدراسية تحل محل هذه الكتب، وقد كنت لوجود الأخ الأكبر، وعطف العلامة السيد سليمان الندوي، ولكون الزميل الشيخ محمد عمران خان الندوي يتبوأ منصب العميد واثقاً بأن هذه السلسلة لو تمت لم يكن في قبولها في المقررات الدراسية أي مانع، وتوكلت على الله، وشرعت في العمل، لعله

كان قريباً من ١٩٤٤ م وقد تمت الأجزاء الثلاثة في مدة سنتين، والتزمتُ في إعداد الدروس أن لا يخلو أي درس ـ حسب المستطاع ـ من موعظة دينية وموضع عبرة، وأن يستنتج منها الطالب فائدة خلقية ودينية وتهذيبية، أو ترشد إلى تعليم خلقي وأدب إسلامي بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقى عليه إلقاءً ويطعم من الخارج، بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات.

قصص النبيّين للأطفال:

ولكن ما يحمد المؤلفُ عليه ربَّه كثيراً ويشكره على توفيقه وتيسيره شكراً عظيماً، ويمكن أن يعتبره وسيلة النجاة وذخر الآخرة، هو سلسلة «قصص النبيين للأطفال» المقبولة الشائعة، وقد كان كتاب «حكايات الأطفال» لكامل كيلاني مقرراً في دار العلوم، وكان له حينئذ قبول عظيم ورواج كبير في البلاد العربية، وكنت درسته أيضاً، وكان يحزُّ في نفسي بعدُه عن الدين وعلمانيتُه (Secularism)، وملؤه بالصور وقصص الحيوانات.

بدأت هذا العمل حوالي ٤٣ ـ ١٩٤٤ م، واستمرَّ حتى في الحضر والسفر والقطار وعلى حافة الشارع في انتظار مركب، إلى أن تمّ بتوفيق الله تعالى، وقد شعرت بعد بدئي بهذا العمل، بأن الله تعالى ألانه ويسَّرَه لي، فكنت أكتب عفواً مرتجلاً من دون كلفة حتى كأنني أتكلم، وقد التزمتُ فيه بأربعة أمور:

١ ـ أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقل قليل، ولكنها تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار والإعادة.

٢ ـ أن يكون الكتاب في لغة القرآن، وتوضع الآيات الكريمة في محالّها كالفص في الخاتم.

٣ ـ أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية (التوحيد، والرسالة، والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية.

٤ ـ أن تبسط القصص وتزود الأطفال بما يُكرِّه إليهم الكفر والشرك

والمعاصي، وتحبِّب إليَهم الإيمان والعقيدة، وترسِّخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء وجلالة مكانهم، وكل ذلك بطريق لا يشعر الطالب بثقله وأنه يُلقى عليه، بل يتلقاه ضمناً وعفواً وينسجم معه.

وقد تنبّه الأستاذ الكبير الشيخ عبد الماجد الدريابادي أولاً إلى أن هذا الكتاب يغذّي عقلية الطفل ويصحح عقائده، فكتب معلقاً عليه: (إن هذا الكتاب يقوم مقام كتاب توحيد أو علم كلام جديد للأطفال) وقال الأستاذ مسعود الندوي في مقدمته للكتاب: (لقد اجتمع فيه الدين والدنيا والتحما كالتحام الظفر باللحم)، وتوقفت السلسلة على الجزء الثالث من الكتاب الذي هو خاص بسيدنا موسى عليه السلام.

وطُبع الكتاب في بيروت بعد طبعه في مصر بمؤسسة الرسالة في عدد كبير، وقرر في كثير من المدارس الإسلامية بالسعودية، كما قرر في كثير من المدارس الإسلامية والمدارس العصرية الحكومية. وإذا كان المؤلف يتعجب ويشكو من عدم إدخال كتاب من كتبه في المقررات، فهو هذا الكتاب إذ أنه يعلِّم اللغة والدين في وقت واحد، ولكن العصبية المدرسية، وعصبية الجماعات أحياناً تحجب الحقائق الكبيرة، وقد أفادتني التجربة أن المؤسسات التعليمية الحديثة والطبقة المثقفة الجديدة، أرحب صدراً وأوسع نظراً في هذا الصدد من الطبقة القديمة والمدارس القديمة.

ومضى ثلاثون أو أربعون سنة، ولم أضع الجزء الرابع بعد الجزء الثالث، ولم أتشرف بالكتابة عن بقية الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، وبصفة خاصة سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام التي كانت المكتبة العربية للأطفال في فراغ تحتاج إليه، إذ فوجئت في شهر رمضان عام ١٣٩٥ هـ، الموافق ١٩٧٥ م باندفاع وحماس لهذا العمل، وبدأت أكتب عن الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، وقد شعرت في البداية بصعوبة في اختيار لغة الأطفال والنزول إليها التي كنت اخترتها «لقصص النبيين»، وكان يخيل إليَّ كأنني نسيتُ تلك اللغة، ثم

جرى القلم بعد محاولة قليلة، ووُفّقت لإخارج الجزء الرابع الذي بدأته بسيدنا شعب عليه السلام، وختمته بسيدنا عيسى عليه السلام.

ولم يَبْقَ عليّ بعد ذلك إلا مسك الختام، سيرة النبي الخاتم ﷺ، وقد وفقني الله تعالى فتمت هذه السلسلة بسيـرة خاتم النبيين عليـه الصلاة والسلام، في ذي القعدة عام ١٣٩٧ هـ، الموافق أكتوبر ١٩٧٧ م، وطبعا في مؤسسة الرسالة ونالا القبول والرواج.

وتناولت هذه السيرة الإجمالية أخيراً بالتفصيل والتوسُّع والتكميل في كتابي «السيرة النبوية» الذي طبع أخيراً بدار الشروق بجدّة، وقرر في كليات وجامعات في البلاد السعودية، وبعض البلاد الأخرى، وقد ظهرت له الطبعة الرابعة، الجميلة الزاهية قريباً، والواقع أن كتاب «قصص النبيين للأطفال» الصغير، كان دافعاً وباعثاً على تأليف هذا الكتاب الكبير.

مقالات قرآنية:

تقدم في الصفحات الماضية أن بداية حياتي التدريسية كانت بالدروس في القرآن الكريم، فقد أسندت إليَّ بعد ١٩٣٤ م أهم الدروس القرآنية، وأحسست في أثناء تلك الفترة (لعله ٣٩ ـ ١٩٤٠ م) بأن الطلاب يجهلون كثيـراً من الأصول والأسس والمبـادىء لمطالعـة القرآن الكـريم ودراسته والاستفادة منه، ولأجل ذلك لا يطّلعون على مطالب القرآن وتعاليمه، ورسالته وروحه وإعجازه بصورة دقيقة صحيحة، أو تكون لهم معرفة بدائية سطحية، وبعد تدريس للسنوات العليا في التفسير، ملك عليّ الشعور بضرورة إعداد مقالات تساعد في تدبُّر القرآن العظيم، وإدراك عظمته وإعجازه، فبدأت أملي في العام الدراسي ٣٨ ـ ١٩٣٩ م على الطلاب محاضرات، كانت عناوينها كما يلي:

١ ـ القرآن يتحدَّث عن نفسه (أو تعريف القرآن بالقرآن).
٢ ـ شروط الاستفادة وموانعها من القرآن الكريم.

٣ ـ إعجاز القرآن.

٤ ـ الموضوع الأساسي في القرآن الكريم.

٥ ـ نبوءات القرآن الكريم ونبوءة غلبة الروم بصفة خاصة، وبدأت أملي حول العقائد الأساسية: التوحيد، والرسالة، والمعاد، والأركان الأربعة إلا أنه لم يتم[١].

كان الطُلّاب يقيِّدون هذه المحاضرات، ثم نشرت في مجلة «الندوة» التي صدرت عام ١٩٤٠ م، فنالت القبول والاستحسان، ولم ألتفت إلى جمعها وترتيبها ونشرها في صورة كتاب مستقل مدة طويلة، واعتبرت أن مجموعتها ـ التي كانت فيها عدة مقالات لم تنشر ـ فقدت، إذ فاجأني وجودها عام ١٩٨١ م عند العزيز الشيخ محمد طاهر مساعد أمين عام ندوة العلماء، الذي كان طالباً في دار العلوم، فأعدت فيها النظر وزدت فيها بعض المحاضرات المهمة كـ «القرآن الكريم والصحف السماوية الأخرى في ميزان العلم والتاريخ»، «نماذج من التلاوة الخاشعة وتدبر القرآن»، «تجارب وتوجيهات ووصايا»، ونشرها العزيز السيد محمد حمزة الحسني ابن ابن أختي الشيخ محمد ثاني الحسني المرحوم من مكتبة الإسلام في لكهنؤ بعنوان «مبادىء وأسس لدراسة القرآن الكريم»[٢]، وقد احتوى هذا الكتاب على مادة علمية حول موضوع نبوءة غلبة الروم وكيفية تحققها في أوضاع غير عادية، لا تتصور فيها هذه الغلبة عدا موضوعات أخرى مهمة، لم تجتمع ـ في حدود علمي ـ في كتاب آخر، وأصبح هذا الكتاب بحثاً منيراً للمشتغلين بالقرآن الكريم، يفتح لهم بعض الآفاق، ويضيىء لهم معالم الطريق، ويستحق أن يقرر في المدارس.

محاولات أخرى لوضع المقررات المدرسية:

إن سلسلة وضع الكتب المدرسية التي كان قد بدىء بها بجهود فردية

---

(١) وقد تحققت هذه الأمنية وحالفني التوفيق في كتابي «الأركان الأربعة» كما سيأتي.

(٢) والكتاب طُبع في القاهرة في مكتبة الصحوة، بعنوان «مدخل إلى الدراسات القرآنية».

من غير تخطيط وتصميم لم تزل مستمرة في شكل أو آخر، فقد ألف ابن أختي الأستاذ محمد الرابع كتاب «منثورات» كحلقة وسطى بين «القراءة الراشدة» و «مختارات» انتقى فيه تلك النماذج الأدبية الطيبة التي كانت أسهل بالنسبة إلى «مختارات» وكانت تستحق أن تعرض أمام الطـلاب، وقد تجلَّى في انتقائها واختيارها ذوقه الأدبي السليم، ودراسته البصيرة بالأدب العربي، ويستحق هذا الكتاب أيضاً أن ينال القبول في المدارس، كما ألف الأستاذ المذكور نفسه كتاب «الأدب العربي بين عرض ونقد» جمع فيه القطع الأدبية المنثورة والمنظومة، وتحدث عن محاسنها وميزاتها ونقدها، وحاول أن ينشىء عن طريق هذا النقد ملكة التذوق للأدب في الطلاب، ونقده ووضعه في محله اللائق، وفي جانب قام الأستاذ عبد الماجد بوضع «معلم الإنشاء» للتمرين على الإنشاء، وكتابة المقالات والترجمة من العربية إلى الأردية، وبالعكس، وكانت الحاجة إليه ماسة، ولم يكن في المدارس العربية في الهند ما يقوم مقام «معلم» للتمرين على الإنشاء، وينشىء في الطلاب ملكة الكتابة والترجمة، وقد أكمل الأستاذ جزئين بجهد مشكور، وكفاءة ومقدرة فائقة، ووضع جزءه الثالث بقلم الأستاذ محمد الرابع الندوي، وقد قرر هذا الكتاب في كثير من المدارس.

أما مادة تاريخ الأدب العربي التي كان يدرس لها كتاب «تاريخ الأدب العربي» للأستاذ أحمد حسن الزيات، فإنها تحتاج إلى كتاب جديد، يشتمل على كشوف علمية ونقدية ونظريات أدبية جديدة، وإبراز ما للأدباء المسلمين في الهند من نصيب (Contribution) في هذا المجال، وقد بدأ الأستاذ واضح رشيد الندوي بهذا العمل، ونأمل أنه سيصدر من قلمه كتاب نافع جيد، كذلك تحتاج مادة التاريخ الإسلامي إلى وضع كتب مدرسية جديدة.

وقد كان من الأعمال المفيدة القيمة في مجال وضع الكتب المدرسية الجديدة للمدارس، تأليف كتاب «جغرافية جزيرة العرب» بإيعاز من أخي الكبير بقلم الأستاذ محمد الرابع، ومن المعلوم أنه ليس طالب الحديث والسيرة

النبوية على صاحبها الصلاة والسلام فحسب، بل طالب تاريخ الأدب كذلك إذا بدأ يطالع مادته يشعر كأنه يسير في نفق مظلم، لا يرى يمينه ويساره، وأمامه وخلفه شيئاً، فيمر بمئات من أسماء الأماكن والمواضع في السيرة والحديث والشعر الجاهلي، لا يعرف عنها شيئاً، فيعجز بسبب هذا الجهل عن إدراك كثير من الحقائق التاريخية، وأهمية وقائع السيرة والحديث، وجوها الذي كان يكتنفها، وخلفيتها التي لا بدَّ للطالب الواعي أن يعرفها فضلاً عن أستاذ أو مدرس، وقد قام الأستاذ محمد الرابع بهذا العمل بجده وصبره، ومقدرته ولياقته، فوضع الخرائط، وأشار إلى الأماكن الواردة في الحديث والسيرة وبينها، وذكر أشعار العرب المتعلقة بها، وقد كان الأستاذ الكبير الشيخ عبد الماجد الدريابادي في مقدمة من أثنى على هذا العمل وأشاد به إشادة كبيرة، ومن المؤسف أن المدارس لم تنتفع بهذا الكتاب كما ينبغي، حتّى الآن[١].

لقد أفضتُ في بيان قصة وضع المقررات المدرسية، فإنه موضوع يهمني ويلذّ لي الحديث عنه، ويدعو المدارس العربية إلى التأمل والتفكير، فإن منهاجنا التعليمي قد مرّ دائماً بمراحل النشوء والارتقاء، والتطوير والتغيير إلى عهد «المنهاج النظامي» المطبق الآن في أكثر المدارس العربية، ولم تزل معايير الفضل والنبوغ تتغير من عصر إلى عصر، وقد تحقق كل ذلك في وقت كانت فيه ديانة البلاد (وهو الإسلام) واحدة، ودستورها واحداً، ولغتها الدينية (العربية)، ولغة الديوان والحكومة (الفارسية) واحدة، وحضارتها واحـدة، وقانونها (الفقه الحنفي) واحداً، والحكام مسلمون، لا يتغير في دائرة الحكم إلا الأفراد والأسر الحاكمة، وكانوا كلهم من أهل السنة عقيدة ومسلكاً.

ولكن من حين أن انقلبت الهند رأساً على عقب، وتغيرت القوى

---

(١) نشر المجمع العلمي الإسلامي بلكهنؤ هذا الكتاب بزيادات جديدة، عام ١٩٨٣ م، فقد زاد فيه المؤلف المقاييس، والموازين، والمكاييل في عهد النبوة، وقيمة الذهب والفضة في ذلك العهد، وتعيين الأماكن التاريخية المهمة، وخرائطها المبينة، ومواد أخرى قيمة.

الحاكمة، والحضارة، واللغة، والقانون، وتغير كل شيء، وشملت الثورة نطاقاً أوسع، وتعمقت واتسعت، جمد هذا المنهاج المدرسي جموداً لا حراك به، وعاد التغيير فيه لكتاب مكان كتاب بدعة، وانحرافاً عن طريق السلف، والواقع أن سلفنا الذين قادوا النظام التعليمي في الهند، وكانوا مسؤولين عنه، أثبتوا واقعيتهم وإدراكهم لمقتضيات العصر وتفطنهم لحاجات الأمة الإسلامية وضروراتها، في كل عصر من العصور، ولكن بالعكس عضّ العلماء المعاصرون والمسؤولون عن المدارس على المنهاج الدراسي القديم بالنواجذ، في وقت كان هذا المنهاج أحوج إلى مسايرة النشوء والارتقاء الطبعي المألوف المطلوب، وحاجات الأمة ومقتضياتها الجديدة، وحيث كان الوضع يحكم بأن تأخير دقيقة واحدة سوف يلحق الضرر بالقرون والأجيال.

الفصل الثامن

من محيط المدارس والكليات المحدود إلى مجال الدراسة والتفكير والعمل الرحب الواسع.

تغير في الذوق والميول:

لقد كانت دنياي إلى ذلك الحين محصورة في محيط دار العلوم المحدود، وقد كانت تعقد في مدينة لكهنؤ - التي لم تزل منذ مدة طويلة مركز الحركات السياسية والوطنية - احتفالات واجتماعات كل يوم، يطبل الناس لها ويزمرون، ولكن لم تكن لي ومعظم مدرسي دار العلوم أي صلة بهذه الاحتفالات، فقد كان في هذه المدينة احتفال العصبة الإسلامية (Muslim League) المجلجل الذي كان له دوي، وقامت على أثره حركة العصبة الإسلامية من جديد، وجلسة المؤتمر الوطني، واجتماعات هيئة المسلمين البرلمانية، وحركة مدح الصحابة رضي الله عنهم[1]، والانتصار لهم، على قدم وساق، ولكنني سوى قضية القدس وفلسطين التي قمت لها بجولة مع

(١) كان ممنوعاً قانونياً أن يهتف باسم الخلفاء الراشدين علناً، أو أن ينشد قصيدة في مدح الصحابة في احتفال شعبي أو مظاهرة عامة، مراعاة لعواطف الشيعة الذين يعتبرون ذلك جرحاً لشعورهم وتحدياً لعقيدتهم، وكان لا يزال لهم نفوذ في البلد الذي حكموه قرناً ونصف قرن تقريباً، وقد تحدّى هذا القانون العالم الكبير مولانا عبد الشكور الفاروقي، وحدث بعض تعديل في هذا القانون، وله قصة طويلة ليس هذا محلها.

الشيخ محمد العربي أستاذ دار العلوم، وألقيت الضوء على خطرها وأهميتها في الندوات والاحتفالات، لم أشارك أي حركة أو احتفال واجتماع أو احتجاج ومظاهرة.

وقد كان هذا الاعتكاف الفكري والعملي والانكباب على التدريس والمطالعة في صالح المدارس العربية بل المدارس العامة، حتى يتركز كل جهد الأستاذ والطالب على الدراسة والتدريس، ولقد أدَّى الضعف في هذا الانصراف إلى الدرس والمطالعة والعكوف على تربية الطلبة، إلى الفوضى والصراع في المدارس، وما أحسن ما قال الغزالي:

(العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإن أعطيته كلك فأنت من أن يعطيك بعضه على خطر).

لقد كانت كل رغبتي وشوقي من بداية تدريسي عام ١٩٣٤ م إلى ١٩٣٩ م منصرفاً إلى تدريس الطلاب وإنشاء الذوق الصحيح، والملكة المطلوبة لفهم القرآن الكريم، وتذوق اللغة العربية وآدابها، وكانت تتوثق بيننا وبين الطلاب الأذكياء ذوي الكفاءة الجيدة والأدب والخلق المستقيم صلة قوية، وأشعر في تدريسهم وتزويدهم بالمعلومات بسرور غامر، وقوة روحية، حتى إذا جاءت الإجازة الطويلة شعرت بشيء من الحزن والكآبة، بدلاً من الفرح والسرور، وكان يؤلمني فراق هؤلاء الطلاب وأشعر بفراغ طويل.

ولكنني كنت أشعر في نفس الوقت ولا سيما في الأيام الأخيرة، بأن كل ما أبذله من جهد وكد، وتحرُّق وتألُّم في محاولة تعليم الطلاب وإصلاحهم خلقياً ودينياً، وفي سبيل رقيهم واستعدادهم، ورغم عصر آخر قطرة من الجهد، وعرض قطع القلب أمامهم الذي يحالفه توفيق الله تعالى، وتأييده، وانثيال المعاني والفتح الكبير في دروس القرآن الكريم، لا أرى بقدر ذلك من التأثير فيهم اللهمَّ إلا بعضهم، ولا ينتفعون به، بل كان يخيل إليَّ ـ أحياناً ـ أن درس اليوم أثَّرَ في الجدران الجامدة الميتة، وترك عليها

نقوشاً غائرة، فإذا بي أرى الطلاب الشباب لم يتأثروا، وكأن قلوبهم وعقولهم لم ينقش فيها شيء.

وبدأت بسبب ذلك أشعر بأن ما يترك فساد البيئة الخارجية، والتأثيرات الهدامة التي تسود الجوُّ العام، وتحدث الفوضى والاضطراب في الآراء والأفكار، وتأتي عن طريق كتب المطالعة الفاسدة، والرسائل والصحف، والأدب «التقدمي» المزعوم، وتنفذ عن طريق المرئيات والمسموعات إلى عقول الطلاب وقلوبهم من أثر، لا يقاومه ما يزود به الطلاب من زاد ديني، وتغذية صالحة، فإن السم الذي ينفذ من مختلف المنافذ والمسارب إليهم، أضعاف أضعاف ما يقدم إليهم من ترياق، وما تبذل في سبيل إصلاحهم من جهود ومحاولات.

كذلك يثور في النفس شعور بأن هذه الجهود والمحاولات التعليمية التربوية، وهذه المواعظ والتلقينات المدرسية بدون حركة ودعوة صالحة، واستخدام قوى الطلاب ومواهبهم خارج الدروس وفي جهود ميدانية توافق أعمار الطلاب ومستواهم وأهداف التعليم والتربية ـ ليست إلا رقماً على الماء وخطّاً في الهواء.

وعدا هذه المشاعر والتأملات التي كانت مؤسسة على التجارب العملية كان جو الهند العام يموج بالحركات السياسية، فيها: حركة العصبة الإسلامية القوية الحماسية، وحركة «خاكسار» العسكرية[1] وكتبها ورسائلها السلبية التي

---

(١) حركة كانت تقوم على المناورات العسكرية، كان شعارها «المسحاة» وقائدها العلّامة عنايت الله المشرقي، الذي تثقف بالثقافة الغربية، وتخرج في جامعات باريس ولندن المشهورة، وكان صاحب اختصاص في العلوم الرياضية، وتأثر بالنفوذ الغربي، وسيادته في العصر الحاضر تأثراً عميقاً، واقتنع بأن القوة والنظام هما المقياس الحقيقي للحق والمكانة عند الله، ودرس الحركة النازية بصفة خاصة، وأراد أن يقلدها في الهند في إعادة مجد المسلمين، وكانت حركة متطرفة تنتقد العلماء، وتعتبر كثيراً من الشعائر الإسلامية والأفكار الدينية «رجعية»، ولعناية الله المشرقي كتاب «تذكرة» وهو ككتاب «هذه هي الأغلال» للقصيمي، وقد شجعت هذه الحركة وكتاباتها الشباب المتحمس على التهكم بالعلماء والهزء بهم حتى صار «موضة» لأنصارها وفي الشباب التقدمي.

كان فيها انتقاد شديد اللهجة ضد العلماء الممثلين للدين، وهتاف المؤتمر الوطني بالوحدة بين المسلمين والهندوس، ومحاولاته المستمرة للاتصال بالجماهير بطريق مباشر، وترتج بها أصداؤها، وكان يبدو لكل ذي عينين أن الهند على مشارف ثورة شاملة جديدة، سوف تترك تـأثيرهـا القوي على حضـارتها، وأخـلاقها وعقـائدهـا، وتصوراتهـا الدينيـة ومثلها، ومـدنيتها واجتماعها، بل كانت لتصهرها في بوتقة جديدة وتصوغها في قالب جديد.

بداية الدراسة والمطالعة المتنوعة الواسعة:

لقـد كانت دراستي ومـطالعاتي التي كـانت قاصـرة على التفسيـر والحديث، والأدب والتاريخ، بدأت تخرج من نطاقها الضيق منذ عام ٣٧ـ ١٩٣٨م، لقد أثر فيّ منهج كتاب «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» (الأجزاء ١، ٢، ٣) و «ظهر الإسلام» ثم كتاب «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» للأسـتاذ أحمد أمين، وقد كتب في لغة سلسة جميلة، وأسلوب جاد متفتح رصين، في البحث والتحليل، وكذلك وسَّعت آفاقي ومعلوماتي تعليقات الأمير شكيب أرسلان الفاضلة المليئة بالمعلومات المفيدة، العامرة بالروح الإسلامية على «حاضر العالم الإسلامي»[1] للكاتب الأمريكي ستودارد، وكتاب «أم القرى» المثير للسيد عبد الرحمن الكواكبي، ومقالات الفتح القوية الدافقة بالحيويـة والحماس، ودفعتني لاختـراق حدود الهنـد إلى العالم الإسلامي، والاهتمام بقضاياه وحركاته.

وقد طالعت في نفس الوقت كتباً في المـواضيع السياسية، كما درست حركة تحرير الهند والحركات السياسية الأخرى، والكتب المفيدة المثيرة المزودة بالمعلومات الكثيرة التي درستها في هذا الصدد، والتي قدمت لي

---

(١) أصله في الإنجليزية باسم New Muslim World للكاتب الأمريكي A.M.L. Stoddard نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض، وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان تعليقات أربت على الكتاب قيمة وقوة.

مواد علمية قيمة، وأسساً محكمة لكتاباتي ومقالاتي فيما بعد، وساعدتني في فهم الخلفيات والعناصر التكوينية للحضارة الغربية، وأنظمتها للحياة والإنسان، منها على سبيل المثال كتاب دريبر (Conflict Between religion And Science) «الصراع بين الدين والعلم» وقد نقله إلى أردو الأستاذ مولانا ظفر علي خان بقلمه القوي الساحر، وكتاب (History of the European Morals) لمؤلفه «ليكي» (Lecky) السلسة الرائقة مترجماً بقلم الأستاذ عبد الماجد الدريابادي، وكتاب (The Decline and Fall of Roman Empire) «انحطاط وسقوط دولة روما» الشهير لجيبون (Gibbon) الذي طالعت بعض أجزائه مباشرة، وقرأت «تاريخ الفلسفة الجديدة» لهوفدنك (Hofding)، وفي تلك الأيام وقع بين يدي كتاب «الصراع بين الشرق والغرب في تُركيا» لخالدة أديب خانم الذي لا أوافق على كل ما جاء فيه من آراء ونظريات، ولكنه ساعدني في فهم طبيعة تركيا المعاصرة وتاريخ نشوئها وارتقائها، واستعنت به في التحليل العلمي والتاريخي للوقائع والحوادث.

لم تكن هذه الدراسة واسعة مفصلة تكفي، وتسد العوز لعمل علمي تحقيقي، فقد وجدت في كل موضوع من هذه المواضيع مكتبة كاملة بأسرها، وكثير من يكون قد قرأها، ولكن إذا حالف التوفيق عبداً فإنه يستفيد أحياناً من معلومات قليلة ودراسات محدودة ما لا يستفيد غيره، وينتج عملاً كبيراً، ويتجلّى بقدرة الله تعالى مشهد ﴿ نسقيكم مما في بطونها من بين فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾.

وقد قرأت في تلك الفترة كتاب (Islam At The Crossroads) (الإسلام على مفترق الطرق) الرائع للمهتدي الفاضل محمد أسد درساً درساً، وتأثرت عقليتي وتفكيري بأسلوبه الواثق القوي، الهجومي، وتشريحه للحضارة الغربية، وبيانه للتعارض بينها وبين الحضارة الإسلامية، ودفاعه القوي المجيد عن السنة المشرفة. وطالعت أيضاً في ذلك الحين كتاب «البحث عن الحق» لغاندي، وكتاب «قصتي» لجواهر لال نهرو، وكتاب «مستقبل

المسلمين الزاهر» للأستاذ طفيل أحمد، وقد أفادت عقليتي منها بصورة جزئية، وزادت في معلوماتي.

وقد كانت مجلة «ترجمان القرآن» للأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي تصدر في تلك الفترة من لاهور، وقرأت فيها مقال الأستاذ المودودي بعنوان «ثورة قادمة» وتأثرت به، ورأيت أن الأخطار التي نبَّهَ إليها قريبة ممكنة في ضوء الأحداث والوقائع، وقد حركت هذه الأشياء كلها سطح ذهني الهادىء، وأحدثت اضطراباً في تفكيري وعقليتي، وساعدتني في إيقاظ بعض المواهب النائمة.

وقد كانت إذا ذاك طبقة كبيرة من المسلمين لا تسيغ عقليتها الإسلامية وهيكلها الفكري، حركة المؤتمر الوطني (Indian National Congress) الداعية إلى الوحدة القومية، ولا حركة العصبة الإسلامية الداعية إلى القومية الإسلامية، فقد كانت مقالات مولانا أبي الكلام آزاد المتدفقة بالحماس في صحيفة «الهلال»، وشعر إقبال الذي ينفخ الروح ويبعث الحياة، وخطب القائد مولانا محمد علي المدوية المجلجلة، وحركة الخلافة، وفوق كل ذلك عداء الغرب السافر للإسلام، وحملات القوى الغربية المسعورة ضد الإسلام، كل ذلك أوجد في المسلمين الشعور بذاتيتهم وشخصيتهم وأمتهم، وبدأت «الذاتية» التي ينوِّه بها الدكتور إقبال تأخذ مكانها، وتعلو على المستوى الاجتماعي، ومستوى الأمة بكاملها، وكان يتحقق ما قاله إقبال قبل سنوات عند زحف الغرب على الخلافة العثمانية كواقع مشهود:

(لقد نفخ سيل الغرب في المسلم روح الإسلام، فإن أمواج البحر المتلاطمة هي التي تسقي الصدفات، وتروي ظمأ اللآلىء، وقد جرى دم الحياة في عروق المسلم الميتة، إنه سرّ لا يعرف كنهه ابن سينا ولا الفارابي).

لقد كان مسلمو الهند عند ذاك متلهفين إلى سماع رسالة القوة

والشوكة، والإقدام والحركة، وكانوا مستعدين للتأثر والإعجاب بكل خطاب أو كتاب يخاطبهم من المستوى الرفيع العالي، ويشعرهم بكرامتهم وذاتيتهم، ويضرب ضربة قاصمة على الحضارة الغربية والذوبان في حركة الوحدة القومية (Nationalism) ويبصر بمكانهم من القيادة والريادة، ويثبت أن الإسلام هو الحل الوحيد لقضاياهم كلها، وهو الدواء الناجع الوحيد لجميع أدوائهم ومشاكلهم في الحياة.

لقد كانت هذه هي الفترة التي جذبت فيها مقالات الأستاذ المودودي في «ترجمان القرآن» وكتبه ورسائله مثل «المسلمون والصراع السياسي الراهن» و«كيف تقوم الحكومة الإسلامية؟» و«الحجاب» و«الرِبًا» وأمثالها من المقالات والرسائل التي كانت تجمع بين التعبير عن الطبقة المثقفة الواعية، وتلبية حاجة العصر وضرورته، انتباه تلك الطبقة وإعجابها الشديد التي كانت تجد في هذا الأسلوب للكتابة والمنهج للتفكير تعبيراً قوياً عن مشاعرها وأحاسيسها.

في هذه الفترة بدأت مراسلاتي مع الأستاذ المودودي، وقد نشر إحدى مقالاتي بعنوان «الدين والسياسة» في «ترجمان القرآن» كان فيها انتقاد على فكرة فصل الدين عن السياسة، الفكرة الغربية الوافدة الدخيلة، وأثبت فيها أن علماء الدين قاموا ـ دائماً ـ في البلاد الإسلامية بصفة عامة، وفي شبه القارة الهندية بصفة خاصة بالدور القيادي بجهودهم الجبارة في مقاومة القوى الخارجية وتحرير الوطن منها، والخوض في الحركات الجهادية والإسلام فيها، وأثبتوا أنهم أكثر واقعية، وأعمق إدراكاً لمقتضيات العصر، وتلبية لحاجاته، وأكثر مغامرة واقتحاماً للأخطار من الطبقة الجديدة.

البحث عن قيادة دينية جديدة وزيارة المراكز الدينية:

كنت لتأثيرات الأسرة والبيئة والانتماء إلى مدرسة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد رُزقت حظاً لا بأس به من الغَيْرة الدينية والحمية الإسلامية، وقد رسخ في نفسي ـ نظرياً وإن لم يكن عملياً ـ، وأصبح جزءاً من عقلي

وضميري أن التكبير المدوّي في الآفاق، والنضال العملي لإعلاء كلمة الله أفضل من كثير من نوافل الطاعات الصامتة والتسبيح والابتهالات الشخصية في عزلة عن واقع الأمة[1].

زيارة المراكز الدينية:

إنَّ هذا القلق الذي كان يساور النفس في ضوء ما قدّمتهُ من رواسب عائلية، وتجارب عملية، وعدم الارتياح إلى واقع المسلمين في الهند، حملتني والشيخ محمد منظور النعماني رئيس تحرير مجلة «الفرقان» الذي طالع كتابي «سيرة السيد أحمد الشهيد» فتجاوب مع مؤلفه فكرياً، على البحث عن عمل إسلامي وقيادة دينية واعية، نستطيع أن نتعاون معها في إيقاظ الروح الدينية في المسلمين، ومواجهة الأخطار المحدقة بالكيان الإسلامي.

وقررنا أولاً زيارة المراكز الدينية لعلنا نجد فيها طلبتنا فنتفادى العمل من بدء، ورافقنا في هذه الرحلة الاستطلاعية والرياديَّة صديق عزيز لنا وهو الأستاذ عبد الواحد اللاهوري[2]، الذي كان من المبرزين في الأدب الإنجليزي ومديراً لمدرسة إنجليزية على حدود الهند الشمالية، وكان قد أقام مدة في لكهنؤ يتعلم مني اللغة العربية وأستفيد منه في اللغة الإنجليزية، وسافرنا إلى سهارنفور، وتوجَّهنا منها إلى رائي بُور، ومشينا خمسة أميال على الأقدام حتى وصلنا إلى زاوية الشيخ عبد القادر الرائي بوري، فلما وصلنا إليه رحَّب بنا ترحيباً حاراً، واحتفى بنا ـ بدون سابق معرفة ـ حفاوة بالغة، وأكرمنا وأبدى عطفه علينا.

وأقمنا في رائي بور يوماً كاملاً في حفاوة وإكرام وضيافة، ثم لما ذكرنا للشيخ عزيمتنا، وأننا نبحث عن قيادة دينية، رحّب بالفكرة، وشجع عليها، وأبدى أسفه على عدم قدرته على المساهمة الفعَّالة، لعلو سنه وضعفه،

(١) معنى مقتطف من بعض أبيات الدكتور محمد إقبال رحمه الله.

(٢) مات رحمه الله في أوائل شهر يناير سنة ١٩٨٦ م في لاهور، غفر الله له.

ولكنه وعدنا بكل مساعدة ممكنة وأشار علينا بأن نسافر إلى دلهي، ونزور الشيخ محمد إلياس منشىء حركة الدعوة الدينية الشعبية التي تعرف بحركة التبليغ أولاً، ونتعرف على عمله الدعوي العظيم، فإذا انشرحت له صدورنا وأعجبنا به شاركنا فيه، فإنه مجال مهيأ للعمل الإسلامي، ورجعنا من رائي بور إلى ديوبند بإعجاب وإكبار للشيخ.

وسافرنا إلى دلهي ووصلنا إلى مركز نظام الدين في دلهي، ثم إلى ميوات، وسيرد حديث مفصَّل عن الشيخ الداعية محمد إلياس ودعوته وحركته في فصل مستقلّ، لأنه قصة عهد مستقل، وصفحة مهمة من صفحات التاريخ، وأكتفي هنا بمقتطف من مقالي بعنوان «مشاهدات وانطباعات» الذي كنت كتبته لبيان انطباعاتي ومشاعري عن رائي بور، ونظام الدين بعد عودتي من هذه الرحلة، وكان قد نشر في ذي الحجة عام ١٣٥٨ هـ في مجلة «الفرقان» ومجلة «الندوة».

(على بعد ٢٠ ـ ٢١ ميلاً من مدينة سهارنفور، تقع قرية رائي بور في سفح جبل «شوالك» وهي موطن. الشيخ الجليل عبد القادر الرائي بوري، خليفة الشيخ الأجل عبد الرحيم الرائي بوري، وقد قضينا يوماً وليلتين في لذة وسرور عجيب في هذه القرية الخاملة المغمورة، وشاهدنا نموذجاً من تلك الزوايا والرباطات الحية العاملة التي يحتاج إليها المسلمون في هذا العهد الثوري نفسه، ولها فوائدها الدينية الإصلاحية التي لا تجحد.

والشيخ عبد القادر الرائي بوري من العلماء الربّانيين المطّلعين البصيرين من أصحاب الفراسة والذكاء، والانفتاح الذهني، الذين يجمعون بين العلم والعمل، والتربية والتزكية، وهو من أولئك القادة الروحيين والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون في كل زمان للقيادة والتوجيه والاستفادة من بركاتهم وطيب أنفاسهم، وقد رأينا في اطلاع الشيخ وبصره بأوضاع العصر وظروفه، وبصيرته السياسية وفراسته الدينية، وجمعه بين فضائل الدين والدنيا، والجانب العملي المشرق، نموذجاً طيباً للزوايا

السنوسية، وذكرتنا أخلاقُ الشيخ الفاضلة وعطفه الأبوي وتواضعه وحفاوته وضيافته بأخلاق السلف الصالحين، الذين كانوا يقتدون بأسوة صاحب الخلق العظيم ﷺ.

وقد استفدنا من كلمات الشيخ النيِّرة وتوجيهاته وإراشاداته وتجاربه وتعليقاته وآرائه السديدة العادلة على السياسة الإسلامية في ظرف ربع قرن من الزمان، والحركات والمنظمات الإسلامية، استفادة علمية كبيرة، وجدَّدت قصص العلماء السلف من ديوبند، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وأصحابه ورفقته التي تثير الإيمان والحنان.

وأعجب ما رأينا في هذه الرحلة وأغربه، والذي غمرنا بالسرور الخالد والغبطة الكبيرة، هو عمل الشيخ محمد إلياس الدَّعَوي، ونظامه التبليغي في منطقة ميوات. إن ما شاهدناه هناك بأعيننا لم يكن مشهداً من مشاهد القرن العشرين، بل كان مشهداً يخيل إليك كأنه من التاريخ الإسلامي الأول، من إصلاح وتجديد، وتغير جذري في الأحوال والسلوك والأخلاق، وما كنا قرأناه في تاريخ المسلمين الجدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام في القرن الأول من قصص حماسهم وعواطفهم وتذوّقهم للإيمان وشغفهم بالدعوة إليه، وما رأينا من نماذج في كتب كالسيرة والتاريخ الإسلامي، رأينا أمثلته الحية، ونماذجه المتحركة.

العضوية في الجماعة الإسلامية والانفصال عنها:

كانت قد بدأت مراسلتي مع الأستاذ المودودي عام ١٩٤٠ م، وكتب إليَّ في ٣١ ـ أغسطس عام ١٩٤٠ م رسالة مفصَّلة، أبدى فيها أمنيته في أن يترجم كتابه «الحجاب» إلى العربية، وقال: إنني أرى أن الندوة خير مكان لهذا العمل، فأرجوك أن تختار لهذا العمل شخصاً يقدر على ترجمة الكتاب إلى لغة حية عصرية، وكنت كتبت إليه فيما كتبت إلى كبار العلماء وأعيانهم عن الكتب التي لها فضل ومنة في حياتهم، فردَّ إليّ، وكتب مقالاً في هذا الموضوع.

وقد كان لقائي به للمرة الثانية عندما حضر للمشاركة في اللجنة التي عُيِّنت لوضع خطة للدستور الإسلامي، على دعوة من الأمير أحمد سعيد خان الجهتاروي، بندوة العلماء، وقد أخبرني الأستاذ أولاً بمجيئه، وجعلني مسؤولاً عن إقامته وسكنه، وقدم في ٤ ـ أو ٥ يناير عام ١٩٤١ م إلى لكهنؤ، وأقام في مضيف دار العلوم لندوة العلماء، وكنت في عام ١٩٤١ م أصبحت عضواً للجماعة بوساطة الشيخ محمد منظور النعماني الذي كان حضر لكهنؤ لأجل هذا الغرض، وجعلوني من ثَمَّ مسؤولاً عن الجماعة في لكهنؤ.

وقدم الأستاذ إلى لكهنؤ مرة ثانية على دعوة من الجماعة، وألقى محاضرته على طلب مني في جمعية اتحاد الطلبة (نادي الإصلاح) بدار العلوم بعنوان «منهج تعليمي جديد»، وكان قد كتبه على طلب ودعوة مني، كما ألقى محاضرته الأخرى بعنوان «قضية النوع البشري الاقتصادية وحلّها الإسلامي» على طلب مني أيضاً، في جامعة لكهنؤ.

وكنت دائم الصلة بالأستاذ والجماعة، وقد حضرت في جلسة الجماعة التنفيذية التي كانت عقدت بلاهور في فبراير عام ١٩٤٢ م، والتي كانت القضية المطروحة فيها ـ لأجل الخلاف مع بعض كتابات الأستاذ وآرائه ونظرياته، الذي أثاره بعض كبار علماء الهند وأصحاب الأقلام ـ أن يستقيل الأستاذ من إمارة الجماعة، ويختار الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أميراً جديداً للجماعة، وجمعت الآراء حول الموضوع وكان التصويت، فكان صوتي في حق الأستاذ المودودي، وكان ذلك على أساس أن هذا التغيير لا يعدُو تغييراً صناعياً ظاهراً لا يقدِّم ولا يؤخر شيئاً، فإن الجماعة تكوَّنت بِناءً على كتابات الأستاذ المودودي، وسوف لا يزال انتماؤها وصلتها ـ طبيعياً ـ إليه وبه، وكان أن غلب الطرف المصوِّت في حق الأستاذ وبقي نظام الجماعة كما كان.

وحضرتُ مجلس الجماعة التنفيذي الثاني في دلهي في أكتوبر عام ١٩٤٢ م، وسافرت حين ذاك مع الأستاذ إلى عليكراه، وأقمنا يومين أو ثلاثة أيام في سكن خريجي الجامعة، وشاهدت تهافت الطلاب عليه في وسط

الجامعة وشعبيّته، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف تلك الفترة واضطراب الشباب المسلم الفكري، وقلقه وتعطشه إلى من يغذي عقله وروحه.

وقد كان الأستاذ حينئذ ـ يشعر بضرورة إصدار مجلة عربية تكون لسان حال الجماعة وممثلة للدعوة الإسلامية، وذكرت له المشاكل والعقبات في هذا السبيل، وأخيراً اتفقنا على أن نبدأ بإصدار سلسلة من المقالات باللغة العربية ونبعث بها إلى المجلاّت والجرائد العربية الموقّرة في البلاد العربية، وكان الأستاذ يريد أن يعهد إليّ بهذه الخدمة، ولكني اقترحت لها اسم الزميل الأستاذ مسعود الندوي، فقبل الأستاذ هذا الاقتراح، وقبل الأستاذ مسعود هذه المسؤولية وقام بها خير قيام.

وكنت أشعر شعوراً غامضاً بأن انجذابي إليه وتجاوبي معه يدين لكتاباته القوية البليغة، التي أرى فيها صورة لخواطري وتمنّياتي، لا بشخصية قوية قيادية رأيت ظلالها وانطباعاتها في قادة الإصلاح والتجديد، ومُهمّة التربية الإسلامية وتزكية النفوس، ممّن قرأت تراجمهم وكتبت عن سِيَرهم في مؤلفاتي، والكمال لله وحده.

إنّني لم أصل قط في نقده إلى تلك الحدود التي يصل إليها منتقدوه الغُلاة الذين لا يقنعون بأقلّ من كلمات التضليل، بل لا أزال أعترف بنبوغه العقلي وأقدّر كثيراً من آرائه ونظراته، وأرى أن كثيراً من كتاباته ومقالاته تُنير الشباب المُثقّفين وتبصّرهم بالدين، وأشير عليهم بمطالعتها والاستفادة منها، ولم أعلن انفصالي عن الجماعة ولا أبديت انتقاداتي ـ علناً ـ إلى عام ١٩٧٨م، حين ظهر كتابي «التفسير السياسي للإسلام في كتابات الأستاذ المودودي وسيد قطب»، ودامت علاقتي بالأستاذ بعد انفصالي عن الجماعة كالعلاقة بين صديقين كريمين قديمين، لم يكن يفرق بينهما إلا اختلاف وجهات النظر في بعض القضايا الأساسية، وفي منهج العمل وأسلوبه، وكنت كلما سافرتُ إلى باكستان أزوره، وكان يلقاني دائماً ببشر وترحاب وأَسَرُّ

بلقائه، وأنقل هنا من كتابي «براني جراغ»[1] ما يلقي الضوء على نوع اختلافي معه وحدوده:

«لقد كان أساس إعجابي وتأثُّري وصلتي بالأستاذ المودودي ومنشورات الجماعة، تلك المقالات الفاضلة الناقدة التي كتبها الأستاذ في الردِّ على الحضارة الغربية وفلسفتها للحياة، ووجهة النظر المادية المعاصرة، والتي قد جاءت معظمها في مجموعة مقالاته باسم «تنقيحات». وقد كان في هذا الصدد بيني وبين الأستاذ توافق وانسجام كانسجام صغير مع كبير، ومؤلف ناهض مع مؤلف مُحنَّك، ولا شأن لي بالتفسير العصري للدين الذي يدبّجه قلمه، ولا حاجة لي إليه، التفسير الذي يتجلَّى في كتابات الأستاذ كـ «المصطلحات الأربعة الأساسية في القرآن» و«تفهيمات» و«رسائل ومسائل» ذلك لأن أمري في هذا الباب كان يختلف تماماً عن أمر شابّ مثقّف بالثقافة الإنجليزية يقتبس تصوره للدين وفهمه إياه كُلّياً من كتابات الأستاذ أو من كتب مفكر أو مؤلف آخر، بدلاً من أن يقتبسه من مصادر الدين الأساسية ـ الكتاب والسنة ـ والبيئة والتربية الدينية.

ولذلك فقد كنت عاجزاً ـ لدراساتي الدينية المباشرة واستفادتي من كتب العلماء المتقدمين والمتأخرين الذين كانوا أوسع وأعمق علماً في الكتاب والسنة، ونجد عندهم اجتهاداً في الفكر والرأي، وعمقاً وإحاطة في الدراسة ـ عن أن أعتبر الأستاذ مفكراً إسلامياً فريداً، يندر نظيره عبر القرون، إنما كنت أعتبر ميزته الأساسية وجوهره، ذكاءه، وألمعيته، وحدَّة ذهنه، وقدرته الفائقة على الكتابة، والعرض في أسلوب عصري مؤثر، ولا أزال أعترف له بذلك»[2].

دعوة من الجامعة المليّة، ومحاضرتي حول الدين والمدنية:

كانت أواخر عام ١٩٤١ م أو بداية ١٩٤٢ م، أن وُجّهت إليَّ دعوة من

---

(١) كتاب في جزئين في أردو في انطباعاتي ومعلوماتي عن الشخصيات المعاصرة، وإلقاء الأضواء على جوانبهم الممتازة.

(٢) «براني جراغ» (المصابيح القديمة) الجزء الثاني.

مجلس الإسلاميات بالجامعة الملّيّة الإسلامية في دلهي، الذي كان رئيسه أستاذي الشيخ عبد الحي الفاروقي، لإلقاء محاضرة في المجلس، وقد كتب إليّ الشيخ عبد الحي نفسه في هذا الصدد، وألحّ عليّ في قبول الدعوة، وقد كان إعداد محاضرة علمية لمجلس موقّر في مؤسّسة تعليمية موقّرة كالجامعة الملّية، لمثلي في صغر سِنّه وخموله وقلة بضاعته وإلقاؤها أمام الفضلاء الكبار وأساتذة الجامعة وأعيان البلد، خطوةً جريئة وعملاً يتطلّب همة كبيرة عالية، فرأيت لسدّ خللي وجبر كسري - الذي لم أكن أجهله - وتدارك نقصي، أن أختار موضوعاً مُهمّاً يلفت الأنظار ويسترعي الانتباه، وأدرسه دراسة واسعة عميقة قدر المستطاع، وأعدّ في ضوء هذه الدراسة محاضرة تتجلّى فيها دِقّة الدراسة وعمق التفكير، فاخترت لنفسي عنوان «الدين والمدنية» وطالعت الكتب التي كانت في متناول يدي حول تاريخ الفلسفة القديمة والحديثة، واختلاف بين مدارسها الفكرية والفلسفية، وتناولتُ في المحاضرة موضوع أن هناك أسئلة مشتركة بين الدين والمدنية تقوم عليها الحياة، وقد حاول كُلٌّ من الفريقين الإجابة عليها، وظهرت نتيجة هذه المحاولات للإجابة مناهج خاصة للحياة والاجتماع، واستعرضت في هذا الصدد حقيقة الحواس والعقل، والفلسفة البحتة، والفلسفة الدينية والإشراق، ومجالات عملها ونشاطها، ونجاحها وإخفاقها، ونفعها وضررها، استعراضاً علمياً تاريخياً، وصرحتُ بأنه ظهرت هناك ثلاث مدنيات، أو يمكن أن تنقسم المدنيات إلى ثلاث: المدنيّة الحِسّية، والمدنية العقلية، والمدنية الإشراقية، وألقيت الضوء عليها.

ثم شرحت أن هناك طريقاً آخر لحل هذه الأسئلة والإجابة عليها، وهو طريق النبوة والرسالة، وأنه هو الحقيق وحده بالإجابة الحاسمة على هذه الأسئلة الأساسية وإرشاد الإنسان وتوجيهه توجيهاً صحيحاً، ولا طريق سواه، ثم عرضت تعاليم الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - ونتائجها وثمارها، وخصائص الحياة الإسلامية وميزاتها، وقد جاءت في هذه المحاضرة مقتبسات وإحالات مهمة من كتب الفلاسفة المحدَثين حول حدود الحواس والعقل

والفلسفة، تلقي ضوءً كاشفاً على ضعف هذه الوسائل الثلاثة، وعجزها في حقائق ما وراء الطبيعة، وما وراء طول العقل، وقصور مجالاتها، وضيق دائرتها، وقلة تأثيرها.

ألقيتُ هذه المحاضرة في شهر من شهور عام ١٩٤٢ م في مجلس موقر كريم من مجالس الجامعة، حضره مدير الجامعة الدكتور ذاكر حسين[١]، والأستاذ الكبير الدكتور السيد عابد حسين، والبروفيسور محمد مجيب، وأساتذة الجامعة وعدد من فضلاء البلد، وقد رأس الجلسة الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي[٢]، ونشرت هذه المحاضرة في صورة رسالة عام ١٩٤٣ م، من مكتبة الجامعة، ثم ظهرت له عدة طبعات في الهند وباكستان، ونشرت ترجمتها العربية بعنوان «بين الدين والمدنية» بقلم الأستاذ شمس الحق الندوي، وترجمتها الإنجليزية بعنوان (Religion and Cvilization) بقلم الأستاذ محي الدين بلكهنؤ.

الاضطراب على فقد المسلمين حميتهم السياسية وإخلادهم إلى الدعة والراحة:

في عام ١٩٤٢ م حين قرر المؤتمر الوطني مطالبة الإنجليز بمغادرة البلاد، وقاد حركة (Quit India)، وبدأت الاحتجاجات والمظاهرات، قامت اضطرابات شديدة في طول البلاد وعرضها، فأُطلقت النيران في كل مكان، وبدأت سلسلة الاعتقالات، وكانت قيادة هذه الموجة الشعبية بيد المؤتمر الوطني وحده، وكانت الأكثرية من السكان هم في الأمام في هذه الاضطرابات يتعرضون للإصابات، ويغامرون بالحياة، ويواجهون الصلب والشنق.

---

(١) رئيس الجمهورية الهندية سابقاً، ومن كبار رجال التعليم والاقتصاد والأدب في عصره.

(٢) رئيس القسم الديني في جامعة عليكره الإسلامية سابقاً، ورئيس تحرير مجلة «برهان» الصادرة من دهلي، ومؤلف كتب كثيرة ذات قيمة علمية، توفي في باكستان عام ١٩٨٥ ودفن في كراتشي رحمه الله وغفر له.

وكـان المسلمون ـ مـع الأسف ـ بصفة عـامة، سـاكتين متفرّجين، يضحكون على مصاب المواطنين وتضحياتهم ومحنهم، وقد سمعت بعض أصحاب المناصب في الحكومة من المسلمين في مجلس موقر بلكهنؤ ضم عدداً من أصحاب الفكر المسلمين وهو يغمز في المواطنين، ويسخر منهم، ويشمت بهم على مصائبهم ومحنهم.

لقد آلم هذا الموقف من المسلمين نفسي وجرح قلبي، فقد اغتصب الإنجليز حكومة الهند من أيدي المسلمين، الذين كانوا قبل زحف الإنجليز سادة البلاد وقادتها، وهم الذين كانوا بسبب الغلبة البريطانية وسيطرتها التي تحمل معها حضارة جاهلية، ونظاماً علمانياً للتعليم، وفلسفة مادية للحياة تعارض ـ على طول الخط ـ نظرة الإسلام إلى الحياة والإنسان، يواجهون الخطر الأكبر، وهذه هي القوى الغربية ـ وأكبر ممثليها بريطانيا ـ التي قضت على الخلافة العثمانية، واستعبدت البلاد العـربية والإسـلامية وقهـرتها، وفرضت عليها وصايتها، فكان طبيعياً أن يكون المسلمون أول منافسيهم ومحاربيهم وأعدائهم، وكان واجباً عليهم أن يأخذوا مكان القيادة في الميدان ويقوموا بدورهم في المقاومة المطلوبة، فإن الشعوب والملل لا تنال كرامتها ومجدها إلا بالجراءة والاستماتة، والمغامرة والتضحية والدور القيادي.

وأذكر أنني كنت أسافر عام ١٩٣٠ م أيام «حركة العصيان المدني» (التي قادها الزعيم غانـدي) بين لكهنؤ ودلهي، فسألني أحـد الهندوس «الماروارييـن» من أنت؟ قلت: مسلم، فلم يدرك هو معنى «مسلم»، فقال: هل أنت على دين عباس طيّب جي؟ لقد كان يعرف عباس طيب جي الذي كان قد قام بدور قيادي في «حركة العصيان المدني» بعد اعتقال غاندي، وقاد الناس كرجل له الكلمة النافذة والحكم الفصل في المؤتمر الوطني، إلى ملء السجون والمعتقلات الإنجليزية، ورأيت أن التضحية والاستقامة والثبات والإقدام هو الطريق وحده لكرامة الشعوب والأفراد، وبه يكسبون الاحترام والإجلال لدينهم ومنهج حياتهم وعقيدتهم وبـلادهم.

واقعية العلماء ويقظتهم:

لقد كنت ـ بحكم بيئتي ودراساتي التاريخية ـ لا أفضِّل منهج أولئك العلماء ومذهبهم في السياسة فحسب، بل كنت أراه ضرورة لا محيص عنها، الذين لم يكتفوا بمواكبة المواطنين في جهاد التحرير فحسب، بل سبقوهم وفاقوهم فيما يتعلق بالتضحيات الجسيمة، والتعرض لسخط أفراد شعبهم وإهاناتهم وتجريحهم ومخالفاتهم ومقاطعتهم.

لقد كنت رغم صِغَر سنّي أشعر بأن الهند سوف تتحرر قطعاً يوماً من الأيام، فإن هذا الوضع لسيطرة الأجانب وسلطتهم أمر غير طبعي وغير إنساني وغير صالح للبقاء والاستمرار، وأنَّ المسلمين إن لم يشاركوا في جهاد التحرير للبلاد، (إن لم يكن ذلك عن قيادة وريادة فعن جراءة وشهامة) فسوف تنتكس رؤوسهم بعد تحرُّر البلاد، ولا يستطيعون أن يمشوا على هذه الأرض مرفوعي الرأس، وسوف لا يُنظَر بعد ذلك إلى مطالبتهم باستمرار شخصيتهم الإسلامية نظرة إكرام ومواساة وعطف، فإن قاعدة «الغُرم بالغُنم» قاعدة فطرية خالدة.

ونحمد الله تعالى على أن العلماء في هذه البلاد بالعكس من عدد من البلدان الأخرى لم يقتصروا على مشاركة حركة التحرير فحسب، بل شاركوا فيها ـ من بعض الجوانب ـ مشاركة قيادية فعالة[1]، ولذلك فإن المسلمين يستطيعون أن يطالبوا باستقلال مؤسَّساتهم الدينية وحريتها، والحفاظ على قوانين الأحوال الشخصية المتعلقة بهم، واللغة الأردية، والتعليم الديني وبقائه واستمراره في حرية واستقلال، وتشبه الهند في ذلك بلاد الجزائر مشابهة كبيرة، فقد قاد في كلا البلدين علماء الدين والطبقة الدينية وأساتذة

---

(١) يمكن أن يذكر في هذا الصدد أسماء القادة من علماء ديوبند، وفرنجي محل، وجمعية العلماء، ومجلس الأحرار.

المدارس الإسلامية وشيوخها حركة تحرير البلاد وتخليصها من قبضة الاستعمار وصبغوها بالصبغة الدينية[1].

كنتُ بحُكم تأثُري الشديد بهذه الأحداث والوقائع وموقف المسلمين السلبي، كتبت مقالاً بالعربية بعنوان «دعوتان متنافستان» شرحت فيه الفرق بين الإسلام والجاهلية، ثم أثبتُ أن أوربّا ـ بصفة عامة ـ وبريطانيا كزعيمتها الأولى وقوتها الكبرى ـ بصفة خاصة ـ تحمل لواء الجاهلية في هذا العصر في الشرق على أقل تقدير، وأن الحياة الجاهلية وفتنتها وجاذبيتها لا تقوم وتزدهر إلا بها.

وبالعكس من ذلك فإنَّ المسلمين هم أمناء الإسلام وحملته وحماته ودعاته، فكان من الواجب الطبيعي لذلك أن ينزل المسلمون في الميدان لمحاربة الدولة البريطانية، فإنهم تكبدوا خسائر فادحة عظيمة على أيدي القوى الغربية والبريطانية، وهم الذين سوف يواجهون ـ لكونهم حَمَلة دين إيجابي واضح المعالم ـ أكبر خطر منهم، ولكن الذي يؤسف، أن الوضع بالعكس، فإنهم ـ بصفة عامة ـ يمثلون دور المتفرجين الصامتين، بل الشامتين في حرب التحرير، يفرحون بأن إخوانهم المواطنين يتعرضون للصلب والشنق، والمصائب والرزايا.

لقد كان هذا أول مقال لي كتبته مخترقاً حدود الدائرة الأدبية إلى الأوضاع والظروف الحاضرة وحال المسلمين، وقد تجلّى فيه لأوّل مرّة الروح الدعوية والفكر الإسلامي.

---

(١) لقد بدأت حركة التحرير في الجزائر على أيدي العلماء والمشايخ، وقد قادها الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد بشير الإبراهيمي، ويعترف بذلك الحُكّام والطبقة المثقفة الجديدة أيضاً هناك.

الفصل التاسع

إعداد سلسلة الكتابات الدعوية في اللغة العربية

بدء كتابة المقالات والرسائل العربية:

لقد انعطف عنان قلمي بعد كتابة مقال «دعوتان متنافستان» إلى كتابة المقالات والرسائل باللغة العربية ومخاطبة العرب، ولم يكن أمامي إذ ذاك مثال أو نموذج لمثل هذه المقالات التي تجمع بين: قوة الدعوة، والعاطفة الدينية، والقلم القوي البليغ، واللغة العذبة السلسة. إنما كانت لديّ إما مقالات أدبية خالصة نجد أمثلتها في كتابات السيد مصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي والدكتور طه حسين، أو مقالات علمية تحليلية ناقدة، نرى أمثلتها في كتابات الدكتور أحمد أمين، وعباس محمود العقاد والعلامة كُرْد علي، ولم يكن حينئذ قد طلع على الأفق العربي نجمٌ كسيد قطب، ومصطفى السباعي، وعلي الطنطاوي، ولا كانت تصل إلينا كتب الإخوان ورسائلهم، بل لعلّي كنت أجهل اسم الشيخ حسن البنّا أيضاً، لذلك لم يكن لي إلاّ أن أبتكر أسلوباً وأنهج نهجاً جديداً[1].

---

(١) ويمكن أن يلاحظ ارتقاء هذا النهج وقوته في مقالات الكاتب الناهض المرحوم الأستاذ محمد الحسني، التي لا تقل في قوتها واندفاعها وطلاقتها من كتابات الأستاذ سيد قطب.

وقد كانت اللغة العربية ـ إلى ذلك الحين ـ تنقصها مقالات ورسائل دعوية تمتاز بالثقة والحماس والاندفاع الداخلي، والحرارة الإيمانية المتدفقة، وخوطب فيها من مستوى الداعية العالي الرفيع، وتجمع في نفس الوقت قوة الاستدلال والجد والرزانة، والعذوبة والسيلان.

ولما عزمت على بدء هذه السلسلة من المقالات، حمدت الله ـ تعالى ـ على منهج التعليم الذي اختير لي، ومقررات اللغة العربية وآدابها التي درستها، والبيئة التي عشت فيها، التي كانت تجربة جديدة في الهند، ولم يكن يبدو في ذلك الحين من حاجة إليها ولا فائدة فيها، لقد كان غريباً أن يركّز أخي ومربيّ على تثقيف أخيه اليتيم الصغير بالثقافة العربية الأدبية في فترة لم تكن فيها علاقات سياسية وثقافية واقتصادية بين العالم العربي والهند، ولا إمكانيات المواصلات ووسائلها الميسرة، ولا تبادل للوفود والزيارات، ولا قيام السفارات، ولا كانت هناك علاقات بجامعات البلاد العربية ومؤسّساتها التعليمية، لقد كان غريباً أن يُعتنى بتعلم فرد من أفراد الأسرة ـ التي كان يسود فيها التعليم الإنجليزي ـ اللغة العربية وآدابها على هذا النطاق الواسع وبهذا المستوى العالي، ويُمرّن على الإنشاء والكتابة والخطابة ـ التي كانت المدارس العربية بمعزل عنها حينذاك ـ ولم تكن الأوساط الدينية تجهلها فحسب، بل كانت تعتبرها إضاعة للوقت، إذ أنّ اللغة العربية كانت فيها منذ قرون تعتبر وسيلة لفهم الكتب الدينية لا أقل ولا أكثر.

فلما بدأتُ هذا العمل الكتابي الدعوي، ووفِقّتُ بعد ذلك عام ١٩٥١ م للسفر إلى الشرق الأوسط، قدّرت فراسة مربيًّ وأخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي، وبُعد نظره وبصيرته الدينية، واعترفتُ بفضله الكبير عليّ، إذ أنه اختار لي هذا الطريق، وأنه أتاح لي ـ بمعزل عن مناهج التعليم السائدة ـ فرصة الحصول على سعادة الخطاب للعالم العربي، وإثارة شعورهم ووجدانهم، وإيقاظ عواطفهم الخامدة، ومخاطبتهم بأنها «بضاعتكم ردّت إليكم» عن طريق هذه اللغة والأدب، والكتابة والتحرير، والإنشاء والخطابة.

ولما رجعت من رحلتي الدعوية إلى البلاد العربية: الحجاز، ومصر، والسودان، والشام، وفلسطين، ولبنان، التي استغرقت عاماً كاملاً، ووجدت فيها فرصة طيبة لعرض آرائي ومشاعري أمام الأوساط العلمية والأدبية والفكرية في العالم العربي، ومخاطبة كبار رجاله والعلية من فضلائه ومن علمائه، وتبادل الآراء مع أصحاب الأقلام والمفكرين فيه، ونشرت فيه مقالاتي ورسائلي، نظَّم لي طلاب دار العلوم في جمعية الإصلاح حفلة تكريم وترحيب، فتحدَّثت إليهم بمشاهداتي وانطباعاتي، وشكرت الله تعالى على توفيقه إياي الذي تحقق في شكل هذا العمل الدعوي في العرب أنفسهم، وصرَّحت في هذا الصدد بأهمية اللغة العربية، وضرورة تعلمها على هذا النطاق وهذا المستوى الذي لا يستطيع أي عجمي أن يقوم بدوره ومسؤوليته الدعوية بين العرب بدون ذلك، وأشرت إلى أخي الأكبر الذي كان جالساً في الصف الأمامي، متمثّلاً ببيت أبي فراس الحمداني:

وكُنّا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

وأنّ الفضل في كل ذلك يرجع إلى ألمعيته وحسن تربيته.

والمقال الدعوي الثاني الذي أذكره هو تلك المحاضرة التفصيلية التي نشرت أولاً في مصر بعنوان «المد والجزر في تاريخ الإسلام» ثم نشرت في دمشق والهند، وقد استعرضت في هذه الرسالة حال العرب قبل الإسلام بتفصيل، وصوَّرت ما كانوا فيه في عهد جاهليتهم من انحطاط وخمول وضآلة قيمة، لا وزن لهم ولا تأثير، وجمعت فيها بدراستي «للبداية والنهاية» لابن كثير آراء قادة الفرس والروم عن العرب، وشهادات السفراء العرب أنفسهم عن بلادهم وشعبهم، الذين جرت بينهم وبين هؤلاء القادة محادثات. ثم ذكرت تلك الثورة المدهشة والتغير الهائل الذي لم يكن يتصور الذي أحدثه الإسلام في معتقداتهم وعقليتهم وضميرهم، واستعداداتهم ومواهبهم، وطموحهم وعزائمهم. ثم حاولت الدلالة على أسباب هذا التحول ومصدره على لسان المؤرخين والناقدين الأجانب، من غير المسلمين، وحل تلك اللغزة التي لا تزال تحيِّر العقول وتدهش العالم.

ثم بعد استعراض لهذه الأسباب الظاهرة التي اعتمد عليها المؤرخون الأجانب، رددت عليها، وقررت أن السبب الأصيل كان هو البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وتنفيذ المسلمين العرب للتعاليم الإسلامية وقيامهم بها، وقوة الإيمان واليقين، ونقلت للتدليل عليه أقوال القادة المسلمين والغزاة الفاتحين، والصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، ثم ذكرت ذلك الانحطاط والسقوط التدريجي الذي تجلّى في أوضاع المسلمين وطبيعة الأمة الإسلامية المعاصرة، وكشفت النقاب عن أسبابه الداخلية والخارجية ونتائجه الظاهرة، وذكرت علاجها ودواءها الصحيح.

تأليف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»:

في تلك الفترة نفسها (لعلها عام ١٩٤٤ م) شعرت في نفسي برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها، في تأليف كتاب يتحدث عن ماذا خسر النوع البشري بانحطاط المسلمين، وماذا ربح العالم والمدنية والشعوب والأمم برقيّهم ونهضتهم، لقد كان المنهج الفكري العام لأصحاب الأقلام والمؤرخين والمؤلفين، وأسلوب البحث الدائم لدى المفكرين والكُتّاب المسلمين في ذلك العصر، ومجال دراساتهم وتحقيقاتهم، كيف تأثر المسلمون بأحداث العالم المعاصرة، والحروب العالمية وسقوط الدول والحكومات، ونهضة الغرب الحديثة والثورة الصناعية الكبرى التي حدثت في الغرب، والاستعمار الغربي، ماذا خسر المسلمون بذلك، وماذا ربحوا؟ كأن المسلمين ليسوا هم «العامل» المؤثر في التاريخ، بل إنما هم «المعمول» الضعيف، وعرضة للأحداث والثورات المؤثرة العاملة، وكما يقول المثل الأردي: (هم كالبطيخ سواء وقع على السكين، أو وقع السكين عليه، فهو المقطوع الخاسر).

ولم تكن أمامي أي محاولة جادة للكتابة والتفكير بعكس هذه النظرية بصورة منظمة علمية وتاريخية، وهي أن المسلمين ليسوا ممثلين (Actors) للتاريخ، بل هم العامل (Factor) التاريخي القوي النافذ، يرتبط بهم مصير

الإنسانية، فقد كانت نهضتهم وسلطتهم وقيادتهم، وتبوأهم منصب التوجيه والإرشاد يغير وجهة العالم الإنساني كله، وتسعد به الإنسانية، وكان سقوطهم وانحطاطهم ـ الذي جلبوه على أنفسهم وسببوا له ـ سبباً كبيراً لحرمان الإنسانية وضياعها، وشرود العلم والحضارة، وتسكع الشعوب والأمم، وظلم الحكومات والدول، وضياع الجهود والمحاولات، وبسببه اتجهت النهضة العلمية والصناعية إلى التدمير والإبادة والانتحار، وأشرفت الدنيا ـ بصورة جماعية منظمة ـ على شفا جرف هار من الهلاك والدمار، فإذا كان هناك طريق للنجاة، وأمل للعودة إلى المركز الصحيح، فليس هو إلاّ أن يعود المسلمون إلى مكانهم ويتبوأوا منصبهم، وتكون القيادة العالمية بيد الإسلام.

والواقع أن هذا الموضوع كان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة، وكان لا ينسجم مع دراساتي ومطالعاتي وتقدمي العقلي والفكري، بم كان في حاجة إلى قلم أكبر وأكثر تجربة ومراناً من قلمي، وعقل أوسع وفكر أعمق من عقلي وفكري، وكان ذلك لرجل مثلي في الحقيقة مغامرة علمية ومجازفة تأليفية، ولكن الله يفعل ما يشاء، فليست الجهود البشريّة التي تلقى النجاح أحياناً بتوفيق الله ـ تعالى ـ في صورة غير عادية، خاضعة دائماً للمنطق والرياضيات، وفي ذلك خير، وإلا لأصبح الإنسان ماكينة ميتة.

وقد غلب هذا الموضوع على تفكيري ومشاعري، وأخذ عليَّ مجامع قلبي، حتى لم أتجاسر على الكتابة في هذا الموضوع فقط، بل قررت أن تكون الكتابة بالعربية، وقد كانت هي فترة انقطعت فيها بسبب الحرب العالمية الثانية المنشورات والمطبوعات التي كانت ترد من مصر، فلم تكن تصل إلينا رسائل، وكتب جديدة لأدبائها وكُتّابها ومؤلفيها، وقد كانت المراجع عندي قليلة، وكان معظمها يتعلق بالأدب والتاريخ، وكنت إلى ذلك الحين أجهل كثيراً من التعبيرات والمصطلحات الجديدة، وما كانت عندي وسيلة للاطلاع عليها ومعرفتها.

ما زلت مستمراً في إعداد الكتاب وتكميله وتذييله من عام ١٩٤٣ م إلى ١٩٤٧ م، ولما شعر المؤلف بأن الكتاب سوف يتأخر طبعه ونشره، ولم يكن قد سافر خارج الهند، ولا كانت له علاقة بدور الطبع والنشر في مصر، قام بترجمة ما وصل إليه من الكتاب إلى الأردية، وصدرت طبعته الأولى في الهند.

وسافرت في هذه الفترة عام ١٩٤٧ م إلى الحجاز، وكان إمام الحرم المكي وخطيبه إذ ذاك، أحد العلماء المصريين الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، كان عالماً واسع الأفق، متنوع الفضائل، كانت له نظرة عميقة واسعة في المطبوعات الحديثة، ولم يكن مع مسؤولياته الخطابية والدينية قد تخلَّفَ عن ركب العلم والدراسة، وكنتُ أجالسه كثيراً، فعرضت عليه مسوَّدة الكتاب، فطالعها، وكان أول شخص أبدى إعجابه بالكتاب واعترف بقيمته وفائدته، وأكّد عليّ بطباعته.

ولما عدتُ من الحجاز إلى الهند كان الكتاب بلغ مراحله الأخيرة، وكان جاهزاً للطبع، وقد كان من توفيق الله تعالى أن وقع اختياري لطبع الكتاب على «لجنة التأليف والترجمة والنشر» للدكتور أحمد أمين، التي كانت تحتل في القاهرة من المكانة والاعتبار ما تحتلها دار المصنفين (أعظم كره) في شبه القارة الهندية، فإن صدور كتاب منها لأي مؤلف يزيد في قيمته ومكانته.

ولما سافرت إلى مصر عام ١٩٥١ م كان هذا الكتاب قد شقَّ طريقه إلى الأوساط الدينية والعلمية، وكان يكفي في تعريفي أن يقال هو مؤلف «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين». وقد كانت حركة الإخوان المسلمين قد حُلّت ومُنِعت من النشاط، وكان الشيخ حسن البنّا رحمه الله تعالى قد استُشهد، فكانت قلوب الإخوان مجروحة أليمة، فجاء هذا الكتاب مسلّياً لهم ومعزّياً، ووجدوا في قراءة الكتاب الذي رأوا فيه صورة من آراء الإمام الشهيد وأهدافه، والذي كان ينفخ في الدعاة والطامحين إلى غلبة الإسلام واستيلائه

روح العزيمة والاعتماد والثقة والطموح، وقوة وسكينة وطمأنينة، فتلقفوه وتهافتوا عليه، وقرأوه في المعتقلات، وقُرر في المدارس وحلقات المطالعة والدروس، واسترعى انتباه الطبقة المثقفة الحديثة أولاً، لأنه صدر من «لجنة التأليف والترجمة والنشر» بمقدمة من الدكتور أحمد أمين.

وقد لاحظ إخواني ـ كما شعرتُ أنا بنفسي ـ أن مقدمة الدكتور أحمد أمين كان فيها شيء من الفتور والبرودة أثّر في قيمة الكتاب في عين من يعتمد على المقدمات والتقديمات أكثر مما يعتمد على الكتاب، وقد هيّأ الله تعالى ما يتلافى ضعف هذه المقدمة، ويسد نقصها، فقد نشر أحد تلامذته النجباء الدكتور شكري فيصل[1] الذي كان يكتب رسالته تحت إشرافه مقالاً قوياً بليغاً في التعريف بالكتاب والتعليق عليه، في مجلة الدكتور نفسه «مجلة الثقافة»، أثنى فيه على لغة الكتاب وأسلوبه، وأبدى عجبه من قول الدكتور عن غموض بعض التعبيرات الكتاب وإبهام بعض عباراته، وقد قرىء هذا المقال بين أصدقائنا وأحبابنا بمكة المكرمة في شوق وإعجاب ورغبة، ووافقوا على ما جاء فيه، حتى كتب أحد أصدقائنا الأستاذ مصطفى العطار الذي تولى فيما بعد منصباً كبيراً في وزارة التعليم مقالاً مستقلاً في تأييد الكتاب والدفاع عنه، ونشره في إحدى صحف المملكة.

وفي أيام إقامتي بمصر عام ١٩٥١ م علمتُ أن الأستاذ سيد قطب معجب بالكتاب، وأنه أحب لأجل ذلك مقابلة مؤلفه، وفي يوم من الأيام تلقيت منه دعوة لحضور ندوة تجتمع في منزله بحلوان كل جمعة، وتبحث في موضوع إسلامي، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب «ماذا خسر العالم» وقد لخّصه أحد تلاميذه ليدور البحث والنقاش حول هذا المقال الملخص، وقد لبّيتُ هذه الدعوة الكريمة، وهنالك بدت لي فكرة الطلب من الأستاذ ليقدِّم هذا الكتاب، فقبل الأستاذ بسرور وحماس وكتب تلك المقدمة القوية التي زادت في قيمة الكتاب وقوته.

---

(١) مات رحمه الله بسويسرا في ٣ من أغسطس ١٩٨٥ م، ونقل جثمانه إلى المدينة المنورة ودفن في جنة البقيع في ١٠ من أغسطس ١٩٨٥ م.

ولا أقصد إلى التعريف في هذا الكتاب بجميع كتبي ومؤلفاتي، ولا يليق هذا بمؤلف، أما هذا الكتاب فقد ذكرته بشيء من التفصيل لأن له دوراً كبيراً وأهمية بالغة في حياتي الدعوية والعلمية، وسيرد الإحالة إليه مراراً في الصفحات التالية.

«إلى مُمثّلي البلاد الإسلامية»:

سأذكر ـ عدا هذا الكتاب الذي ذكرته ـ رسالة دعوية أخرى من رسائلي كانت لي خير عون ووسيط في العمل الدعوي بالحجاز.

لقد عقد في أبريل عام ١٩٤٧ م المؤتمر الآسيوي على دعوة من جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند الأسبق، كان مؤتمراً عالمياً فريداً من نوعه، عُقد قبل حادث التقسيم، وقد وجهت الدعوة لحضور هذا المؤتمر إلى عدد من البلدان العربية والإسلامية أن تبعث بوفودها إليه، وقد كنت إذ ذاك مرتبطاً بحركة الدعوة والتبليغ التي مركزها نظام الدين في دلهي وعاملاً فيها، وكنت أتوقع حضور الصفوة من المندوبين من مصر والشام والعراق، ولبنان، وتركيا، وإيران، فدعاني أمير جماعة التبليغ حينئذ الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ابن مؤسس الجماعة النجيب الفريد وخليفته الفاضل إلى دهلي، وأن أستعدّ لخطاب هؤلاء المندوبين المشاركين في المؤتمر.

وقد أعددتُ قبل مغادرتي لكهنؤ مقالاً في جلستين لهذا الغرض بعنوان «إلى ممثّلي البلاد الإسلامية» وقد كان موضوعه الأساسي وفكرته المركزية مقتبسة من خطاب لي في مؤتمر السيرة ببيشاور عام ١٩٤٤ م، وكان خلاصته: أن الإسلام قد ظهر حين كانت الأرض مليئة بالشعوب والبلاد، والدول والحكومات، والمدنيات والحضارات، والبارعين في كل فن وعلم، ولم يكن هناك مجال لظهور شعب أو جماعة تتكفل بهذه الحاجات نفسها التي تتكفل بها آلاف من الشعوب والبلاد، والواقع أن هذه الأمة ظهرت في ذلك الحين لدعوة جديدة، وعقيدة جديدة، وأغراض ومقاصد جديدة، وأن المعركة الفاصلة التي وقعت بعد البعثة المحمديةصلى الله على صاحبها

وسلم في مكة المكرمة، ثم في المدينة المنورة، بين الكفر والإسلام وبين مشركي قريش ومسلميها، كانت مؤسسة على عقيدة ودعوة خاصة، وسيرة وأخلاق معيّنة، ومسلك خاصّ للحياة وأهداف خاصّة محدودة لها، وقد كان هـذان الفـريقـان المتصـارعـان يمثـلان عقيـدتين متعـارضتين، وسيـرتين متعارضتين، ومنهجين متعارضين، لقد كان القرشيون يحاربون أنصار المدينة ومهاجريها لكونهم حملة عقيدة خاصة، ودعوة خاصة، ومتصفين بخلق وسيرة خاصة، ودعاة إلى منهج للحياة خاص، وأنهم لما عرضوا على داعية هذا الدين الأول محمد ﷺ إغراءات المال والمادة، والسيادة والقيادة، والحكومة والسلطة، ردّها في إباء وعظمة، ثم كانت حروب بدر وأُحُد، ومعارك حنين وأوطاس، وأدركت الجاهلية وأهلها أن المسلمين ليسوا طامعين في مال ولا مادة، ولا سُلطة ولا سيادة، ولا لذة وترف، إنما هم أصحاب عقيدة ورسالة، وأن القضية قضية إيمان وأخلاق.

ولكن وضع البلاد الإسلامية والشعوب المسلمة الآن يختلف اختلافاً كُلّياً، فإنهم قد آثروا هذه الأهداف الـدنية التافهة للحياة، واختاروا تلك السيرة، وذلك المنهج الذي كان قد رفضه الرسول ﷺ في ثقة، وبامتهان وازدراء، ولا رفع إليها الصحابة الكرام رضي الله عنهم أبصارهم، فإذا اجتمع اليوم ممثّلو البلاد والشعوب الإسلامية في مؤتمر عالمي لما رأينا فيهم سمات تميزهم، وملامح تبرز قسمات وجوههم، وتفردهم عن غيرهم، كانوا يعرفون بها، فلو عاد قتلى بدر وأحد من مشركي قريش وغيرها وسألوا المسلمين، لقد كانت الحروب بيننا وبينكم على عقيدة وسيرة ونظام، ولكن كثيراً منكم قد اختار نفس الطريق الذي كنا نساومكم عليه بعروض سخية كبيرة، ولكنكم كنتم رفضتموها في شمم وإباء، فكيف بكم اليوم تلهثون في الجري خلفها وتتهافتون عليها تهافت الفراش على النور، فلا أنتم اليوم حملة تلك الدعوة التي جاء بها نبيّكم، ولا تمثلون تلك السيرة وذلك المنهج الذي قدم نماذجه شهداء بدر وحنين من سلفكم، فقولوا لنا: بالله ماذا سيكون جوابكم، وكيف يقنعهم أكبـر ممثليكم وأبرع محاميكم؟

وصلتُ دلهي، وقد أعددت البحث للإلقاء، وحضرت المؤتمر الذي كان يعقد في رئاسة المسز سروجني نائيدو[١]، وسمعت خطابات جواهر لال نهرو، ومحمد علي جناح، وسري أينكر بالإنكليزية، وقد حضر من البلاد العربية الدكتور عبد الوهاب عزام ـ مترجم شعر الدكتور محمد إقبال ـ من مصر، والأستاذ مصطفى مؤمن مندوباً للإخوان المسلمين، والأستاذ تقي الدين الصلح من لبنان ـ الذي كان أصبح فيما بعد رئيس وزراء لبنان ـ وعدد من الممثلين من أفغانستان وبعض البلاد الإسلامية، ونظم الحاج قريشي[٢] حفلة شاي، حضرها مندوبان أو ثلاثة من الممثلين العرب، وعدد من ممثلي البلدان الأخرى، ولم يتهيّأ لي مجال القراءة لهذا المقال بضيق الوقت وعدم تهيؤ الجو، ثم نشرت المحاضرة فيما بعد في مطبعة صحيفة دان (Dawn) كرسالة مستقلة، وأخذتها في رحلتي الأولى إلى الحجاز عام ١٣٦٦ هـ، وقد ساعدتني كثيراً، وكانت لي خير وسيط.

تأسيس مركز التعليمات الإسلامية ودروس القرآن الكريم، وإصدار جريدة «تعمير»:

أسسنا في مايو عام ١٩٤٣ م مركزاً للتعليمات الإسلامية، واستأجرنا لها شقة في سوق البلد المركزية، ونظمنا فيها حلقة درس في القرآن الكريم كل يوم جمعة، ودرساً للحديث الشريف كل سبت، وكانت عهدة الدرسين عليّ، وسرت فيهما على منهج شيخي ومربي الشيخ أحمد علي اللاهوري، الدعوي والإصلاحي الذي كان يؤثره هو للطبقة المثقفة العصرية، فتهافت الناس من الطبقة المثقفة والموظفين الكبار، وأصحاب الذوق الديني، حتى ضاقت القاعة الأرضية، وانتقلنا إلى السطح، وقد كان من قبول الدرس وتهافت المثقفين عليه أنه إذا بحث وسئل عن شخص من أصحاب الذوق

(١) كانت أديبة شاعرة بالإنجليزية وخطيبة بارعة، اختيرت والية (Governor) للولاية الشمالية في الهند.

(٢) كان الحاج محمد شفيع قريشي من كبار المقاولين بدلهي، وكان من أصحاب الشيخ محمد إلياس المخلصين، وقد خدم حركة الدعوة بماله بأريحية وسخاء.

الديني أو من كبار الموظفين والمسؤولين والمثقفين المسلمين في لكهنؤ أثناء فترة الدرس، كان الجواب (غالباً) هو في حلقة القرآن الكريم في مركز التعليمات الإسلامية.

وقد استمرت سلسلة هذه الدروس إلى ما بعد عام ١٩٤٧ م، وازداد إقبال الناس عليه، ثم لما رجعت عام ١٩٥١ م من رحلتي الطويلة في الشرق العربي، وأقيم مركز التبليغ في حي كجهري رود، انتقل هذا الدرس إلى المركز أيضاً، وكثر تردد الناس وإقبالهم، حتى اضطررنا إلى استعمال مكبّرة الصوت، ولم يزل ذلك مستمراً، حتى انتقل هذا الدرس لجولاتي الطويلة في الخارج، وإقامتي في دار العلوم بصورة عامة، إلى زميلي الموقر فضيلة الشيخ محمد منظـور النعماني.

وبدأنا نشعر بعد عام ١٩٤٣ م بضرورة إصدار جريدة بشدة وإلحاح، لتوعية المسلمين العامة بدينهم، وتربية شعورهم الديني والسياسي، وأخيراً تمّ إصدار هذه الجريدة باسم «تعمير» في سبتمبر عام ١٩٤٨ م. وقد كان يذكر على غلافها اسمي واسم الشيخ عبد السلام الندوي كمديري التحرير، وقد نشرت في هذه الجريدة مقالات قوية مثيرة، تنفخ روح الإيمان وتستثير الفكر والوجدان، وقد نشر فيها مقالي بعنوان: «العالم في حاجة إلينا» الذي طبع فيما بعد بعنوان «منارة النور» في صورة رسالة، ومقالات أخرى، وصدر من قلمي في تلك الأيام (ديسمبر ١٩٤٥ م) مقال شديد الانتقاد لوضع المسلمين بعنوان «مواضع ضعف في سيرتنا وشخصيتنا القومية» انتقدت فيه مواضع الضعف العامة التي أصبحت جزءاً في طبيعة المسلمين القومية، وعنصراً فعالاً في كيانهم، انتقاداً صريحاً شديداً، ونبهتهم إلى نتائجها الخطيرة.

وكانت الأمراض ومواطن الضعف التي نبهت إليها في ذلك المقال هي:

١ - إيثار المصالح والمنافع على الأخلاق والمبادىء والمعايير الخلقية.

٢ ـ الغفلة عن مواجهة تحدّيات العدو العالمي الأصيل (أوروبا والحضارة الأوروبية).

٣ ـ قلة العمل، والجبن والخوف.

٤ ـ الطاعة العمياء للقيادة القومية العلمانية.

٥ ـ التبذل والعاطفية الحادة في الخطب والمقالات، وإبداء العواطف والخلاف، وقد كنت كتبت معلِّقاً على الجبن وقلة العمل:

(لقد نشأ في المسلمين من الانحطاط العقلي والإسفاف الخلقي أنهم يشمتون بمصائب غيرهم، ويتربصون بهم الدوائر، وقد بلغت أخلاقهم من الانحلال والتسفُّل أنهم فقدوا الاعتراف بجراءة غيرهم واستماتتهم وتضحياتهم، أن يأس المسلمين من أنفسهم وثقتهم بغيرهم، وشعورهم الزائد بضعفهم وتقديرهم الزائد لقوة غيرهم وانصرافهم إلى قضايا الأكثرية والأقلية، كل ذلك نتيجة من نتائج التعليم الغربي والسياسة الغربية، التي تعودت أن تنظر إلى المسلمين كشعب خامد جامد، ولا تستطيع أن تخرج من طلاسم الأعداد).

نشر هذا المقال بسرعة في شكل رسالة، وقوبل في الأوساط الإسلامية التي تحب الواقعية باستحسان وإعجاب، وفي الأوساط التي لا ترتضي أي انتقاد للمسلمين باستنكار.

لقد كانت جريدة «تعمير» لا يزال الإقبال عليها يزداد ودائرتها تتوسع، وكانت إدارة التعليمات الإسلامية ينتشر صيتها، إذا بالإعصار الذي عصف بعد حادث التقسيم بكل شيء، أتى على هذه الشجرة النامية المزدهرة، فقُضي عليها بالجفاف والذبول، فقد كان وضع الإدارة أو المركز المالي غير مستقرّ من البداية، فازداد تدريجاً في هذه الأزمة المالية، وفي أثناء تلك الفترة دُعِيَ الشيخ عبد السلام الندوي لرئاسة القسم الديني بالجامعة الملِّيَّة الإسلامية بدلهي، وكان قد درس أيضاً هناك، وكانت له بمسؤوليها وأساتذتها

علاقات طيبة مخلصة، فانتقل إلى دلهي؛ وتوقفت الجريدة والإدارة معاً، ولكن العلاقات التي قامت بيننا وبين الطبقة المثقفة في لكهنؤ عن طريق هذا المركز لم تزل على متانتها، وساعدتنا هذه العلاقات في النشاطات الدعوية التبليغية، وفي الجهود الدينية وأعمال النشر والدعوة والتوزيع.

الفصل العاشر

الشيخ الداعية محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله، وصلتي بحركته الدعوية، والنشاطات الدعوية «التبليغية».

الزيارة الأولى للشيخ محمد إلياس:

لقد كانت نشأتي وتربيتي الأولى في ظل قصص الدعاة المسلمين الأوائل والمصلحين والمجدّدين، وكان كتاب الأستاذ القاضي محمد سليمان المنصور فوري «رحمة للعالمين» أكثر هذه الكتب تأثيراً عليّ[1]، وقد كان من نتيجة هذا الذوق والوجدان، أنه لما صدر بقلم الأستاذ المودودي القوي البليغ بعد عودته من رحلته إلى «ميوات» مقاله بعنوان «حركة دينية مُهمّة» في مجلة «ترجمان القرآن» قرأته مراراً وتكراراً.

وقابَلنا الشيخ محمد إلياس بحفاوة وحب وعطف، كأنه كان منّا على ميعاد، ولا سيما عندما علم الشيخ بأني مؤلف كتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد»[2]، وأنني أنتمي - نسباً - إلى صاحب هذه السيرة الإمام الشهيد،

(١) ليرجع إلى مقال المؤلف «الكتب التي عشت فيها» في كتاب «شخصيات وكتب».

(٢) كانت لأسرة الشيخ صلات روحية وعقائدية بالسيد الإمام أحمد الشهيد، فجدّه لأمه العلامة المفتي إلٰهي بَخْش الكاندهلوي كان من خلفاء السيد وشارحي فكرته، وكذلك ابنه الشيخ أبو الحسن الكاندهلوي، وقد أسهم عدد من أعضاء أسرته في الجهاد مع السيد وتحت رايته، واستشهد منهم عدد.

ازدادت حفاوته وحبُّه وتجاوبه، وقد كان أول ما أثّر فينا وأُعجِبنا به، وكانت أول تجربة لي في حياتي، هو عطف الشيخ البالغ وحبُّه المتدفِّق، وعاطفته الجيّاشة بحب وحفاوة كانت تزداد كل لحظة، وصرَّح مرة بقوله: (لا نزال إلى يومنا هذا في ظل تجديد الإمام الشهيد) ثم رجعتُ إلى لكهنؤ، ولكن القلب تعلَّقَ به، وشغفني حباً.

بدء العمل الدعوى في نواحي لكهنؤ، ورسائل الشيخ إليّ:

وبدأت العمل الدعوي على إثر عودتي من دلهي في نواحي لكهنؤ، وما يجاورها من القرى على نفس المنهج الذي رأيته في ميوات (منطقة النشاط الدعوى الرئيسي)، ولم تكن لي إلى ذلك الحين أي علاقة بأهل المدينة، فكانت ثروتي كلها فقط هم أولئك الطُلاَّب النجباء الذين كنت أدرّسهم، وكانوا على اتصال شخصي بي، فبدأت آخذهم معي وأذهب إلى الأحياء والحارات في نواحي لكهنؤ، وأعمل في الطبقة المتخلِّفة، والفقراء وسكان الأحياء المساكين بتوعيتهم بدينهم، وإثارة الشعور الديني والقبس الإيماني، ودعوتهم إلى المحافظة على الصلوات. وكنت أكتب إلى الشيخ بتقارير مختصرة عن هذه الجولات الدعوية المتواضعة، وكانت تأتي إليّ رسائل من الشيخ أقرأها في شوق وشغف، وكانت تثير فيّ الحماس والثقة.

تربية الطلاب الدينية، والاتصال الشخصي بهم عن طريق الجولات الدعوية:

كنا نخرج يوم الخميس بعد العصر بعد أن نأخذ زاد الطريق، ونحمل معنا حسب مقتضى الفصل بسطنا وفرشنا، وكنا نمشي على الأقدام نذهب إلى القرى المجاورة، وكنا ننقسم من هناك يوم الجمعة في جماعات، ونخرج إلى النواحي والقرى القريبة، وقد أفادت هذه الجولات والتحرُّكات طُلاَّب دار العلوم من النواحي الدينية الإصلاحية، من تحسُّن وتقدُّم في الاهتمام بالصلوات، والمحافظة على ذكر الله تعالى، وقيام الليل، مع فوائد أخرى كثيرة، من تقشُّف وتحمُّل للمشاق، وتآلف وتحابب، وأخوّة، وصلة

قريبة شخصية بالمدرسين، والاطِّلاع على مواضع الضعف وعلل النفس في الجماهير المسلمة، ومشاهدة تخلُّف العامّة دينياً وخلقياً، وفشوّ الجهل فيهم، ونشأ في الممارسين لهذا العمل الشعور بمسؤوليتهم الدينية، وقد توثقت بيني وبين بعض الطلاب من الصلات ما أعانني كثيراً في الأعمال الدعوية، وكان سبباً كبيراً في تقدم دار العلوم ورقيها.

وقد كان الشيخ يُسَرُّ جداً بجهود طلاب العلوم الدينية الدعوية والإصلاحية، وجولاتهم للتثقيف والتوعية بالدين، وبتلك التقارير التي كنت أبعثها عن هذه الجولات ـ التي فُقد الاهتمام بها، وحلّت محلها الرحلات والأسفار للأغراض السياسية والاقتصادية والشخصية ـ وقد اقتحمت تأثيرات البيئات الخارجية أسوار المدارس الدينية أيضاً.

ولما كان من أصول هذه الجولات الدعوية وآدابها الاحتراز عما لا يعني من العمل والكلام، والتورع عن المحادثات التي لا فائدة فيها دينية، وكان من الصعب فرض الحظر كلياً في هذا الصدد على الطلاب الذين كانوا يخرجون بعد شهور وأسابيع في هذه الجولات التي يترافقون فيها ويعيشون معاً، فرأيت من المصلحة أن أفرض على الطلاب أن لا يتكلموا في هذه الفترة إلا بالعربية، وكانت تحصل منه فائدتان: أولاهما: قلة الكلام فيما بينهم، والثاني: تمرينهم على لغة الكتاب والسُنّة، ولما أخبرت الشيخ بذلك، سُرَّ به كثيراً وكتب إليّ:

(لقد سُرِرتُ جدّاً بإحياء سنة التكلم باللغة العربية، وأدعو الله تعالى أن يوجه المدارس الأخرى عنايتها بها، آمين).

الإجازة الطويلة من دار العلوم والانصراف إلى عمل الدعوة:

وكثر انصرافي إلى عمل الدعوة والتبليغ، وكثرت جولاتي ورحلاتي الدعوية، فشعرتُ بأنَّ هذا يؤثر على التدريس والتعليم، وقد كانت النفس قد ضجرت وملّت ـ بسبب تجارب مختلفة، والاشتغال بالجهود الدعوية ـ نظامَ التعليم الروتيني ومنهجه الرتيب والتقيدات، فقررت في سبتمبر عام

١٩٤٢ م أن أقطع علاقتي الرسمية بدار العلوم، وأتخلّى عن الوظيفة، وعزمت على ذلك في نفسي وأذن لي الشيخ بترك الوظيفة بعد لأي وتردُّد، وبشَّر بكفالة الله تعالى.

كانت هذه فترة ٤٢ ـ ١٩٤٣ م، ثم مررت بعد ذلك بمراحل امتحانات أيضاً، كما جاءت مراحل عروض سخية، وتقديم رواتب ضخمة، ولكن الذي حال بيني وبين قبولها، ومنعني من الميل إليها، هو أنه لو سألني سائل، أو لو سئلت في الآخرة: هل كنت تركت وظيفة مدرستك ووطنك لأن الراتب كان قليلاً، وقبلتَ الوظيفة الفلانية لأن الراتب كان كبيراً؟ فماذا يكون جوابي، والحقيقة أن بعض الأشياء القليلة الأهمية تأتي أحياناً بقرارات حاسمة عظيمة، وخطوات جريئة ثابتة.

رحلة تاريخية إلى بشاور:

تلقيت في مارس عام ١٩٤٤ م ـ حين كان الشيخ رهين فراشه لشدة مرضه ـ رسالة من سكرتير مجلس السيرة ببشاور السيد عبد الرشيد أرشد أنه قد قرر مجلس السنيرة ببشاور هذا العام أن يوجه الدعوة إليك لإلقاء خطاب في احتفالها للسيرة النبوية، الذي يعقد باهتمام وعلى مستوىً عالٍ، وأنت لك صلات وعلاقات أسرية قريبة أيضاً بولاية سرحد وبشاور، فقد كانت مجالاً رئيسياً لنشاط السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الدعوي الجهادي وحركته، فمن المعقول المتوقع أن ننتهز فرصة زيارة هذه المنطقة الأولى.

وقد كنت لا أعرف عن مجلس السيرة وعن سكرتيره شيئاً، ولم أكن من أولئك الخطباء المعروفين الذين يُدعون من أصقاع ومناطق بعيدة، وقد كان ذكر في الرسالة أن الشيخ العلامة شبير أحمد العثماني، والشيخ محمد طيب الديوبندي كانا يشرفان دائماً هذا الاحتفال، ولكن المجلس قرر هذا العام دعوة فاضلين ندويين، أحدهما أنت، والثاني الشيخ محمد جعفر الفلواروي الندوي، ولا أدري ما السبب في أنني شعرت بقراءة هذه الرسالة بنوع خاص

من السرور والانشراح في الصدر، ونشأت فيَّ رغبةٌ غامضة قوية في السفر إلى بشاور.

وصلنا إلى بشاور، وكان اليوم الثاني من وصولنا يوم الاحتفال، وقد عُطّلت الإدارات والمصالح، وحضرت الألوف المؤلفة من المسلمين من سكان المدينة وما يجاورها من القرى والبوادي، وكنت أخذاً بالاحتياط كتبت مقالاً حول السيرة ـ وقد نشر فيما بعد بعنوان «رسالة السيرة المحمدية صلى الله على صاحبها وسلم إلى القرن العشرين» ـ واستأذنت السيد أرشد لقراءته، فقال لي: إن المقالات والمحاضرات المقروءة لا تناسب الاحتفالات العامة، ولا تؤثر في الجماهير، ولا يصبر الناس ـ عادة ـ على سماعها، وقد كان حضر مرة أحد الكُتّاب البارعين المعروفين في الهند، وقرأ مقاله، فلم يقع من الناس موقع الاستحسان والقبول، وقوبل بقلة رغبة.

فتوكلت على الله، وبدأت بالخطاب المُرتجل، كانت نقطته المركزية هو دعاء الرسول ﷺ في وقعة بدر، الذيً غير خريطة العالم وتيار التاريخ، وقضى بخلود الأمة المسلمة ورقيها وازدهارها، وهو قول الرسول ﷺ وهو يناجي ربه: «اللهمَّ إن تَهْلك هذه العصابة لن تعبد»، فقلت إن هذا هو الأساس الذي قامت عليه الأمة الإسلامية، فلما قبل هذا الدعاء، وانتصرت الفئة القليلة المشتملة على ٣١٣ شخصاً على كثرة الكفار الذين كانوا ألف مقاتل، فقد صدق وقرر، أنه هو شعار الأمة الدائم، ورسالتها الخالدة، وأهميتها وفائدتها، وهو الشرط الأساسي في حياتها ونجاحها، وقد عرفت به هذه الأمة في عهد النبوة، وعلى أساسه قامت قريش ضدها قومة رجل واحد، ورفعت لواء حرب عضوض طاحنة.

ثم قارنت بين ماضي هذه الأمة وحاضرها، وقلت: لو عاد قتلى بدر وأُحُد اليوم إلى الحياة، وقالوا للمسلمين: أين ذهبت ميزتكم، وهدفكم في الحياة الذي زعمتم أنكم بعثتم لأجله، وأي فرق بيننا وبينكم في حب الدنيا،

وطلب اللذات والمسرّات، والراحة والدَّعة، ومخالفة المبادىء وموت الضمائر، فبماذا نجيبهم ونرد عليهم؟.

ولا أدري من أين كانت تنثال عليّ المعاني، ومن أين جاءتني تلك القوة والطلاقة في اللسان حتى كنت أنا أيضاً أجري في كلامي، وأندفع في تيّار المعاني، وكان الجمع في تأثر وإعجاب غامر، وانفعال عجيب، وقد ذكر لي بعض المشاهدين أن السردار عبد الرب نشتر[1] كان قد غطّى وجهه بمنديله، من شدة وجده وبكائه، ولما انتهى الخطاب جاء عدد من الأفغان وقالوا بم تأمر؟ مرنا بما تشاء فنحن في خدمتك. وهذا هو الخطاب الذي زدت فيه ووسعته ثم صُغتُه في صورة رسالة بعنوان (إلى مُمثّلي البلاد الإسلامية).

الحاج أرشد:

لقد كانت أكبر تحفة ونجاح في هذه الرحلة هو اكتشاف شخصية الحاج أرشد والتعرف عليه، لقد كان هو أحد أفراد معدودين تأثرت بهم في حياتي وأعجبت بهم، وشاهدت فيهم من الإخلاص والإدراك، والاتزان الفكري، والنشاط في العمل ما لا يوجد إلا في أفراد معدودين من آلاف بل مئات آلاف من الناس، وقد كان اتصاله بي وانسجامه معي مما يندر نظيره بين الأصدقاء والأحباب.

كان الخطاب قد أحدث في بشاور جوّاً دينياً خاصاً، وكان هو حديث المحافل والنوادي، وزاد ذلك في وزن الخطيب ومكانه، فاستفدت من هذا الجوّ للدعوة إلى العمل الدعوي على طريقة حركة التبليغ، وبدأت من هناك نواة العمل التبليغي في ولاية سرحد، وحضر في الشهر القادم أبريل عام ١٩٤٤م، المحترم الحاج أرشد إلى الشيخ محمد إلياس بدلهي، وكتبت رسالة تعريف به إلى الشيخ، فكان فيما كتبت هذه الجملة التي تحمل أكثر

---

(١) كان من قادة العصبة الإسلامية قبل التقسيم، وتولى الوزارة المؤتلفة في الحكومة الوطنية المؤقتة في دلهي قبل التقسيم.

من معنى: (إن الحاج أرشد ليس الرجل الرشيد بالنسبة إلى ولاية بشاور فحسب، بل هو رجلها الأرشد)[1]، وقويت علاقة الحاج أرشد بالشيخ وتوطَّدت صلته به، حتى إنه قام بهذا العمل أولاً في بشاور وكَلْكَتَّه، ثم في اليابان، والحجاز خير قيام، وخدم خدمات جليلة، وقد فتح به باب الدخول في الإسلام في اليابان، وعرف بهذا العمل الدعوى في الحجاز في طبقة الكبار والأعيان، فأقبلوا عليه إقبالاً كبيراً، وقد سافر هو لهذا الغرض إلى أمريكا، ولما وافقت الحكومة السعودية على خطة الهاتف الأوتوماتيكي، اختارته كأكبر مدير وضابط لها، فلو قدر الله تعالى وطالت حياته، لانتفعت هذه الدعوة به انتفاعاً عظيماً.

زرت هذه المنطقة التاريخية التي شهدت أروع فصل من فصول الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله، وقد تأثرت جداً في بنجتار مركز المجاهدين الرئيسي، وشعرت برقة وكيفية عجيبة لا سيما عندما دخلت المسجد الذي صلَّى فيه الإمام الشهيد ورفقته الكرام، والمجاهدون الأبرار أعواماً وسنين، فأشعل جوّه الصامت حرارتي الإيمانية، وبللتُ أرضه الجافة بدموعي الحارّة، وفاضت كأس قلبي، وأقبلتُ إلى الدعاء والابتهال، والتضرع، والمناجاة إقبالاً لا عهد لي به في غير الحرمين الشريفين، أو في بعض ساعات خاصة من الصفاء في الحياة.

كنت وصلت «هَنْد» (Hund) يوم ١٨ ـ مارس عام ١٩٤٤ م، وتوجهت في الأسبوع القادم لعله بتاريخ ٢٦ ـ ٢٧ مارس إلى بالاكوت، التي كانت آخر محط لذلك الركب الإيماني الميمون، الذي بدأ رحلته من موطنه رائي بريلي وختمها على هذه البقعة الطيبة، وقد كانت كل ذرة من ذرات هذه البقعة حبيبة إلى النفس، كأنها تعانقنا، وكأنها كانت تخاطب الزائرين بقول المعرّي:

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾.

خَفِّف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد
سِرْ إنِ استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رُفات العباد

(مهلاً أيها الزوار، للشهداء الكرام، امشوا رويداً، وسلِّموا عليهم في أدب، ولا تنسوا تلك الرسالة الخالدة التي حملتهم على هجرة الأحباب والأوطان، والشهادة في سبيل الرب الحنّان).

الأيام الأخيرة من مرض الشيخ ووفاته:

كنت سافرت إلى حيدر آباد (السند) وكراتشي، وكانت هذه زيارتهما الأولى، وأقمت فيها إقامة قصيرة، ثم رجعت إلى دلهي، وقد تطور مرض الشيخ، واشتدَّ إلى حدٍّ يبعث على القلق والتفكير، وأخيراً دنا أجله الموعود، فلبّى دعوة ربه، ولحق بالرفيق الأعلى، وكان ذلك صباح ١١/ من رجب سنة ١٣٦٣ هـ (١٣/ يوليو عام ١٩٤٤ م) قبل أذان الفجر بقليل، رحمه الله رحمة واسعة سابغة.

(ولعل المسافر اللاغب المكدود الذي لم ينم نومة مريحة طوال حياته نام لأول مرة نومته المطمئنة السعيدة)[١].

موقفي من حركة التبليغ ومنهجي في التفكير:

لقد كان الواقع ـ رغم إعجابي الشديد بالشيخ محمد إلياس، وثقتي الكاملة بإخلاصه وفهمه للدين، وإيماني بضرورة هذا العمل الدعوي، وفائدته وأهميته، ومشاركتي العملية فيه، بل قيامي بواجب الداعي وترجمان هذه الحركة الدعوية، الأمر الذي كان يبعث الشيخ على الطمأنينة والسرور ـ أن هيكل تفكيري وقالب عقلي الذي كان قد تكوَّنَ في وسط خاص وفي ضوء دراسة خاصة، لم يكن قد صيغ صياغة جديدة، ولم يكن قد قَبِلَ الكسر والذوبان، ولا حل محله قالب عقلي وفكري آخر، الأمر الذي يعرض لكثير من أولئك الذين تتكوَّن قوالبهم العقلية والتفكيرية من قبل، ولا يعطِّلون

---

(١) اقرأ في حياته كتاب المؤلف «الشيخ محمد إلياس وحركته الدينية».

صلاحية تفكيرهم والاعتماد على دراستهم، ولم يكونوا ـ في تعبير أصح ـ قد اختاروا الاستسلام العقلي والفكري، والتجرد الكامل من ماضيهم، ولذلك يكون أولئك الناس أنفع وأجدى للحركات والدعوات، الذين تتكون قوالبهم العقلية والتفكيرية في ظل تلك الدعوات والحركات، ولا يضطرون إلى هجرة فكرية، أو رحلة عقلية.

لقد كان أمري ـ لحسن الحظ أو لسوء الحظ ـ يختلف عن ذلك، فقد كانت لي خلفية علمية وفكرية، ولم أكن قد طالعتُ ودرستُ الحركات الإصلاحية والتجديدية وشخصياتها الأساسية فحسب، بل كانت لي مشاركة في الكتابة عنهم والتعريف بهم، فكنت دائماً أفرق بين المنصوصات الشرعية وغيرها، وبين الأهداف والغايات، والوسائل والآلات، ولم تنقطع عندي سلسلة البحث عن نافع إلى أنفع، وحسن إلى أحسن، كما أرى من الضرورة بمكان لكل حركة ودعوة ومؤسسة تقوم لخدمة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، أن تستمر في النمو والارتقاء، وتطّلع على قضايا الحياة ومسائلها وحاجاتها، وتقضيها في حدودها المشروعة المطلوبة، وتطبِّق بينها وبين الحياة، وإلّا فإنَّ تلك الحركة أو المؤسسة تتعرض للحرمان من صلاحية النمو واستمرار الحياة، وتصاب بالشلل والجمود، وتنحصر فائدتها في حدود ضيقة.

لم تفارقني هذه الخواطر والأفكار ـ التي كانت نتيجة بيئتي الخاصة ودراستي، وقالب عقلي وتفكيري ـ في أي فترة من فترات الحياة[1]، وقد كنت أيام حياة الشيخ أنشد أحياناً في خلواتي بيتاً من شعر إقبال، يقول فيه:

(قضيتُ ليالي حياتي في صراع دائم طويل، فحيناً أذوق حرقة ولوعة كحرقة الرومي[2] ولوعته، وحيناً آخر أهيم هيمان الرازي[3] **في تأملاته، وأتقلب بين أفكاري ونظراتي)**.

---

(١) سواء في عهد صلتي الوثيقة بالجماعة الإسلامية، وكتابات الأستاذ المودودي، وفي عهد اتصالي الوثيق بحركة التبليغ.

(٢) المراد به مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المعروف.

(٣) المراد به الإمام فخر الدين الرازي صاحب التفسير المشهور.

الرحلة الأولى للحج، والجولات الدعوية في الحجاز:

لقد قرر الشيخ محمد يوسف أمير جماعة التبليغ بعد والده الشيخ محمد إلياس ـ لثقته بي، وحُبّه واعتماده، وصلتي القوية بالمركز، وللرسائل التي كانت ترد من المسؤولين عن الجماعة في الحجاز، وتلحُّ عليَّ ضرورة سفري إليها، والقيام بالعمل بين الطبقة المثقفة في شعبان عام ١٣٦٦ هـ، الموافق يونيو عام ١٩٤٧ م ـ أن أسافر إلى الحجاز، فسافرت ومكثت هناك ستة أشهر مشغولاً بالأعمال الدعوية، وسوف يأتي ذكر هذه الرحلة بتفصيل في ضمن رحلتي الثانية للحج عام ١٣٦٩ هـ الموافق ١٩٥٠ م ـ التي كانت في مرافقة الشيخ الجليل عبد القادر الرائي بوري ـ في الفصل القادم.

الفصل الحادي عشر

رحلتان للحج

عام ١٣٦٦ هـ الموافق ١٩٤٧ م
وعام ١٣٦٩ هـ الموافق ١٩٥٠ م

الرحلة إلى الحجاز والإقامة بالحرمين الشريفين:

سافرنا ١٩/ من شعبان عام ١٣٦٦ هـ الموافق ٩/ يوليو عام ١٩٤٧ م، بالباخرة الإسلامية من كراتشي إلى جدّة.

وصلنا جدّة في ٢٩/ من شعبان الموافق ١٩/ يوليو، وقد شعرنا لدى نزولنا على ميناء جدّة بسرور ولذة غامرة، وكيفية عجيبة، قد يشعر بها السعداء والمحظوظون في الحرمين الشريفين، وقد كانت السيدة الوالدة في حالة عجيبة من السرور والاستبشار، ولما أنَّ أيّام الحجّ كانت بعيدة، فبيننا وبين الحج ثلاثة أشهر، لذلك قرَّرنا أن نقضي هذه المدة في المدينة المنورة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وكان لميل شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا وذوقه وإشارته أيضاً دخلٌ في ذلك.

وكنا رأينا هلال رمضان في جدة، وصمنا بها يومين، وأذكر أنني والعزيز محمد الثاني خرجنا ليلة الهلال نشتري بعض الحوائج للسحور، فكان بيّاع من باعة الطريق ينادي، «تمر تمر يا صائم» في نغم خاص، وطربنا لهذا

النداء، وشعرنا عند ذلك كيف يتأثر أهل القلوب بالحنين بسماع الأبيات الرقيقة المرققة.

وكان اليوم الأول من رمضان، وكنت أصلي التراويح بالناس في ساحة، إذا بالحافلة للمدينة قد وصلت، فركبنا مع رفقتنا الحجاج الذين جاؤوا مع جماعة التبليغ من ميوات ومراد آباد، وسرنا على بركة الله، واستغرق هذا السفر يوماً وليلتين، ولا نستطيع أن نعبر بالألفاظ والكلمات عن الأشواق والسرور واللذة التي عشناها، ويمكن أن يُقَدَّر ذلك من مقالي بعنوان: (في مدينة الرسول ﷺ)[1]، أو من تلك الرسائل التي بعثت بها إلى الشيخ محمد زكريا في أثناء تلك الأيام، لقد كانت الأيام أيام الصيف الشديد، تلفحنا السموم ونحن صائمون، وفي القلوب أشواق ولوعات، وفي العيون دموع غزار، وعلى اللسان أبيات من الشوق والحب، وقصائد في مديح النبي الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم.

رسالة (إلى ممثلي البلاد الإسلامية):

إن أي عامل في مجال الدعوة والإصلاح في بلاد جديدة، وبيئة جديدة، يحتاج إلى أمرين مهمين حاجة شديدة:

١ ـ معرفة الناس به شخصياً، ومعرفة أسرته وماضيه وتاريخ سلفه، واحترامهم وإكبارهم له، ولذلك يرى بعض المطَّلعين على تاريخ النبوَّات والدعوات والمنصفين من علماء النفس، أن ذلك سرّ اختيار الأنبياء من أكرم أسر قومهم وبلادهم، وأجلّها مكاناً.

٢ ـ الوجاهة الظاهرة، والتأثير الشخصي حتى تكون كلمة الداعي مسموعة تتأثر بها القلوب والعقول، ومن أسبابهما العامة البسطة في العلم والجسم، والخطابة القوية المؤثرة، واللَّسَن وفصاحة البيان وقوة الحُجَّة.

فأما الأمر الأول فكان ـ والحمد لله ـ متحققاً في الهند، ولكني في

---

(١) نشر في كتاب «الطريق إلى المدينة».

الحجاز كنت غريباً، لا يعرفني أحد ولا يعرف أسرتي، ولم تكن قد طُبِعت إلى ذلك الحين كتبُ الوالد ـ لا سيما «نزهة الخواطر» ـ، وكنت قليل البضاعة في الأمر الثاني أيضاً، فكنت نحيف العود، ناحل الجسم، في سن مبكّرة لم يكن لي مظهر يسترعي الانتباه، فرأيت من الحاجة الشديدة أن أصطحب معي رسالة أو كتاباً من مؤلفاتي في هذه الرحلة تكون وسيطاً بيني وبين الناس، وتُمّهد الطريق لسماعهم لي، فيكون لكلامي عندهم شيء من الاعتبار والوجاهة، فحاولتُ جُهدي أن يطبع مقالي «إلى مُمثّلي البلاد الإسلامية» الذي كنت أعددتُه للمندوبين العرب للمؤتمر الآسيوي المنعقد بدلهي، وجاء الخطاب فيه في أسلوب أدبي قوي، ومن مستوى الداعية الرفيع، وكنت أعتقد أنه لا بدَّ أن يؤثر، فقدمته إلى مطبعة لطيفي بدلهي، ليطبع قبل مغادرتي وآخذه معي، ولكن رغم كل الجهود والمساعي لم أستطع أن أحصل عليه مطبوعاً، وأحمد الله ـ تعالى ـ على أنه وصلني عدد منه مطبوعاً قبل مغادرتي ميناء كراتشي، فكان زادي في السفر وكبطاقة زيارة محترمة للتقديم والتعريف.

وبدأت الرسالة تشق طريقها، وتؤدي رسالتها في الطريق، فقد وقفت الباخرة خلاف العادة ـ بكامران، ودخل البوليس المحلِّي والموظفون المحليون الباخرة، وبعثت بواسطتهم هذه الرسالة إلى قاضي البلد وكبار العلماء فيه، وجاءتني منهم رسالة شكر وتقدير.

وكانت الحجاز ـ حينئذ ـ لم تدخل أسواقها الكتب الدعوية الإسلامية إلّا القليل، الذي يستطيع أن يحرك ساكنهم ويجمع بين الحديث إلى القلب، والحديث إلى العقل، فيضرب على أوتار القلب، ويؤثر في العقل، في وقت واحد، إنما كانت هناك إما رسائل وكتب كلامية تتعلق بمسائل الصفات وغيرها، أو كتب علمية قديمة تتناول المباحث الفقهية وهي كتب يزهد فيها الشباب المثقفون وأصحاب الذوق الأدبي، ويضيقون بها صدراً، أو مقالات وكتب ومجلات وجرائد أدبية أو نقدية بأقلام أدباء مصر تدعو إلى التجدُّد والتغريب، أو قصص وروايات ترفيهية ممتعة ومسلّية.

فكانت رسالة «إلى مُمثّلي البلاد الإسلامية» نموذجاً جديداً للأدب الإسلامي الدَّعَوي، خوطب فيه من مقام الداعي المعتزّ برسالته، الواثق بسموها والحاجة إليها، فكانت فيها حرارة واندفاع، ولوعة قلب، وحرقة نفس، ودعوة إلى ثورة، وبشارة بمستقبل زاهر، يعلو على كل شائبة من شوائب التبعية والتقليد والدهشة بسلطة الغرب واستيلائه، وحضارته السائدة، ومركب النقص، ولأجل ذلك تلقّفها شباب الحجاز الذين بدأ فيهم الوعي، وكانوا قد ملُّوا كلا المنهجين الرتيبين للتفكير والكتابة، وكانوا قلقين لأوضاع العالم العربي بصفة خاصة والعالم الإسلامي ـ بصفة عامة ـ فقرأوها في شوق وإكبار، وقرأوها في نواديهم ومجالسهم وأشاروا بقراءتها على أصدقائهم ومعارفهم.

وأذكر أن أحد كبار علماء الحجاز ونجد ومدرسي الحديث الشريف في المسجد النبوي ـ على صاحبه الصلاة والسلام ـ الشيخ محمد علي الحركان الذي كان يدرِّس سنن أبي داود أو صحيح مسلم، وقف درسه يوماً وقرأ هذه الرسالة بنفسه على طلابه، وكان هو ـ فيما بعد ـ قاضي جدّة، ثم وزير العدل في المملكة، وشغل أخيراً منصب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي[1].

كذلك أعجبت الرسالة جداً أحد العلماء الأتراك: الشيخ عثمان الساعاتي، الذي كان كسبُه بإصلاح الساعات، وكان يلقي درساً في القرآن الكريم بالمدينة المنورة، وكان الأتراك الحجاج منهم والمقيمون في السعودية يتهافتون عليه في إكبار وإجلال، وأبدَى تأثره بالرسالة وأثنى عليها.

تقرير موجز عن إقامتي بالحجاز:

لا أريد هنا أن أقدم تقريراً مفصلاً عن الإقامة المباركة بالحجاز ـ التي امتدت إلى ما يقرب من ستة أشهر ـ والأشغال الدعوية المباركة فيها، ولا

---

(١) قد انتقل إلى رحمة الله تعالى في ٧/ من رمضان المبارك عام ١٤٠٣ هـ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

مجال لذلك في هذا الكتاب الذي له مجاله وحدوده، ويمكن أن يقرأ هذا في شيء من التفصيل في كتاب ابن أختي العزيز المرحوم الشيخ محمد الثاني بعنوان: «حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي».

وموجز القول إنّنا أقمنا في المدينة المنورة من ٣/ رمضان إلى ٢٠/ من ذي القعدة، وكنا نقوم في أثناء هذه المدة بالعمل الدعوي في أوساط العلماء بعد صلاة التراويح، ونقيم اجتماعاً في كل جمعة بعد صلاة الجمعة في قاعة من قاعات مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة[١]، ونقوم بالجولات وعقد الاجتماعات في أعمال المدينة المنورة وقراها المجاورة، وسافرنا إلى مكة المكرمة في آخر ذي القعدة، وتوطّدت بيننا وبين علمائها علاقات طيبة، وممّن أنسنا بهم وأنسوا بنا ـ بصفة خاصة ـ العلاّمة السيد علوي المالكي، والشيخ أمين الكتبي، والشيخ حسن مشاط، والشيخ محمد العربي التّبّاني، والشيخ محمود شويل، والشيخ عبد الرزاق حمزة خطيب الحرم المكي الأول وإمامه.

وقد كان شباب الحجاز وأدباؤها وأصحاب الأقلام والصحافيون فيها ـ إذ ذاك ـ لا شأن لهم بأصحاب العمائم والفضيلة، يتهيّبونهم ويبتعدون عنهم وكانوا ينظرون إلى كل حركة دينية دعوية خالصة نظر الاستخفاف والازدراء، يُقدَّر ذلك من أنني ذات مرة تطرّقت في حديثي مع أحد كبار الأدباء فيها ومدير إحدى المجلات الأدبية الذي كان خرّيج مدرسة دينية ـ إلى تجربة العمل الدعوي في الهند، وتأثيره ونتائجه، فقال: (يا شيخ، خلّ الدين للحرم وقل لي كيف خُدِع المسلمون في تقسيم البلاد، وما هي أسباب الأوضاع الراهنة في الهند؟).

وقد كان من ثمار الإقامة بمكة المكرمة التعرّف على الشيخ عمر بن الحسن آل الشيخ، وحبّه وثقته فيّ التي كانت لها فائدتها الكبيرة في حق العمل الدعوي وجماعة الدعوة والتبليغ، فقد كان هو من أعقاب شيخ

---

(١) أنشأها فضيلة الشيخ السيد أحمد الفيض آبادي، وللشيخ عبد القدوس الأنصاري، رئيس تحرير مجلة «المنهل» كتاب خاص عنه وعن المدرسة، فليراجع.

الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، والأخ الشقيق لقاضي القضاة وشيخ الإسلام بالمملكة السعودية الشيخ عبدالله بن الحسن ـ الذي كان أكبر شخصية دينية في السعودية، ورئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرياض، وكان مستشاراً لولي العهد الأمير سعود وموضع ثقة عنده، وقد عطَّفه الله تعالى إلى حبي، وصلة خاصة بي، فكان يقرأ كتبي ورسائلي، ويقرأها لمن يستمع إليها، وقضت هذه الصلة والثقة على تلك الأقاويل والإشاعات التي كان يثيرها بعض الناس لأسباب مختلفة لإثارة الشكوك والشبهات حول الجماعة، وإساء الظن بها، وقد كان الشيخ عمر في هذا الأمر على ثقة ويقين إلى حد أنه دافع بنفسه عن الجماعة، وأيَّدها وحماها من التعرض للمشاكل، ولو لم يكن في ظاهر الأسباب هذا الموقف من الشيخ عمر، لفاتت الجماعة فرصة العمل هنا بحرِّية وانطلاق.

ولم يزل الشيخ عمر على هذه الصلة الوثيقة التي تحولت إلى صلة أخوية وصلة عطف وشفقة، يمكن أن يقدر ذلك بتلك الرسائل الودِّية التي بعث بها إليّ[١]، ولله جنود السموات والأرض.

رسالة «بين الجباية والهداية»:

لقد لاحظتُ في إقامتي الطويلة في الحجاز ـ في تجربة دارس للقرآن ونَهِم بالتاريخ ـ المرحلة الانتقالية التي هي من أدقّ مراحل الشعوب والبلاد، وكيف بدأ البلد يحذو حذو البلد النامي الذي تَشيعُ فيه الرفاهية والرخاء، وتتغيَّر أوضاعه بسرعة، ويقفو أثر بلاد مصر والشام والعراق التي تتزعم التحرُّر والانطلاق، ويقلِّد البلدان الغربية التي لا وازع لها من خلق ولا دين، وكل ذلك إنما هو نتيجة تخلِّي هذه البلاد من تلك الدعوة والحركة التي قامت لإصلاح العقيدة وإشعال العاطفة الدينية، فتحقَّقَ بفضلها ما لم يكن يتصور، وأصبح بها المستحيلُ ممكناً، فقامت دولة واسعة تستطيع ـ إذا أراد الله ـ أن تعيد التاريخ على أعقابه، وتحقق من تكوين المجتمع الإسلامي المثالي ما

---

(١) راجع مجموعة «رسائل الأعلام» طبع ندوة العلماء في الهند، ومكتبة الصحوة بالقاهرة.

كان يحلم به المَعنيُّون بالإسلام، والذي هو من أشد حاجات هذا العصر، ولكنها مُنِيت ـ على مرِّ الأيام ـ بمشاكل ومحن، تُمنَى بها الحكومات الناشئة، من ضعف الدعوة والحسبة الدينية، وفقد القُدوة الصالحة، وسيطرة الدوافع الاقتصادية والاستغلالية على الجهاز الإداري، وما قدَّر الله أخيراً من التضخُّم المالي، والعثور على منابع الثروة وأسباب الرخاء، فكانت ذلك نتائج طبعية منطقية نفسية، يقرِّرها القرآن في إيجازه وإعجازه، ويشهد به تاريخ الحكومات والمجتمعات في حدوده وأسلوبه[1].

كانت الأيام الأخيرة من إقامتي، بل لعله كان اليوم الأخير، إذ أحسست في نفسي باندفاع شديد ورغبة ملحّة في أن أتحدث بهذه الحقائق وهذا الواقع في صورة رسالة، وأطلب من الشيخ عمر بن الحسن ـ وهو العالم الغيور الذي ما زال محافظاً على خصائص أسرته ومؤسّسها ـ أن يقرأها على ولي العهد الأمير سعود الذي سيتولّى الحكم والقيادة في المستقبل لهذه البلاد، فبدأتها بتلك الجملة التاريخية البليغة التي كتبها الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله الذي شكى إليه أن إقبال الناس في البلدان المفتوحة على الإسلام سيؤثر على مالية الدولة، إذ لا تؤخذ الجزية منهم التي هي من أكبر وسائل الدخل للحكومة، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: (ويحك، إن محمداً ﷺ بُعِثَ هادياً ولم يُبعَث جابياً، ويسعدني أن يدخل الناس كلهم في الإسلام، ولو خَلَت خزانة الدولة ويضطر الناس إلى اتخاذ طرق جديدة للكسب).

ثم ذكرت الفرق بين طبيعتي المنهجين للحكم، حكم الهداية وحكم الجباية، وطريقي تقليدهما وتنفيذهما، وقيمهما ومثلهما، وأشرت إلى نتائجهما، ونبَّهتُ بطريق وأسلوب مناسب إلى أن الحكومة بدأت تسير على «طريق الجباية»، وأن ذلك نذير خطر، ثم بيّنتُ ما يعلّق المسلمون على هذه

---

(١) ليرجع للتفصيل والإيضاح كتاب المؤلف «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب» والرسائل التي كتبها إلى ولاة الأمر في البلاد وأصحاب النفوذ.

الدولة من آمال كبيرة، وشرحت فضل «حكومة الهداية» وتأييد الله تعالى ونصره لها وحب المسلمين وفداءهم لها.

كتبت هذه الرسالة بعضها في مقرّي وبعضها على الحافلة التي تنقلني مع الركاب من مكة إلى جدة، وبعضها على الميناء في انتظار الباخرة، ثم سلمتها إلى الشيخ عبيد الله البلياوي المقيم في مكة المكرمة، الذي بلّغها إلى الشيخ عمر بن الحسن، وعلمت في ما بعد برسالة منه إليّ أنه قرأها على الأمير سعود، وليتها كانت ذات نتيجة عملية مثمرة وبدىء من حينها بتغيير المسار وتعديله وتصحيحه، لكان الوضع لا في المملكة السعودية فحسب، بل في العالم العربي والعالم الإسلامي كله غير هذا الوضع، ولاختلفت الحال عمّا هو عليه الآن تماماً[1]، وبيد الله التوفيق.

تقسيم الهند وأثره ونتائجه:

كنا في الحجاز نقضي أيام رمضان المباركة في المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام بخصائصها وبركاتها، إذ سمعنا نبأ تقسيم الهند، وقيام جمهوريتين اثنتين: الهند، وباكستان. وقامت القيامة، وكانت كارثة عظيمة كنا نسمع أخبارها عن طريق الصحف والرسائل، مع تأخير في بلوغ الأخبار، وباختصار وإيجاز للأوضاع الخاصة.

وقد تقدَّم أنه رغم بُعدي عن العمل السياسي كانت نزعتي ونزعة أسرتي بل نزعة جماعتنا كلها متّجهة إلى جبهة تحرير البلاد وإجلاء الإنجليز، وكنا نرى أن التقسيم سيفقد المسلمين نفوذهم السياسي وتأثيرهم الديني في الهند، ويجني على حركة الدعوة الإسلامية والخلقية التي كانت ولا تزال المُنقذَ الوحيد لشبه القارة الهندية من الانتحار والانهيار، وكنا ـ أفراد الأسرة ـ أميل إلى قادة هذا الرأي والعلماء الذين عارضوا التقسيم، وفي مقدمتهم

---

(١) نشرت هذه الرسالة أولاً بتعديلات يسيرة بعنوان «بين الجباية والهداية» في رسالة مستقلة، ثم نشرت ضمن مجموعة مقالاتي التي نشرت بعنوان «إلى الإسلام من جديد» نشر دار القلم بدمشق.

وعلى رأسهم الشيخ المجاهد السيد حسين أحمد المدني، وكنا نرى في ذلك أخطاراً وأضراراً.

ولكن لم نكن نجهل في نفس الوقت ضيق صدر الأكثرية من سُكّان البلاد - الهنادك - وقصر نظرهم، وموقفهم المتعصب العدائي من المسلمين الذين كانوا يعملون معهم في مجالات مختلفة، وكنا لأجل ذلك نستطيع أن ندرك نفسية هذه الطبقة التي يقودها ويتزعمها السيد محمد علي جناح، وطريق تفكيرها ومنهجها التي كانت - لبغضها للأكثرية ويأسها منها، وكردّة فعل نفسية - تتمنى للمسلمين دولة حُرّة وبلداً حُرّاً، وتعتبر ذلك حاجة أكيدة شديدة، حتى يعيش المسلمون هناك حياة العز والكرامة، حسب قدراتهم وجهودهم وصلاحياتهم، وكنا ننصف ذلك الفريق الذي كان يريد قطعة من الأرض، ويركّز على أهميتها وحاجتها، حيث يقوم المسلمون هنا بتجربة حياة إسلامية حرّة، تكون لها السيادة والقيادة، ويثبتون بها تفوق النظام الإسلامي وسمو الشريعة الإسلامية وأنها أفضل وأنفع[1].

وقد كان من المصادفة الغريبة أن وصولنا إلى مقرّنا لكهنؤ عائدين من الحجاز، وهو في ٣٠/ من يناير عام ١٩٤٨ م صادف حادث اغتيال الزعيم غاندي الذي تغيَّرَ به الوضع فوراً، ولفترة قصيرة في البلاد وُجِدَ شيء من التعاطف مع المسلمين، وزال - على الأقل - ذلك الحماس الشديد والعداوة النائرة التي قد جثمت على صلاحية التأمل والتفكير واحترام الإنسانية والمواطنين، ولله جنود السموات والأرض.

مقاومة اليأس ومُرَكَّب النقص في نفوس المسلمين ومعالم في الطريق لمواجهة الأوضاع الجديدة والعمل فيها:

عُدنا في أواخر يناير عام ١٩٤٨ م إلى الهند كما تقدم، فوجدنا الدنيا

---

(١) وللأسف الشديد لم تبذل في باكستان جهود ومحاولات جادّة مدة طويلة من الاستقرار لتحقيق هذا الوعد والميثاق، الذي كان له أن يسوغ هذه الخسائر والتضحيات البالغة التي تكبّدها الشعبُ المسلم الهنديِ، وفي القيادة الحالية التي يرأسها الجنرال ضياء الحق أملٌ ورجاء، وبالله الثقة ومنه النصر والتأييد.

غير الدنيا، والأوضاع غير الأوضاع، ورأينا البقية الباقية من المسلمين في الهند ـ وقد كان عددهم كبيراً جداً ـ مصابين ـ إلاّ من رحم ربك ـ باليأس ومُركَّب النقص، فقد خذلهم قادتهم القوميون، فأصبحوا يجهلون رسالتهم ودعوتهم ونفعهم، وحاجة العالم إليهم، وقوتهم الخارقة المثيرة التي تجعل المستحيل ممكناً، والتي قد أودعها الله تعالى فيهم لكونهم حملة دعوة وأمناء رسالة، وأمة ذات دور خالد، كأنهم يعيشون في ظلام قاتل لا يبصرون شيئاً من النور، تسودهم الدهشة والحيرة.

وفي جانب آخر كان المُثقَّفون من طبقة الأكثرية، وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا يتبوأون مناصب عالية، ويتولَّون وزارات في الحكومة الجديدة يشيرون على المسلمين في «رحمة وعطف» وبمقتضى حكمة ومصلحة بالانجراف في التيار القومي، ومجاراة أبناء وطنهم في اللغة والثقافة، وتقرير الأمر الواقع، كأنَّ المسلمين أطفال كتّاب يحتاجون إلى تعليمهم وإرشادهم، فتارة يضحكون على شخصيتهم الملّية وحضارتهم المتفردة ويسخرون منها، وأخرى يغضبون على تعلُّق قلوبهم بالخارج ونظرهم إلى البلاد العربية ـ وفيها مركزهم الديني ومصدر هدايتهم ورشدهم ومهبط الوحي: الحرمان الشريفان ـ، وحيناً يشيرون عليهم بتغيير الخط الأردي إلى الخط الهندي، وآخر يبدون عجبهم واستغرابهم من المسلمين لماذا لا يعتزُّون بشخصيّات الهند القديمة، ولماذا لا ينتمون إليها، ولا يسمُّون أبناءهم بأسمائها، كما يُسمّي مسلمو الهند وإيران أبناءهم بأسماء الشخصيات القديمة في إيران والجزيرة العربية كرستم وسهراب وحاتم، من دون حرج وكلفة، وكانوا يغمزون بهم مرة لكونهم يفضّلون الفطور في الصيام بماء زمزم المبارك، والتمر الذي هو فاكهة العرب، ويعتبرون ذلك من السنن والمستحبّات، ويستهزئون بذلك، ويقولون: لماذا لا ينظر المسلمون إلى مياه الأنهار المقدّسة في الهند، والثمار اللذيذة الشهية في الهند، كما ينظرون إلى زمزم والتمر.

لا أهمية لمثل هذه الاعتراضات والتوجيهات ولا خطر في الأوضاع

العادية الهادئة، ويمكن أن يُردَّ عليها بردود علمية وفكرية مقنعة، ولكن الحالة النفسية والعقلية التي كان يواجهها المسلمون آنذاك كانت تعمل فيها هذه الاعتراضات والمغامز عمل نكأ الجروح وتوسيعها وتعميقها، وقد كان من المقدِّمين السابقين في هذه النصائح «الغالية المفيدة» للمسلمين، مسؤولان رئيسيان من ولايتنا أترابرديش، أحدهما: بابو بَرْشــوتم داس تندن ـ رئيس المجلس التشريعي بولاية (أترابرديش) وثانيهما: سمبور نانندجي وزير التربية حينئذ، ثم كبير الوزراء.

وقد كتبتُ في الردّ على هذه الاعتراضات مقالات صريحة واضحة، نشرت حينذاك في جريدة «تعمير» ومجلَّة «الفرقان»، ولا تخلو مثل هذه المقالات والخطابات الصريحة القوية ـ في الجو الذي تُركِّز فيه الحملات العقلية والفكرية على أمة وشعب لا يستطيع أن يرد الشيء بمثله، ويواجه الاعتراضات بجراءة وقوة ـ من التأثير والخير والنفع.

ولا بدَّ أن أصرح هنا ـ كحقيقة تاريخية ـ بأن خطابات الشيخ حفظ الرحمن السيو هاروي[1]، المدير العام لجمعية العلماء في ذلك الحين، وموقفه الجريء، ووقفته مع قادة الأكثرية كالندّ للندّ، ومواجهته البطولية، كان لها دورها الكبير وفائدتها التي لا تنكر في إيجاد الثقة والاعتماد، لأنه هو وأصحابه وجماعته تعرضوا لسخط المتحمسين من المسلمين أنصار فكرة التقسيم، ولاقوا العنت الشديد والمقاطعات من إخوانه المسلمين لاتحاده مع المؤتمر الوطني وموافقته له، وأدّى لذلك ثمناً باهظاً لم يؤدّه كبار قادة المؤتمر الوطني، ولم يواجهوا ما واجهه هو وأصحابه.

وألحّت عليّ الرغبة بعد عودتي إلى الهند في رمضان عام ١٣٦٧ هـ الموافق يوليو، أغسطس عام ١٩٤٨ م في أن أوجه الدعوة بعد العيد إلى المتأملين في هذه الأوضاع، المهتمين بالقضايا المعاصرة، من كل مدرسة من

---

(١) مات رحمه الله في الستينات الأولى، وكان أمين جمعية العلماء العام في الهند.

مدارس الفكر والرأي، وأعرض عليهم آرائي واقتراحاتي في هذه الأوضاع الراهنة للمسلمين وللبلاد بصفة عامة، واستولى على مشاعري هذا الهم والتفكير بحيث لم أستطع أن أغالبه وأدفعه، وأصبحت أنتظر ذلك اليوم كهلال العيد الذي أعرض فيه هذا الألم والأسى أمام من يشعر به ويقدره.

وما أن حلَّ العيد حتى وجّهتُ دعوات إلى المثقَّفين المسلمين والمسؤولين عن مختلف المؤسسات والمدارس الفكرية من أمثال هؤلاء وسألتهم أن يتجشموا مشاق السفر إلى لكهنؤ، في ٢٠/ شوال عام ١٣٦٧ هـ، الموافق ٢٦/ أغسطس عام ١٩٤٨ م، ويشاركوا في ندوة استشارية تبحث في قضايا الملَّة الإسلامية بندوة العلماء.

وأحمد الله تعالى على أن الدعوة وجدت القبول، فلبّى عدد كبير من المدعوين هذه الدعوة وحضروا الندوة، وقرأت عليهم كمقدمة تمهيدية ذلك المقال الذي كنت كتبته بعد العيد في حالة خاصة من التألم والتوجُّع والهم وأعددته لهذا الاجتماع، والذي نشر فيما بعد بعنوان: «نشان راه» (معالم في الطريق) في عدد من دور النشر.

استعرضتُ في هذا المقال ـ أولاً ـ ماضي المسلمين بصورة مفصلة، وعرفت بتلك الحركات التي ظهرت للنهضة بالمسلمين في العصر الأخير تعريفاً موجزاً، وألقيت ضوءً على مناعة المسلمين وحصانتهم وغَيْرتهم الإسلامية التي واجهت القوة الإنجليزية وقاومت تأثيراتها، وأشرت إلى الفرق الواضح بين عهد ما قبل الاستقلال وعهد ما بعد الاستقلال، ثم ركزت على الجوانب الخطيرة لهذا العهد الجديد، ونبهت إلى تلك المشاكل والتعقيدات التي يحملها هذا العهد من الحكومة القومية في طيّاته، كما بيّنت الجوانب المضيئة الإيجابية، وكشفت الستار عن مكانة هذه الأمة القيادية الدعوية، وصرحت بأن هذه المكانة والطاقة العظيمة تستطيع إلى يومنا هذا أن تأتي بالخوارق والعجائب، ثم وضعت الأصابع على العلاج ومنهج العمل، وشرحت فيه ضرورة الخطاب في الاجتماعات المشتركة، وإعداد سلسلة من

الكتب الإسلامية الدعوية في اللغات الهندية والإنجليزية، مع القيام بالدعوة الشعبية ـ التي كنت مشاركاً فيها منذ زمن غير يسير ـ وفائدتها وأهميتها ولفتّ الأنظار إلى ضرورة إنشاء المدارس الإسلامية الحرّة، وختمت المقال كالقول الفصل بهذه الكلمات التالية:

(سادتي إنه لا مجال مع هذه التأييدات الغيبية والتيسيرات الإلّهية التي تمهد الطريق للدعوة الإسلامية، وتنير مستقبل جماعة ذات دعوة ورسالة وعزيمة وإيمان، أكثر فأكثر للخوف من المستقبل واليأس من رحمة الله تعالى، ثم إنه لا يمكن الاعتقاد بمشاهدة هذا الجمع الذي بين أيدينا بأن الإسلام سينقرض ـ لا قدر الله ـ من بلاد تتمتع بوجود عدد كبير من أصحاب الفراسة والذكاء والحمية والغَيْرة من المسلمين، وإنه كلما هتف شخص من رجال الله في إيمان المؤمن وثقته «أيُنقَصُ الدين وأنا حيّ»[1]، تغيرت ملامح الزمن، وقسمات وجهه، وتحطّمت موجة الردة الطاغية وتحولت إلى تيّار قوي لنشر الدعوة الإسلامية بصورة عالمية وفتح الروم والشام، فلو نادت ثُلَّة قلة من المخلصين في ظل من «الصديقية» الواثقة بربها «أينقص الدين وأنا حيّ» فكونوا على ثقة ويقين بأنه لن ينقص ولن ينقرض، بل سوف تنفتح طرق جديدة لقوته وإحكامه وانتصاره وانتشاره بما لا يكون في حسبان أحد من الناس. ﴿فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾).

وبعد عودتي من الحجاز استمرّت سلسلة مراسلتي مع أحبابي وأصدقائي هناك والعلماء الذين تعرفت عليهم، وقد كان ذلك من كرم أولئك العلماء والأدباء وأصحاب الأقلام العرب، وطيبة نفوسهم وميزتهم الخاصة التي جرّبتُها مراراً، أنهم حافظوا على هذا الود والصلة التي قامت بيننا وبينهم في فترة قليلة، وداموا على المكاتبة والمراسلة[2].

---

(١) جملة قالها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند حركة الردّة في جزيرة العرب ومنع الزكاة.

(٢) يطلع عليها القارىء في مجموعة «رسائل الأعلام».

ثم اختير للمحافظة على تلك البذور الدَّعَوية والفكرية التي كنا ألقيناها في أرض الحجاز، وتعهدها وسقيها، باقتراح الأخ الأكبر واهتمامه وتعاونه، شابّان ندويّان فاضلان للإقامة الطويلة بالحجاز عام ١٩٤٩ م ليقوما فيها بالاتصال بتلك المؤسَّسات والشخصيّات التي تعرفنا عليها عام ١٩٤٧ م، وإيصال كتبي ورسائلي التي كنت أعددتها بعد عودتي من الحجاز إلى العلماء وأصحاب الفكر، كان أحدهما الشيخ محمد معين الندوي[١]، والثاني الشيخ عبد الرشيد الندوي، وقد قاما بمسؤوليتهما في نشاط وإتقان واهتمام، وحفظا ذلك الخيط الذي قام كصلة انسجام فكري ودعوي بين هذا الداعي الخامل المغمور الذي لا يتمتع بمكانة كبيرة وبين الشخصيات المحترمة في الحجاز ونجد.

خطابات مهمة في لكِهنؤ وترجمتها العربية:

عُقِدَ في أثناء هذه الفترة عدد من اجتماعات دعوية مهمة كبيرة في لكهنؤ، ألقيت فيها محاضرات بطبيعة الحال، وقد كانت بعض هذه المحاضرات مهمة جدّاً، وأهمُّها وأكثرها تأثيراً ذلك الخطاب الذي كنت ألقيته في ٦/ ديسمبر عام ١٩٤٩ م بعنوان: «بين الصورة والحقيقة»، الذي بيَّنتُ فيه في ضوء الأمثلة والتجارب اليومية أن هناك فرقاً كبيراً بين الصورة والحقيقة، وأن حقيقة صغيرة انتصرت دائماً على الصورة مهما كانت كبيرة، وقدّمتُ أمثلة حوادث ووقائع محيِّرة من تاريخ العهد الإسلامي الأول لانتصار حقيقة الإسلام وغلبتها وتسخيرها للشعوب والبلاد، وصرَّحتُ فيه بأن صورة الإسلام لا تكفي أبداً للحفاظ على المسلمين، وأن وعد الله ـ تعالى ـ برحمته ونصره وتأييده، واحترام الناس، وإجلالهم للمسلمين ورهبتهم منهم ومراعاتهم لهم، ترجع إلى الحقيقة لا إلى الصورة والدعاوى الفارغة، والتاريخ الغابر المنقرض، والواقع أن حقيقة الإسلام لم تبرز منذ مدة طويلة إلى الميدان، وأن أعظم خدمة للأمة الإسلامية في هذا الحين أن يتجلَّى

---

(١) نائب الأمين العام لندوة العلماء حالياً.

المسلمون بحقيقة الإسلام ويتزينوا بها، فإنها لا تزال تملك القوة والتسخير والخوارق والمعجزات.

وقد نقل هذا الخطاب ابن أخي الأكبر محمد الحسني المرحوم حين كان عمره لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة إلى العربية، ولم تفقد الترجمة شيئاً من قوة الخطابة وطلاقتها وحماسها، مما كان ينبىء باستعداد هذا الشاب النجيب الموهوب، وصلاحيته للكتابة والإنشاء، وكان يمكن أن يقدَّر منه أنه سوف يكون كاتباً عربياً قديراً، ولم يكن دراسته نظامية عادية، فإنه لم يدرس يوماً واحداً كطالب في مدرسة، بل كان أخي الأكبر درَّسه بنفسه القرآن الكريم واللغة العربية مباشرة من دون استعانة بأي كتاب من كتب الصرف والنحو، إلّا أنه كان يقرأ كتبي ورسائلي في شوق ونهم، وتشرب أسلوبها وروحها، وقد نشرت هذه الترجمة بعنوان «بين الصورة والحقيقة» بمطبعة «القيمة» في بومبائي، ولما سافرت إلى الحجاز عام ١٩٥٠ م ـ وسيأتي ذكره ـ قرأ الناس هذه الرسالة بشوق وتذوق ورغبة، وقرئت في المحافل، وقرأها بعض الفضلاء العرب مراراً وتكراراً، حتى حفظها من ظهر قلب[١]، ورسالتان أخريان إحداهما باسم: «بين الإنسانية وأصدقائها» وثانيتهما بعنوان: «إلى شاطىء النجاة» اللتان ترجمهما إلى العربية العزيزان الأستاذ محمد الرابع الندوي والأستاذ عبدالله عباس الندوي، نشرتا بطبعة عربية، وهكذا قامت الصلة الدعوية بيني وبين العالم العربي بواسطة اللغة العربية.

حماس القيام بالدعوة بين العرب:

وعندما رجعتُ من الحجاز عام ١٩٤٨ م ملكت على عقلي وقلبي ومشاعري دعوة العرب إلى الإسلام من جديد، ودعوتهم إلى أن يقوموا لا في العالم الإسلامي فحسب بل في العالم الإنساني كله بدورهم الدعوي والقيادي، واستعادة مكانتهم المفقودة ومنصبهم القديم، بحيث فكرت في أن

---

(١) انظر مقال الشيخ إسماعيل سعد بن العتيق بمجلة «الدعوة» الرياض، عدد ربيع الثاني عام ١٤٠٣ هـ.

أجعله هدف حياتي وموضوعه، ويمكن أن يقدر القارىء عاطفتي وحماسي بهذه الرسالة التي كنت كتبتها إلى الصديق العزيز الكريم الأستاذ مسعود الندوي بتاريخ ٦/ شوال ١٣٦٨ هـ الموافق ٣/ أغسطس عام ١٩٤٩ م حين كان مقيماً في العراق، وأقدم فيما يلي مقتبساً منها.

(لا تألُ جُهداً في بَذْر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة، وأقم حجة الله عليهم، وصِلِ الليل بالنهار، وحَرِّق القلب، وأذب الجسم، وأهرق دموع العين ودماء الكبد أهرقها سيلاً مدراراً حتى تبكي دجلة والفرات على قصر باعهما وقلة بضاعتهما، أمسك بتلابيب كل شخص، وقل له: أيها الغزال الضال في صحراء العرب، ويا كرامة العالم وشرف الأمم، ويا أمل إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلوات والتسليمات ـ أين أنت، أهذه هي حصيلة دعاء سيدنا عمر بن الخطاب وإنابته بالأسحار، ودماء سيدنا مُثنًى بن حارثة الغزار، ودوس أبي عبيد الثقفي وتحطّم عظامه، ورفع سيدنا سعد بن أبي وقاص راية القتال والجهاد، وحرقة سيدنا علي بن أبي طالب وبكاؤه وتململه، وخطابته المثيرة وتأثيره البليغ، وعطش سيد الشهداء، فلذة كبد الرسول ﷺ ورخص دماء أهل البيت، وتفكير أبي حنيفة وفقهه وتأمله، وتعذيب أحمد بن حنبل وتضييق الخناق عليه، وحماية ابن الجوزي للسنة والدفاع عنها، وتألم الشيخ عبد القادر الجيلي ولوعته، أن تخضع لأئمة الضلالة ودعاة الانحراف، وتمشي في ركابهم، وتكون ذرة تائهة من غبار طريقهم، انفخ الصور في مقبرة العراق، وأحدث فيها جلبة القيامة، وزلزلتها، فيالضياع «أهل الحرم» وغفلتهم، ويقظة الأعداء وسهرهم).

صلتي بالمُربّي الجليل الشيخ عبد القادر الرائي بوري
وبدء ترددي إليه:

جزى الله الشيخ محمد زكريا خيراً ورفع درجاته في أعلى علّيين، فقد كان يؤكد عليّ ـ دائماً ـ لتوثيق الصلة بالمربّي الجليل عبد القادر الرائي بوري، والاستفادة منه، ويكتب إليّ أنه لم يبق الآن إلّا هذا الدكان الذي

يُشترى منه الإخلاص والصلة بالله تعالى، وتزكية النفس، وتربية الروح، وليس هناك حديث آخر ولا تفكير فيه غير هذه البضاعة العظيمة.

وقد زادني شعوراً بالحاجة إلى ذلك تلك العقبات والموانع التي حالت دون الوصول إلى مركزنا التربوي القديم في باكستان بعد حادث التقسيم، حتى لا يزال يمد مرجل قلبي بالوقود، وأطلع على عيوب النفس ومواطن الضعف في السيرة والخلق، وأتزوَّد للسفر الذي كنت أسير في طريقه، فكانت لأجل ذلك الحاجة ماسّة إلى مثل هذه الشخصية التي أجد عندها هذا المدد والزاد، وقد كنت أشعر في قرية رائي بور أنها جزيرة صغيرة في بحر المادّية والعقلانية المظلم الذي يحيط بها من جوانبها الأربعة، حيث لا حديث ولا موضوع ولا شغل إلّا ذكر الله تعالى والتفكير في آلائه، وتربية الروح، وحيث يسود جو الذكر وتمتد أطنابه.

ولم أكن أدرك المدارج الباطنية الروحية في ذلك الوقت ولا أدركها إلا أن مزايا الشيخ الثلاثة أثّرت فيَّ. إحداها: تواضعه الكبير الذي لم أرَ له نظيراً ولا أعلم له فيه مثيلاً، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. والثانية: سعة أفقه ورحابة صدره وواقعيته التي لم أشاهد مثلها في كبار العاملين في مجالات الحياة، والعلماء المحنكين والقادة السياسيين الذين جرّبوا الحياة حلوها ومرّها، وبسبب طبيعتي الخاصة ودراساتي المتنوعة الواسعة وبيئتي التي نشأت فيها وتربيت تربية عقلية فكرية، لم يكن لمثلي أن يجد مكانه في هذا المركز لولا هذه السعة في التفكير والرحابة في الصدر.

والميزة الثالثة: هو عطفه الكبير عليَّ الذي لا أستطيع أن أشبهه إلّا بعطف الأمّ وحنانها.

الرحلة الثانية للحج عام ١٣٦٩ هـ الموافق ١٩٥٠ م:

لقد كانت هذه الرحلة في مرافقة الشيخ عبد القادر الرائي بوري، فقد سافرنا بالباخرة الإسلامية في ٢٠/ ذي القعدة عام ١٣٦٩ هـ الموافق ٤/ سبتمبر عام ١٩٥٠ م من بومبائي، وكان معي في هذه الرحلة أربعة من

تلامذتي الأعزاء، رافقوني ليمكثوا في الحجاز بعد الحج، ويشتغلوا بعمل الدعوة والتذكير في العرب، ويقوموا مع الفاضلين الندويين السابقين: (الشيخ محمد معين الندوي، والشيخ عبد الرشيد الندوي) بتعريف هذا العمل الدعوي، وتوزيع كتبي ورسائلي في الطبقة المثقفة.

كان هؤلاء: الشيخ عبدالله عباس الندوي[١]، والشيخ السيد رضوان الندوي[٢]، والشيخ محمد طاهر المظاهري المنصور فوري[٣]، وابن أختي الشيخ محمد الرابع الندوي[٤]. وقد وقفت الباخرة في المكلاّ أكثر من المعتاد، وقدّمت رسائلي العربية إلى بعض ضباط البلد الذين جاؤوا إلى الباخرة ليؤدوها إلى قاضي البلد والشخصيات العلمية الموقرة فيه، ولم تكن الباخرة قد تحركت إذا ببعض الشرطة قد جاؤوا برسالة عليها أختامهم، وقد أبدوا فيها انطباعات طيبة من الشكر والتقدير.

تأثير التعليم والحضارة الغربية في الحجاز:

لقد شعرتُ أثناء إقامتي بالحجاز بأن الحضارة الغربية قد أثَّرت في البلدان العربية تأثيراً كلياً، بل شلَّت قواها، وحطَّمت أعصابها، ولا يستثنى من ذلك شباب جزيرة العرب والحجاز المقدس، الذين رُزق بهم العالم نعمة الإيمان والإسلام، وانقشعت بهم ظلماته، وظهرت منهم أمة خلقت للقيادة والإمامة.

وكنت كتبت في سبتمبر عام ١٩٥٠ م رسالة إلى أخي الأكبر ذكرت هذا الوضع المتردّي وتغيّر الحال، وأبديتُ ألمي وانطباعاتي، وأتعجب من قراءة هذه الرسالة اليوم كيف استطاع قلمي الضعيف أن يصور الوضع هذا التصوير الصادق الواقع، ولم أكن قد تشرفت بالحضور مراراً ولا كانت لي إقامة طويلة، وأحب أن أورد هنا مقتطفاً من تلك الرسالة:

---

(١) هو الدكتور عبدالله عباس الندوي أستاذ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة سابقاً.
(٢) هو الدكتور السيد رضوان علي الندوي أستاذ جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض.
(٣) مساعد أمين عام لندوة العلماء حالياً.
(٤) عميد كلية اللغة العربية بدار العلوم ندوة العلماء حالياً.

(جئتُ إلى هذه البلاد عام ١٩٤٧ م لأول مرّة، ثم جئت هذا العام عام ١٩٥٠ م فرأيت فرقاً هائلاً كبيراً، وتغيراً عظيماً في ظرف ثلاث سنين، فقد أنشبت الحضارة الغربية ومدنيتها وتجارتها واقتصادها وتصوراتها ونظرياتها أظفارها، وأحكمت قبضتها على هذه البلاد من أسواقها إلى عقول رجالها، ويشعر الإنسان بذلك حال نزوله بجدة، وكلما ازداد اطلاعاً على الأوضاع والظروف انكشفت له هذه الحقيقة وظهرت للعيان، ولا يدري أحدٌ كم من عقول وقلوب في ملابس عربية تحولت غربية خالصة، وكيف أصبحت اللغة القرآنية تُسخَّر للتصوّرات الغربية والنظرات المادية البحتة، لقد بلغ الشغف بكسب المعيشة، وتوليد الثروة إلى الأزمة، ولا يمكن عندهم تصور الحياة إلاّ بأن يعيشوا في ظلها ويتقدموا في المادة والثروة.

إن جهودنا المتواضعة بمقابل ذلك، وكتبنا القليلة، ولقاءاتنا المعدودة، وجولات الجماعة وتنقلاتها ليست إلاّ كما يُرمَى خزف في البحر فيحدث موجات خفيفة صغيرة، وأخاف أن هذه اللقاءات والاجتماعات، واتفاق بعض الشخصيات وتأييدها يكون سبب الخطأ في التصور والفهم، فإن الواقع أنها ليست إلاّ بحثاً عن الناس وسعياً وراء النجاح لا غير).

جلسة مع الأدباء وأصحاب الأقلام في الحجاز:

لم تكن قد نشأت صلتنا بالحجاز بطبقة الخواص والمثقفين والأدباء وأصحاب الأقلام، وكنا نبحث عن شخص يعرفنا بهذا الوسط، ويكون واسطة الصلة والعلاقة بيننا وبينهم، ويقيم لنا نحن الغرباء في ذهنهم تصوراً كريماً موقراً؛ إذ أنهم لا يعيرون العلماء الهنود والباكستانيين ودعاتها العاملين أي اهتمام وعناية، ويحول دون ذلك ـ دائماً ـ الجهل باللغة والأساليب الجديدة فيها، ويقوم حجاباً صفيقاً، ولا سيما في هذا العصر الذي تضاعفت فيه أهمية اللغة والأدب فأصبح الحجاب سميكاً أكثر.

ذهبنا لهذا الغرض ذات يوم أنا والمفتي زين العابدين الذي كان من أهم الأعضاء للجماعة التبليغية بباكستان إلى السيد محمود حافظ نائب مدير

مطبعة الحكومة، وقد كانت علاقة أسرته بولاية «الحدود الشمالية الغربية للهند»[1]، وكان هو لهذه الصلة والنزعة الدينية يأنس بنا ويألفنا، فأبدينا له حاجاتنا، فقال سوف نجمع بينكم وبين شخص هو مفتاح هذا الوسط، فعرفنا بالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار الذي كان عالماً أديباً ومحققاً باحثاً، وكاتباً معروفاً في الحجاز، فقبل هو هذه المسؤولية، ودعا في يوم قريب أصدقاءه من الأدباء وأصحاب الأقلام والعاملين في الصحافة والإذاعة على الغداء في «بستان بُخارى» الذي كان موضعاً تعقد فيه الاجتماعات والحفلات الكبيرة، ودعانا معهم.

ولما وصلنا إلى المكان رأينا جمعاً من الشباب الأدباء والصحفيين، وعرفنا الأستاذ عطار بهم، ثم كانت لنا جلسة معهم بعد الغداء، وقد كان من بين هؤلاء الأدباء الذين حضروا: الشيخ سعيد العامودي مدير مجلة «الحج» وعضو المجلس الاستشاري للمملكة السعودية، والشيخ عبد القدوس الأنصاري مدير تحرير مجلة «المنهل»، والسيد علي حسن فدعق أحد الأدباء الموظفين في وزارة المالية، والسيد محسن أحمد باروم أحد كبار الموظفين في الإذاعة ووزارة التعليم، والشيخ حسين عرب الذي أصبح فيما بعد وزير الحج والأوقاف.

وبدأت الجلسة كأنها جلسة نقاش لأحد الطلاب، فقد أراد الضيوف الكرام أن يقدروا مدى معرفة هذا الضيف الغريب باللغة العربية، ويسبروا غوره في دراسته ومعلوماته العامة، فكانوا يسألونه تارة عن الدكتور طه حسين، وعباس محمود العقاد، وأدباء مصر المعروفين، ويقدرون من إجابته هل قرأ كتبهم أو لا، وتارة أخرى يسألونه عن رأيه في الاشتراكية، وحيناً عن الحضارة الغربية، وآخر يقيسون اطلاعه على اللغة الإنجليزية، وقد شعرت في ذلك بقيمة تلك الدراسة، وذلك المنهج للتعليم والمطالعة الذي هيأ الله ـ تعالى ـ أسبابه في الهند، ولم أكن أُقدرها حقّ قدرها في ذلك الحين.

---

(١) وهي ولاية مستقلة الآن في باكستان، عاصمتها بشاور.

أحاديث في الإذاعة السعودية:

ولم أستطع أن أقدِّر بعد هذا «الاختبار الشفوي» كم استحققت من «العلامات»؟ ولكنهم لما انتهوا من هذا الفحص والاختبار قالوا لي: هل لك أن تخرج معنا للنزهة؟ فأجبت، وركبت السيارة معهم، فدخلوا فجأة في مستشفى، وذهبوا بي إلى الشيخ محمد سرور الصبان (نائب وزير المالية ومراقب الإذاعة السعودية) الذي كان في المستشفى إذ ذاك في اعتكاف صحي، فعرَّفوني إليه، ورغبوا إليه في أن ينظم لي أحاديث من الإذاعة، وكان الشيخ محمد سليم مدير المدرسة الصولتية قد عرفني ـ من قبل ـ إلى الشيخ سرور، وكنت قابلته أيضاً، فقبل الشيخ ذلك بكل رغبة وسرور، وطلب مني من قبل الإذاعة إلقاء سلسلة من الأحاديث، اخترت لها ـ بعد روية وتفكير ـ عنوان «بين العالم وجزيرة العرب» الذي كنت أتوقع أنني سوف أبدي فيه آرائي وانطباعاتي بأسلوب مناسب، وأعبِّر عن قلبي وضميري على لسان العالم، ثم أرد عليه بلسان جزيرة العرب، فكان عنوان حديثي الأول «من العالم إلى جزيرة العرب» الذي يفتح فيه العالم الإنساني ـ بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة التي قدمتها إليه جزيرة العرب عن طريق سيدنا محمد ﷺ، والتي أعادت الحياة من جديد ـ صفحات الشكوى ويعرض جروح قلبه وفزع نفسه على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية ـ التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمس الإسلام الساطعة ـ عن قيادته وإمامته، وخاطبها في صراحة ووضوح: إننا لسنا في حاجة إلى زيتك الذي تسير به العجلات والماكينات، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنور الذي اختصك الله به، وتستضيء به العقول والقلوب، ثم رددتُ على العالم من جزيرة العرب، رداً فيه اعتراف بالقصور، واعتذار ومواعيد، وكان هناك قبل هذين الحديثين حديث تمهيدي وتعريفي للشيخ أحمد عبد الغفور عطار، ونحمد الله ـ تعالى ـ على أن هذه الخطب تُلقيت باستحسان وقبول، واستُمع إليها في رغبة وشوق، وشاع ذكرها في الشباب والأدباء.

وقد أصبحتُ بعد هذه الجلسة الناجحة، والأحاديث التي ألقيتها في الإذاعة، معروفاً في الأوساط الأدبية بالحجاز، وقامت بيننـا وبين الأدباء وأصحاب الأقلام من الشباب روابط وصلات، فكنا ندعوهم إلى مقرّنا تارة ويدعوننا إلى بيوتهم تارة أخرى.

الفصل الثاني عشر

الرحلة إلى مصر والشرق العربي عام ١٩٥١ م

مصر مركز العالم العربي العلمي والفكري:

لقد توصلت بعد لقائي واجتماعي بشباب الحجاز المُثقَّفين وأدبائها وكتّابها إلى نتيجةٍ أنهم كلهم خاضعون لأدباء مصر وكُتّابها ومؤلِّفيها وباحثيها، مقتطفون منهم ومتطفلّون على مائدتهم، وأنهم يعتبرونهم أساتذة وقادة لا في الأدب والفكر فحسب، بل في التصور الإسلامي وفهم الدين، ورأيت في بعضهم نزعة إسلامية، وأثراً من آثار الاعتداد بالنفس والثقة بها، وبحثت عن مصدره فوجدت أن هذا من نتائج حركة الإخوان، وقد اعترف بعض الأصدقاء منهم بأنه لولا تعرفهم على شخصية الإمام حسن البناء ودعوته لكانوا فريسة الإلحاد واليأس الكامل عن مستقبل هذا الدين والانتفاضة الإسلامية ونهضة المسلمين من جديد.

وقد لاحظتُ في إقامتي هذه بالحجاز التي كانت مدتها قرابة أربعة أشهر، والتي وجدت فيها فرصة أكثر للاجتماع بالشباب المثقفين وأصحاب الفكر وحملة الأقلام الناهضين، ما لمصر من مكانة في القيادة والإمامة الأدبية والفكرية في العالم العربي، وعلمت أن الأدب المريض والكتابات المثيرة التي

تحدث الفوضى في الأخلاق والنزعات، وبإزائها التصورات الصحيحة والقيادة العلمية والفكرية الرشيدة، مصدر كل واحد منهما ومركزه ليس إلاّ مصر في العالم العربي، فلو أريد نشر شيء وإذاعته، ولفت الأنظار إليه ورفع قيمته، أو إحداث ثورة وتغيير في شيء، فلا يأتي ذلك إلاّ عن طريق مصر لا غير، وظهرت لي بذلك أهمية التوجه إلى مصر وفائدته، وعزمت عليه.

ولكني كجندي متطوّع لا ينتمي إلى مؤسسة حكومية أو جمعية منظمة لم أكن أملك وسائل السفر وتكاليفه وما أعتمد عليه في فترة الإقامة في مصر من المال، وقد ظهرت هذه الرغبة التي كنت أحملها في تلك الرسائل التي كنت أبعث بها إلى أصدقائي ومشايخي، ونشأت بقراءتها في قلب أخي الأكبر والشيخ محمد زكريا وبعض الأصدقاء المحترمين عاطفة تحقيق هذه الرغبة وتيسير هذه المهمة، فأيدوني برسائلهم وشجعوني على هذه الفكرة وهيَّأوا لي مبلغاً مناسباً، كنت أستطيع به أن أُسافر مع اثنين من رفقتي عن طريق البحر وأمكث فيها لمدة لا بأس بها.

على أرض مصر:

توجهت بنا في ١٢/ ربيع الثاني عام ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٠/ يناير عام ١٩٥١ م باخرة «أوندا» الإيطالية من جدة إلى السّويس، وكان معي العزيز محمد معين الندوي والعزيز عبد الرشيد الندوي، وقد التزمت في هذه الرحلة بتقييد مذكراتي في هذه الرحلة، وكتبت عند بدء هذه الرحلة في الصفحة الأولى من مذكراتي ما يدلُّ على أهداف الرحلة ودوافعها وهو كما يلي:

(وداعاً أيتها الجزيرة العربية غير مهجورة ولا مملولة، فليست هذه الرحلة إلاّ في سبيلك والاتصال بأسرتك العزيزة المنتشرة في ساحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أبلغها تحياتك، وأرى ما فعلت الأيام بها بعد انفصالها عنك، وما فعلتْ برسالتِك التي حَمَلَتْها عنك للعالم والأمانة التي تقلدتها).

مكثت في القاهرة ستة أشهر إلاّ أياماً قليلة، وقد جاءت مذكرات هذه

الرحلة وقصة اللقاءات والاجتماعات، وملخصات الخطب والمحاضرات، وحكاية الصِّلات والعلاقات بمختلف الأوساط، والتعريف بالهند والدعوة الإسلامية فيها، بكاملها في كتاب المؤلف، «مذكرات سائح في الشرق العربي»[1].

مصر قبل عهد عبد الناصر:

لقد كانت هذه الإقامة بمصر مفيدة ممتعة من النواحي الدعوية والعلمية والفكرية والأدبية، وكانت هذه الفترة حين كانت مصر على أصالتها وصورتها الحقيقية التي امتدَّ بها الزمن وتسلسلت مع العصور والأجيال، وكانت فيها حرية إبداء الرأي والصحافة والخطابة، وقد بلغ العلم والأدب والصحافة أوجها، وكانت الأحزاب السياسية تتمتع بالحرية، وكانت فيها عقليات تمثل الأجيال الماضية خير تمثيل، كما كان فيها صنائع التعليم القديم والجديد، والمتخرجون في مدارسها.

وكان هناك نشاط ملحوظ في وسط المفكرين والأدباء والمنشئين، ومنهم من كان صاحب مدرسة أدبية خاصة وأسلوب متميِّز يُقَلَّد خارج مصر ويُفتَخَر به في العراق والشام، والحجاز ونجد، والمغرب الأقصى، يمكن أن نذكر منهم: الدكتور أحمد أمين بك، والدكتور طه حسين باشا، وعباس محمود العقاد، والدكتور محمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم، وأحمد حسن الزيات، ومنصور فهمي باشا، وفكري أباظة باشا. وكان عدد من كبار العلماء وأصحاب الاختصاص في العلوم الدينية، نخص منهم بالذكر شيخ الأزهر الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ حَسَنين محمد مخلوف، والشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي (والد الإمام حسن البنا)، والشيخ حامد الفقي، والشيخ عبد الوهاب بك خلاف، والشيخ زاهد الكوثري، والشيخ محمد عبد

---

(١) نشر الكتاب ـ أخيراً ـ في بيروت، بإضافات وزيادات كانت حذفتها الرقابة المصرية في طبعة ١٩٥٢ م.

اللطيف دراز، والدكتور عبدالله دراز، والشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، والشيخ مصطفى صبري أفندي (شيخ الإسلام سابقاً بالدولة العثمانية).

وكان في القادة والزعماء ـ وفيهم من هاجر من وطنه وأهله، ولجأ إلى مصر ـ سماحة المفتي أمين الحسيني، والمجاهد المعروف الأمير عبد الكريم الريفي، وفضيلة العلامة السيد مبشٍّر الطرازي التركستاني، وعبد الرحمن عزام باشا (سكرتير عام الجامعة العربية) واللواء صالح حرب باشا (رئيس عام جمعيات الشبان المسلمين) وأمين محمود خطاب (رئيس الجمعية الشرعية) وحسين يوسف (قائد شباب سيدنا محمد ﷺ) ومحمد علي علوبة باشا (وزير حزب الأحرار الدستوريين سابقاً).

وكان في الأدباء والدُّعاة والمفكِّرين الإسلاميين، الأستاذ محب الدين الخطيب (صاحب مجلة «الفتح») وسيد قطب، ومحمد أحمد بك الغمراوي، ومحمود محمد شاكر، وأحمد الشرباصي، ومحمد الغزالي، وفريد وجدي، وسعيد رمضان، وصالح العشماوي (مدير تحرير مجلة «الدعوة») ويكفي في أسماء الدعاة إلى التجدُّد والتفكير الغربي وممن يستحق أن نعتبره من مربي الجيل الجديد في مصر، ذكر اسم أحمد لطفي السيد باشا (رئيس مجمع فؤاد الأول) مجمع اللغة العربية الآن، الذي كان على قيد الحياة.

وكانت من الجماعات والمُنظَّمات العاملة النشيطة، الإخوان المسلمون، وشباب سيدنا محمد، وجمعية الشبان المسلمين، ومصر الفتاة، وجمعية أنصار السنة المحمدية، والجمعية الشرعية، وجمعية العشيرة المحمدية، وجمعية مكارم الأخلاق، وكانت من المجلات السائدة في أوساط الشباب والمثقفين مجلة «الثقافة» للدكتور أحمد أمين، ومجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات، وقد كانت لهما مدرستان أدبيتان مستقلتان، وكانت لهما الكلمة النافذة والرأي المسموع.

والزمن زمن الملك فاروق، وقد كانت مصر في هذا العهد رغم علاتها ومواطن ضعفها الخلقية والاجتماعية والفردية التي هي من خصائص الحكم

الوراثي والأمراء الأثرياء الطليقين، تتمتع بشيء كثير من حرية الرأي واحترام الدين وعلماء الدين، والأزهر له مهابته والمركز الديني الكبير، وكان الجمهور والدهماء متميزون بسلامة الطبيعة والحماس الإسلامي والاتجاه إلى الجامعة الإسلامية، وكانت تشاهد فيها الأخلاق الإسلامية العربية وكرم النفس ورحابة الصدر والحب وقوة العاطفة، الخلال التي تميز بها الشعب المصري واتصف بها في أطول فترة من تاريخها.

ولم تكن إلى ذلك الحين قد هبت عاصفة العهد الناصري التي استهدفت لها شجرة العلم والأدب والفكر الإسلامي، والسياسة الحرة، والجراءة الخلقية والنقد البنّاء، وقضت على نضارتها وروائها ونموها وازدهارها، واكتسحت البلاد وكنستها كنساً، فلا ترى فيها أثراً للحياة والحيوية والنشاط، غير الغبار المتراكم والدخان المتصاعد، وقد كان من تقدير العزيز العليم أنَّه هيَّأ لي فرصة زيارة مصر والسودان والشام والتجوُّل فيها قبل طغيان القومية العربية و«الاشتراكية العلمية» ـ التي ظهرت عام ٦٠ ـ ١٩٦١ م ـ من أفق مصر، ثم احتوت على العالم كله.

التعرُّف على الأوساط العلمية والأدبية وتبادل الآراء والأنظار:

لما وصلنا إلى القاهرة انضمَّ إلينا في هذه الرحلة الشيخ عبيد الله البلياوي أيضاً الذي كان قد سافر إلى السودان في جولة دعوية، وأقمنا أياماً في فندق البرلمان بالعتبة الخضراء، ثم نزلنا في إدارة جمعية كانت بالطابق الأعلى في السكة الجديدة (سوق الصيارفة).

لم يكن لنا نحن الشباب الناهضين والغرباء الخاملين في مدينة القاهرة العامرة الصاخبة شيء يلفت أنظار الأوساط العلمية والأدبية والدعوية إلينا، وكنت أنا ـ ترجمان هذه الجماعة وممثلها ـ شابّاً نحيفاً، لم يبلغ من العمر إلّا ٣٦ أو ٣٧ سنة، وملابس هندية، فلا عندي عباءة علماء الأزهر، ولا بذلة الأفنديين والمثقفين العصريين والأغنياء والموسرين من القميص والبنطلون

والطربوش الأحمر، فملابسنا الخفيفة لا تتجاوز قدراً ملابس النوم في الشرق العربي إلاّ قليلاً، أما الإقامة فكانت في مكتب متواضع لجمعية خيرية بدل فندق كبير يُحدِّد في أوروبا وفي الشرق العربي مكانة الضيف الاجتماعية، ويعتبر مقياساً لأهميته وجلالة شأنه، حيث لم تكن غرفة لاستقبال الضيوف ولا غرف منفردة للأكل والنوم، ولا أثاث وحوائج ضرورية. وقد كانت كل القرائن تشير إلى أننا سوف نقيم عدة أشهر في القاهرة، ونستفيد من جوها العلمي والأدبي، ثم نعود ولا يسمع بنا أحد ولا يعلم عنا، فمن يسمع الصوت الخافت في جلبة كجلبة القاهرة وصخبها؟.

ولكن الله ـ تعالى ـ هيَّأ لي من قبل أسباب الاستفادة من هذه الإقامة، فقد كان كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، سبقني إلى الأوساط العلمية والفكرية والدعوية ووجد مكانه، فكان لي كبطاقة الزيارة ووسيط تعارف، وكان يكفي أن يقال في تعريفي إنه مؤلف «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وفي جانب آخر بدأت لي سلسلة أحاديث ومحاضرات في مختلف النوادي والجمعيات الموقرة، التي لم أتعرف فيها إلى شباب مصر والأوساط القديمة والجديدة فيها فحسب، بل استرعيت انتباههم ولفتّ أنظارهم وكانت لكلماتي وزن وقيمة.

أحاديث ومحاضرات مهمة:

وقد كان لي حديث في دار الشُبّان المسلمين ـ التي كانت أكبر منبر موقر للإسلام في مصر ـ في قاعة عبد الحميد سعيد، بعنوان «العالم على مفترق الطرق»، حضرها بعض كبار علماء الأزهر ومشايخه، وعدد طيب من الكتاب والمفكرين، ولم يكن هذا الحديث حسب العادة في مصر مُعَدّاً ومُسجَّلاً من قبل، بل كان خطبة مرتجلة، وكانت هي تجربة جديدة عن شخص عجمي لأهل مصر، ولم يكن هـذا الخطاب ـ حسب وجـداني وشعوري ـ كما صرحت بذلك في المذكرات ـ ناجحاً جداً وعلى مستوى عال، ولكنه كان يكفي للفت أنظار فضلاء مصر وشبابها، فشاع ذكره في

الناس، وعلق عليه الأستاذ أحمد الشرباصي، ثم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، ثم الشيخ محمد الغزالي، ثم الأستاذ عبد المنعم خلاًف تعليقات طيبة.

وكان من توفيق الله - تعالى - وتهيئته للأسباب أن نظَّمَ لي رئيس عام جمعيات الشُبّان المسلمين «اللواء صالح حرب باشا» حفلة تكريم وتعارف، حضرها بعض الشخصيات المحترمة الكبيرة كالأمير عبد الكريم الخطابي، والشيخ حسنين محمد مخلوف (مفتي الديار المصرية سابقاً)، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز (مدير المعهد الديني بالأزهر)، والشيخ محمد الشربيني (رئيس جمعية علماء الأزهر) ذكرت في حديثي نبذة عن الشخصيات الإصلاحية والتجديدية في الهند، وتاريخ الدعوة الإسلامية، ومختلف أدوارها وعهودها وأساليبها ومناهجها، وقدَّمته لعلماء مصر كتحفة من الهند، وقلت لو تقدمت إليكم بشيء مما عندكم لكان لكم أن تقولوا: بضاعتنا رُدَّت إلينا، لذلك أفتح أمامكم صفحات من التاريخ الإسلامي وخدمة الدعوة الإسلامية لم يقع عليها بصركم من قبل، وقد نشرت هذه المحاضرة أيام إقامتي بمصر بعنوان: «الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند»، نشرتها المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب، وتلقيت بقبول واستحسان وقرأها الناس بعناية واهتمام.

وعدا هاتين المناسبتين كانت لي محاضرتان مهمتان، إحداهما بعنوان: «شعر إقبال ورسالته» في مؤسسة «دار العلوم» الموقرة التاريخية، والأخرى بعنوان: «الإنسان الكامل في نظر الدكتور إقبال» في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة). وقد كانت مناسبات أخرى في عدد من المراكز الدعوية والجمعيات - كشباب سيدنا محمد ﷺ وجمعية أنصار السنّة المحمدية والجمعية الشرعية، وجمعية العشيرة المحمدية، وجمعية مكارم الأخلاق، والرابطة الإسلامية - كانت هي سبب تعارف في أسر هذه المنظمات والأوساط وأعضائها، وتمهدت الطريق للعلاقات والصلات.

اللقاءات مع الطلاب، والجولات
في القرى والأرياف:

وبدأنا ـ عدا هذه المحاضرات في الجمعيات ـ سلسلة اللقاءات بالطلاب المقيمين في أروقة الأزهر والفنادق، الذين جاؤوا من أصقاع العالم البعيدة وخاصة من البلدان الإفريقية في آلاف مؤلفة، والخطاب فيهم، لقد كانت هذه ثروة بشرية عظيمة تكدست في القاهرة باسم الأزهر وشهرته الدينية والعلمية العالمية، وقد كان من الممكن استغلال هذه الثروة وتسخيرها لا في القارة الافريقية (التي كان طلابها الموجودون فيه بأكبر عدد) بل في البلدان العربية كلها، وفي جزء كبير من العالم الإسلامي للدعوة والإصلاح في المسلمين، والتربية والتعليم الديني والقيادة الإسلامية الصحيحة، ولكن للأسف لم يكن هناك نظام منسق لتربيتهم العقلية والفكرية، ودراستهم الإسلامية الصحيحة، والتوجيه والإرشاد في البلاد، فلم يكن في أروقتهم وفنادقهم التي كانوا يقيمون فيها، ولا في الأزهر من يتولّى توجيههم وإرشادهم في مطالعة الكتب المفيدة، وتنشئة ملكاتهم ودلالتهم على ما يواجهونه من تحدّيات وقضايا في بلادهم، وكيف يستطيعون أن يتغلبوا عليها، وكيف يستطيعون التأثير في المجتمع، وماذا عليهم من الواجبات والمسؤوليات إذا رجعوا إلى بلادهم، وما هي وضعية الاستعداد الذي لا بد منه لمواجهة تلك القضايا والمسائل.

لقد كان الطلاب أحراراً لا رقابة عليهم، فكان لهم أن يحضروا الدروس في المعاهد والكليات التي كانوا يدرسون فيها ولا بأس إذا غابوا عنها أيضاً، ثم يشاركوا فيما شاؤوا من اللهو والمسلّيات في البلد وهي كثيرة، ويحضروا ما شاؤوا من النوادي والمحافل أضرَّت أو نفعت، ويتأثروا بأجوائها وتصوراتها، فلهم الحرية في كل ذلك، وقد تحدثت في هذا الموضوع مع شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم ـ الذي كان يحتل مكاناً دينياً مرموقاً، وكان الأزهر قد تمتع بعد مدة طويلة بمثل هذا الرئيس الذي اعترف بمكانته الدينية والعلمية ـ وتقدَّمتُ إليه ببعض الآراء والاقتراحات، فأراد مني أن

أقدمها إليه في صورة مذكرة مكتوبة، وأوصى الشيخ محمود شلتوت أن يأخذ مني هذه المذكرة ويعرضها في اللجنة للتأمل والدراسة، فأعددت هـذه المذكرة وقدمتها إلى الشيخ شلتوت، ثم لم أدر ماذا كان مصيرها.

وقد كان ارتباطي بالطلبة الأتراك ـ الذين بُعثوا إلى الأزهر لأول مرة بعد ثورة أتاتورك لدراسة العلوم الدينية، وكان أكثرهم مقيماً في لوكاندة بغداد ـ أكثر من غيرهم، وألقيت فيهم عدة محاضرات، وكنت أتوسم في عدد من هؤلاء الشباب ذكاءً نادراً، وصلاحية كبيرة، وبقي بعضهم على صلة بي بعد عودتهم إلى بلدهم وتولوا مناصب دينية موقرة، وقد شعرت تجاه هؤلاء الشباب الأتراك ـ للعلاقة القريبة بين الهند وتركيا، التي زادتها وقوتها حركة الخلافة في الهند، وصبغتها بصبغة عاطفية دينية ـ بمناسبة وقرب، وسرعان ما أنِسُوا بي وأحبوني، ووجدت فرصة طيبة للخطاب في الطلّاب السوريين والأندونيسيين والأريتيريين، وكان طلاب كلية الشريعة وأصول الدين بالأزهر أقرب إليّ، وأكثرهم حفاوة بي، وقد زرتهم في سكنهم مراراً، وكانـوا يزورونني في مقري في غير كلفة وحرج[١].

وقد نظم الإخوان ـ الذين سيأتي ذكرهم ـ سـوى هذه الجمعيـات والجماعات ـ رحلاتي وجولاتي التي كان يرافقني فيها دائماً ترجمان الإخوان الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، وقد قمنا بهذا الصدد بجولات دعوية في القناطر الخيرية، وطنطا، وبنها، وحامول، وحلوان، وسنتريس، والمحلة الكبرى، ونكله، والعزيزية، وقويسنا، ونبروه، وقد تألفت جماعة في المحلة الكبرى ـ التي هي أكبر مركز صناعي في مصر ـ فخرجت إلى نبروه متطوعة داعية.

---

(١) كان من أبرز هؤلاء الطلاب طالب اسمه يوسف القرضاوي، وقد نبغ وفاق بعون الله تعالى، وهو يعرف الآن بالدكتور يوسف القرضاوي، عميد كلية الشريعة بقطر، ومؤلف «فقه الزكاة» المعروف، والطالب عبدالله العقيل الذي قد تعين مستشار وزارة الأوقاف بالكويت، بارك الله في حياتهما، ونفع بهما الإسلام والمسلمين.

لقد كان أخي الأكبر يعرف العالم الإسلامي معرفة عميقة واسعة، فكانت دراسته محيطة جامعة وقلبه عامراً فائضاً بعاطفة الدعوة الإسلامية وقوتها وازدهارها، ولما أنه كان درس ـ أيام طلبه ـ موضوع الجغرافية إلى المرحلة الثانوية، وكان يعرف نتيجة دراسته الشخصية وهوايته أوضاع الجزيرة العربية والبلدان الإسلامية الجغرافية، والسياسية، والاقتصادية، وإمكانيات النهضة الإسلامية وعقباتها فيها، فكان يكتب إليّ من لكهنؤ رسائل تَقِفُني على أهمية مصر الدعوية والقيادية، وتوفر المجال الفسيح للدعوة الإسلامية في إفريقيا، وتحثني على أن أقوم بمحاولتي في الطبقة الدينية بمصر، ليتولوا مهمة الدعوة ونشر الإسلام في إفريقيا، وأقدم هنا مقتطفاً من إحدى رسائله:

(أدعو الله تعالى أن ينور إفريقيا بنور الإسلام، ويجعلك وسيلة لذلك، ويجازيك كما هو أهله من الكرم والعطاء. إن كثيراً من البلدان ازدهرت فيها المدنية منذ زمن قديم مثل الهند، فيحول استكبار غير المسلمين فيها عن قبول الحق والخضوع له، أما إفريقيا فإنها لم تعرف المدنية ـ سوى مصر ـ، ولا تزال البقاع الكثيرة منها لا تعرف الديانة المتمدنة غير الوثنية الجاهلية البدائية، فكأن هذه القارة بأسرها كلوحة ساذجة نقية، ومن المعقول جداً أن تتوفر فيها صلاحية قبول الحق والاعتراف به كما كانت في العرب الجاهليين والأتراك والبَربَر.

تقبّل الله جهودك، وفتح قلوب أهالي إفريقيا بقبول الحق، إن مصر هي باب إفريقيا، فلو شعر أهل مصر بمسؤوليتهم، وحاولوا استغلال الفرص الطيبة مع كونهم في بلادهم، وإذا مر حجاج المغرب والصحراء وجنوب الصحراء ومناطق المغرب المختلفة، الذين يحج أكثرهم مشاة على الأقدام بمصر فليجتهد فيهم، ويحملوهم على الاشتغال بالدعوة الدينية والخروج في بلادهم، وبين غير المسلمين الساكنين في المناطق المجاورة القريبة، فإنه سوف تصبح إفريقيا كلها في يوم من الأيام مستضيئة بنور الإسلام).

اسمعي يا مصر:

شعرت بعد وصولي إلى القاهرة بأيام بضرورة أن أخاطب مصر خطاباً يذكرها برسالتها ودورها ومكانتها، ويشعرها بأنها تستطيع أن تقوم بالدور القيادي والتوجيهي للعالم العربي بل للعالم الإسلامي كله، فماذا تأخذ من الغرب وتعطيه بعد الفحص والاختبار للعالم العربي؟ وماذا عليها في مقابل ذلك أن تعطيه للغرب حتى يجد الغرب طريقاً جديداً للحياة ويخرج من المستنقع الذي لا يزال يتورط فيه. على مصر أن تقضي في ذلك وتصدر حكماً فاصلاً، وليس ذلك إلّا لمصر وحدها التي تقع على نقطة الاتصال بين الشرق والغرب حيث تلتقي حضارتان وتجتمعان، ثم إن مصر في حاجة إلى قناة معنوية فكرية تكون واسطة التبادل الحُر بين الشرق والغرب على قدم المساواة والثقة بالنفس، فينبغي أن تقدم مصر أنفس أشيائها وأغلاها ـ وهي رسالة الإسلام ـ إلى الغرب، وتأخذ من الغرب ما تفوق فيه وسبق، وهي التكنولوجيا الحديثة والعلوم والصناعات الجديدة.

فبدأت لأجل هذا الغرض أكتب مقالاً شعرت فيه بورود المعاني وانثيالها ما لم أشعر به إلّا قليلاً، أشدت فيه أولاً ـ برحابة صدر وسخاء ـ بدور مصر الديني والعلمي القيادي الرائع، ومآثرها العظيمة في النشر والتوزيع، وفتوحه الأدبية والعلمية، وتاريخ الأزهر الزاهر، ومآثرها في خدمة العلم والدين، ثم صارحتها، فقلت:

(يا مصر، إن لك يدين، فخذي بإحداهما الأشياء النافعة المفيدة وأعطي بالأخرى الروح والحياة، وقدِّمي إلى الغرب تحائف الإيمان والإسلام، ولا تنسي هذه الحكمة النبوية: إن اليد العليا خير من اليد السفلى).

ثم أشرت إلى مواطن الضعف التي كانت نتيجة عهود الحكومة الماضية، والمجتمعات الفاسدة والصحافة الخليعة الماجنة، ودعوت مصر

إلى التحلّي بصفات الرجولة وتبنّي الأخلاق الإسلامية، وتجنب تلك الأشياء التي أدت بالشعوب الماضية إلى الانقراض والاندثار، ثم قلت لها: إن الله تعالى قد اختار لها قارة عظيمة واسعة، وإن عليها أن تقوم بدورها القيادي والدعوي فيها حيث لا تزال تشاهد في أكثر أصقاعها وبقاعها الحياة الجاهلية وعقائدها، وعبادتها للأصنام، ولكن كثيراً من الشعوب فيها لا تزال على بساطتها وسذاجتها، وإن قلوبها كلوحة صافية يمكن أن تثبت عليها بدون جهد ومشقة كبيرة حروفٌ ونقوش جديدة.

هذا المقال الذي أعددته في معظم الليل وجزء من النهار، نشر في مجلة «الرسالة» السائدة، ثم نشرتها بعد مدة قليلة بمصر بعنوان «اسمعي يا مصر» في صورة رسالة مستقلة، تلقفها الناس وتلقوها بشوق ورغبة واستحسان، وقابلت سيد قطب وأنا قريب العهد بإخراج هذه الرسالة، فقال: قرأت «اسمعي يا مصر» ويا ليت مصر قد سمعت[1].

رسائل أخرى:

ونشرت لي ـ عدا هذا المقال ـ ثلاث مقالات أخرى أيام إقامتي بمصر، أحدها «المدّ والجزر في تاريخ الإسلام»، والثانية «شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال»، والثالثة مجموع الأحاديث الإذاعية السعودية، بعنوان: «بين العالم وجزيرة العرب»، وقد انتشرت عن طريق هذه الرسائل ـ التي قُدِّمت إلى العلماء وأصحاب الفكر باهتمام بالغ ـ آرائي وملاحظاتي وأفكاري وعُرِفتُ بها في الأوساط الأدبية والعلمية.

الصلات الخاصة:

لقد كانت لي لقاءات مع جميع أدباء مصر تقريباً سوى الدكتور طه حسين باشا الذي كان قد أصبح وزير التربية، وكانت له جولات متصلة في

---

(١) هذه الرسالة مدرجة الآن في مجموعة مقالات وخطب المؤلف بعنوان «العرب والإسلام».

الخارج. والدكتور محمد حسين هيكل الذي لا أذكر سبب عدم اجتماعي به، وشاركت في مجالس بعضهم ممن تقدم ذكرهم، وقد كانت صلتي بالأستاذ الدكتور أحمد أمين أكثر بطبيعة الحال، فإنه نشر لي كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» كذلك كان ارتباطي وصلتي أقوى بالشيخ حسنين محمد مخلوف والشيخ أحمد محمد شاكر في العلماء، وباللواء صالح حرب باشا، والمفتي أمين الحسيني في القادة والزعماء، وبالدكتور محمد يوسف موسى أستاذ كلية أصول الدين، والدكتور أحمد الشرباصي في الأساتذة الفضلاء، وجماعة الإخوان المسلمين وشبابها الدعاة والقادة في الجماعات والمنظمات.

الإخوان المسلمون في مصر وصلتي بهم:

لما سافرتُ إلى مصر كانت عندي رغبة شديدة في الاطّلاع على حركة الإخوان المسلمين ودراستها، وأن أجمع المعلومات المباشرة عنها وأقابل أصحاب الإمام حسن البنا ورفقته والشباب الذين رباهم تربية إخوانية، وأتعرف على أصول هذه الدعوة ومبادئها وأسباب نجاحها وانتشارها، وقد كان الإمام قد استشهد عام ١٩٤٩م، ولكن كان جميع أصحاب الشيخ ورفقته والعاملين معه وتلامذته وأصدقاؤه موجودين إذ ذاك لحسن حظي، وكان كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ـ الذي كان قد طُبِعَ في مصر قبل رحلتي بشهور ـ قرىء في وسط الإخوان وحلقاتهم بشوق واهتمام، ووضعه الإخوان لسعة صدورهم وعدم تعصُّبهم الذي امتازوا به من بين المنظمات الإسلامية، في ضمن مقرراتهم ومنهجهم الدعوي الخاص، فكان هذا الكتاب وسيلة تعريف بي، ثم كوني مسلماً هندياً وعلاقتي بمؤسسة تعليمية معروفة كان سبباً كافياً لجذب انتباه الإخوان ـ الذين كانوا دعاة إلى وحدة العالم الإسلامي والتعارف والتضامن بين أفراده. أما شخصية الإمام حسن البنا والمعلومات الذاتية والتاريخية عنها، فقد كان أوثق مصدر وأولاه بالأخذ والاعتماد شخصية والده الموقر الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، الذي أفادني

بجميع المعلومات الضرورية حتى الجزئية عن ولده الذي هو مفخرته وذخره في الآخرة إن شاء الله[1].

وعدا ذلك كان زميل الإمام في الدرس ومشاركه في العمل ومربّي الإخوان الأستاذ بهي الخولي (مؤلف «تذكرة الدعاة») من خاصة أصدقائي وأحبابي، فقد حكى لي عن الإمام البنا تفاصيل من مشاهداته وانطباعاته ومعلوماته كصديق له وزميل ومعاصر له مشاهد، كما كانت لي لقاءات ـ سوى هذين الشيخين ـ بعدد من أولئك الشباب الذين كانوا موضع ثقة الإمام وبمثابة أمين سرّه وعضده الأيمن، كالأستاذ صالح العشماوي، مدير تحرير «الدعوة» والأستاذ منير دلّـه (القاضي في المحكمـة العليا) والأستـاذ عبد الحكيم عابدين، والأستاذ سعيد رمضان، والأستاذ فريد عبد الخالق، وقد حَصّلتُ منهم على معلومات صحيحة معتبرة عن حياة الإمـام وجوانب شخصيته المتنوعة، وشعرت بعد الاجتماع بهؤلاء ومقابلتهم أنني لم أحرم ـ كُلّياً ـ زيارة الإمام.

إن ما سمعته من هؤلاء وما شاهدته من أثر الشيخ أيقنتُ معه بأنَّ شخصيته كانت من الشخصيات التاريخية غير العادية التي يخلقها الله تعالى لقيادة حركة أو القيام بدعوة أو إحداث ثورة إسلامية في عهد من عهود التاريخ، ويهبهم للقيادة والإرشاد صلاحيات متنوعة فـائقة، وعقـلاً كبيراً واسعاً، وقلباً ولوعاً فائضاً بالحب والحنان، ولساناً فصيحاً بليغاً، وأخلاقاً طيبة كريمة، وشخصية حبيبة أثيرة. لقد كانت هذه هي العناصر التكوينية في شخصية حسن البنا، وإني كلما أنشدت هذا البيت من شعر، تمثلت لعيني شخصية الإمام ويخيل إليّ كأن محمد إقبال وصفه بقوله:

(نظرة عالية سامية، وكلمة رقيقة حانية، وقلب ولوع متألم، هذا هو زاد الطريق لأمير الركب وقائد القافلة).

---

(١) انظر «مذكرات سائح في الشرق العربي» الطبعة الثالثة، ص/ ٦٠ ـ ٦٢.

وقد كانت حركة الإخوان ـ لسوء حظي ـ عندما كنتُ في مصر مفروضاً عليها الحظر، لا يسمح باجتماعاتهم وندواتهم، ولكن للثقة التي وضعها أصحابها والمسؤولون عنها فيّ تشرفت بالحضور في مجالسهم ونواديهم الخاصة، ووجدتُ فرصة الاستماع إلى خواطرهم وآرائهم، وعرض آرائي وأفكاري عليهم، وقد تمتعت بفرصة طيبة لتقديم آرائي واقتراحاتي بصورة مرتبة منسقة لمكتب الإرشاد للإخوان، حضره عقول الإخوان وقلوبهم وشخصياتهم الرئيسية، وذلك بعنوان «أريد أن أتحدث إلى الإخوان»[1]، يقدِّر مدى استجابتهم لها وإشادتهم وتنويههم بها، أنهم نشروها في صورة رسالة مستقلة، وصدرت لها إلى حين لم يفرض الحظر على حركة الإخوان مرة ثانية ثلاث طبعات، والواقع أنني لم أجرب مثل هذه السماحة ورحابة الصدر وسعة الأفق والترحيب بالنقد، من أي جماعة دينية أو سياسية أخرى.

وقد خرجت في تلك الفترة مع الشيخ محمد الغزالي ـ الذي هو أكبر كاتب وباحث إخواني وأوثق ترجمان للجماعة ـ إلى كثير من قرى مصر وأريافها مراراً وتكراراً، وقد رأيت في هذه الجولات مشاهد رائعة من حماس الإخوان الديني وضيافتهم الكريمة وحفاوتهم البالغة، وإسلاميتهم وحبهم وإخلاصهم وعدم تعصبهم ورحابة صدورهم لا أنساها أبداً، وأمكن لي أن أقيس بذلك تربية الإمام البنا وتأثيره وصنعه للرجال وإحداث ثورة في السيرة والأخلاق، وعلمت كيف أن هذه الشعلة الجوالة ألهبت مئات من القلوب بالحرارة الإيمانية، وأن الجوانب التي تأثرت بها بعد دراسة هذه الحركة ومقابلة من ينتمون إليها ويعملون فيها ومشاهدتهم عن كثب، هي كالتالي:

١ ـ إنَّ هذه الحركة أحدثت في مجتمع وشعب تأثر بالحضارة الغربية والمدنية الغربية وعِلاّتها وأدوائها تأثراً كبيراً، وتأثر بالحكم التركي والمملكة

---

(١) لقد قدم الطبعة الأولى من هذه الرسالة الشيخ محمد الغزالي، وقدم الطبعة الثانية خليفة الإمام حسن البنا المرشد العام الشيخ حسن الهضيبي، وإنه لأمر يمتاز في تاريخ الجماعات بأهمية وغرابة أن يقدم أكبر مسؤول في الجماعة كتاباً أو رسالة فيها ملاحظات عن الدعوة وشرح وجهة نظر خاصة ربما لا يوافقون عليها كلياً.

الوراثية، وحوّلت إلى طبقة من «المترفين» قوة عملية جبارة، وعاطفة قوية للتضحية والجهاد، وبساطة وتقشفاً في المعيشة، بحيث لا يوجد لها نظير في هذا العصر، وفي تعبير أحد قادتها وموجّهيها الشيخ بهي الخولي: (إنها نفخت في الشعب الرخو الرقيق حياة جديدة، وقوة جديدة) وينبغي للاطلاع على هذه الروح المعنوية القوية، وعاطفة العمل والتضحية والاستماتة فيهم وجراءتهم وعلو همتهم دراسة كتاب «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين».

٢ ـ والشيء الثاني الذي أثّر فيّ، هو حبّ الإخوان وحفاوتهم البالغة وحرارتهم والصلات القوية المستحكمة بينهم، وقلّ ما شاهدت مثل هذه الصلات الأخوية الودّية والشعور بالأخوة الصادقة والزمالة الطيّبة بين أفراد جماعة في الجماعات والحركات والدعوات الأخرى. إنَّ حركة الإخوان أنشأت أخوَّة عالمية يعتقد فيها كل فرد من أفرادها بعضهم بعضاً كأخيه الشقيق، ويكون دائماً على استعداد ـ من دون عصبية للجماعة أو حميّة جاهلية ـ لنصرته وتأييده والدفاع عنه.

لقد كتبت إحدى الصحف المصرية ساخرة هازلة، وأعتقد أنها اعترفت بالحق وأنطقها الله بلسان الصدق: (لو عطس حسن البنا في القاهرة لقال الإخوان في أسوان: «يرحمك الله») وليس هذا شأنهم مع مرشدهم العام، بل هو الشأن فيما بينهم مع كل عضو من أعضاء الجماعة، وهي عاطفة مشتركة وموقف مشترك بينهم، إنهم إذا تعارفوا فيما بينهم يبدأون في تعريفهم بقولهم: «أخوك في الله»، ويبدو من هذا الطريق أنهم يعتقدون في هذه الأخوة في الله، ويؤمنون بها إيماناً صادقاً، ويحاولون جهدهم في تحقيقها وتطبيقها.

٣ ـ والجانب الثالث الذي تأثّرتُ به كثيراً هو أن هذه الحركة متصلة بالحياة وقضاياها ومشاكلها اتصالاً عملياً قريباً، فهي لا تنأى بنفسها عن قضايا الحياة، بل تؤثر فيها وتحاول حلَّها وعلاجها، فلها صلة قائمة بالعامة والحياة، ولها دخل ومواقف في حياة الجماهير، فقد قامت بإصلاحهم وإزالة فسادهم،

وحاولت في كل خطوة من خطواتها علاج مشاكلهم ومساعدتهم، وأرى أن لذلك دخلاً كبيراً في تأثيرها ونفوذها وقبولها في الناس.

٤ ـ والجانب المضيء الرابع الذي تمتاز به هذه الحركة أنها تحاشت الخلافات الدينية والعلمية والمذهبية في عملها، ويمكن أن يعتبر ذلك في جوانب ضعفها، ولكن لو نظرنا إلى انحطاط العالم الإسلامي الديني والخلقي، والغزو الأجنبي الثقافي، وغزو الإلحاد والإباحية، والفوضى العقلية في المسلمين، لكان هذا من حسن حظ الدعوة الإسلامية أن تصرف كل جهودها وأوقاتها وقوتها وصلاحيتها في العمل الإيجابي البناء، ونشر الدعوة الأساسية، والقيام بأساسيات الدين.

٥ ـ وإن أنجح الجوانب وأضوأها في حركة الإخوان، أنها وقفت ـ بقوة ـ في طريق تيّار الإباحيّة واللادينيّة الجارف في مصر ـ ويتبعها البلدان العربية الأخرى ـ وأثرت على نزعة الاستهزاء بالدين والاستخفاف به والردّة العقلية والثقافية والثورة على العقائد والتعاليم الدينية التي كانت تسود وتطغى. والذين لهم اطلاع على صحافة مصر وأدبها يعرفون جيداً أنه كانت هنالك محاولة ومؤامرة منظمة دقيقة ضد الدين في هذه البلاد، وأن أدباء مصر وصحفييها وباحثيها ومؤلفيها كلهم كانوا قد أقاموا جبهة قوية ضد الدين وكل ما يمت إليه بصلة، وكانوا يتحكمون كقادة الثورة الفرنسية وحملة رايتها بأدبهم «التقدُّمي» وآرائهم وبحوثهم التي تبثُّ الشكوك وتبذر الشبهات وتبلبل الأفكار والعقائد ـ على المجتمع المصري الإسلامي ويحطّمون كيانه ويدمرون شخصيته، وكان يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القول غروراً ﴾ ولم تكن هناك جماعة دينية حتى الجامع الأزهر يجرؤ على مواجهة هذه الجبهة الطاغية ويرفع صوته ضدها.

ويعترف أعداء الإخوان والمخالفون لهم أيضاً أنَّ حركة الإخوان هي التي أضعفت هذه الجبهة وقاومتها، وأدخلت في قلوب أهلها الذعر والخوف، فلم يعد يقدر أي زعيم من زعماء الأدب الكبار أن يدعو إلى

الإلحاد واللادينية دعوة سافرة ويستخف بالدين جهاراً وعلناً، فقد أنشأت الحركة الإخوانية جنداً قوياً من الشباب الغيـاري وأصحاب الحميـة من المسلمين، حتى لم يكن للزنادقة والملحدين أن يجرؤوا على نشر أفكارهم وكتبهم الإلحادية، ولا للصحف والجرائد والمجلات أن تجرؤ على الاستهزاء بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية وتسخر منهما، كما أنشأت جنباً إلى جنب جماعة من الأدباء والنقّاد والكتّاب الإسلاميين والبارعين في كل فن وعلم يقدرون على مواجهة هؤلاء الملحدين ومقاومة تياراتهم وعرض الأدب الإسلامي أمام النشء الجديد.

إنها لمأثرة عظيمة للإخوان لا يمكن أن يستهين بقيمتها كل من في قلبه ضوء من إيمان، ولما أن مؤلف هذه السطور مطّلع على حياة هذه البلدان وأوضاعها الماضية والثورة الدينية والفكرية الحاضرة، وقد تيسرت له بفضل فرصة الإقامة الطويلة بها مشاهدات وتجارب شخصية، فهو يعرف معرفة جيدة كيف أثر الإخوان في النشء الجديد فكرياً وعاطفياً، وإلى أي مدى أحدث فيهم القوة والجراءة على إظهار شعائر الدين وإعلانها، وكيف بدأ أولئك الذين كانوا يخجلون من الظهور بالمظاهر والشعائر الدينية وإظهار العقائد والحقائق الدينية يتظاهرون ـ علناً ـ بالفرائض والشعائر الدينية على مشهد من الناس، ويحملون الشعور بالاستعلاء بدلاً من الشعور بمركب النقص، وقد كان نتيجة هذه المشاهدات والملاحظات والتجارب الشخصية أن قلت في إحدى محاضراتي بالهند، وأنا أتحدث عن الإخوان: (لا يحبّهم إلاّ مؤمن ولا يبغضهم إلاّ منافق).

وإن من أعظم الجرائم أعمال السفك والقتل والتشريد التي أدّت في التاريخ الإسلامي إلى خسائر عظيمة فادحة للأمة الإسلامية وحولت تيار الزمن، جريمة قتل حسن البنا، الجريمة التي حرمت الشرق العربي ـ على الأقل ـ قائداً كبيراً من قادة الحركة الإسلامية من الانتفاع وحرمته من الانتفاع بصحوة دينية إصلاحية شاملة وانتفاضة إسلامية بناءة.

والواقع أن الإخوان لو لم يشاركوا ـ لفترة قليلة أخرى ـ في السياسة العمليـة أو لو لم يتورطوا في تلك السياسة العملية، واشتغلوا بعملهم الدعوي والإصلاحي بكل ما أوتوا من قوة وصلاحية، لظهرت هناك ثورة إسلامية في البلدان العربية ونشأت حياة جديدة، وقد علمت من عدد من المصادر الصحيحة التي يعتمد عليها أن الإمام حسن البنا كان يتأسف في آخر أيام من حياته ويتألم من أنه اضطر للدخول في المجال السياسي قبل أوانه، وأحاط به الطريق الشائك، وأنه كان يتمنّى كثيراً إلى أن يعود ـ مرة ثانية ـ إلى العمل الدعوي التربوي الخالص، ويجد فرصة كافية لإعداد الجماعة، وتربية المسلمين حتى يستطيعوا القيام بكل مسؤولية تناط بهم، ويمر بكل محن يصابون بها، وبلاء يختبرون به بسلام آمنين.

في السودان:

خرجنا يوم ٢٨/ شَعبان عام ١٣٧٠ هـ الموافق ٣/ يونيو عام ١٩٥١ م من القاهرة إلى شلّال، ووصلنا مروراً بـ «أقصر» في صعيد مصر عاصمة حكومة الفراعنة القديمة إلى شلالّ حيث انتهى سفرنا، ثم ركبنا الباخرة إلى وادي الحلفة، ثم ركبْنا القطار من هناك غرة رمضان الموافق ٦/ يونيو، ووصلنا الخرطوم البحري في ٢/ رمضان، ونزلنا كضيف للزعيم الديني والروحي في السودان السيد ميرغني باشا عند أحد أصحابه وخلفائه الشـيخ طيب عبد المقصود، وقد كان يرافقني الشيخ عبيد الله البلياوي أيضاً في هذه الرحلة، أقمنا في الخرطوم البحري عشرة أيام، وكانت أيام رمضان، والحر شديد، ولكننا حاولنا جهدنا في انتهاز هذه الفرصة الطيِّبة للإقامة القصيرة، وقد كانت لنا لقاءات غنية طويلة مع أعيان السودان وكبار رجالها، نخص بالذكر منهم السيد: علي ميرغني باشا، والأستاذ إسماعيل بك الأزهري، الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء السودان، والشيخ شوقي أسد سكرتير جمعية التبشير الإسلامي، والشيخ محمد عوض إمـام المسجد الجامع، والحاج محمد موسى سليمان قائد العمال ورئيس جمعية الشبان المسلمين بالسودان. وتحدثت معهم عن تجارب الدعوة الإسلامية في الهند، ونبَّهت

إلى مسؤوليات هذا الشعب المسلم العربي المليء بالحيوية والنشاط الذي لا يزال يحمل كثيراً من الأخلاق والسمات الإسلامية العربية، ولكنه تحت نفوذ مصر العلمي والسياسي وتأثيرها، والإمكانيات الكبيرة للدعوة الإسلامية في إفريقيا والمستقبل الزاهر، وصرحت بأن السودان وإفريقيا ـ بصفة عامة ـ تستطيع أن تلعب دوراً خطيراً كبيراً في تاريخ العالم، وقد لعبت كل قارّة دورها واستنفدت طاقاتها وصلاحياتها وأفرغت جعبتها، وقد بقيت إفريقيا وحدها، فإذا تبنّت الدعوة الإسلامية في إخلاص وحماس، واحتضنت رسالة العصر التي يحتاج إليها العالم المعاصر، فإن الله تعالى سوف يبوأها منصب القيادة في الدعوة الإسلامية في إفريقيا ثم في العالم الإسلامي، ولكن ذلك لا يتيسر إلاّ إذا عرف الإخوان السودانيون قيمتهم ومكانتهم ووضعوهما في مكانهما اللائق.

في دمشق:

غادرنا السودان في ١٢/ رمضان عام ١٣٧٠ هـ ـ الموافق ١٧/ يونيو عام ١٩٥١ م إلى القاهرة، ووصلنا القاهرة ١٧/ رمضان الموافق ٢٢/ يونيو، حيث مكثنا يومين، ثم سافرنا بالطائرة إلى دمشق بتاريخ ١٩/ رمضان الموافق ٢٤/ يونيو، ووصلنا من القارة الإفريقية في ساعتين إلى القارة الآسيوية، ونزلنا على أرض دمشق الحبيبة التي هي مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ومنشأ الأولياء والصالحين والعلماء النابغين ومسكنهم ومضجعهم[١].

نزلنا بدمشق في فندق قصر الأندلس بالمرجة المنطقة الرئيسية الجميلة

---

(١) يرى المؤرخون أنه لا توجد مقابر للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ سوى الحرمين الشريفين بهذه الكثرة كما توجد في الشام ودمشق بصفة خاصة، فمن الصحابة الذين توجد قبورهم بالشام: بلال الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبادة، وأبيّ بن كعب، ودِحْية الكلبي، ومن العلماء والمحدثين: ابن الصلاح، والذهبي، والمِزي. ومن المؤرخين ابن خَلِّكان، وابن عساكر، وابن كثير. ومن أئمة الإسلام: النووي، وابن تيمية، وابن القيِّم، ومن كبار الصوفية إبراهيم بن أدهم، وبايزيد البسطامي، ومحيي الدين بن عربي. ومن الأبطال المجاهدين الكبار نور الدين الزنكي، وصلاح الدين الأيوبي، كلهم دفنوا في هذه الأرض الطيبة.

بدمشق، ثم انتقلنا بعد أيام بإلحاح من صديقنا الكريم السيد محمود الحافظ إلى بيت والد زوجته الشيخ عبد الوهاب الصلاحي، الذي كان إماماً في القصر الجمهوري وكان معدوداً في أعيان البلد وصالحيه، وقد تيسرت لنا فيه جميع أسباب الراحة والهدوء، كأننا في بيتنا، كانت مدة إقامتنا كلها بالشام ٤٨ يوماً، وإقامتنا بدمشق منها ٢٤ يوماً، ولم تكن هذه المدة نظراً إلى الكمية طويلة ولكنها كانت عديدة عريضة نظراً إلى قيمتها وبهجتها وفوائدها، فقد حاولنا جهدنا في الاستفادة من هذه المدة التي كانت تمتد على شهر ونصف، وحاولنا الاتصال بالأوساط العلمية والدينية والأدبية المختلفة ومقابلة شخصياتها الموقرة وتبادل الآراء معها، وكانت الأوساط السياسية والحكومية خارج دائرتنا في مصر، كذلك كانت هي في الشام.

وعلى كل فقد قامت الصلات بيننا وبين الشيخ مكّي الكتاني، والشيخ أحمد الدقر، والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ أبو الخير الميداني، والدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ محمد المبارك، والأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء، والشيخ محمد أحمد دهمان رئيس الدراسات الإسلامية، والدكتور أبو اليسر عابدين حفيد العلاّمة الشامي ومفتي الجمهورية، والشيخ أحمد كفتارو، والشيخ محمد سعيد البرهاني، من العلماء والمشايخ الأجلة، والشاعر المعروف محمد علي الحوماني، والأستاذ تيسير ظبيان، ومحمد كمال خطيب، من الأدباء الفضلاء، والعلامة محمد كرد علي، والأستاذ محمد عزة دروزة، والأستاذ خليل مردم بك، والعلامة الشيخ عبد القادر المغربي من المؤلفين المحققين، وقد كان لي اتصال خاص بالسيد عبد الرحمن الباني من الشباب والأساتذة الذين يمتازون بسلامة الفكر وصفاء الذهن، فقد كان هو أثناء إقامتي بدمشق كسكرتيرنا المتطوع يصحبنا ويرافقنا ويساعدنا في الوصول إلى الناس وزياراتهم، وكان مدرساً شاباً ممتازاً لبقاً مطلعاً، بكلية المعلمين (Training College).

وقد زُرنا في مؤسسات دمشق والشام ومراكزها العلمية والأدبية، مركز

الإخوان المسلمين بجامع الدقاق، وأقدم مجمع علمي في الشرق العربي وأكثره إنتاجاً المجمع العلمي، والمكتبة المعروفة المشتملة على كتب خطية نادرة المكتبة الظاهرية، والمدرسة التاريخية القديمة «دار الحديث» التي درَّس فيها الإمام النووي، والمنتزه التاريخي العظيم «غوطة دمشق» وحضرت إحدى جلسات البرلمان السوري المهمة المثيرة.

في بيت المقدس والخليل:

وتشرَّفت في بيت المقدس بزيارة المسجد الأقصى وقضيت الأيام الأخيرة من رمضان وصلَّيتُ العيد بها، وزُرت قبر زعيم بلادنا المحبوب وقائد حركة الخلافة الكبرى في شبه القارة الهندية مولانا محمد علي جوهر، وقضيت يومين في مدينة الخليل المباركة، ومررنا ببيت اللحم، وحضرنا اجتماع الهيئة العلمية الإسلامية، وزرنا الكلية العلمية الإسلامية، وشاركنا جلسات واجتماعات الجمعية الغراء، والنادي العربي، وجمعية التمدن الإسلامي بدمشق.

مدن وأمكنة تاريخية أخرى:

وتفرجنا من المدن والأمكنة على حمص وحماة ومعرة النعمان وحلب، ووصلنا إلى «حارم» عند الحدود التركية.

لقاء الملك عبدالله حاكم الأردن والقدس:

قابلنا في عودتنا من بيت المقدس الملك عبدالله بن الملك الشريف حسين بن علي ملك الأردن، وقد كان علم بقدومنا عن طريق الشيخ محمد صادق المجددي ـ سفير أفغانستان ـ الذي كان يعرفني من مصر، والذي قضينا في ضيافته الكريمة أواخر أيام رمضان بالمسجد الأقصى، كنا في بيت مضيفنا في عمان، وقد جلسنا على المائدة، إذ جاء الطلب من الملك فذهبنا إليه وتعشَّينا عنده، وتحدثنا إليه ـ في غير كلفة ـ في الأسلوب الدعوي عن أسرته، وتاريخها الماضي والمسؤولية الدقيقة لتولي بيت المقدس والمسجد الأقصى ومقتضياته، ثم كان لنا لقاء آخر مع الملك بعد ثلاثة أيام، وكنا صلينا

صلاة الجمعة معاً في جامع البلد فوقع بصره عليّ، ودعانا على الغداء، وكان قد قرأ في هذه الفترة كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي كنت قدَّمته إليه في زيارتي الأولى، فعلَّق عليه تعليقاً طيباً، ولفتُّ نظره إلى رعاية المسجد الأقصى والعناية به وباللاجئين الفلسطينيين، وقدَّمت رسالتين من رسائلي: إحداهما، «بين العالم وجزيرة العرب» والثاني «شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال» وكان من تقدير الله تعالى أنه ذهب لصلاة الجمعة إلى الجامع في الجمعة القادمة، واغتيل هناك وأخبرتُ به في نفس اليوم في حلقة درس الشيخ أحمد كفتارو في جامع الشيخ محيي الدين ابن عربي بدمشق، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

معلومات موثوق بها
وشهادات عينية عن مأساة فلسطين:

لقد علمنا في رحلتنا إلى عَمّان وبيت المقدس عن طريق الرجال والمسؤولين الثقات تلك الحقائق المؤسفة الأليمة عن مأساة فلسطين التي لم نكن لنطّلع عليها بدراسة الكتب، وخلاصتها: أن قضية فلسطين كانت مسرحية قد أخرجها الإنجليز وأصدقاؤهم من قبل، وكان الممثلون فيها الملوك العرب وحكوماتهم، وقد ظهرت هذه المسرحية على منصة فلسطين، وحققت مؤامرات بريطانية واليهود وخططهم المدبرة بذر الرماد في أعين العالم العربي والعالم الإسلامي، لقد كانت هذه خُطّة مدبّرة وأمراً مبيّتاً، وإنَّ أبرأ الرجلين من تبعة فلسطين ونكبتها وذُلّ المسلمين وهوانهم هو الشعب الفلسطيني الحُرّ، والواقع أن المسؤول الأول عن دماء فلسطين هو الحكومات العربية وقادتها والجامعة العربية، وقد حكى لي بعض الناس وهو يبكي هذه الحكاية المخزية، كان منهم إمام المسجد الأقصى وسكانه وعمّاره، والشيوخ المعمرون، وأصحاب الحمية من العرب، وقد شاهدت الفلسطينيين ـ أيام إقامتي القصيرة ـ كاليتامى والغرباء المساكين، قلوبهم مكسورة محطمة، ورؤوسهم مطأطأة منكوسة، ووجدتهم مكلومين كئيبين، منكسري الخاطر،

فقد كانوا يقصون علينا من الوقائع ما تدمع العيون، وتحزن القلوب، وقد زالت ثقتهم تماماً بالزعماء العرب وقادة البلاد.

خطاب حول قضية فلسطين:

إن ما وُفِّقتُ إليه في الشام من محاضرات وخطابات كان أهمها تلك المحاضرة التي ألقيتها أمام جمع من الفضلاء وأصحاب الفكر في قاعة جامعة دمشق بتاريخ ٢٣/ يوليو عام ١٩٥١ م، وقد كنت أعددتُ هذه المحاضرة في سفري بين عمان وبيت المقدس، وكان عنوانها: «شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين»[١] وقد رأس الجلسة نائب رئيس الجامعة المسيحي الأستاذ قسطنطين زُرَيق، الذي كان قد صدرت بقلمه رسالة في تحليل قضية فلسطين العلمي والنفسي وفق وجهة نظره ودراسته الخاصة بعنوان «معنى النكبة»، وقد حضر الجلسة عدد كبير من المستمعين، واكتظَّت القاعة على سعتها، وكان في الحضور الدكتور معروف الدواليبي رئيس المجلس النيابي، والأستاذ عمر بهاء الأميري السفير السوري بباكستان، وعدد من نواب البرلمان، وأساتذة الجامعة ورجال المعارف، وحضر كبار علماء دمشق العلامة بهجة البيطار، والأستاذ سعيد الأفغاني، والأستاذ نمر المصري، والدكتور أمين المصري، والشيخ أحمد كفتارو، والشيخ مكي الكتاني، والشيخ أحمد الدقر، وتقدم الشيخ محمد بهجة البيطار وقدم المحاضر إلى المستمعين، وعلَّق الشيخ مصطفى السباعي على المحاضرة بكلمة بليغة وأيد ما جاء فيها من آراء وملاحظات.

وقد اشتملت المحاضرة على دراسة تلك العوامل المهمة التي أدت إلى هذه المأساة، كان العامل الأول منها فقد الدوافع النفسية إلى الاستماتة والتفاني في سبيل المبدأ والعقيدة، والعامل الثاني: طغيان العقل على العاطفة، وضعف روح المغامرة، والعامل الثالث هو عدم وجود شخصية في الشعوب العربية والحكومات العربية كلها تملك فلسطين وقضيتها عليها

---

(١) وقد نشرت المحاضرة فيما بعد بعنوان: «العوامل الأساسية في كارثة فلسطين».

مشاعرها وتفكيرها، ويصبح حالها كحال صلاح الدين الذي وصفه أمين سره القاضي ابن شدّاد: (إنما كان كالوالدة الثكلى التي ذبح ولدها الوحيد في حجرها)، وإنه متى تحل هذه القضية الفلسطينية لا تحل إلاّ بهذا الطريق لا عن طريق المؤتمرات والقرارات والمجاملات[١].

محاضرات وأحاديث أخرى في الشام:

وعلاوة على هذا الخطاب الذي كان له أثره الطيب البالغ في الأوساط العلمية الدينية بدمشق، ألقيت عدداً من المحاضرات في الهيئة العلمية الإسلامية، وجمعية التمدن الإسلامي، والجمعية الغراء، وتقدَّمت فيها بتجاربي وآرائي، وأكدت أمام العلماء ضرورة الاتصال المباشر بالشعب، والدعوة العامة، وأهمية هذا العمل الدعوي في المدارس والكليات، ونبهت إلى تلك الأخطار التي يمكن أن تتحول إلى الواقع إذا بقي العلماء بمعزل عن العامة ولم يقوموا بالاتصال بهم وإيقاظ شعورهم الديني.

وقلتُ في إحدى خطبي بدمشق: إن الطبقة التي تملك زمام البلاد، لم تهضم الإسلام هضماً صحيحاً، بل لم يجاوز الإسلام تراقيها، إنها لا تؤمن بالإسلام كدين ونظام للحياة كما تؤمن بمبادىء الحضارة الغربية وأهميتها وفائدتها، كذلك فإن أكثرية سكان البلدان العربية تعيش في مرحلة الطفولة في الوعي السياسي واليقظة الاجتماعية، وما دامت هي لم تصحُ من غفولتها فلا أمل في شي، وألقيت ـ عدا هذه الخطب ـ خطبة الجمعة أيضاً في المسجد الجامع بجامعة دمشق، راعيت فيها عقلية الطلاب والشباب ومستواهم، وتعليمهم وتربيتهم.

خطاب في حمص بلد سيف الله

سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه:

ألقيت في مركز الإخوان المسلمين بحمص التي هي حلقة كبيرة من

---

(١) نشر هذه المحاضرة أحد فضلاء بيروت الممتازين والمسلمين المهتمين في رسالة مستقلة، وهي الآن منشورة ضمن كتاب المؤلف «المسلمون وقضية فلسطين».

سلسلة الفتوح الإسلامية، ومرقد سيف الله سيدنا خالد بن الوليد رضي الله في ٢٩/ يوليو عام ١٩٥١ م خطاباً حماسياً مثيراً، ذكرت فيه صلتي بالشام وبمدينة حمص التاريخية بصفة خاصة واطلاعي عليها وحبي لها، وذكرت كيف كانت العادة في أسرتنا ـ أيام الطفولة ـ أن السيدات كن يجتمعن في أيام حادثة أو اجتماع وينشدن «صمصام الإسلام» الملحمة الإسلامية المنظومة، وهي ترجمة «فتوح الشام» للواقدي[1]، وكيف كان لها من تأثير كبير في تجديد إيماننا وتربيتنا العقلية والفكرية، وقلت لأهل حمص:

هذا التاريخ الذي صُنِعَ في بلادكم يا أهل الشام ويا أهل حمص بوجه خاص هو الذي أبى على المسلمين في الهند أن يندمجوا في الكثرة المحيطة بهم، وأن يُخلدوا إلى الحياة التي لا يرضاها الإسلام، وهو التاريخ الذي لم يزل مصدر القوة والحياة والثورة على الباطل، وله فضل كبير في إشعال العاطفة الدينية وبقائها واستمرارها في هـذا الشعب المسلم، إن العالم الإسلامي اليوم في حاجة إلى سيف من سيوف الله، وفي أرضكم دُفِنَ هذا السيف يا أهل حمص، فهل لكم أن تُغِيثوا العالم الإسلامي وتُعيروه هذا السيف المفقود، إن أكبر موضع ضعف في العالم الإسلامي أنه أصبح صورة مجردة عن الحقيقة ولا غوث للعالم الإسلامي ولا طريق إلى حياة وقوة جديدة حتى يتحلّى بالحقيقة.

ولما أن هذا الخطاب كان حسب رغبة أهل حمص وعلى هواهم لذلك، تأثر به الناس كثيراً وأعجبوا به.

وكان لي خطاب يشبه هذا الخطاب في مركز الإخوان بحماة، كما ألقيت في اجتماع كبير بحلب خطبة حماسية قوية، ذكرت فيها سرّ انتصار

---

(١) والمنظومة تشتمل على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيت في أسلوب شعري قوي، يصوّر المعارك الحربية الدائرة بين الغزاة المسلمين وجيوش الشام، كأنها رأي عين، وهي من نظم أحد أعضاء الأسرة الحسنية التي ينتمي إليها المؤلف وهو السيد عبد الرزاق الحسني الملقب في الشعر بـ «كلامي»، وقد طُبِعت في مطبعة أحد الناشرين الهنادك المعروفة بمطبعة نولكشور في لكهنؤ.

العرب وغلبتهم في الماضي، وميزة الدعاة المسلمين والفاتحين في القرن الأول، الذين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام وإخراج العالم من عبادة الناس وجَوْر الأديان وقفص الحياة المادية الضيق المظلم إلى الدين الخالص والتوحيد الكامل والآفاق الواسعة العريضة في القلب والروح، ثم ذكرت كيف يستعيد العرب مركزهم العالمي، وأنه لا أمل في استعادة المركز العالمي والقيادة الروحية بنعرات القومية وهتافاتها، وأنهم إذا فعلوا ذلك فسوف يتذكر الشعوب كلها قومياتها التي تركتها وتخلت عنها ودخلت في دائرة الوحدة الإسلامية والأخوة الإنسانية، وترى العودة إليها طبعياً جائزاً، وكردّ فعل القومية العربية.

العودة إلى الحجاز والأعمال فيها:

غادرنا دمشق ١٢/ أغسطس عام ١٩٥١ م بالطائرة إلى المدينة المنورة، وقد رافقنا في طول هذا السفر الشيخ عبيد الله البلياوي، ولما وصلنا إلى المدينة المنورة وجدت مرافقي العزيز محمد الرابع والشيخ محمد طاهر، ومكثنا في المدينة أياماً، ثم سافرنا إلى مكة المكرمة التي كانت نهاية المطاف في هذا السفر، وأقمنا بمكة المكرمة خمسة أشهر أخرى تشرفنا فيها بأداء الحج للمرة الثالثة، وكان معنا في هذه الحجة زميلي المحترم الشيخ محمد منظور النعماني، وقد كانت في أيام الحر الشديد.

وطالت إقامتنا بمكة المكرمة بعد الحج جدَّدنا فيها العلاقات والصلات بأولئك المعارف والأصدقاء الذين تعرفنا عليهم أثناء الإقامة بمكة المكرمة لا سيما في اجتماع بستان بخارى، وكان لي حديثان نشرتهما الإذاعة السعودية أحدهما بعنوان: «من غار حراء» ألقيت فيه الضوء على أنه كيف استنارت الدنيا بطلوع شمس الإسلام، وانحلَّت عقد الإنسانية المعقدة وقضايا الحياة المعقَّدة الشائكة، وكيف فتحت البعثة المحمدية والدعوة الإسلامية أقفال الحياة، وما هو المفتاح الذي فتحت به القلوب، وقاومت المحن والفتن، والذي لا يزال هو المفتاح الرئيسي لجميع مشاكل الحياة، وكيف صنعت

المدرسة النبوية نماذج بشرية لمختلف شعب الحياة وحاجاتها، ووقفتها على كل رباط وثغر من ثغور الحياة، وما هي الثورة العظيمة التي أحدثتها، وقد كان هذا موضوعاً مقترحاً من قبل الشيخ محمد شطا مدير الإذاعة باسم «القضايا الإنسانية وحلولها الإسلامية» الذي غيَّرته إلى «من غار حراء» لأن غار حراء هو مطلع صبح الإنسانية الصادق ومبدأ التاريخ الإنساني الجديد.

وكان الحديث الثاني بعنوان «الدكتور محمد إقبال حياته ورسالته» كان الغرض منه توجيه الشباب العرب إلى دراسة الإسلام ومطالعته من جديد واحتضان الفكرة الإسلامية والاعتزاز بها، وقد نشر مقال لي مهم بعنوان «كيف تُوجَّه المعارف» في صحيفة الحجاز العربية الوحيدة في تلك الفترة وهي «البلاد السعودية» وقد علَّق بعض كبار العلماء وأصحاب الفكر على هذا المقال، أخصُّ منهم بالذكر الشيخ محمد علي الحركان قاضي جدة في ذلك الوقت ووزير العدل ثم أمين عام رابطة العالم الإسلامي بعد، وألقيت محاضرات في المعهد السعودي، وكلية تحضير البعثات، وكلية الشريعة بالطائف.

وقد كانت الرحلة إلى الطائف رحلة تذكارية، قمنا بها على دعوة من الشيخ محمد سرور الصَبّان وفي ضيافته، وكان يرافقني في هذا السفر العزيزان محمد الرابع الندوي والشيخ معين الندوي، وكان الشيخ أحمد عبد الغفور عطار دليلنا في السفر وواسطة التعرف بيننا وبين الشخصيات المرموقة بالطائف، نزلنا هناك بفندق التيسير المعروف، وحضرنا مأدبة خاصة عند أمير الطائف.

وكانت لنا جولة دعوية إلى وادي فاطمة شاركَنَا فيها عدد من أدباء الحجاز وصحفييها المعروفين والشباب المثقفين.

عدنا إلى الهند بعد هذه الإقامة الطويلة بالحجاز بباخرة «رضواني» في أكتوبر عام ١٩٥١ م، يرافقني العزيز محمد الرابع، وكان البحر هادئاً والجو

لطيفاً، وهكذا عدنا بعد ١٣ ـ أو ١٤ ـ شهراً من رحلة الحجاز والشرق العربي إلى الهند.

وقد كان في استقبالنا على محطة القطار بلكهنؤ عدد كبير من أصحاب جماعة التبليغ وأصدقائنا في لكهنؤ، فطلبوا مني أن أقدِّم إليهم انطباعاتي عن الرحلة، فألقيت كلمة موجزة، وأنشدت بيتين من شعر إقبال، يقول فيهما:

(لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتجفت له الجبال بالأمس، إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روح الأرض، لقد طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطـر).

الفصل الثالث عشر

الاجتماعات المشتركة، أسفار ورحلات
مؤلفات جديدة
(من أكتوبر عام ١٩٥١ م إلى أبريل عام ١٩٥٦ م)

الاجتماعات والاحتفالات المشتركة وخطابات حول موضوع الإنسانية والأخلاق:

قادني جهازي الفكري والتربوي ـ الذي لم يكن قد ترك عمله ولم يطبق عينه عن الظروف والأوضاع المحيطة، والذي وضع نصب عينه دائماً تجارب الماضي وحقائق الحاضر وأخطار المستقبل ـ إلى اتجاه جديد وتجربة في المجال الدعوي الشعبي، وهو عقد اجتماعات مشتركة شعبية، يدعى فيها غير المسلمين أيضاً باهتمام بالغ، لا سيما المثقفين منهم، وتلقى فيها خطابات مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم، تعرِّفهم بالإسلام وتزيل الوحشة منه وسوء التفاهم، وتحملهم على دراسة الإسلام والسيرة النبوية بعمق وإنصاف، وتُجسِّم لهم الأخطار المحدقة بالبلاد، للإفلاس الروحي والعقائدي والانهيار الخلقي، وسيطرة النظر المادي والشره للمال على المجتمع، وينذرهم بفداحة الخطب وقرب الخطر، وذلك كله باللغة التي يفهمونها أكثر، وبالأسلوب الذي يؤثر فيهم، فكانت تستعمل فيها الكلمات الإنكليزية بدل المصطلحات الأردية، والكلمات الهندية البسيطة السائدة.

وقد كانت هذه الخطوة بناءً على أنه لا يمكن مع بقائنا نحن المسلمين في الهند إهمال الأكثرية من سكانها، وغضّ النظر عنها، التي لها السيطرة والنفوذ ـ شئنا أم أبينا ـ على البلاد، وسوف يبقى إلى حين، وهي لا تجهل عقائد الإسلام وحقائقه ومبادئه فحسب، بل تنفِر من عقائد المسلمين وأسس حياتهم، وشخصيتهم المليَّة والحضارية الإسلامية ـ بتعبير أوسع ـ، زد على ذلك المعركة السياسية الدائرة بين المواطنين والمسلمين، وقيام دولة باكستان، وخطب بعض المتهوّرين من قاصري النظر التي تثير وتلهب العواطف، كل ذلك أبعدها عن المسلمين وأساء ظنونها، وأورث في قلوبها الوحشة والنفور، فإهمال هذه الأكثرية والتغاضي عنها، وعدم إتاحة أي فرصة لاستماعها إلينا، ومعرفة ديننا، جناية على أمتنا وضرر على بلادنا، وقد تورط كثير من قادة المسلمين وأحزابهم في هذا الخطأ من قديم، وكان من نتيجة ذلك أنه لما ذهبت سلطة المسلمين، وزالت شوكتهم، زال معها كل شيء، وخيِّل إلى الناس كأن المسلمين في هذه البلاد معلَّقون في الفضاء، أو يعيشون في جزيرة منقطعة.

ولكن ليس هناك طريق لتوجيه أنظار الأغلبية غير المسلمة والتوصُّل إلى قلوبها وعقولها، سِوى التعرُّض لقضايا الحياة المشتركة، والإنسانية والأخلاق الفاضلة ومصلحة البلاد، والدلالة على الحلول الناجعة لجميع المسائل والمشاكل المعاصرة، وتفهمهم قيمة المسلمين ـ الذين لا يزالون يحملون التعاليم السماوية ويؤمنون بالله واليوم الآخر وأنّ المادة والعاجلة ليست كل شيء ـ في هذا الكفاح الوطني، وفائدة الدور الذي يستطيعون أن يمثلوه في إنقاذ البلاد، وهو الطريق الذي يمكن أن يحملهم على دراسة الإسلام وفهم نفسية المسلمين، وإعطائهم حقهم ومكانتهم الصحيحة والاستفادة من هذه الثروة الغالية الموهوبة التي ليست مجرد مصادفة أو حادثة تاريخية، بل هو قدرها اللازب، وحظها المقسوم.

ولكن هذا العمل كان دقيقاً جداً، يتطلب لباقة ومهارة وحيطة بالغة،

وقدرة فائقة على إبداء الآراء وإدراك نفسية المخاطبين، وان أدنى مزلق فيه يمهد الطريق إلى نظرية وحدة الأديان التي يقبلها الذهن الهندي بسهولة ودعا إليها كبار زعمائها وقادتها، كما يمكن أن يقضي على رغبة الحضور الذين حضروا جلساته مرة واحدة، ولذلك كنت أقوم بهذا العمل الـدقيق أكثر الأحيان، وكان يقوم به بعض الأحيان الشيخ منظور النعماني، وقد نجحت هذه التجربة والحمد لله.

وقد عقد بعد عودتي من مصر والشام بعناية الجماعة التبليغية بلكهنؤ بمنتزه أمين الدولة، الذي لم تزل تعقد فيه احتفالات سياسية عظيمة من زمن حركة الخلافة إلى يومنا هذا، وقد خطب فيها كبار الخطباء والزعماء من غاندي وموتى لال نهرو إلى محمد علي، وجواهر لال نهرو، احتفال عام مشترك، حضره المسلمون وغير المسلمين في عدد كبير، وقد ألقيت فيه خطاباً بعنوان: «عبادة الله أو عبادة النفس؟»، ذكرت فيه المنهجين المتعارضين للحياة والديانات العالمية التي اقتسمت العالم البشري، وشرحت نتائجهما وتأثيرهما على الحياة الإنسانية، ويقدر البعض أن العدد الذي حضر هذا الاجتماع لم يشاهد الناس مثله قط في خطابات كبار القادة والزعماء، بما فيهم جواهر لال نهرو، وقد كان من فضل الله ـ تعالى ـ أن تواردت عليّ الخواطر وانثالت المعاني، وكان في الخطاب حماس وتدفّق واندفاع حتى خيم على الناس السكوت، وكانوا في حال من الحيرة والإصغاء العجيب، حتى لو سقطت إبرة سمع حسيسها، كما يقول المثل الإنجليزي[1]، وقد امتنع كثير من أصحاب مركبات الأجرة التي كان موقعها قريباً من إركاب المسافرين، وبقوا في مكانهم مصغين منصتين، وقد كان من خصائص هذا الاجتماع الذي أوليه أهمية كبيرة أن أخي الأكبر كان جالساً في عمارة قريبة يستمع إلى الخطاب، ولا أشك في أنّه كان مسروراً مطمئناً على تربيته لعقليتي، وجهده في تعليمي وتثقيفي.

---

(١) Pin Drop Silence.

وحدث مرة في مدينة سيوان[1] في إحدى هذه الحفلات المشتركة أنني لما انتهيت من خطابي بدأ ناس من الحفل ينادون ويطالبون بالمزيد والمزيد، وقالوا بلسان الحال:

وحدثّتَنا يا سعدُ عنهم فزِدتنا شجوناً فزِدنا من حديثك يا سعدُ

فقلت إنه ليس من عادتنا أن نستمرّ في الخطاب من غير ضرورة إذا أشبعنا الموضوع، وكنت أريد الجلوس بعد ما قلت ذلك، إذا بشيخ هندوكي معمّر، تقدم إلى المنصة وهو يقول: «Wonderful, Wonderful» (رائع، رائع)، ثم قال: أريد أن أقول شيئاً، فخفنا أن يقول شيئاً يزيل أثر الخطاب ويحدث النقاش، فحاولنا بأسلوب مهذب لبق أن نجلسه، ولكنه وصل إلى المنصة، وأخبرنا أعيان المدينة بأنه من كبار المحامين الناجحين هنا، وهو سكرتير أو رئيس «الحزب الاشتراكي الجماهيري» وقال وهو آخذ بمكبرة الصوت: (إنني سمعت في حياتي خطابين تأثرت بهما جداً، أحدهما خطاب C.R. Dass[2]، والثاني خطاب مولانا اليوم، وأقول بكل صراحة: إن محمداً ﷺ رسول الله الحق، ويا مولانا إنك لست للمسلمن فحسب، بل إن لنا أيضاً حقاً عليك وسوف نكلفك بزيارة هذه المدينة مرة ثانية).

لقد كانت هذه التجربة والخطوة الناجحة تحولت إلى حركة «رسالة الإنسانية» التي كانت تجربتها أيضاً كالتجارب السابقة ناجحة، والتي أنشأت في طبقة الأكثرية والمنصفين من غير المسلمين والمثقفين الفضلاء رغبة في دراسة الإسلام، وشوقاً إلى فهم دعوته ورسالته، وقد كان نتيجة التنبيه إلى الخطر الذي تواجهه الهند بسبب الأزمة الإنسانية، والفوضى الخلقية، وعدم حماية الأنفس والأموال والأعراض واحترامها، وجنون الماديّة وحبّ المال والأثرة، وتصويره الهائل المفزع والدعوة إلى الحفاظ على هذه البلاد

---

(١) مدينة في ولاية بهار، الهند الشمالية.

(٢) كان من كبار زعماء الهند والقادة السياسيين وأحد الخطباء المصاقع المقتدرين على اللغة الإنجليزية والخطابة فيها.

وحمايتها من كل خطر، أن قال بعض الهنادك الفضلاء: (لقد علمنا اليوم أن المسلمين هم أكثر منا اهتماماً بصيانة هذه البلاد وحمايتها).

رائي في باكستان:

كنت من المعارضين لنظرية قيام باكستان أو نظرية التقسيم، وكنت أدين بحاجة بقاء المسلمين في الهند، وبذل كل الجهود والطاقات في التأثير على الأكثرية وتشريفها بالدين الإسلامي، بتبليغ الدين إليها وتوجيه الدعوة وإقامة نماذج إسلامية خلقية وروحية إنسانية عالية، وأرى أن هذا العمل أجدى وأنفع، وكنت أعتقد أن هناك إمكانيات واسعة واضحة لهذا العمل.

ولكن بعد قيام باكستان لم يكن لنا بُدٌّ من تمنّي الخير لها، والدعاء لازدهارها وتقدمها بدلاً من مخالفتها ودعاء الشر لها والعياذ بالله[1]، وقد كنت في إحدى زياراتي لباكستان قلت لأهلها:

(إنه ليس هناك بعد زوال الدولة العثمانية أي بلد من بلدان العالم الإسلامي، ولا أي أسرة من أسر الأمة الإسلامية الحاكمة، في موقف أن تثبت وزنها وتضع ثقلها في أي قضية من قضايا العالم الإسلامي، ويمكن لباكستان وحدها ـ إذا وفت بالشروط اللازمة لدولة إسلامية صالحة ـ أن تقوم بهذه المهمة الجليلة).

بدء سلسلة «رجال الفكر والدعوة...»:

لقد كان يؤلمني من زمن بعيد الشعور بأن كثيراً من الشباب المثقفين المتحمّسين للإسلام ـ الذين نشأوا لتأثير أدب الدعوة الجديد ـ يعتقدون أن جهود الإصلاح والتجديد ليست متصلة متسلسلة في تاريخ الإسلام والمسلمين، بل إن فيها فجوات عميقة واسعة، وحلقات مفقودة تمتد على القرون والأجيال، وأنه لم تظهر شخصية قوية من شخصيات الإصلاح

---

(١) حتى الزعيم المسلم الهندي الكبير مولانا أبو الكلام آزاد الذي كان من كبار المعارضين للتقسيم، والمدافعين عن الهند غير المنقسمة، والمخالفين لنظرية باكستان، تغير موقفه بعد قيام باكستان، فكان يقول: الآن إذ قامت باكستان، فلا بد أن تزدهر وتتقدم.

والتجديد إلاّ بعد عدة قرون، قاومت الفساد وحاربت الأوضاع المتردّية، وظهر بعض العمالقة والنوابغ في صفوف الرجال الأقزام، وإلاّ فلا ترى هناك إلاّ العلماء والمشايخ، والمؤلفين والمحققين الذين يجـرون مع التيـار، وينحرفون في سبيل الأحداث والسلطة الحاكمة ونزعة العصر وميوله.

إن هذه العقيدة والتصور كما صرحت في مقدمة الجزء الأول من «رجال الفكر والدعوة في تاريخ الإسلام»، وإن كان يبدو في ظاهر الأمر شيئاً عادياً ولكنه بالغ الخطورة، وقد ينتهي ببعض الشباب المتحمسين إلى سوء الظن بالإسلام وضعف إنتاجه وصلاحيته الداخليَة، التي لم تزل في كل عصر ومصر تنجب الدعاة وأولي العزم من المصلحين والعاملين الذين لا يوجدون في أي ديانة من الديانات، ويؤدّي إلى مركب النقص والهزيمة العقلية، وليس المسؤول عنه النقص المزعوم في صلاحية الإسلام وحيويته وصناعته للرجال، ولكن النقص في منهج التأليف والتدوين، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم والحروب والوقائع السياسية، والذي لم يحاول فيه محاولة جادّة علمية لترتيب التاريخ الإسلامي وتجديده وعرضه في أسلوب علمي جديد، وبالجملة فإنه ليس نقصاً في التاريخ بل هو نقص في التأليف.

وقد أثار في ذهني هذا الخاطر كلمة بسيطة قالها المربّي الكبير مولانا عبد القادر الرائي بوري لرجل هندكي كان يزوره ويجلّه: (إنَّ من الأدلة الواضحة على صدق الإسلام، أنه كلما احتاج هذا الدين في أي عصر أو مصر إلى أي نوع من رجال الفكر والدعوة، أوجدهم الله تعالى وقيّضهم لحراسة هذا الدين وتقويته. وكلما ظهرت فتنة خلق الله لها رجالاً يدحضونها ويقضون عليها). وقد حشرت هذه الكلمة الصغيرة من الشيخ جنداً من الأدلة والبراهين على ذلك أمامي، ووجدت فيّ اندفاعـاً إلى الكتابـة في هذا الموضوع.

وكان من حسن المصادفة أن نظّمت جماعة الدعوة والتبليغ في لكهنؤ في شهر محرم عام ١٣٧٢ هـ، الموافق سبتمبر عام ١٩٥٢ م سلسلة من

المقالات والمحاضرات، تُلقى حول مواضيع وجوانب دعوية علمية وتاريخية مهمة أمام أعضاء الجماعة لتوسيع آفاق فكرهم وتغذيهم بالمعلومات المفيدة والتجارب الماضية، وقد كان أحد مواضيع هذه السلسلة «تاريخ الإصلاح والتجديد وشخصياته الجليلة» من نصيبي، وقد استمررت أسبوعاً كاملاً في إلقاء هذه المحاضرات، وكنت أضع أمامي مذكرة موجزة أكتب فيها إشارات وعناوين بارزة أستعين بها في محاضرتي، وقد حاول أحد أعضاء الجماعة أن يقيدها حينئذ، ولما نظرت في مسودته أحسستُ بضرورة الجهد فيه من الناحية العلمية والتاريخية وأن أخرجها في صورة كتاب مستقل ليعم نفعه وفائدته، لأنه لا يظهر بهذا العمل تاريخ الدعوة والإصلاح فحسب، بل سوف نطّلع من خلاله على تاريخ الانحطاط والتقدّم العلمي والفكري في المسلمين أيضاً، وقمت بهذا العمل متوكلاً على الله تعالى، وشعرت بعد الشروع فيه بضخامة هذا العمل ودقته ومسؤولية الحصول على الحلقات المفقودة من التاريخ ونظمها وتنسيقها الدقيقة العسيرة، ولكن الموضوع كان قد ملك مشاعر المؤلف وعقله وقلبه حسب عادته فانصرف إليه انصرافاً كُلّياً.

وظهر المجلد الأول من الكتاب في أكتوبر عام ١٩٥٤ م، وكان يحتوي ـ علاوة على مقدمة بسيطة مفصلة تناولتُ فيها بيان الحاجة إلى الإصلاح والتجديد واتصال حلقاته في التاريخ الإسلامي، وأثبتُّ قلة أمثال هذه الشخصيات الإصلاحية التجديدية وندرتها وانقطاعها في الديانات السائدة الأخرى، بشهادات داخلية من الديانات نفسها وأصحاب الديانات أنفسهم ـ على عرض تفصيلي لجهود سيدنا عمر بن عبد العزيز الإصلاحية (في القرن الأول) إلى مأثرة مولانا جلال الدين الرومي (في القرن السابع) الفكرية الثورية والتجديدية.

ثم ظهر المجلد الثاني منه عام ١٩٥٧ م الخاص بشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية، وتأخر صدور المجلد الثالث إلى عام ١٩٦٢ م، وقد صدر المجلدان الأولان من المجمع العلمي الإسلامي الأكبر دار المصنفين أعظم

كره، ثم أعيد طبعهما، وتلتهما المجلدات الباقية من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ الذي كان قد تأسّسَ عام ١٩٥٩ م.

وتأخر المجلد الرابع الذي كان خاصّاً بالإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي أكثر من ذي قبل، لأنه كان أصعب وأدقّ ـ للأسباب التي أشرت إليها في مقدمة الكتاب ـ من المجلدات الأولى، فوفقني الله تعالى لذلك بعد ١٨ عاماً من الزمن، في إبريل عام ١٩٨٠ م، وأحمد الله تعالى على أن الأجزاء الثلاثة (١، ٢، ٤) قد ترجمت إلى العربية، والأجزاء الأربعة (١، ٢، ٣، ٤) كلها إلى الإنكليزية.

وصدر أخيراً المجلد الخامس، وهو خاصّ بالإمام ولي الله الدهلوي وتلامذته وأعقابه، وقد جاء فيه ذكر بعض الشخصيات المعاصرة ومآثرها وأعمالها خارج الهند التي يوجد بينها وبين الإمام الدهلوي موافقات في منهج الدعوة والإصلاح، وقد كانت «سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» قد ظهرت من قبل، وهكذا تتصل هذه الحلقات الإصلاحية والتجديدية إلى القرن الثالث عشر، وقد صدر بقلم المؤلف كتب أخرى تتناول الشخصيات الدعوية والإصلاحية بعد ذلك أيضاً وتلقي الضوء على جهودهم ومآثرهم الدعوية والإصلاحية والروحية والتربوية[1].

---

(١) مثل حياة الشيخ فضل الرحمن الكنج المراد آبادي، وحياة الداعية الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وحياة الشيخ عبد القادر الرائي بوري، وحياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

الفصل الرابع عشر

محاضرات في جامعة دمشق
والرحلة إلى الشام ولبنان وتركيا

دعوة من جامعة دمشق:

لقد كان مضى على عودتي من رحلة مصر والشام قرابة خمسة أعوام، ولم يكن هناك مجال قريب أو مناسبة لأي سفر آخر إلى الشرق العربي والبلاد العربية، وكانت صلتي بالحجاز والبلاد العربية صلة المراسلة والمكاتبة أو عن طريق بعث رسائلي ومنشوراتي، إذ جاءتني في يونيو عام ١٩٥٥ م رسالة من صديقنا الفاضل الدكتور مصطفى السباعي الذي كانت قد توطدت بيننا وبينه أثناء الإقامة بالشام صلات الودّ والأخوّة، وكان يشيد بكتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وينوِّه به كثيراً، وكنت كبير التقدير والإعجاب بكتابه الذي يمتاز بالدقة والتحقيق والعاطفة الإيمانية الصادقة، وهو كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» وهو كتاب فريد في بابه، وقد كان هو عضو البرلمان السوري ورئيس حزبه الإسلامي الخاص والمراقب العام للإخوان وأستاذاً في الجامعة السورية.

وقد بشّرني في إحدى رسائله بكل اعتزاز وسرور بفتح كلية الشريعة في الجامعة السورية، وأنه بذلك قد غمرت أوساط الشام الدينية موجة من السُرور

والاستبشار، واعتبروه فتحاً ومكسباً كبيراً للدراسات الإسلامية وانتصاراً في مجال التربية، وقد ذكر في الرسالة أيضاً أنه عُهِدَ إليَّ بأن أبلّغكم طلب الجامعة بأن تتفضلوا بقبول مسؤولية التدريس فيها لعام أو عامين، وتشرفوا الجامعة بالحضور، وأخبرونا بشروطكم لقبول هذا المنصب وما تتقدّمون به من مطالبات، وقد كُتبت هذه الرسالة في ٢٢/ شوال عام ١٣٧٤ هـ الموافق ١٢/ يونيو عام ١٩٥٥ م، وكان عليها توقيع عميد كلية الشريعة[١].

وكتبت ردّاً على رسالته وهنأته على هـذا النجاح، واعتـذرت من الانضمام إلى المدرسين الموظفين وبقائي بعيداً عن مقرّي ومركز نشاطي الذي له حق أكبر وهو المجال الواسع للعمل الإسـلامي لعام أو عامين، ولكني أبديت استعدادي للحضـور لفترة محـدودة ألقي فيها سلسلة من المحاضرات حول موضوع من المواضيع الإسلامية بصورة منتظمة. وقبلت لجنة الكلية هذا العرض ووقّع[٢] فخامة رئيس جمهورية الشام السيد شكري القوتلي على مرسوم طلبي كأستاذ زائر، وأشعرني الدكتور السباعي بقبول هذا العرض في رسالته المؤرخة ١١/ ديسمبر عام ١٩٥٥ م وقبل اقتراحي أيضاً بإلقاء سلسلة المحاضرات حول الشخصيات الإصلاحية والتجديديـة في التاريخ الإسلامي وجهودها العظيمة، وقد كنت اخترت هذا العنوان لأعرض أمام طُلّاب الكلية وشبابها الناهضين الأذكياء وأساتذتها البارعين الفضلاء خلاصة دراساتي للتاريخ الإسلامي ونتائجها التي تحملهم على العمل الديني الدعوي والإصلاح، وتغير الأوضاع من جديد في هذه الأرض التي صنعت التاريخ، وتكون دافعاً قوياً لهم.

ولا أريد أن أكتم حقيقة، وهي أنني قد غمرتني موجة من السرور والاعتزاز على هذه الدعوة التي صدرت من جامعة موقرة محترمة في بلد

---

(١) راجع «رسائل الأعلام»، وراجع لترجمة الأستاذ السباعي وانطباعات المؤلّف عنه وتقديره له كتاب «شخصيات وكتب» طبع ندوة العلماء لكهنؤ الهند.

(٢) مرسوم رقم ١٥٢٧، تاريخ ١٥/ إبريل عام ١٩٥٦، وعلى المرسوم توقيع وزير التربية معالي الأستاذ مأمون الكزبري أيضاً.

عربي متقدم كالشام، واعتبرتها رمزاً للثقة العلمية والاعتماد والإكرام، ولم أكن أجهل صلاحياتي العلمية والعقلية المحدودة ومستواي ومكانتي المتواضعة، وأحمد الله تعالى على أنني لم أصب في هذا الصدد بأي غرور وخداع نفس وتقدير خاطىء، بل اعتبرت هذا التكريم منحة من الله الكريم، واستجابة لدعوات والدتي الضارعة، وثمرة من ثمار تربية الأخ الأكبر وجهود الأساتذة والمربّين.

وصلت إلى دمشق، وقد كان في استقبالي على المطار الدكتور السباعي وعدد من زملائه وأصحابه، منهم الأستاذ محمد المبارك[1]، والأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء[2]، وقد قابلوني بحب وحفاوة بالغة وأبدوا سرورهم بقدومي، وكان الجو مقبولاً لطيفاً، وأنزلني الدكتور السباعي كضيف للجامعة في فندق اليرموك في شارع النصر حيث أقمت أياماً ثم انتقلت إلى مقرّي القديم في بيت الشيخ عبد الوهاب الصلاحي في حي الحلبوني.

وكان من سوء الحظ أن الدكتور السباعي كان على أهبة السفر إلى أوروبا بعد يومين أو ثلاثة أيام في جولة تعليمية تقررت من قبل، فدعاني اليوم القادم على الغداء، وأكمل الإجراءات الرسمية كلها أثناء وجوده في دمشق، وبدأت سلسلة محاضراتي. كانت المحاضرة الأولى منها في يوم الأربعاء ٢٢/ شعبان عام ١٣٧٥ هـ الموافق ٤/ إبريل ١٩٥٦ م في قاعة الجامعة الرئيسية، كان عنوانها «التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» وقد كانت وجّهت الدعوة من قبل الجامعة إلى أساتذة الجامعة وأعيان المدينة وكبار العلماء والمهتمين بالفكر الإسلامي، وقد اكتظت القاعة، وكانت الطالبات

---

(١) كان من كبار الأساتذة ورجال التربية والمفكرين الإسلاميين، وكان صديقاً حميماً لمؤلّف الكتاب تدلُّ على ذلك رسائله الأخوية (راجع كتاب رسائل الأعلام) مات رحمه الله في المدينة المنورة في ٦ من صفر سنة ١٤٠٢ (٢ ديسمبر ١٩٨١ م) رحمه الله تعالى وأثابه.

(٢) من كبار علماء العالم الإسلامي وفقهائه، يعتبر مرجعا وموسوعة حيّة ناطقة في الفقه وأصول الفقه وعلم الشريعة اضطر ـ مع عدد من زملائه وأصدقائه ـ إلى مغادرة سوريا، وهو عند كتابة هذه السطور في عمان، أطال الله بقاءه ونفع بعلمه.

والنساء في البلكونة فوق القاعة، ولم يكن الداعي والسبب لهذه المحاضرات الدكتور السباعي ـ للأسف ـ موجوداً وكان هو أيضاً آسفاً على ذلك، وقد أبدى أسفه هذا في مقدمته التي قدَّم بها الجزء الأول من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وقرر أن تكون المحاضرة كل يوم أربعاء، وترسل لها بطاقات الدعوة الجديدة، وقد كانت ثماني محاضرات، وكانت المحاضرة الثامنة في ١٩/ شوال عام ١٣٧٥ هـ الموافق ٣٠/ مايو عام ١٩٥٦ م، وكان موضوعها «حجة الإسلام الغزالي، مصلحاً اجتماعياً».

وقد كان الحضور يكثرون ويزيدون في المحاضرات وتغصّ القاعة بهم وتضيق، والغريب أن كبار أساتذة الجامعة وفضلاءها كالأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى الزرقاء، والدكتور معروف الدواليبي[1]، والعلامة محمد بهجة البيطار[2] من العلماء الكبار وأمثال هؤلاء كانوا يواظبون على حضور هذه المحاضرات كمواظبة الطلاب والشباب. وأغرب من ذلك، أنه بدأ شهر رمضان من المحاضرة الثالثة التي كانت في ١٩/ إبريل عام ١٩٥٦ م وكانت المحاضرة بعنوان «الإمام حسن البصري وخلفاؤه» في ٩/ من رمضان عام ١٣٧٥ هـ، وكانت ثلاث محاضرات في رمضان، فصادف الموعد الوقت بين المغرب والعشاء، ورغم ذلك لم تتأثر الحفلات، ولم يحصل أي تغير في الحضور والاهتمام.

ودعينا قبل المحاضرة الأخيرة بتاريخ ١٥/ شوال ١٣٧٥ هـ الموافق ٢٦/ مايو ١٩٥٦ م، من قبل سعادة الدكتور أحمد السمان نائب رئيس الجامعة على حفلة الغداء في فندق نادي الشرق، دعي إليها أساتذة الجامعة وعدد كبير من أعيان البلد ووجهائه، وكان العلامة الشيخ محمد بشير

---

(١) من كبار رجال العلم والسياسة في سوريا، تولى رئاسة الوزراء أكثر من مرة، ورئاسة البرلمان السوري، وهو مؤلف كتاب «المدخل إلى أصول الفقه» يقيم الآن في السعودية، أطال الله عمره وقواه.

(٢) من كبار علماء عصره فضلاً عن سوريا وبلاد الشام راجع «رسائل الأعلام» و«مذكرات سائح».

الإبراهيمي، مجاهد الجزائر وقائدها الفاضل ـ لحسن حظّي ـ موجوداً حينذاك في دمشق، وحضر هذه الحفلة.

هكذا تمت سلسلة هذه المحاضرات بنجاح وتكريم وتوقير، ودُرِّست مرة بإلحاح مني في أحد الفصول الدراسية أيضاً، وتعرفت مباشرة على طلاب الفصل، وألقيت فيهم كلمة.

وقد كنت أثناء هذه الإقامة بدمشق لمدة ثلاثة أشهر، قضينا منها شهرين في إعداد المحاضرات وإلقائها، على صلات وعلاقات دائمة بعلماء دمشق وأدبائها ومفكريها وقادة الحركات والمنظمات الإسلامية، ورؤساء المؤسسات فيها، وكان لحسن الحظ صديقنا المحب الحبيب الدكتور سعيد رمضان أيضاً مقيماً بدمشق، وكان يصدر من هناك مجلته الموقرة «المسلمون»، وكان بيته كبيتنا، كنا نحضر السهرات فيه، ونجلس إلى وقت متأخر من الليل، يحضر فيه عدد من الشباب والعلماء من أصحاب الفكر الإسلامي.

ونظَّمنا صلاة التراويح ـ لعادة الاكتفاء بالسُّور الصغيرة في التراويح في المساجد ـ في البيت، وكان العزيز محمد رضوان الندوي يقرأ كل ليلة جزءاً واحداً، وكان ذلك أمراً غريباً لأصدقائنا العرب، غير الإخوان الذين كانوا يهتمون بصلاة التراويح في مركزهم ويقيمونها حسب المعتاد عندنا.

حديثان في الإذاعة السورية:

وجدت أثناء الإقامة بدمشق فرصة للتحدث والخطاب في الإذاعة بدمشق مرتين، ولعل بعض الأصدقاء لفت أنظار المسؤولين في الإذاعة الذين طلبوا مني عدداً من الأحاديث، فألقيت الحديث الأول بعنوان: «اسمعي يا سورية»، حكيت فيها أولاً قصة معرفتي بالشام وصلتي الدينية والروحية والعاطفية بها التي بدأت أيام الصبا، ثم ذكرت تلك الشخصيات الجليلة في الشام، وعدد منها من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وعظماء التاريخ الإسلامي ـ التي هي ثروة إسلامية دفينة في أرض الشام الطيبة، وسبب اعتزاز

وكرامة لها، وزينة وحلية، وذكرت لهم كيف يتذكر العالم كله الشام الحبيبة، وما هي المناسبات التي تذكِّره بالشام ويطالبها بإعادة دورها وتاريخها، ثم شرحت لهم سرّ مجدها الغابر، وكيف أنها شملت الجزء الكبير من العالم بعطفها ورحمتها وظلالها الوارفة، وكيف تستعيد الآن هذا المجد والعزة، وأن الشعوب لا تتبوأ منصب الحب والعزة والكرامة باللغات والآداب، والمدنيات والقوميات، بل إنها تتبوأ هذا المنصب برسالاتها ودعواتها الخاصة وأهدافها الصالحة، وخدمتها المخلصة للإنسانية البائسة، وأن على الشام أن تجاهد لها، وأن نجاة العالم اليوم تعتمد على أن يتعاون الشرق والغرب في تخليصه من الأزمات المعاصرة، الشرق بإيمانه ويقينه وروحه، والغرب بتنظيماته وعلومه الجديدة، وتستطيع الشام أن تساهم مساهمة فعّالة في هذا العمل البنّاء التاريخي.

وقلت أخيراً: إن نعمة الإسلام التي حظيت بها الهند على يد محمد بن قاسم الثقفي، الذي كان أحد القادة الدعاة في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وكانت دمشق هذه هي عاصمة الوليد، إن هذا النداء والاعتراف إنما هو نوع من المكافأة والشكر على ذلك الإحسان والمنة العظيمة، وإنما هي ضريبة الحب والوفاء والإخلاص.

وكان الحديث الثاني بعنوان: «محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ» الذي نقلت فيه أبيات محمد إقبال في «أرمغان حجاز» الشوقية الدافقة بالعواطف، والمفتقة للقرائح إلى العربية، وحكيت قصة رحلة محمد إقبال إلى مدينة الرسول ﷺ التي طار فيها على جناح الشوق واللهفة والحب في عالم الخيال.

رحلة إلى لبنان وتركيا:

انتهزت فرصة إقامتي بدمشق وقمت برحلتين إلى الخارج؛ إحداهما إلى لبنان، والثانية إلى تركيا، وقد فاتني ذلك في رحلتي الأولى عام ١٩٥١ م لضيق الوقت، لقد كان بعد المحاضرة الأولى التي كانت في ٢٢/ شعبان

١٣٧٥ هـ الموافق ٤/ إبريل ١٩٥٦ م وكانت المحاضرة الثانية يوم الأربعاء القادم بتاريخ ٢٩/ شعبان الموافق ١١/ إبريل، فترة أسبوع كاملة، وليست بيروت ببعيدة عن دمشق، فعزمت على السفر إليها، وطلبت من صديقي الإخواني القديم الأستاذ سعد الدين الوليلي أن يرافقني في هذا السفر، وخرجنا إلى بيروت حيث وصلنا بعد ساعات، وأقمنا بلبنان أربعة أيام، تجولنا فيها وزرنا الأماكن التاريخية الأثرية، وزرنا قبر الإمام الأوزاعي، وقابلنا الشخصيات الدينية والعلمية وقادة الحركات الدينية، أخص منهم بالذكر الأستاذ محمد عمر داعوق مؤسس حركة عباد الرحمن[١] وقائدها، والشيخ محمد علايا مفتي جمهورية لبنان، والشيخ شفيق يموت رئيس المحكمة الشرعية، والأستاذ محمد أسد ـ ليوبولد ويس سابقاً ـ المؤلف المهتدي الفاضل المعروف الذي كان مقيماً في بيروت بصدد تأليف الجزء الثاني من كتابه «الطريق إلى مكة»، والدكتور مصطفى الخالدي الداعي العامل المعروف في المجالات الاجتماعية، والأستاذ الفُضَيل الورتلاني المجاهد الجزائري المعروف، وزرت من المؤسسات: مركز عباد الرحمن، والكلية الشرعية، وخلية الملك سعود[٢] التي هي مركز إسلامي ببيروت وقاعة المحاضرات ومكان للحفلات والاجتماعات الإسلامية.

وذهبنا ليوم واحد إلى طرابلس إحدى مدن الشام التاريخية الإسلامية الشهيرة التي فُصلت عن الشام بمؤامرة سياسية وضمت إلى لبنان، ومررنا في الطريق بـ «قلمون» موطن العلاَّمة السيد رشيد رضا، وقطعنا على ساحل بحيرة الروم بين المناظر الجميلة مسافة طويلة إلى طرابلس، وأقمنا في مركز «عباد الرحمن» وزرنا في طرابلس الكلية الشرعية، ومركز المولوية ـ وهو مركز السلسلة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي ـ، ومدرسة ابن

---

(١) قامت هذه الحركة بخدمات جليلة مشكورة في توجيه الشباب توجيهاً إسلامياً، وحمايتهم من تأثير الحضارة الغربية، والفوضى السائدة في لبنان.

(٢) كان الملك سعود تبرع لهذه المؤسَّسة بمبلغ من المال فسميت باسمه.

خلدون، ومدرسة الغزالي وغيرها، وألقيت خطاباً أمام الشباب هناك.

وكانت لي محاضرة بعد العودة من طرابلس أمام جمع من صفوة الناس في خلية الملك سعود كان موضوعه «الشعوب لا تعيش على أساس المدنيات، بل تعيش بالرسالات، وتعضدها روحها وخصائصها»، وأنهينا هذه الرحلة إلى لبنان ووصلنا إلى دمشق قبل موعد المحاضرة الثانية[1].

وبعد الانتهاء من المحاضرات انتهزت فرصة أسبوعين، وتوجهت في ٢/ ذي القعدة ١٣٧٥ هـ الموافق ١٢/ يونيو ١٩٥٦ م إلى تركيا، وأقمت ليلة بحلب حيث ألقيت محاضرة مهمة في مركز الإخوان بعنوان «حاجتنا إلى إيمان جديد»، وكان الخطاب في أسلوب دعوي، وقد صارحت فيه العرب إلى حد المرارة الشديدة، ولكن الجمع كان يستمع إليه بإصغاء وإنصات كبير، وكان يخيل إلينا كأن هذه الصراحة ضربت على الوتر الحسّاس من قلوبهم ومشاعرهم، وكان فيها انتقاد شديد للقومية العربية، كأنني قلت لهم: إنكم لو اتخذتم القومية العربية دينكم وإيمانكم فكأنكم تخدعون المسلمين في شبه القارة الهندية الذين لم يزالوا على مدى تاريخهم الطويل متمسّكين بالقومية الإسلامية، إذ دعوتموهم إلى الإسلام ورجعتم أنفسكم إلى جاهليتكم القديمة.

ولما انتهى الخطاب فكأنما قد سال سيل الحب، وقلّما رأيت في جمع مثل هذا الحب والودّ وإبداء عواطف التقدير والثناء، وهذا دليل على رحابة صدر العرب وسعة أفقهم وأريحيتهم يصعب أن يوجد له مثيل بعد هذا الانتقاد اللاذع الشديد في أي شعب أو بلد آخر.

وزرت أرض تركيا الكريمة الطيّبة النديّة التي ازدانت وازدهرت ـ مرات وكرات ـ بدماء الشهداء الزكية، والتي كانت مدى قرون وأجيال رمزاً لكرامة العالم الإسلامي، ووتداً راسياً في البلاد الصليبية بأوروبا، وحارسة للحرمين

---

(١) وقد جاءت مذكرات هذا السفر في آخر كتاب المؤلف «مذكرات سائح في الشرق العربي».

الشريفين، وقلعة حصينة للأماكن المقدسة والبلاد العربية، وشاهدت الشوكة التركية، ورأيت أسود هذه الأمة الغيور وصقورها، ثم شاهدت أيضاً نتائج الجهود المنظمة القوية التي قام بها أتاتورك للقضاء على الآثار الإسلامية والعربية ومحوها، ورأيت مناظر البعد عن الثقافة الإسلامية والحرمان من المكتبة الإسلامية لتغير الخط إلى الخط اللاتيني، وقد حكيت قصة كل ذلك ومذكراته اليومية في كتابي «أسبوعان في تركيا»[1].

المؤتمر الإسلامي بدمشق:

وعُقِدَ المؤتمر الإسلامي بدمشق فور عودتنا من تركيا، الذي كان الباعث والداعي الأول إليه صديقنا العزيز والأخ الحبيب الدكتور سعيد رمضان، وكان من المنظِّمين والمؤيدين له الدكتور محمد معروف الدواليبي، وكان بداية هذا المؤتمر في ٢٦/ يونيو ١٩٥٦ م، وكنت وصلت إلى دمشق في منتصف ليلة ٢٥، وكانت الجلسة الأولى منه في الصباح، وقد حضر لمشاركة هذا المؤتمر كبار رجال الفكر من عدد من البلدان العربية، وكان قد حضر العلامة المفتي محمد شفيع الديوبندي، والأستاذ أبو الأعلى المودودي، والأستاذ ظفر أحمد الأنصاري من باكستان. ووقع الاختيار في الجلسة الأولى على الدكتور محمد ناصر ـ رئيس وزراء أندونيسيا سابقاً ـ كرئيس، والأستاذ أبي الأعلى المودودي وعليّ كنائبي للرئيس.

وكنت قد وعدت من قبل بإلقاء كلمة مكتوبة في هذا المؤتمر، ولكني لم أجد الفرصة لإعداد الكلمة، فأعددت هذه الكلمة، بعد قيامي من النوم في الصباح كان عنوانها: «ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي» وقد ذكرت في هذه الكلمة، أن الآمال التي علَّقها بصدد قضية فلسطين المهتمون بها وقادتها وزعماؤها بالعالم الإسلامي من التناصر والتعاضد والاهتمام والحماس التي هي أمضى سلاح في هذه القضية، وأكبر قوة مؤثرة على الرأي العام العالمي إنها تعتمد ـ كلياً ـ على عواطف المسلمين الإيمانية

(١) نشرته مكتبة الإسلام، لكهنؤ الهند، ونقلت إلى العربية ونشرت في مجلة «البعث الإسلامي».

ووعيهم لقضايا الأمة. ولعل المحامين عن هذه القضية والممثلين عنها لا يعرفون مدى الانحطاط والتردّي الذي أصيبت به الأمة الإسلامية في هذا الجانب، وإلى أيٍّ حد بردت هذه العاطفة وخمدت هذه الجذوة الإيمانية وضعف هذا الوعي الديني، فليهتمّ قادتنا وساستنا والمهتمّون بهذه القضية وحماتها بهذا الجانب المعنويّ الحسّاس، لأنه هو الحل الأساسي لكل مشكلة والمفتاح الوحيد لكل قفل، إنَّهم في حاجة أكيدة إلى جهود جديدة مضاعفة للنهضة الإسلامية في العالم الإسلامي، ثم شرحت باختصار منهج العمل والأسباب الحقيقية للانحطاط.

كتبت هذا المقال على عجل و«عفو الساعة فيض الخاطر» وقدَّمه سكرتير المؤتمر للطباعة على الاستنسل، وتمكنت من إلقائه في الجلسة الأولى أو الثانية من المؤتمر، وقد كان المؤتمر ناجحاً من حيث إنه اجتمع عدد من قادة المسلمين الإسلاميين الممثلين للبلدان المختلفة في هذه المدينة التاريخية وتقابلوا وتلاقوا.

وقد وفرت الحكومة الشامية بدورها جميع التسهيلات ـ بتأثير الدكتور محمد معروف الدواليبي ـ لهؤلاء الضيوف، وأقيمت أخيراً بتاريخ ٢٨/ يونيو حفلات استقبال وضيافة من قبل الدكتور ناظم القدسي رئيس البرلمان والذي تسلم رئاسة الوزارة أيضاً عدة مرات، ثم من قبل فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية لضيوف المؤتمر، ونُظِّم قطار خاص لزيارة الضيوف للقرى الأمامية ولمخيّمات اللاجئين الفلسطينيين، لم أستطع أن أشاركها لموعد خطاب أمام مُدرّسي مادة الدين بالجامعة.

الأيام الأخيرة من الإقامة بدمشق ومغادرتها:

لقد كانت الإقامة بدمشق لثلاثة أشهر من أحلى أيام العمر وأطيب ساعاته، لم تَصْفُ لي ولم يتم السرور والأنس ـ غير الحرمين الشريفين ـ في أي مكان آخر، فقد كان مزيجاً من تفتح القلب وانشراح الصدر والصحة البدنية وجمال الطقس ولطفه، وحب الأصدقاء وحفاوتهم البالغة، وجمال

البلاد الطبيعي، والروحانية الخاصة ـ التي لعلها كانت لأجل أنها مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والأولياء الكبار والصالحين ومركز الفتوح الإسلامية ـ كان المزيج من كل ذلك أنشأ جوّاً عجيباً من السرور واللذة والمتعة، وقد كان ذلك العهد عهد الهدوء والسكينة والرخاء، وعهد «الإسلامية» لأهل دمشق ولأهل الشام كلهم أيضاً.

ثم بدأت هناك دوامة الثورات والانقلابات، فلم يقر لها بعد ذلك قرار ولا استحكم لها بنيان، وقد وقع بعد ذلك ما يعرفه الجميع من محنة الإسلام فيها، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

وقد كان من فوائد الإقامة بدمشق أن قبل المجمع العلمي نشر كتاب الوالد القيِّم ـ رحمه الله ـ وهو كتاب أسماه «عوارف المعارف في أنواع العلوم والمعارف» نشره المجمع عام ١٩٥٨ م باسم «الثقافة الإسلامية في الهند»، وهذا الكتاب دليل لمؤلفات علماء الهند الإسلامية، ومذكرة شاملة لمساهمتهم في العلوم الإسلامية وإنتاجهم الرائع في مجالها في شبه القارة الهندية.

وقد تكررت زياراتي للمجمع العلمي بدمشق الذي كنت أسمع باسمه من أيام الطفولة، والذي كانت العضوية فيه تكريماً كبيراً لأي عالم أو محقق وباحث، وقد كان من أعضائه فاضلان معروفان من فضلاء الهند، أحدهما العلامة عبد العزيز الميمني، والثاني مسيح الملك حكيم أجمل خان، وقد تعرف رئيس المجمع خليل مردم بك عليّ وأنس بي، واختارني المَجْمع بعد عودتي إلى الهند عضواً له وجاءتني من رئيس الجمهورية شهادة ذلك.

إبداء رأي في أتاتورك:

بدأت أصارح في الهند ـ بعد عودتي إليها من هذه الرحلة ـ بآرائي وانطباعاتي في أحاديثي وخطاباتي عن أتاتورك، وبدأت أعلن موقف الإسلاميين منه في تركيا بصفة عامة، وما أصاب الإسلام والمسلمين

بـ «إصلاحاته» المزعومة من خسارة عظيمة في تركيا، وما تحقق بها من الانتحار المعنوي، والعلمي، والروحي، حتى والخط الذي كان تغييره وحده ثورة عظيمة وتغييراً جذرياً كبيراً، وقد ذكره المؤرخ الفيلسوف توينبي (Toyanbee) فقال: «لا حاجة الآن بعد ذلك إلى إحراق مكتبة عظيمة ـ الذي يجلب سوء الأحدوثة ـ فإن تغيير الخط لشعب من الشعوب يتكفل الإبادة المعنوية، وقطع صلة الشعب والبلاد عن ماضيها وثقافتها».

وقد كان هذا النقد الصريح مني ثقيلاً جداً على تلك الأوساط التي كانت تعتبر كمال أتاتورك منقذ تركيا، وتضعه في المنصب الأعلى للعظمة الإنسانية والخدمة الإسلامية، فقد أبدت هي عواطف الغضب والكراهية لمثل هذا الانتقاد الصريح.

في بغداد:

سافرتُ في يوم من أيام يوليو من دمشق، واخترت من دمشق طريق بغداد وكراتشي، إذ أنني لم أكن قد زرت بغداد من قبل، وأن أول اسم لمكان ـ بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، شرفهما الله تعالى ـ قرع أذني أيام صباي الأولى كان اسم بغداد، فقد كنا نقرأ «القاعدة البغدادية»، وهو كتاب صغير للتعريف بالحروف الهجائية والتمرين على استعمالها، وكنا نسمع بيتاً من شعر «حالي» يقول فيه:

(تلك البلدة التي كانت مفخرة البلاد التي كانت تحكم البر والبحر، وأولئك الأبطال الذين ارتجت بهم البلاد، وسمعت أصداؤهم في الدول والحكومات، ينامون النومة الأخيرة في مقابر بغداد).

أقمت في بغداد يومين أو ثلاثة أيام لا تساوي شيئاً لزيارة الآثار والأماكن التاريخية في مثل هذه المدينة العظيمة العامرة الواسعة ولكن اغتنمنا هذه الفرصة لحكمة «ما لا يدرك كله لا يترك جلّه».

الفصل الخامس عشر

العودة إلى الهند والإقامة بها
حوادث مهمة ورحلات إلى بورما والكويت
(١٩٥٦ م - ١٩٦٢ م)

كتاب حول القاديانية:

انعقدت بلاهور في أواخر ديسمبر وأوائل يناير عام ١٩٥٨ م ندوة علمية عالمية، حضرتها وفود من العالم العربي لا سيما العلماء الكبار من الشرق العربي، وقد تسلمت الدعوة للحضور أيضاً؛ إلاّ أنني لم أستطع الحضور لاشتغالي بجولة دَعَوية كانت تعقد فيها الاجتماعات الدعوية الخاصة مع الاجتماعات المشتركة العامة لحركة رسالة الإنسانية، وقد كانت هذه الاجتماعات ناجحة جداً، وحضرت عند نهاية هذه الجولة الاجتماع الدعوي السنوي في بوفال، وهكذا انقضت أيام الندوة العلمية.

وقد تساءل المشتركون من علماء مصر والشام والعراق وقادة الفكر فيها عن القاديانية، وسألوا علماء الهند عن كتاب بالعربية في هذا الموضوع حتى يتعرفوا على تاريخها وحقيقتها، فلم يجد هؤلاء العلماء ما يقدمونه إليهم من كتاب بالعربية ألف في أسلوب عصري سهل يتفق والعقلية الجديدة.

وقد علم الشيخ عبد القادر الرائي بوري الذي كان مقيماً إذ ذاك بلاهور

بقدومي، وكان يرى في القاديانية من الخطر والضرر شيئاً كثيراً، ويكرهها ويرفضها وينفر منها نفوراً لعله لم يشعر به غيره من العلماء بعد الشيخ الجليل محمد علي المونكيري مؤسس ندوة العلماء، والعلامة أنور شاه الكشميري، وكان ينتظرني بلهف وصبر نافذ، وقد قال إنه سوف يصر عليَّ ويؤكد الأمر بتأليف كتاب في هذا الموضوع، فشعرت أنه وضع على رأسي الجبل، فلم تتفق لي دراسة هذا الموضوع ولم يكن لي إلمام به لاتجاهي العلمي والأدبي الهادىء، وأشغالي الكتابية والتأليفية الخاصة.

وفي عام ١٩٥٣ م عندما كانت «حركة ختم النبوة» على قدم وساق، وفرضت الأحكام العرفية في باكستان، كتبت مقالاً بعنوان «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية ـ صلّى الله على صاحبها وسلَّمَ ـ» وبعثت به إلى العلماء والمشايخ في مصر والشام والعراق، وقد نشروه في الكويت أيضاً، كما صدرت له طبعة من رابطة العالم الإسلامي في عدد كبير، ولكنه كان استعراضاً سريعاً رجعت في كتابته إلى بعض المصادر الأردية، فقلت للشيخ أولاً: إنني لمعرفتي لعقلية العرب وذوقهم ومنهج التفكير عند العرب، سوف أضع خطة للعمل، ويستحسن أن يقوم بالتأليف العلامة الشيخ محمد يوسف البنوري الذي هو محدِّث جليل وعالم فاضل، وقادر على اللغة العربية.

ولكن لعل عناية الشيخ واهتمامه صرف عزيمتي ودفعني إلى تحمل هذه المسؤولية، فاعتكفت في حجرة من حجرات منزل الوجيه الشيخ عبد الحميد ـ عضو البرلمان الباكستاني والوزير السابق ـ بحيث لا شأن لي بالدنيا وما يجري فيها، وقرأت جميع كتب المرزا غلام أحمد ونقلت وقيَّدت ما لزم تقييده، واشتغلت بالتأليف ولم يمض ٢٣ أو ٢٤ يوماً حتى تمَّ الكتاب بحول الله وقوته، وقد صدرت له عدة طبعات بعنوان: «القادياني والقاديانية» من بومبائي وجدّة ولكهنؤ والمدينة المنورة، ونال رواجاً وقبولاً كبيراً في العالم العربي، وقد كان تحقق هذا العمل في فبراير عام ١٩٥٨ م.

ثم لما حضرت عند الشيخ بلاهور في العام القادم أمرني بنقل الكتاب

إلى الأردية[1]، وقد تمَّ نقل الكتاب إلى الأردية في مدة يسيرة، وقد أسس هذا الكتاب على الموضوعية التاريخية بدلاً من الحماس الجدلي، وعلى الشهادات الداخلية والاستدلال القوي، بدلاً من الطعن والتجريح والاستهزاء، وقد كتبت «الفضل» الصحيفة الرسمية للقاديانيين معلقة عليه: «ولا بد من الاعتراف بأن هذا الكتاب بخلاف الكتب الأخرى في هذا الموضوع أُلّف في أسلوب جادّ نزيه، إلاّ أن عنوان الكتاب مثير يستحق الانتقاد والاعتراض»، وقد راعى المؤلف أيضاً أن ما يريده هو من إبداء كراهته وغضبه بقلمه، يَدَع المواد العلمية التاريخية في الكتابة تحدث هذه الكراهية والنفور بنفسها في قلوب القراء، ولذلك قال أحد كبار العلماء والكتّاب الإسلامين في مجلة معلقاً على الكتاب:

«أستغرب من المؤلف أنه لم يغضب حيث يوجد ما يدعو إلى الغضب ويدفع إليه».

وقد أبدى الشيخ عبد القادر سروره الكبير بتحقيق هذا العمل، وكان يأخذ الكتاب بيده أحياناً ويقول للناس اشتروا هذا الكتاب واقرأوه، ويأمل المؤلف أنه بالقيام بهذا التأليف أدخل السرور على قلب شيخه واستحق دعاءه.

تأسيس «المجمع الإسلامي العلمي»:

سافر صديقنا الأستاذ سعيد رمضان ـ الذي كان يصدر مجلة «المسلمون» بدمشق عام ٥٨ ـ ١٩٥٩ م ـ إلى ألمانيا للحصول على شهادة الدكتوراة، فطلب مني أن أكتب افتتاحيات المجلة أثناء غيبته، فكتبت الافتتاحيات لعدة شهور، وكان أول افتتاحية منها بعنوان «ردّة جديدة» نبهت فيها إلى ردة جديدة تكتسح العالم الإسلامي اليوم، وهي ردة جاءت مع زحف أوروبا السياسي والحضاري على الشرق الإسلامي، وإنها أعظم ردة

---

(١) قام الأستاذ الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري بترجمة الكتاب إلى الإنكليزية، وترجم أيضاً إلى اللغات الأندونيسية والماليزية.

حدثت في التاريخ الإسلامي من عهد النبوة إلى عصرنا هذا، إنها «ديانة» اللادينية والإلحاد التي أثرت على ما لا يحصى من أفراد الطبقة المثقفة من المسلمين، ولكن بالعكس من حركات الردة وتياراتها الماضية؛ إنَّ من يقع في أسرها وينكر بديهيات الدين وحقائقه لا يذهب إلى معبد أو كنيسة، ولا يعلن تغييراً لديانته، ولا ينتبه مجتمعه الإسلامي إلى خطره، ولا يُحسَب له حساب، ولا يعامَل بالمقاطعة والفصل من المجتمع كما كان يعامل المرتدُّون السابقون.

والحقيقة أنه لفت نظري إلى هذه الفكرة ودفعني إلى الاهتمام بها مقال الدكتور رفيع الدين أحمد[1]، فأخذت هذه الفكرة الأساسية، وشرحتها وفصلتها في هذا المقال، وذكرت سرَّ انتشار اللادينية العالمي، وكشفت النقاب عن أهم مظاهرها، ثم ركزت على طرق علاجها من دعوة قوية جديدة، وإيمان راسخ، والحاجة إلى مؤسسات علمية، وإعداد المكتبة العصرية الإسلامية، مع مراعاة العقلية الجديدة، وصوّرت الوضع الهائل الخطير الذي يواجهه العالم الإسلامي، وقد نشر هذا المقال في حلقتين بعنوان «ردة جديدة» و«دعوة جديدة» في مجلة «المسلمون» وهو الذي صدر فيما بعد في رسالة مستقلة بعنوان «ردة ولا أبا بكر لها»[2]، صدرت في فترات مختلفة، ومن مؤسسات عديدة في أعداد كبيرة، ووزعت في منى وعرفات، ولعل أي مقال أو رسالة للمؤلف لم يصدر في هذا العدد وأثّر هذا التأثير، كما صدرت هذه الرسالة وتركت تأثيرها الكبير.

---

(١) رئيس مجمع إقبال في كراتشي ومن كبار رجال التربية الإسلامية توفي رحمه الله تعالى.

(٢) ويليق أن أذكر هنا حكاية طريفة، فقد كنتُ بمكّة ١٩٦٤ م، وكانت تعقد جلسات الرابطة، وكنا جالسين في مركز الرابطة، إذ دخل علينا عالم شيعي، فتقدم سماحة المفتي السيد أمين الحسيني، الذي أقام أياماً في إيران، واستقبله وبدأ يعرفه بنا واحداً واحداً، هذا هو الأستاذ المودودي، وهذا فلان، وهذا فلان، فلما جاءت نوبتي قال: هذا الشيخ أبو الحسن الندوي، وقد كان هذا الزائر آية الله روح الله الخميني، فلما سمع باسمي قال: نعم قرأت رسالتك «ردة ولا أبا بكر لها»، وقد كان الأولى أن تسمّى «ردة ولا أبا حسن لها» فقلت: لا يا فضيلة الشيخ، العرب يقولون «قضية ولا أبا حسن لها» فسكت.

وأحسست بشدة بعد كتابة هذا المقال بضرورة إقامة مجمع علمي لمقاومة هذه الردة العقائدية والحضارية والفوضى الفكرية والخلقية يتحمل هذه المسؤولية ويتفرغ لهذا الموضوع، وأخيراً تأسس هذا المجمع في مايو عام ١٩٥٩ م باسم: «المجمع الإسلامي العلمي» بتبرع أحد أصحاب الخير بألف روبية، ونشر المجمع أول كتاب باسم «مقالات السيرة» للدكتور محمد آصف القدوائي، وقد بلغ عدد منشورات المجمع إلى هذا الحين قرابة مائتين، ويمكن أن يقال إنه ليس هناك مؤسسة في شبه القارة الهندية أخرجت في اللغة الإنكليزية على الأقل كتباً علمية دعوية بهذا العدد وهذا المستوى العلمي المتقدم حول الدين الإسلامي، والشريعة الإسلامية، والعقائد والأركان، والحديث والسنة، والسيرة الطيبة، وحياة الخلفاء الراشدين، وتاريخ الإصلاح والتجديد، والتعريف بالأعمال البنائية والخيرية التي تمت على أيدي المسلمين في الهند، وقد نالت هذه الكتب ـ بفضل الله تعالى ـ رواجاً وقبولاً في أوروبا وأمريكا وجنوب إفريقيا والبلدان العربية، وقد تحقق كل ذلك بمحض التأييد الإلّهي وبثروة قليلة وإدارة صغيرة وموظفين قليلين محدودين، من الصعب أن يتصوره الزائر ويستيقنه.

رحلة إلى بورما:

كانت دار العلوم التابعة لندوة العلماء التي كنتُ مسؤولاً عنها أيضاً كنائب الأمين العام ولصلتي الأسرية الشخصية بها تعاني ضائقة وعجزاً مالياً، فقد أصبحت وسائل المسلمين وقدرتهم على المساعدة والإنفاق محدودة ضعيفة بعد حادث التقسيم، وكانت بورما هي الوحيدة في البلدان المجاورة التي كان فيها كثير من التجار المسلمين، لا سيما من منطقة كجرات وسورت وما يجاورها من المدن والقرى ـ الذين سكنوا فيها ومضت منهم أجيال، وكانوا ناجحين رابحين في تجاراتهم، وقد كانوا يساعدون من هناك كثيراً من المؤسسات بعزيمة وهمة.

وكان من حسن الحظ أن وجَّه إليّ أحد فضلاء ديوبند المقرىء عبد

الرحمن القاسمي للمعرفة والصلات الشخصية، دعوة إلى زيارة رنجون، حتى ينشأ في أوساطها الدينية والعلمية شيء من الحركة واليقظة، وتوجه مع ذلك عنايتهم إلى دار العلوم التي كان يجهلها أكثرهم، وتقرر ـ بعد استشارة المهتمين بدار العلوم، وبإذن أخي الأكبر وإرشاده ـ الذي كان إذ ذاك مصاباً بضغط الدم ـ سفري إليها، وكان معي الشيخ محمد معين الندوي، ووصلنا رنجون في ١٨/ ديسمبر عام ١٩٦٠ م، وقد نشر في الصحف أنه لم يستقبل في بورما ـ بعد حريتها واستقلالها ـ أي عالم ديني مثل هذا الاستقبال الرائع.

وانتشر خبر وصولنا في الأوساط الدينية برنجون بعناية الشيخ المقرىء عبد الرحمن القاسمي، والشيخ إبراهيم أحمد المظاهري[١]، والمفتي داود محمود وجهودهم، وقد أقمت أياماً ببيت الحاج عبد الحميد السورتي، ثم نزلت بإلحاح الأصدقاء ورأيهم بمنزل الحاج أحمد علي الموكاتي، الذي كان يملك مصنعاً كبيراً لنائلون، وكان من كبار تجار المدينة.

مكثت في رنجون أكثر من شهر، ألقيت فيه عشرات من الخطب، ووجهت المسلمين ـ بصفة خاصة ـ إلى العناية بتعريف المواطنين من غير المسلمين بالإسلام، وتقريبهم إلى المسلمين، وقلت بصراحة: (إنه إذا لم يتحقق هذا العمل هنا، فلا حفاظ للمسلمين، ولا ضمان لتجارتهم ورخائهم وعيشتهم الهنيئة، وقد كان الخطاب الأول في مسجد سورتي المعروف برنجون الذي بيّنتُ فيه حقيقة الحضارة الإبراهيمية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ بعد التنبيه إلى صلة هذه الأمة القوية المحكمة بالملّة الإبراهيمية والرسالة المحمدية، وشرحت أنه لا تعارض بين حب الوطن وبين الانتماء إلى الحضارة المحمدية، وليست الملّة الإبراهيمية وقفاً لأحد أو محتكراً له، إنها يمكن أن تمثل في ظل أي بلد وأي لغة، وإن اللغات كلها

(١) ذكره الله بالخير، لقد كانت شخصية الشيخ إبراهيم المظاهري مدير تحرير «دور جديد» (رنجون) شخصية ممتازة حبيبة، جامعة للفضائل، وقصة حياته تحمل دروساً وعبراً، توفي رحمه الله في ٧/ مارس عام ١٩٦٤ م، وقد كتب المؤلف مقالاً حوله بعنوان: «رجل فقدناه» لمجلة «حضارة الإسلام» بدمشق.

ـ سوى العربية ـ سواء، لذلك فإن من الضروري أن يهتمَّ المسلمون في بورما باللغة البورمية ويبرعوا فيها، ويقوموا بتعريف الإسلام عن طريقها، ووضحت تلك المعالم والحدود التي لا بد من مراعاتها وعدم تجاوزها والعمل داخلها بكل حرية وانطلاق.

حركة التعليم الديني في الهند المستقلة
والمؤتمر التعليمي الديني للولاية بـ «بستي»:

كانت من أهم القضايا الفاصلة للموت والحياة فيما يتعلق بالشعب الإسلامي الهندي بعد استقلال الهند قضيةُ بقاء المسلمين وجيلهم الجديد على العقائد الإسلامية، والإيمان بالحقائق الدينية، وشخصيتهم الملّية وكيانهم الخاص، التي كان خطرها وأهميتها الكبيرة بعد قيام الدولة العلمانية (اللادينية) في الهند، فإنه لم يكن من مسؤوليات الدولة في هذه الحكومة العلمانية أن تنظم التعليم الديني للأطفال المسلمين، وكان من اللازم ـ دستورياً وقانونياً ـ أن تكون هذه المعاملة على قدم المساواة مع جميع الفرق الموجودة في الهند، ولكن لصلة مسؤولي الحكومة بطبقة الأكثرية كان من العسير جداً بطبيعة الحال أن تقف الحكومة موقف المساواة.

ثم إن التجارب المريرة عن المسلمين، أو الشعور بالمرارة عن ماضي المسلمين وقيام باكستان، وحركة إحياء الديانة الهندوسية (Revivalism) والعقلية الهندوسية لواضعي المناهج والمقررات العلمانيين، كل ذلك زاد الأمر سوءاً وتعقيداً، وكان من نتيجته أن ظهرت بعد التقسيم فوراً دروس صريحة في الكتب الابتدائية المقررة عن الديانة الهندوكية وفلسفتها، وقصص شركية خرافية من المثالوجية الهندية، وبدا للعيان أنه لو استمرَّ الحال على ذلك لكان الجيل الجديد من الملّة الإبراهيمية، والأمة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فريسة الجهل بالتوحيد الخالص أو الانحراف عنه، والتأثر والاعتقاد بالعقائد الشركية والكفر الصريح.

وكان يجب في هذا الصدد القيام بعملين:

أحدهما: سلبي، والثاني: إيجابي، فالعمل السلبي والإداري، هو أن تطالَب الحكومة بأن تكون ـ بكل صدق وأمانة ـ علمانية لا تتدخل في الدين في سياستها التعليمية، وتعامل جميع الفرق والطبقات معاملة واحدة، وأن تكون المناهج والمقررات علمانية، كما كانت في عهد الإنكليز التي إن كانت تضم في كتبها المقررة قصص الكلاب والسنانير، ولكنها لا تلقن ديانة من الديانات. والعمل الإيجابي: هو أن ينظم المسلمون بأنفسهم التعليم الابتدائي لأطفالهم المسلمين، ويفتحوا لهم المدارس والكتاتيب التي تعلم فيها اللغة الأردية والعقائد والدين وتنقش عن طريقه في عقل الطفل المسلم النقوش الإسلامية وترسخ في نفسه جذور الإيمان.

وقد تنبه أولاً إلى هذا الخطر بصورة واضحة ملموسة الأستاذ محمد عديل العباسي المعروف بقاضي عديل عضو المجلس التشريعي للولاية الشمالية سابقاً، وأحد أنصار المؤتمر الوطني الهندي (Congress) والعاملين في مجال حركة التحرير والخلافة، وكان عضواً بارزاً في مديرية بستي، ورئيساً للجنة التعليم والتربية فيها زمناً غير قصير، فاستطاع عن طريق هذه الفرص والاتصالات المباشرة، والاطلاع على المشاريع والمخططات التربوية، وقلبه الإسلامي الحساس أن يتفطن للخطر الداهم لمستقبل الأجيال المسلمة الصاعدة، وما يتبع ذلك من صياغة غير إسلامية، وردة فكرية عقائدية حضارية، وملك ذلك فكره وقلبه ومشاعره، ووهب كل طاقاته وصلاحياته العقلية والفكرية لهذه القضية وركَّزها عليها، وبقي زمناً غير يسير يعمل في حدود مديريته في مقاومة هذا الخطر وإقامة المدارس والكتاتيب في دأب وصمت، ولما وضحت لنا هذه القضية بأبعادها، ألححنا أنا والشيخ محمد منظور النعماني وبعض الأصدقاء الآخرين على القاضي عديل بأن يخرج من هذه الدائرة المحدودة، ويقوم بالجهد على نطاق الولاية.

واقتنع القاضي بحديثنا ورضي بذلك، وعقد في ٣٠ ـ ٣١/ ديسمبر ١٩٥٩ م، ١/ يناير ١٩٦٠ م مؤتمراً دينياً للولاية بمدينة بستي، ودعا إلى

المشاركة كبار المثقفين المسلمين، والمهتمين بالقضايا التعليمية، والعاملين في المجال القومي والاجتماعي، ورؤساء المنظمات والمؤسسات الإسلامية، لا من ولاية أترابرديش فحسب، لا من خارج هذه الولاية أيضاً، وقد دعيت لرئاسة هذا المؤتمر الأول، كما اخترت لرئاسة الهيئة أيضاً، وكتبت كلمة الرئاسة على عجل في القطار وقد طبعت ونقلت إلى الإنكليزية في لغة رشيقة، ويحتل هذا المؤتمر وهذا الخطاب مكان معلمة في الطريق، ولا يمكن أن يغفله أي مؤرخ منصف لقضايا المسلمين الأساسية، وشخصيتهم التعليمية الحضارية في الهند، ولعله ليست هناك بعد حادث التقسيم حركة أو حركتان بدأتا كهيئة التعليم الديني على أساس قضية خطيرة ذات أهمية مصيرية كبيرة.

وفاة الأخ الأكبر وأعظم رزء في الحياة:

وقع في ٧/ مايو ١٩٦١ حادث وفاة أخي الأكبر الذي كان أعظم حادث في حياتي منذ بدء الوعي والشعور، وشعرت شعوراً واضحاً باليتم لم أشعر به عند حادث وفاة الوالد، وقد زاد هذا الحادث ألماً وحسرة أنني كنت بعيداً عنه في إحدى جولاتي، فما حضرت صلاة الجنازة ولا الدفن، وتلقيت في اليوم نفسه برقية عن مرضه الشديد الخطير، وتوجهت إلى لكهنؤ بقطار المساء، ولا تسأل كيف قضيت هذا السفر، وقطعت هذه المسافة، لا ردَّ الله ذلك اليوم، فقد كنت أخشى الحادث الواقع وأخشى أن أصاب في الطريق بحادث إذا علمت بهذا الحادث، ولما وصلت إلى لكهنؤ، فوجئت بنبأ وفاته، وكنت أخشاه وأنشدت قول الشاعر العربي:

أيتهـا الـنفس أجـملي جـزعـا إن الـذي تحـذرين قـد وقعـا

ووصلت إلى رائي بريلي، وقد مضى على الدفن ساعتان أو ثلاث، وإن البكاء الذي كنت أغالبه وأضبطه إلى ذلك الحين انفجر وانفرط عقده بمشاهدة ابن أخي العزيز محمد الحسني، وقد كان وقع مثل هذا الحادث ـ وهو وفاة الوالد في غيبة الولد ـ لأخي الأكبر مع الوالد، ولجدي السيد فخر الدين الحسني مع والده السيد عبد العلي.

رحلةٌ إلى الكويت:

لقد أُلقيت المسؤولية الكبيرة بعد وفاة الأخ الأكبر ـ الذي كان رئيس ندوة العلماء ـ عليّ، فقد تمَّ اختياري في الجلسة الاستشارية بـ ١٨/ يونيو ١٩٦١م كرئيس أو أمين عام ندوة العلماء، وتضاعفت بذلك مسؤوليتي، وكانت دار العلوم لا تزال تعاني الأزمة المالية، ولم يعد لرحلة بورما ـ لعدم الحصول على المبالغ المطلوبة ـ كبير فائدة، وكان الدكتور عبد اللطيف من أصحاب الخير في الكويت، فوجه الدعوة لزيارة هذه الدولة الغنية المصدرة للبترول والتي كان من السهل للغتها العربية تعريف الندوة بها وتأثيرها فيها، وكان الدكتور عبد اللطيف ـ الذي كانت جنسيته باكستانية، وكان لا يقدر على اللغة العربية القُدرة المطلوبة ـ يعتمد في هذا الصدد على أحد تجار الكويت المخلص المتدين ومن أصحاب الخير والنفوذ، وهو فضيلة الشيخ عبد الرزاق الصالح، الذي كان قد تعرف بي من قبل عن طريق مؤلفاتي، وكان يحب زيارتي، ووعد نفسه بأنه إذا جاء وفد الندوة سوف يحاول في حلقة نفوذه لمساعدة ندوة العلماء والتبرع لها، وسوف تكون هذه الجولة والزيارة ناجحة، إن شاء الله، فاشترطت أنني سوف لا أتردد على الناس، وأنهم هم سيتكفلون بالحديث في هذا الموضوع والمحاولة له، وأن زيارتي تكون دعوية دينية فحسب، وقبل المضيفون الكرماء جميع الشروط، وسافرت ومعي الشيخ محمد معين الندوي، والعزيز محمد الرابع الحسني الندوي بالطائرة من بومبائي بتاريخ ٢٤/ يناير ١٩٦٢م، وقد كان مضيفنا على مطار الكويت في استقبالنا، وزاد في هذين المضيفين الكريمين شخص كريم ثالث، وهو العالم النجدي الفاضل الشيخ عبد الرحمن الدوسري المقيم بالكويت حينذاك، وقد كان الشيخ داعية متحمساً وصاحب غَيْرة وحمية وعالماً جليلاً.

ولم يدخر الدكتور والشيخ عبد الرزاق الصالح وسعاً في المساعدة والتعاون، وقد تأثرنا بتدين الشيخ عبد الرزاق الصالح ورسوخه فيه، وتعاونه على البرّ والتقوى، وإخلاصه وربانيته، فلم يضطرنا إلى الخروج إلى أي شخص وجعل الزيارة ناجحة جداً بالنظر إلى مساعدة ندوة العلماء، وقد

قضينا العشرة الأولى من رمضان بها، واتصلنا بالشخصيات الموقـرة من أوساطها الدينية والعلمية، وألقيت عدة خطب للجمعة وخطابات عامة، كنت أخطب بعد الجمعة في مسجد كبير، وكان أسلوب الخطاب، وموضوعه أنه لو شاهد الكفار والمشركون من قريش حال المسلمين اليوم لتظاهروا واحتجوا ضدهم، وقالوا: ما كنا نتصور أن المسلمين سيصبحون طلاب الدنيا والمال والجاه، وما كانت الحرب بيننا وبينهم إلّا لأجل دعوة خاصة وعقيدة التوحيد وسيرة جديدة ومنهج جديد، فلو كان المسلمون يريدون الدنيا، فكنا قد عرضناها عليهم من قبل فرفضوها، كنت أقول ذلك وإذا بهتاف عالٍ من إحدى نواحي المسجد، فرأيت أن الناس يحملون شخصاً قد أُغمِي عليه من شدة التأثر.

وألقيت في هذه الرحلة ذات يوم خطاباً بالإذاعة الكويتية بعنوان: «اسمعي يا زهرة الصحراء» الذي ذكرت فيه أولاً ظهور دولة الكويت فجأة ورقيها، وازدهارها كما تظهر زهرة جديدة في الصحراء، ثم لفتّ الأنظار إلى ما تستطيع الكويت أن تقوم به من دَوْر في المدنية الحاضرة والخريطة العالمية، وما هي شخصيتها، وما هي سيرتها المثالية التي ينبغي أن تتظاهر بها أمام العالم، وكيف يقدر على تبوأ مكانة العزة والكرامة في العالم[١]، وقدمت في هذه الرحلة رسالة[٢] إلى أمير الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح، شرحت فيها طريق رقي العرب وازدهارهم، ووحدتهم، وقيادتهم، وحل قضاياهم ومشاكلهم، ونبهت ـ أخيراً ـ إلى خطر بناء معابد غير المسلمين في هذه الدولة المسلمة التي بدأت تؤسس وتقام في الكويت، والإمارات العربية، والتي تخالف صراحة وصية الرسول ﷺ: «لا يُترك دينان بجزيرة العرب»[٣].

---

(١) ضُمَّ هذا الخطاب إلى كتاب «العرب والإسلام».

(٢) مكتوب على الرسالة تاريخ ٢٢/ شعبان ١٣٨١ هـ.

(٣) أخرجه أحمد والطبراني.

الفصل السادس عشر

تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة والرحلة الثالثة إلى الحجاز، وإصدار جريدة «ندائي ملت».

تأسيس الجامعة الإسلامية:

كان قد مضى على رحلتي الثانية إلى الحجاز (٥٠ ـ ١٩٥١ م) أكثر من عشرة أعوام لم يسنح في هذه المدة باعث ولا مناسبة لزيارة الحجاز، فكنت لا أستطيع أن أتحمل تكاليف هذه الرحلة من قبل ولا من بعد، ولم تكن هناك دعوة من جهة موقرة، ولا تقدَّمَ أحد بطلب الحج عن الغير، وكان يخطر ببالي أحياناً لعلي قد صدر مني في زياراتي الأولى للحجاز شيء من سوء الأدب فحرمني هذا الشرف للأبد.

وحين زيارتنا للكويت عام ١٩٦٢ م فوجئنا ببرقية من معالي الشيخ محمد سرور الصبَّان ـ وزير المالية بالحكومة السعودية الذي علم بزيارتنا للكويت ـ يدعونا فيها لزيارة الحجاز والحج، وكان معلوماً أن ذلك أمر بسيط وسهل بالنسبة إليه ومركزه، وأن ما بيننا وبينه من صلة وثقة يسوغ لنا قبول هذه الدعوة الأخوية الكريمة، ولكني قلت لرفقتي: إننا لا نسافر على دعوة شخصية، ولا نريد أن نحمل منّة أحد بصفة شخصية، وأرجو أن الله تعالى سيهيىء أسباب ذلك في مستقبل قريب بنصرته الغيبية.

كنت في عليكراه، لعلاج كتراكت (Cataract) (نزول الماء) وإجراء عملية جراحية صغيرة في أواخر مارس ١٩٦٢ م، وكنت في مستشفى غاندي، إذ جاء لمقابلتي سفير السعودية سعادة الشيخ يوسف الفوزان، ولم يستطع أن يصل إليَّ لعدم وجود الدليل، فلما فرغت من العملية وجئت إلى لكهنؤ جاءتني رسالة منه يقول فيها: إن لدينا رسالة هامة موقرة، فإما أن تتفضل بالمجيء إلى دهلي، أو تبعث أحد الثقات عندك، فبعثت العزيز محمد الرابع، فأخبره سعادة السفير بأنه جاءت من المملكة السعودية رسالة موجهة إلى الشيخ أبي الحسن فيها الإخبار بقيام الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، واختيار فضيلة الشيخ عضواً في هيئة التدريس، والجهات المختصة تريد أن تعرف رأي الشيخ وما يقرّره في هذا الشأن.

فكان ردُّ فعلي على هذا كردّ فعلي عند الطلب من جامعة دمشق، أي أنني لا أستطيع أن أشتغل هناك بوظيفة مستقلة، ولكن يمكن أن أقدم لخدمة جزئية موقتة، كتبت هذا الرد إلى سعادة السفير وهو أبلغه بدوره إلى المملكة، وتلقيت بعد ذلك بمدة الإشعار بعضويتي في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية، وأن جلسته الأولى ستعقد في الأسبوع الثالث من شهر ذي الحجة بالمدينة المنورة، فاعتبرت ذلك في حقي نعمة غير مترقَّبة، ورزقاً غير محتسب، وأكمل السفير الموقر جميع إجراءات السفر ودعاني إلى دلهي.

خرجت في العشرة الأخيرة من ذي القعدة الموافق مايو ١٩٦٢ م بطائرة (T.W.A.) من بومبائي، يرافقني الشيخ محمد معين الندوي مساعد الأمين العام لندوة العلماء، وبتنا ليلة في الظهران، ثم توجهنا بالطائرة السعودية محرمين إلى مكة المكرمة، وقد كان العزيز الأستاذ عبدالله عباس يعمل حينئذ في الإذاعة السعودية، فنظَّم حفلة تعريف وترحيب بنا، حضرها سفراء بعض البلدان العربية وعدد من أعيان البلد، والقائد الإخواني المجاهد بالعراق الشيخ محمد محمود الصواف، وألقيت خطاباً في موضوع الجامعة

الإسلامية، وأن الإسلام هو مصدر القوة والعزة، وأن القومية العربية مصدر التخاذل والشقاء، وعلّق على خطابي الشيخ الصواف تعليقاً لائقاً.

وقد كانت بدأت ـ إذ ذاك ـ على لسان الرئيس عبد الناصر الدعوة بقوة وحماس إلى القومية العربية، وأنها موازية للجامعة الدينية والدعوة الإسلامية، وقد أحدث محاولة تأميم قناة السويس وهزيمة الحملة الإسرائيلية البريطانية تأثيراً سحرياً في هذه الدعوة الناصرية، وكان الشباب العرب لا يملكون أن يسمعوا كلمة واحدة ضدها، بل كانت الصحافة المصرية، وبعض أصحاب الأقلام المصريين يدعون الرئيس عبد الناصر بنبيِّ القومية العربية، وكان هذا الوضع يؤثر على العقائد الإسلامية والتصورات الدينية، وكانت تصدر ـ أحياناً ـ كلمات الكفر من أفواه كثير من الشباب.

ولقد كان كاتب هذه السطور بدأ انتقاده لهذه الفكرة الزائفة من ذلك الحين، ولكنه جعل ذلك موضوعه الخاص، واعتبره جهاد الساعة عندما لقيت مصر وجمال عبد الناصر الهزيمة النكراء في الحرب بين مصر وإسرائيل عام ١٩٦٧م وخرجت منطقة الضفّة الغربية وبيت المقدس كلها من أيدي المسلمين.

وقد نشرت مجموعة هذه الخطب والمحاضرات عام ١٩٦٩م بعنوان: «المسلمون وقضيّة فلسطين».

وكان الحاج محمد أرشد البشاوري ـ الذي تقدم ذكره ـ قد تولّى عمله قبل وصولي بزمن قليل، كمراقب ومدير لخطة التليفون الأوتوماتيكي، وكان مقيماً بجدة، وكنا نعتبر بيته كبيتنا، فنزلنا عنده هذه المرة، وأعددت في بيته على طلب من الإذاعة السعودية حديثاً بعنوان: «وفود الأمة بين يدي نبيّها ـ ﷺ ـ» وقد تحدثت في هذا الحديث في عالم الخيال كيف حضرت وفود الأمة من طبقة الأئمة المجتهدين إلى واضعي العلوم والفنون، وأئمة النحو والبلاغة، وعباد الله الصالحين، والربانيين والمربّين إلى مؤسسي الدول والحكومات، وقادة البلاد والمجاهدين في ساحات القتال، إلى الشعراء

وأمراء البيان، وأصحاب الأقلام الذين نفخوا في الأمة روح الثورة الصالحة، والحرية والجهاد، إلى ممثلات فاضلات للسيدات المسلمات والنسوة الصالحات، وهكذا كان طبقة من طبقات الأمة الإسلامية، تقوم بواجب الشكر والاعتراف، وتؤدّي هدية ـ ولا أقول ضريبة ـ الثناء الجميل والشكر الجزيل، وتصلّي وتسلّم على نبيها ـ ﷺ ـ وتعترف وتعلن أن كل ذلك رفد البعثة المحمدية، ورشح مننها العظيمة على مختلف شعب الحياة وجوانبها، والفضائل الإنسانية، وصناعتها للرجال وتربيتها للأجيال، كان هذا المقال مقالاً مثيراً يمتلىء حماساً وإيماناً، يثير عواطف الحب والشوق والحنان، نشرته الإذاعة السعودية، كما نشرت ترجمته الأردية إذاعة لكهنؤ ـ الهند ـ عدة مرات[١].

وصلنا إلى مكة المكرمة قرب أيام الحج، ولما كنا ضيوف الحكومة هذه المرة نزلنا لأول مرة في «لوكاندة مصر» أكبر فنادق مكة المكرمة، حيث كان كثير من أعيان الحجاج الوافدين من مختلف البلدان وضيوف الحكومة نازلين فيه، ويقع الفندق على مقربة من الحرم الشريف، فلم يكن يشق علينا حضوره.

تأسيس «رابطة العالم الإسلامي»:

وبينما أنا في مكة أنتظر الحج إذ جاء شخص ذات يوم يبحث عني، وسلّم إليّ رسالة من أحد الأصدقاء القدامى، وأحد أعيان مكة المكرمة الشيخ محمد صالح القزاز، ورد فيها أنه سوف يعقد مؤتمر إسلامي بتاريخ ١٤/ ذي الحجة، وسوف تكون حفلته في القصر الملكي، ويحضرها الملك سعود نفسه، فالرجاء منكم التشريف.

وقد عقدت الحفلة في تاريخها المقرر، وقد حضرها الملك إدريس السنوسي ـ حاكم ليبيا ـ وشخصيات أخرى ذات شأن، وقد أسست هناك

---

(١) وقد ضُمَّ هذا المقال إلى كتاب المؤلف «الطريق إلى المدينة».

منظمة عالمية باسم رابطة العالم الإسلامي، واختير الأعضاء المؤسسون، كنت أنا منهم، وقد اتفق مراراً أن رئيسها الدائم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ شيخ الإسلام بالمملكة السعودية ورئيس القضاة ـ إذا قام من الجلسة لحاجة من الحاجات، أو لم يشرِّف بالحضور، كنت أشرِّف برئاسة الجلسة، وقد ألقيت في الجلسة الأولى للرابطة مقالاً حول عنوان: «الأخوة الإسلامية فوق العصبيات» الذي ضم بعنوان: «القومية في ميزان العلم والتاريخ» إلى مجموعة مقالاتي ومحاضراتي باسم «العرب والإسلام» وهكذا تحققت فرصة ومناسبة أخرى ـ سوى الجامعة الإسلامية ـ لزيارة الحجاز.

وتوجهت بعد الحج إلى المدينة المنورة، وانعقدت جلسة المجلس الاستشاري في ٢٢/ ذي الحجة، وقد كان في أعضائه صفوة العلماء والمفكرين ورجال التربية والتعليم، ورؤساء المدارس والجامعات من مختلف البلدان، واختير الأستاذ المودودي من باكستان الذي بقي عضواً فيه لعدة سنين، وقد تقدمت في الجلسة الأولى بخطة وصورة لمركز تعليمي تربوي على مستوى عال يقوم في المدينة المنورة، وألقيت الضوء على منهجه ونظامه وجوانبه المهمة، وشرحت الغرض والغاية الأساسية منه، ونزلت هذه المرة على رغبة من صديقنا المخلص الموقر الحاج محمد نور وليّ بـ «بستان نور ولي» ومن ثم بدأت أنزل فيه دائماً أثناء إقامتي بالمدينة المنورة.

وبدأت سلسلة الزيارات مرة أو مرتين في كل سنة بعد هذه البداية المباركة وتحقق وعد الله تعالى ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ورجعنا في شهر محرم إلى الهند.

سلسلة المحاضرات بالجامعة الإسلامية:

وجهت إليّ في العام القادم عام ١٣٨٢ هـ الموافق ١٩٦٣ م دعوة من الجامعة الإسلامية لإلقاء محاضرات على الطُلّاب، واخترت لمكان المدينة المنورة عنوان: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» وتمثّلتُ في مستهلّ

المحاضرة الأولى ببيتي الشاعر العربي مستدلاً على سبب اختيار هذا الموضوع:

ولما نزلنا منزلاً طلّه النَّدَى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجدّلنا طيب المكان وحسنه مُنَىً فتمنّينا فكنتِ الأمانيا

وأعددت المحاضرات، التي صدرت فيما بعد بهذا العنوان نفسه في كتاب مستقل.

غادرنا إلى الحجاز في ١١/مارس ١٩٦٣ م، وكان يرافقني ابن أختي العزيز محمد الرابع الحسني في هذا السفر، بدأت سلسلة المحاضرات بتاريخ ٣/ ذي القعدة ١٣٨٢ هـ الموافق ٣٠/ مارس ١٩٦٣ م، وتمت ثماني محاضرات، وكانت تلقى هذه المحاضرات كل يوم اثنين وخميس، وكان يحضرها نائب رئيس الجامعة المربّي الكبير والداعية الموفّق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وكان يعلّق على المحاضرة بنفسه.

لقاءات مع جلالة الملك فيصل:

لقد شاهدت في جميع زياراتي للحجاز التأثير المتزايد للثراء والحضارة الغربية، وآثار الانحطاط الخلقي والديني في تلك الأرض المقدسة التي ليست هي مركز الإسلام فحسب، بل هي قلبها الخفاق، ورأيت أن الدعوة والتعاليم الدينية تفقد أثرها وسلطانها على مرّ الأيام، وكانت هناك مؤسسة مستقلة قديمة باسم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت الحكومة تشرف عليها، وترعاها، ولكنها كذلك كانت لا تزال تفقد تأثيرها ونفوذها وهيبتها، ويبدو أنه في الوقت الذي قامت فيه دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بثورة إصلاحية في مجال العقائد وبيان التوحيد الخالص ونشره والرد على الشرك والبدع والمحدثات ـ الذي هو من أهم مقاصد بعثة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات ـ لم تستطع لضيق الوقت ولأسباب سياسية أو مشاكل وقتية، إعداد ذلك الجيل الذي يقدم نماذج القناعة والزهد الإسلامي المثالي، وإيثار الآخرة على الدنيا، والصمود أمام الإغراءات المادية،

والثروات الطائلة وطغيان الرقي والمدنية، ثم توارت البقية الباقية من الأمثلة العملية والنماذج الرائعة لتولي من يضطلع بأعباء الدعوة وضرب المثل العملي للحياة المثلى مناصب الدولة الرفيعة وتقاضي الرواتب الكبيرة من الحكومة.

ويفيد تاريخ الملل والديانات أن عملية الربط والتنسيق بين روح الدين وجوهره، والخصائص الدينية والخلقية، وبين روح العصر ومقتضياته، والاستقامة على الصراط المستقيم، رغم توفر وسائل الزيغ والانحراف وفرصه وأسبابه من أصعب الأعمال وأشقّها على النفس، ويتطلب تربية عميقة شاملة واستقامة رفيعة، وذكاءً فائقاً، وأن مأثرة الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - لا تزال فريدة في التاريخ البشري، إذ أنهم مرّوا ببحر الدولة والسلطة الطاغي، وفيض الثروة الفياض، وأسباب الرخاء التي كانت في تصرفهم، ولم تبتلّ أقدامهم، وهكذا حقّقُوا ما تصوره الشاعر المجرِّب محالاً، إذ قال:

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له   إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء

وللأسف لم يتيسر للدولة السعودية - وهي الحكومة المسلمة الوحيدة في هذا العهد، التي كان أساسها على الدعوة والجهاد - أولئك المُخطِّطون والمستشارون المخلصون الأوفياء الأذكياء الذين لا يطمعون في جاه أو ثراء، والذين يوائمون بين هذه البداية للحكومة وأوجها وازدهارها، ويحدثون تفاهماً وتعاوناً بين التعاليم الدينية ومتطلّبات المدنيّة والرقيِّ الضرورية، بل كان كثير من هؤلاء المستشارين إنما هدفهم استغلال هذه الدولة والثّراء الفاحش، وكان من مصلحتهم أن تبقى هذه الدولة الناشئة - التي كان يمكن أن تصبح بروح التوحيد والجهاد فيها، أكبر قوة في العالم الإسلامي - في دائرة دينية ضيقة، حتى لا تفوتهم فرصة تكوين مستقبلهم الاقتصادي واستثمارهم.

وكانت المحنة الثانية في جانب آخر أن رفع عبد الناصر في أثناء حكمه لواء القومية العربية، وبذل جميع محاولاته لسيادته الكاملة على الشرق العربي، وكانت أكبر أهدافه في هذا الصدد الحكومة السعودية - التي كان قد ظهر فيها البترول كأعظم مصدر ورصيد للثراء - فبدأ باستمرار يتحدّى هذه

الدولة ويشهِّر بمواطن الضعف في حكامها وقادتها، وإحداث البلبلة والفوضى في هذه الدولة، الأمر الذي أدّى إلى زحزحة الثقة في المملكة، ومُركَّب النقص فيها، وقد كانت الصحافة والإذاعة المصرية أقوى صحافة وإذاعة في العالم العربي.

ورأى بعض العقلاء علاجاً لهذه المشكلة أن تظهر هذه البلاد أيضاً في مظاهر الرقي والمدنية الجديدة، وتهيّأ فيها جميع وسائل التسلية والترفيه، حتى لا يشعر فيها أي تقُدّميّ حُرّ بالخناق، ولا يضطر للخروج إلى مصر والتسلّي ببرامجها الإذاعية والتلفزيونية.

لقد كنت شعرت في زيارتي للحجاز عام ١٩٦٣م بهذا النوع من التفكير الذي بدت طلائعه، وقد كان الملك سعود إذ ذاك ملك البلاد وكان الأمير فيصل ولي عهده، وكان من حسن المصادفة أن زار هو أثناء إقامتي المدينة المنورة، فطلبت من مضيفي الكريم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبدالله الباز، الذي كان نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان عند الأمير فيصل احترام وتقدير خاص له، أن يحصل لي على فرصة الاجتماع به على انفراد، فنظم الشيخ ذلك، وقابلته في القصر الملكي في جلسة خاصة، وترجّيت منه أن يستمع إليَّ أثناءَ حديثي الذي أريد الإفضاء به إليه، فقبل ذلك، وتحدثت إليه، وأبديت شعوري بالخطر من أن المملكة ولا سيما الحجاز يُساق بها على طريق البلدان العربية «الراقية»، ويخطط لها ما يخاف منها على أهداف زيارة الحرمين الشريفين، وكونهما بلدين إسلاميين مثاليين، وتتأثر قداستهما وجلالتهما بذلك، فاستمع إلى حديثي بإنصات، وأبدى احتياط مملكته البالغ وحسن طويتها فيما يتعلق بالتخطيط للحجاز، وطمأنني على أنه سوف لا يحدث شيء مما تتوقعه وتخاف منه، والذي يخالف مكانة هذا المركز للإسلام ورسالته.

ثم لما تسلّم هو زمام الحكومة في البلاد كتبت إليه رسالة مفصلة، كان موضوعها الأساسي أن الحجاز لها شخصية خاصة ورسالة ومكانة خاصة، ولا

بد من الحفاظ عليها في كل عصر، ولا يجوز فيها أي إجراء «تقدمي» و«تغريبي» أو أي خطة للترفيه والتسلية تضر - أدنى ضرر - بشخصيتها وأهدافها ورسالتها، ثم كتبت إليه رسالة أخرى صرّحت فيها بأن تجربة تهيئة الأسباب والوسائل المادية للتسلية والترفيه، والرخاء والثراء، والعيش الهنيء اللذيذ، وشغلهم وإلهاءهم بذلك عن فكرة انتقاد الحكومة وتغيير الأوضاع ومطالبة الإصلاح - لم تزل فاشلة منذ عهد بني أمية إلى يومنا هذا، فإن هذه الطبقة نفسها التي تعيش في ثراء فاحش، وغنى مُطْغٍ، ولا يكون لها - في ظاهر الأمر - فرصة التفكير في شيء تكون أكثر الناس فقداً للطمأنينة والقناعة، وقلة شكر، ونُكراناً للجميل، وأنها هي التي تكون مصدر الثورة والطغيان، وبالعكس منها الطبقة المتدينة تكون أكثر الناس وفاءً وأمانة وثقة[1]، فبعث إليَّ ردّاً على هذه الرسالة بتاريخ ٩/ صفر عام ١٣٨٥ هـ وعليه توقيعه[2].

وقد كان لي معه - عدا هاتين المقابلتين - لقاءان آخران: أحدهما بجدة، والثاني بمكة المكرمة، وقد أبديت فيهما آرائي وملاحظاتي وتخوّفاتي، وشرح هو موقفه وموقف حكومته، وقد تأثرت بذكائه الفائق وحسن وفادته وطيب أخلاقه وصبره على الاستماع وبساطته تأثراً كبيراً، وبقي هذا التأثر، ولكن ظهر لي أنه مهما كانت الأسباب والحالات الاضطرارية، فإن المملكة لم تزل متجهة ذلك الاتجاه المرسوم الذي تقدمت إليه عام ٦٣ - ١٩٦٤ م.

في طريق الصحافة الإسلامية:

كنا بدأنا عام ٦٠ - ١٩٦١ م نشعر بشدة عدم وجود قيادة إسلامية جريئة في مجال السياسة والصحافة تكون مؤسسة على المعرفة العميقة الواسعة

---

(١) انظر هذه الرسالة في كتاب المؤلف «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب» ص/ ٤٤ - ٤٥.

(٢) انظر صورة هذه الرسالة في المصدر السابق، بين ص/ ٥٤ - ٥٥.

والتحليل الدقيق الأمين والتعليقات والتوصيات الجريئة، ويغلب عليها ـ مع ذلك ـ اللون الديني، والصبغة الإسلامية، فاضطرَّنا ـ أنا والشيخ محمد منظور النعماني ـ هذا الشعور القوي إلى إصدار جريدة «ندائي ملّت»، فتوكلنا على الله، وأصدرنا العدد الأول منها في ١٢/ مارس عام ١٩٦٢ م، وقد نالت هذه الجريدة بسرعة رواجاً وقبولاً في أوساط المسلمين الفكرية الجادة، ووجدت مكانتها اللائقة بين الصحف والمجلات، والجرائد الإسلامية، وبدأ يخيل للناظر القارىء أن هناك قيادة دينية ناهضة.

الفصل السّابع عشر

حوادث مهمة، الرحلة الأولى إلى أوروبا
وزيارة الأندلس
الاضطرابات الطائفية في المنطقة الصناعية

وفيات وحوادث:

لقد مُنيتُ عام ١٩٦٢ م بحادثين عظيمين: أحدهما وفاة المصلح الكبير الشيخ أحمد علي اللاهوري، الذي كان بتاريخ ١٨/ رمضان عام ١٣٨١ هـ الموافق ٢٣/ فبراير عام ١٩٦٢ م، ثم حدث بعد ذلك بستة أشهر حادث وفاة المربي الجليل الشيخ عبد القادر الرائي بوري، الذي تُوفِّي في ١٣/ ربيع الأول ١٣٨٢ هـ الموافق ١٦/ أغسطس ١٩٦٢ م بلاهور، وقد كنت تلقيت قبل ذلك بقليل دعوة صديقنا الحبيب الدكتور سعيد رمضان لمشاركة الجلسة الاستشارية للمركز الإسلامي بجنيف، وقضاء أيام مع الطلاب المسلمين المغتربين، وإلقاء الخطب والمحاضرات فيهم، ولكني اعتذرت عنها لما وصلتني من أخبار مرض الشيخ الرائي بوري الشديد الخطير، فآثرت السفر إلى لاهور على السفر إلى أوروبا.

رحلة إلى أوروبا:

قمت في سبتمبر سنة ١٩٦٣ م برحلة إلى أوروبا، كانت أولى

الرحلات في حياتي إلى بلاد الغرب، والتي بدأت في ١٩/ سبتمبر ١٩٦٣ م وانتهت في نوفمبر ١٩٦٣ م، وقد اخترت لمرافقتي في هذا السفر الدكتور اشتياق حسين القريشي الذي كان قد أقام من قبل في لندن لدراسة الطب، وكان هذا السفر في الأصل على دعوة من الدكتور سعيد رمضان للمشاركة في اجتماعات المركز الإسلامي بجنيف الذي كنت عضواً في مجلسه الاستشاري، وكان الدكتور دعا الطُلّاب المسلمين العرب وغيرهم المقيمين في المنطقة الوسطى بأوروبا، للتوعية والتربية والاستفادة كمخيم تربوي ثقافي.

وقد زُرتُ في هذه الرحلة جنيف، ولوزان، وبرن، وباريس، ولندن، وكمبرج، وآكسفورد، وغلاسغو، وإيدامبرا، وفي إسبانيا: مدريد، وطليطلة، وإشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، وقد ألقيت أحاديث ومحاضرات، منها حديث في المجلس الإسلامي بجامعة إيدمبرا، وخطاب في قاعة الاتحاد الطلابي بجامعة لندن، وخطابان في إذاعة B.B.C. أحدهما بعنوان: «انطباعات لأحد زوّار لندن» وكان الثاني حواراً حول موضوع الإمكانيات لرقي اللغة العربية وتقدمها وصلات البلدان الإسلامية بها، وكان أهم محاضرة في جامعة لندن بعنوان: «بين الشرق والغرب»، وقد كان نقله الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري - الذي كان مقيماً إذ ذاك بلندن - إلى الإنكليزية بعنوان (Between The East And West) وقد ألقى هذه الترجمة أحد الإنكليز المهتدين الجدد مصطفى إيوانس بحماس وتأثر واندفاع.

وقابلت في هذا السفر من فضلاء الغرب والمستشرقين: رئيس القسم العربي بجامعة آكسفورد البروفيسور Beeston، والمستشرق الفاضل المعروف DR. Arbery، والأستاذ Bashem أستاذ تاريخ الهند (قبل الإسلام) في School of Oriental and African Languages (مدرسة اللغات الشرقية والإفريقية)، والمستشرق المعروف Ericberth الذي كان رئيس جمعية أصدقاء الشرق الغربي بأمريكا، والذي كنت قرأت كتابه العلمي حول اليمن،

وقابلت من الفضلاء المسلمين الأستاذ محمد أسد، والدكتور حميد الله، والدكتور زكي علي، وقد وجدت في هذه الرحلة تسهيلات كثيرة.

وقد استفدت أيام إقامتي بلندن بمكتبة المتحف البريطاني (British Museum) ومكتبة أنذياآفس، وكتبت في أثناء هذه الإقامة مقدمة كتابي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» وكان ـ لحسن الحظ ـ الدكتور عبدالله عباس الندوي مقيماً في تلك الفترة بلندن، ولذلك نزلت بشقّته رقم ١٠ بكوينس وى (Queen's Way) ووجدت فيه راحة وأنساً أكثر.

على أرض الأندلس:

لقد كان أهم أجزاء هذا السفر وأحبّه إليّ هو زيارة الفردوس المفقود: الأندلس (إسبانيا اليوم) ولا أذكر بلداً عاش فيه المسلمون ثم محيت منه آثارهم واندرست ديارهم، وشعرت في زيارته بذلك الأنس والقرب والود والجاذبية الفتنة، حتى كأنّ أجواءها تعانقني وتضمني إلى جوانحها، وتحكي كل ذرة من ذراتها رسالة الحب والأنس، كما شعرت في زيارتي للأندلس، لقد وجدت في الصلوات هناك، ووجدت في ذكر الله من الرقة والتأثير ما لم أجده إلّا في أماكن معدودة، زرت أطلال مدينة الزهراء، وآثار الحمراء وسقوفها وجدرانها ونقوشها وجمالها، وللأسف لم أستطع أن أقيد مذكرات هذه الرحلة، إلّا أنني أذكر فيما يلي بعض مشاهداتي وانطباعاتي، وكنت أنشد بلسان الحال:

لمن الديار ببرقة الروحان   إذ لا نبيع زماننا بزمان
صدع الليالي إذ رمين دياره[1]   صدع الزجاجة ما لذاك تدان

لقد نكأت هذه الرحلة جروحي وقروح قلبي، وأصبح تاريخ المجد الحافل والقوة والشوكة والسلطان، والعلم والفضل والكمال عبر القرون والأجيال الذي انبث على آلاف من صفحات «نفح الطيب» و«الحلل السندسية»، والذي كنت قرأته ـ أيام الطلب ـ في «غابر الأندلس وحاضرها»

---

(١) في الأصل فواده، ويدل الليالي الغواني.

للعلامة كرد علي و «أخبار الأندلس» للشيخ خليل الرحمن ـ ماثِلاً في عالم الخيال أمامي، وعاد غضّاً طريّاً في ذاكرتي.

وتوجد أكثر الآثار الإسلامية في مدريد (مجـريط سابقـاً)، وتوليـد و (طليطلة سابقاً). خرجنا من مدريد إلى طليطلة بالحافلة (السيّارة الكبيرة السياحية) (Tourist Bus) وقُسم السياح والزوار إلى قسمين، قسم من يفهم الإنجليزية، وقسم من يفهم الفرنسية، وقد كان دليلنا يحدثنا بالإنجليزية، ويعرفنا بالآثار والأماكن التاريخية، وكان إذا عرَّف بشيء بدأه بكلمته When We Expelled The Arabs (عندما أخرجنا العرب) سمعت هذه الكلمة مرة أو مرتين، ثم لم أصبر ولم أتمالك، وقلت له: من فضلك لا تكرر هذه العبارة فإنها تؤلمنا، فأمسك عنها واعتذر إلينا، وقال إن لحاكمنا الجنرال فرانكو صلات طيبة مع العرب، وإننا نأخذ بالتسامح.

ووقفتُ عند الشباك في رحلتنا من مدريد إلى قرطبة على القطار، أصدّق قول الدكتور إقبال: (لا تزال رائحة اليمن في أجوائها العطرة، ولا تزال صبغة الحجاز ولونها في أنغامهـا وألحـانها)، وأنشد قـول الشاعـر الأندلسي:

جـادك الغيـث إذ الغـيث هـمـا يـا زمـان الـوصـل في الأنـدلس

ولما وصلت إلى قرطبة بدأت ترنُّ في أذني قصيدة إقبال الرائعـة بعنوان: «مسجد قرطبة» التي هي آيـة في الأدب، وتحتل ـ حسب رأي البروفيسور رشيد أحمد الصدِّيقي ورأيي أيضاً ـ لا في ديوان إقبال فحسب بل في آداب العالم مكانتها الخاصة الفريدة، وقد تذكرت هذه الأبيات منها ـ بصفة خاصة ـ التي يقول فيها الشاعر:

(إن روعتك وجمالك وجلالك ومهابتك دليل رجال الله، فهم من الجمال والروعة والمهابة بمكانك أنت من الجمال والجلال، بنيانك قوي محكم، وإن أعمدتك كثيرة لا تعد، كأنها في صحراء الشام جنات من نخيـل).

وقد غيرت الكنائس التي بنيت داخل المسجد شكل المسجد، ويصعب تعيين القبلة، ولكن رغم ذلك تحرّيت وتحققت من القبلة، وقمت في المحراب، وقال لي الدليل: إن أي صوت من هنا يسمع في أقصى نواحي المسجد، فهي مكّبرة طبيعية اكتشفها البناؤون العرب في الأندلس[1]، فلم أملك أن رفعت صوتي وصرخت ﴿ قل جاء الحقُّ وزَهَق الباطل، إنّ الباطَل كان زهوقاً ﴾ وحاول الدليل بصخبه ورفع صوته أن يغلبني على صوتي، فتذكرت قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآنِ والغَوا فيه لعلّكم تغلبون ﴾ وشاهدت ترجمتها العملية، وصليت كالدكتور إقبال رغم عدم السماح، ركعتين في مكان[2]، وكان وقت العصر، وخرجنا ثم صَلّينا في صحن المسجد صلاة العصر بأذان وجماعة، وكان ينظر سكان المدينة المسيحيون في حيرة وعجب إلى هذا المشهد الغريب.

وقد ازداد هذا التأثر واشتدت هذه العواطف في غرناطة التي ودّعتها أخيراً البقية الباقية من المسلمين، والتي شاهدت أرضها الأيام الأخيرة من حكومة العرب ومدنيتهم، ورأيت هذا البيت من شعر إقبال يصدق عليها، الذي يقول فيه:

(إن أرضك الطيبة في عين النجوم المتلألئة كالسماء العالية، يا للأسف الشديد إن أجواءك لم تسمع الأذان من قرون).

وجاء يوم الجمعة أثناء الإقامة بغرناطة، فدعوت الطلاب العرب الذين كان أكثرهم من المغرب الأقصى إلى أن نقيم الجمعة، ولم يحضر لضيق الوقت وقلة همة الشباب وعزيمتهم إلاّ عدد قليل، ولكننا صلّينا الجمعة في غرفة أحد الطلاب، ولا أدري بعد كم قرن صليت الجمعة على هذه البقعة

---

(١) توجد هذه الصنعة في مسجد بيجابور وفي أحد المساجد بدلهي الذي كان بُنِيَ قبل العهد المغولي.

(٢) نشر في الصحف قبل مدة من الزمن أنه فتح جامع قرطبة، وأنه لا تحظر الصلاة الآن فيها، ولكن لا ندري مدى صدق الخبر.

من الأرض، وأخبرني بعد عودتي بزمن أحد الطلاب العرب بأن هذه الجمعة لم تزل تقام، ولا أدري هل هي مستمرة أو لا، وإنه ليتقطع القلب وينزف دماً على تخاذل المسلمين وقلة همتهم وتوفيقهم.

إنه لم يحاول المسلمون في أي بلد ـ لا سيما المسلمين العرب ـ لاستعادة هذا الفردوس المفقود، ولم تبذل الجهود في سبيل الدعوة الإسلامية والتعريف بالإسلام في هذه البلاد فضلاً عن استعادة الحكم والسلطان، ولم يتحقّق أيضاً أن يتفرغ عدد من الشباب لتعلم اللغة الإسبانية، ليُعلّموا أهل إسبانيا مدى ما خسروه وما مدى ما ربحوه بإخراج الإسلام والمسلمين من هذه الديار، ومن أي رفعة وعلو نزلوا بشعبهم وبلادهم إلى الحضيض الأسفل، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

انطباعات عن رحلة أوروبا:

لا حاجة بي إلى تفصيل القول في رحلتي إلى أوروبا، فقد جاءت مذكراته ومعلوماته الضرورية في رسائلي التي بعثتها من هناك إلى أقربائي وأحبابي(١).

لقد كان الشيخ عبيد الله السندي عندما زار لكهنؤ عام ١٩٤٤م لأول مرة ونزل ضيفاً في مضيف ندوة العلماء، قال لي ذات يوم: يا شيخ أبا الحسن إنّ استعدادك عالٍ، ولكن بيئتك محدودة، فينبغي أن تسافر مرة إلى أوروبا، وكنت أيضاً أودّ أن تسنح لي فرصة زيارة أوروبا ومشاهدتها عن كثب لا عن كتب، لكوني انتقدت دائماً الحضارة الغربية والغرب بصفة عامة في كتاباتي ومحاضراتي، ولكن ليس الخبر كالمعاينة، وأحمد الله تعالى على أنني زرت الأماكن الرئيسية المهمة في أوروبا وزالت البقية الباقية من مهابتها وخطرها، ويحلو لي أن أنقل هنا بعض المقتطفات من رسائلي التي كنت بعثت بها من هناك أيام إقامتي، يمكن أن يقدّر بها انطباعاتي ومشاعري

---

(١) نشرت في أردو هذه الرسائل بعنوان: «مكاتيب يورب (أوروبا)» من مكتبة الإسلام ـ لكهنؤ.

نحوها، فقد كتبت في الرسالة التي بعثت بها من باريس في أول أكتوبر عام ١٩٦٣ م إلى ابن أخي العزيز محمد الحسني المرحوم عن المرأة، وما تنال من «كرامة وشرف» في أوروبا، والتي طبّلوا لها في العالم، ما يلي:

(لقد تحطّم طلسم مكانة المرأة وكرامتها في أوروبا وزال سحرها، فقد ظلّت المسكينة خادمة مهانة، فهي البائعة في الدكان، وهي الحمّالة للأثقال، وهي الموظفة لكل عمل، وتزاحم وتدفع في القطار، والسيارات والباصات، فالرجل جالس في راحة، والمرأة واقفة في تعب، لقد فُقِدت منها كل عناصر الحياء والأنوثة والجاذبية، وبذلك أدركت السبب وراء هذا الأدب وهذه الصور والأفلام وهذه النزعة المعاصرة في الروايات والتمثيليات، والعري الفاضح، الذي يستمر يومياً في التقدم، كل ذلك بسبب أن المرأة بفطرتها لم تعد تملك تلك الجاذبية والفتنة والجمال، فيريدون أن ينشئوها بهذه الوسائل الصناعية ويوقظوا في الرجال نوازعهم الفطرية الميتة»[1].

وجاء في رسالة أخرى من لندن مؤرخة ١٥/ أكتوبر عام ١٩٦٣ م:

(ليس الخبر كالعيان، وقد صدق مَن قال: أصبحت السيئات والحسنات شهود عيان، وزاد يأسي واشمئزازي من الحضارة الغربية، ويبدو أنها بلغت من فقدان الحس والشعور ما لا أمل معه في نهضتها، وإذا رأيتها من بعيد تعجبك وتحسن بها الظن، ولكن الحياة فيها حياة صناعية ميكانيكية، وليس هناك إلاّ القدرة الإلّهية التي تتصرف فيها، حتى يمكن هؤلاء أن يفكروا في حقيقة أسمى وأرفع)[2].

ومقتطف آخر يلقي ضوءاً كاشفاً على الحياة الغربية، وحضارتها وشخصيتها:

---

(١) رسائل أوروبا ـ ص ٢٧.
(٢) رسائل أوروبا ـ ص ٣٩ ـ ٤٠.

«إنه لا بدّ مع ذكر إنكلترا من ذكر الإنكليز، ومع ذكر أوروبا من ذكر الفرنج، لقد قضت المادية وحبّ الدنيا، والخوض في متاع الحياة والتنازع للبقاء والمقاييس المصطنعة والمُثُل المفروضة، والسعي الحثيث وراء الحصول على الأغراض والأهداف التافهة، على المشاعر الرقيقة والشعور بالفراغ الروحي، وعواطف الخضوع لله، ولذلك فإنهم -رغم جميع استعداداتهم وصلاحياتهم العقلية وقوة إرادتهم وشعورهم بالمسؤولية، ونظامهم وتمسكهم بالأصول وكثير من الحسنات فيهم- محرومون من الحركات الروحية الصحيحة، والفتوح الدينية، وإن هذه الأرض المليئة بالمتخصصين في كل فن خالية تماماً من الربانيين، قد صدق الدكتور محمد إقبال المطّلِعُ على خفايا هذه الحضارة إذ قال عن الغرب:

إن هذا الوادي الأيمن لا يليق بـ «التجلي» ولا يستأهل له.

وقد احتجت فطرته السليمة ضد هؤلاء السَحَرة الإنكليز بعد أن مكث برهة من الدهر فيهم، فقال:

«لقد جالست خيار هؤلاء وعاشرتهم مدة من الزمن، فلم أرَ أياماً في حياتي أكثر ظلاماً منها، وأشد خواءً وفراغاً روحياً».

وقد قضى الخنزير والخمر على البقية الباقية من سلامة الفطرة ووخز الضمير فيهم، وقد أصبحت حكمة التحريم لجُمّاع الإثم (الخمر) -التي كنت مؤمناً بها ومقتنعاً بهذه الحكمة بالغيب- عين اليقين، ومشاهدة عيان»[1].

الرحلة الثانية إلى أوروبا:

ومما جرَّبتُه كثيراً أنه إذا لم يتفق للإنسان سفر إلى بلد ما من البلدان، فيتأخر ذلك إلى مدة طويلة، ولكنه إذا اتفق مرة، فإنه يتكرر ويتفق مراراً،

---

(١) رسائل أوروبا - ص ٥٥ - ٥٦.

كان هذا شأني في الرحلة إلى أوروبا، فقد سافرت بعد ذلك في العام القادم ١٩٦٤ م[1] في شهر أكتوبر لحضور مجلس المركز الإسلامي التنفيذي بجنيف، ورافقني في هذه الرحلة العزيز محمد الرابع الندوي، ونزلت هذه المرة في لندن في بيت الأستاذ السيد منوَّر حسين البهاري (Finsbury Park) بلندن، وقد كان السيد أمير جماعة التبليغ بها، وكانت عنده الجنسية البريطانية، وذهبنا في هذه الرحلة إلى ألمانيا بدل فرنسا، ومكثنا قليلاً في برلن، وآخن، وميونخ ومررنا ببون.

وما أخصُّه بالذكر أنني شاهدت بأم عيني في برلن الشرقية قهر النظام الاشتراكي وكبته، وأنه صناعي وغير فطري، بحيث لو قرأتُ خمسين كتاباً في هذا الموضوع ما كنت أستطيع أن أقيس هذا الوضع الموجود، ومن أهم خطاباتي ومحاضراتي في هذه الرحلة خطاب مهم في المركز الإسلامي في بيكر استريت لندن ـ ألقيته أمام الطلاب والشباب[2]، وخطاب في برلن للشعب الألماني في جامعة الهندسة بتاريخ ٢٧ أكتوبر عام ١٩٦٤ م، وقد نقل هناك إلى اللغة الألمانية وألقي فيها، وعرّجتُ في العودة من هذه الرحلة على إستانبول (القسطنطينية) حيث مكثت يوماً، وألقيت خطاباً أمام مجموعة طيبة من صفوة المستمعين، ومكثت بدمشق ثلاثة أيام، ثم رجعت عن طريق كراتشي إلى الهند.

وكانت لي بعد هذه الرحلة رحلتان أخريان إلى أوروبا، ورحلة عام ١٩٧٨ م إلى أمريكا، وقد صدرت مذكراتها المفصلة في كتاب العزيز الأستاذ محمد الرابع في أردو (شهران في أمريكا).

الاضطرابات الطائفية العنيفة في مناطق الهند الصناعية:

لقد اشتعلت في أواخر ديسمبر ١٩٦٣ م وأوائل يناير ١٩٦٤ م نار

(١) كان موضع ذكر هذه الرحلة بالترتيب التاريخي بعد قيام المجلس الاستشاري عام ١٩٦٤ م، ولكن ذكرتها هنا مراعاة للرحلة الأولى إلى أوروبا، وذكرهما في سياق واحد.

(٢) الخطابان كلاهما موجودان في كتاب المؤلف «حديث مع الغرب».

الاضطرابات الطائفية الشديدة في كلكته التي كبّدت المسلمين خسائر جسيمة في أموالهم وأنفسهم، وتأثرت بها حياتهم الصناعية والتجارية تأثراً بالغاً، وقد لوحظ هلاك الأنفس والأموال وهدر الأعراض في جانب، كما لوحظ في جانب آخر اختلافات الجماعات والمنظمات الإسلامية التي بدأت أعمال الإسعاف والمساعدة للمنكوبين تحت لوائها وبأسمائها المختلفة، وتفرقها، ووجود القيادة المُوحَّدة والمركز المشترك للمسلمين في البلاد، الذي يستطيع المسلمون به أن يرفعوا صوتهم إلى قصر الحكومة والحزب الحاكم وتكون كلمتهم مسموعة نافذة.

كل ذلك كان يدعو أصحاب الغَيْرة والحمية من المسلمين إلى التأمل والتفكير، وأن يعالجوا هذا الوضع السيء بسرعة، ولم يكن العامة قلقين على هذا الوضع فحسب بل كانوا متبرمين ومتذمرين منه، ويطالبون بأن يجتمع قادة المسلمين ورؤساء جماعاتهم وأحزابهم في مكان ويوحدوا صفهم، وإذا لم يكن هناك شخص واحد أو جماعة واحدة تقدر على القيادة، فليتفقوا على قيادة جماعية موحدة (Collective Leadership) ويكوِّنوا لهم مركزاً موحَّداً، وقد كان الدكتور السيد محمود (وزير الخارجية سابقاً وعضو البرلمان الهندي، ومن القادة المسلمين الوطنيين) الذي سافر إلى كلكته بعد الاضطراب، أكثر الناس حساسية وتأثراً في هذا الموضوع.

ثم نشبت اضطرابات وحشية فظيعة هائلة في مارس عام ١٩٦٤ م على حدود المنطقة الشمالية في الهند: رانجي، وجمشيد بور، وراور كيلا، حيث قتل في جمشيد بور وراور كيلا فحسب ثلاثة آلاف من المسلمين[١].

ويكفي تقدير عنف هذه الاضطرابات وشدتها وسفك المشتركين فيها للدماء وقتلهم للأبرياء ووحشيتهم الفظيعة، هذه القطعة من رسالة المستر

---

(١) انظر تقرير شري نابا كرشنا جودهري كبير الوزراء بولاية أريسه سابقاً، وشري موهن جودهري.

بركاش نرائن التي كتبها إلى نوّاب البرلمان ورؤساء الأحزاب السياسية، يقول فيها:

(أما العدوان والظلم فقد جاوز كل الحدود في رأيي، لقد ارتكبوا كل جريمة يتندّى لها جبين الحياء وتشمئزُّ منها الإنسانية، وإن كل ما حدث كان فظيعاً شنيعاً، ولكن يستحيل في بعض الحالات تقدير الهمجية والضراوة والقسوة والسقوط، فقد عمل فيها من الفظائع الرهيبة التي لا تعلم عنها دلهي ولا البلاد كلها، في أي نطاق وإلى أي مدى كانت هذه الاضطرابات).

ويزيد قائلاً:

(وقد ثبت أيضاً أن التعليم ليس علاجاً للوحشية والعمليات الإجرامية، وأنه إلى أي حد تفقد المصالح الإدارية في الحكومة القدرة والكفاية والصلاحية).

قضية تستحق العناية والاهتمام البالغ:

لقد هَزَّ هذا الحادث الذي بذَّ جميع حوادث الاضطرابات في نوعها ونطاقها وسعتها كياني، وملك أعصابي وأعصاب رفقتي وأصحابي، واضطر كل من يفكر ويدرك الأمور إلى التأمل في أنه إذا استمرت سلسلة هذه الحوادث، ولم تبذل جهود ومحاولات جادة قوية مؤثرة لمقاومتها وإيقافها، فإنه سوف لا يبقى مجال للأعمال التعليمية الإيجابية البناءة في الهند فحسب، بل يصبح كيان المسلمين الديني والاجتماعي مهدّداً وتحت رحمة الوحوش الهمج، ثم لا يمكن منعهم من هجرة وطنهم واللجوء إلى مكان آمن حيث يستطيعون أن يعيشوا في حرية وكرامة، أو يتحولون إلى مكانة الطبقات المتخلفة المنبوذة التي قد رضيت بالتخلّي عن شخصيتها وشعارات دينها وماضيها العريق، ولذلك فإنه لا بدَّ من العناية البالغة قبل جميع الأعمال والمشاريع التعليمية والبنائية بهذه القضية الحساسة الخطيرة.

وقد شعرنا في هذا المجال بضرورة أن يشارك في هذا العمل بعض

القادة الشجعان المستميتين المخلصين من طبقة الأغلبية الـذين ينزلـون كغاندي إلى هذا الميدان، ويقومون بهذا العمل في استماتة وحماس، لأنه مهما كان القادة المسلمون مخلصين متسامحين عاملين بروح إنسانية، فإنه لا يكون لهم من التأثير والاحترام ما يكون لعمل غير المسلمين في هذا المجال وتصدِّيهم لحماية هذه القضيّة والدفاع عنها، فإن المسلمين أقلية مستضعفة، فسوف يحمل الناس حركتهم هذه على عاطفة الحفاظ على أنفسهم وضعفهم وجبنهم.

ولمَّا فكرنا في هذا الصدد، وقع اختيارنا أولاً لهذه المهمة على جَـيْ بَرْكاش نرائن وأجاريه ونوبا بـهاوي، فقد كان أولهما رفع صوته ضد هذه الاضطرابات بجراءة خلقية كبيرة، واقترح تكوين «جيش الأمن»، وكان الثاني منهما خليفة غاندي وقائد «حركة سرودي» وقائداً روحياً شعبياً محباً للإنسانية، ونتيجة لهذا التفكير سافرنا أنا والشيخ محمد منظور النعماني، وقابلنا المستر جي بركاش نرائن في منزله بدلهي بتاريخ ٢٢/ مارس ١٩٦٤ م، وقد حضر هذا الحديث أيضاً المستر أنّا جي من أخصّ أصحاب ونوبا بهاوي، وكان الأستاذ محمد مسلم مدير تحرير جريدة «الدعوة» يشاركنا في هذا الحديث، وقد أشار علينا جي بركاش نرائن بمقابلة ونوبا بهاوي، وقال: إنني سوف أحضر أيضاً إليه، وسوف أساعدكم في هذه المهمة.

لقاء مع وِنوبا بهاوي واليـأس منه:

وعلى كل فقد توجهنا ـ أنا والشيخ منظور النعماني ـ لهذه المهمة إلى ناكبور، وأخذنا معنا الشيخ محمد عمران الندوي، وشاركنا في هذا الوفد القاضي مسعود النانوتوي كذلك بإشارة من المفتي عتيق الرحمن، وقد كان ونوبا بهـا وي خرج في تلك الأيام من «واردها» ـ الذي كان مركزه ومقره الدائم للزيارات ـ ماشياً على قدميه، فقابلنا في قرية على ستة أميال من ناكبور في ٢٨/ مارس ١٩٦٤ م، وصادف ذلك اليوم يوم صومه الذي لم يكن يسوغ له فيه الكلام، وكنت قد أعددت مذكرة من قبل، وكانت ترجمتها

الإنكليزية أيضاً عندي، وأنقل منها ما يلي:

(أننا في حاجة إلى جهود مستميتة ننسَى فيها أنفسنا ومصالحنا، لإيجاد الحب والثقة المتبادلة فيما بين الناس، وقد وقفت الهند على مفترق طريق من التاريخ خطير دقيق حاسم، طريق يؤدي إلى الدمار الأبـدي، والفوضى المستمرة والسقوط الدائم، وطريق آخر يؤدي إلى الأمن والسلامة الدائمة والاتحاد والثقة، وإنه يظهر ـ دائماً ـ لدى هذه المنعطفات أناس يغيِّرون وجهة التـاريخ والأحـداث، وتقف جراءتهم وصـدقهم وصـراحتهم واستمـاتتهم وتضحيتهم دون سقوط الشعب والبلاد، وهؤلاء في الواقع هم البنـاؤون للبلاد، وأكثر ما يكون هؤلاء الناس خارج قصور الحكم والسلطان ودوائر السياسة من الخادمين المخلصين للبلاد والقادة الروحيين الصادقين، الذين لا يمكن أن يرتاب في صلاح نياتهم، ويعترف بصدقهم وإخلاصهم، ويكون لهم ماض مشرق بعيد عن كل ظنة وتهمة.

وقد جئنا إليك مؤمّلين أن سيادتك تقود البلاد في هذه الساعة الخطيرة الدقيقة، وتضع ثقلك بكل إخلاصك وعزيمتك وتضحيتك وحبك للإنسانية في تأييد هذه القضية).

وقد أشرت في هذه المذكرة إلى فظاعة الاضطرابات الطائفية ووحشيتها إشارات، وكان ونوبا بهاوي اطلع على أخبارها بوسائطه أيضاً، ولكننا شعرنا بأن الصدمة التي كان ينبغي أن يحس بها في قلبه بقراءة المذكرة والتأثر الذي كان ينبغي أن يظهر في وجهه وعينيه بهذه الأعمال الوحشية وسفك دماء الناس، لم يبد شيء من ذلك.

ثم قابلناه يوم ٢٩/ مارس بناكبور مقابلة تفصيلية، وقد كان المستر جي بركاش نرائن هناك وقابلناه كذلك، ولكن لم نر بصيصاً من الأمل، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن الأهمية التي كانت لديهم لـ «حركة بهودان»[1] وقضية

(١) دعا ونوبا بهاوي إلى التبرع بما يفضل من الأراضي للطبقة المنبوذة المحرومة، وقد تحقق أن أكثر ما تبرع به الملاك وأصحاب الأراضي لهذا الغرض ليست له قيمة ولا تصلح للزراعة.

حماية البقرة[1]، لم تكن لوقف هذه الاضطرابات وحماية دماء الناس وأعراضهم، وأنهم لم يقوموا لذلك بأي حركة مؤثرة مستمرة تؤثر على هذه الأوضاع المتردية، فضلاً عن أن يستميتوا في سبيلها ويضحوا بشيء من نفيسهم وغاليهم، وقد تركزت كل عنايته واهتمامه ـ أخيراً ـ لا سيما في الأيام الأخيرة من حياته ـ على وضع قانون لحماية البقرة ومنع ذبحها، ولا أجد لوصفه نظراً إلى تفكيره ومنهجه هذا كلمة أبلغ من أن أقول: إنه رجل جانبه التوفيق.

زيارة المناطق المتأثرة بالاضطرابات، والسفر إلى جمشيد بور وراور كيلا:

توجهت في أواخر مايو مع الشيخ أبي العرفان الندوي إلى جمشيد بور وراور كيلا، وشاهدنا هناك بأم أعيننا رشاشات الدم على الجدران، ورأينا هامات الناس ورؤوسهم مقطوعة مرمية على الساحة كالبطيخ، وسمعنا قصص الوحشية النادرة والضراوة البشعة، قابلنا أناساً شاركوا في هذه الاضطرابات، كما قابلنا أولئك الذين دافعوا عن الناس من دون تمييز بين أهل ديانة وديانة، وقاموا بالعمل المخلص الخطير لحماية الأنفس والأعراض، أخص بالذكر منهم شري نابا كرشنا جودهري كبير وزراء ولاية أريسه سابقاً، الذي قابلناه في راور كيلا، وقابلنا «أكم بابو»، الذي أثبت جراءته وكرمه ومواساته للإنسانية بإخلاص وهمة، وقد قوي فينا الأمل بمقابلتهما بأنه لا يزال في الدنيا وفي كل فرقة وأهل ديانة من أصحاب الشرف والجراءة والضمائر الحية والقلوب الخفاقة، الذين يغامرون بأنفسهم ويخاطرون بحياتهم لصيانة غيرهم والحفاظ عليهم، والذين لا يخافون في ساعات المحنة والبلاد من أن يعلنوا شهادتهم في صدق وصراحة[2]، التي تخالف مصالح قومهم وأهل ديانتهم أنفسهم، وقابلنا شخصين أو ثلاثة من أمثال هؤلاء من طبقة الأكثرية، وأشدنا

---

(١) كان ونوبا بهاوي متحمّساً جداً في حركة حماية البقرة من الذبح، واعتبارها حيواناً مقدساً معبوداً.
(٢) انظر كتاب المستر شري نابا جودهري «سوف لا أسكت» (بالإنكليزية).

بعملهم هذا الجريء المشرف، ونوّهنا به تنويهاً كبيراً وأثنينا عليهم، ورجعنا في أواخر الأسبوع الأول من يونيو إلى لكهنؤ.

الدعوة إلى قيام المجلس الاستشاري الإسلامي وتأسيسه:

ولم يكن لدينا بعد مشاهدة نتائج هذه الجهود إلّا طريق واحد، وهو أن تبذل محاولات جادة لنفخ روح المقاومة والعزيمة والاعتداد بالنفس والاعتماد على الله تعالى، وملأ فراغ القيادة في المسلمين الذي كان له دور كبير في وقوع مثل هذه الأحداث والأوضاع، ويحاول في جانب آخر إيجاد جوّ من الأمن والسلامة في البلاد، يهدىء الأعصاب، ويحمل سكان البلاد على أن يتعايشوا تعايشاً سلمياً كمواطنين يحترمون الإنسانية، ويقضي على سموم العداوة والأحقاد التي ولدتها السياسة الطائفية والخطابات المثيرة الملهبة للعواطف والصحافة اللامسؤولة.

وقد كان الدكتور السيد محمود أكثر الناس هماً وحزناً على هذا الوضع وتفكيراً فيه، وكان يرى أن عقليات قادة الأحزاب السياسية ليست نقية نزيهة، بل فيهم نزعات طائفية، ولكن الجماهير في الهند لا تزال على الفطرة لم يتسرب فيها سم السياسة ولوثها، ولا تزال ضمائرهم حيّة، وهم في حاجة إلى من يقرع أبواب قلوبهم ويتوصل إليهم، وكان يرى ـ وصدَّقه الواقع ـ أن البلاد تعاني من فراغ قيادة روحية خلقية، لا يمكن أن يملأه إلّا المسلمون بتعاليمهم القرآنية، وسيرة الرسول ﷺ، فيجب عليهم أن يتحملوا مسؤولية هذه القيادة، وكان الدكتور في هذا الصدد على اتصال دائم بي وبالشيخ محمد منظور النعماني في لكهنؤ، وبالمفتي عتيق الرحمن والشيخ أبو الليث الندوي أمير الجماعة الإسلامية بالهند، والشيخ محمد مسلم مدير تحرير جريدة «الدعوة» الذي قام في هذا المجال بدور مُهِمّ كبير في دلهي.

وكان من نتيجة هذه الاتصالات والمشورات واللقاءات أن نقرّرَ أن يعقد اجتماع استشاري إسلامي في أقرب وقت ممكن يقرر فيه منهج العمل ويبدأ به، وقد قرر أن يعقد هذا الاجتماع لبعض المصالح الخاصة في لكهنؤ بدل

دلهي، وقبلنا ـ أنا والشيخ منظور النعماني ـ مسؤولية ذلك، وتقرر للاجتماع تاريخ ٨ ـ ٩/ أغسطس ١٩٦٤ م ووجهت دعوات لحضور هذا الاجتماع إلى قادة ورؤساء الجماعات والمنظمات الإسلامية وكبار الفضلاء والموجهين المتألّمين من هذه الأوضاع.

عملية جراحية في العين في بومبائي
واجتماع المجلس الاستشاري بلكهنؤ:

واضطررت أثناء هذه الفترة في منتصف يوليو للسفر إلى بومبائي لعملية جراحية في العين، وقد قام دكتور بارسي جراح مشهور بهذه العملية، وقد تمت العملية، ولكن تحقق بعد ذلك أنها لم تكن ناجحة وأنه لم يؤخذ فيها بالاحتياط اللازم.

كنت في أثناء ذلك لا أعرف شيئاً من التفاصيل ولا صلة لي بالأعمال والإجراءات، ورجعت إلى لكهنؤ في الأسبوع الأول من أغسطس، وقد كان الدكتور الجراح أوصاني بالراحة الكاملة والحيطة البالغة، وأمرني أمراً باتاً بأن لا أخطب ولا أرفع صوتي في الكلام، ولكن كان من اللازم عليَّ أن أتعرض لذكر بواعث هذا الاجتماع وعوامله، وأن يوجد جو من الجد والمسؤولية وإدراك قضايا المسلمين وتلمس حلولها في ضوء العقلية الدينية الصحيحة، وبروح من الإخلاص والإيثار، لا يتوفر في مثل هذه الاجتماعات التي يبحث فيها في القضايا السياسية وتتعارض فيها مصالح الجماعات والأحزاب، فأمليت كلمة وأحسست أثناء الإملاء بألم في العين، واضطررت للراحة لساعة، ولكن أعددت الكلمة، وقد مرت عليَّ أثناء المشاركة في أعمال المجلس الاستشاري أزمات ومحن، خفنا منها على هذا التجمع والوحدة أن ينفرط عقدها وينقطع سلكها، وينتهي المجلس إلى إخفاق وخيبة، ويسبب اليأس وسوء القالة في البلاد، فلم أملك نفسي في مثل هذه المناسبات والساعات الحرجة ـ رغم تحذير بعض الأصدقاء من الحماس والتأثر البالغ،

والمخاطرة بالعين ـ فكانت النتيجة أن نجحتُ في قصدي، ونجح الاجتماع ولكن تأثرت عيني.

جولات لوفد المجلس الاستشاري الإسلامي:

لقد قرر المجلس قراراً حكيماً حين عزم كأول إجراء في هذا الصدد على القيام بجولات في المناطق المفجوعة بالاضطراب، وأن يبعث لذلك وفداً موقراً محترماً، ورأوا من الضروري أن أشارك أيضاً في الوفد، فشاركت الوفد بعيني المريضة المكلومة، وبدأت جولة الوفد في الأسبوع الثاني من سبتمبر ١٩٦٤ م، وقد كانت جمشيد بور تلك المنطقة الشقية والأرض المصابة التي أهريقت فيها دماء المسلمين بسخاء قبل أيام، لعله لم تمح آثارها بعد، وقد عقد الاجتماع العام في ساحة كبيرة ورأس الاجتماع المدير العام لشركة «تاتا» (TATA Company) الذي كان هندوسياً من الفنجابيين، وكانت الساحة مكتظة بالناس وقد حضر فيها عدد كبير من المسلمين والهندوس.

ذكرت في كلمتي ـ وقد اخترت لها موضوع مركز جمشيد بور الصناعي الذي يقوم فيه الحديد والصلب بدور كبير خاص ـ انحطاط البشرية وسقوطها وتسفُّلها، وقلت لو كان لهذا الحديد لسان لرفع صوته قائلاً:

إن خالقنا وفاطر الكون لم يخلقنا، ولم تبذل الجهود علينا في مصانعنا، لنُستَعمل في قطع رقاب الناس، الذين هم أشرف الخلائق أجمعين، فليس الذنب ذنبنا، بل ذنب هؤلاء المثقفين وجريمتهم، الذين يستخدموننا للإهلاك والإبادة بدل الحماية والحفاظ، والهدم والتدمير، بدل العمارة والبناء، والتعذيب والإيذاء، بدل اللطف والرفق، وقد قال رئيس الاحتفال وهو مدير المصنع الكبير الهندوسي الذي كان يعرف اللغة الأردية معرفة جيدة في أذني:

لقد كان خطابك في مكانه وأوانه وقد أعجبني جداً، والناس في حاجة إلى مثل هذه الكلمات.

وكنت على موعد قريب للرحلة الثانية إلى أوروبا، فعدت من جمشيد بور إلى لكهنؤ.

وقد كانت أنجح هذه الجولات وأطولها وأوسعها تلك الجولة التي قمنا بها في ولاية ميسور، ولكن لما أنها تتعلق بسنة ١٩٦٦ م، فهي خارجة عن نطاق هذا الجزء من الكتاب[١].

مشاركة مؤتمر رابطة العالم الإسلامي:

عقدت رابطة العالم الإسلامي ـ حسب قرارها السابق ـ مؤتمرها الأول في ذي الحجة ١٣٨٤ هـ الموافق إبريل ١٩٦٥ م، وقد دُعيت إليه كبار الشخصيات من مختلف بلدان العالم الإسلامي، وبعثت لذلك أكثر بلدان العالم الإسلامي وبعض البلدان التي يحكمها الأكثرية غير المسلمة ويحتل فيها المسلمون مكانة خاصة وفودَها للمؤتمر، وشاركت أنا والشيخ محمد منظور النعماني ـ الذي كان اختير عضواً في الرابطة قبل مدة قليلة ـ كعضوين فيها.

جلسات المؤتمر:

وقد شاهدت في هذا المؤتمر الشيخ أحمد وبلّو الداعية المجاهد والقائد المسلم ورئيس وزراء نايجيرياء عن كثب، وسمعت خطابه الإيماني المثير باللغة الإنجليزية الذي انتقد فيه القومية العربية انتقاداً صريحاً، وقد كان افتتح الملك فيصل الجلسة الأولى للمؤتمر ورأسها، ورأس الجلسات التالية الأمير فهد، وكنت قد أعددت لهذا المؤتمر مقالاً بعنوان: «تمثيل الحياة الإسلامية الصحيحة مسؤولية البلد الأمين» وذكرت فيه أنه يجب عليه أن يحافظ دائماً على خصائصه ومكانته ومميزاته، وكنت قد أمليت هذا المقال على عجل في مطار البحرين، حيث كان علينا قضاء يوم كامل في انتظار الطائرة، وكنت لا أقدر لضعف بصري على قراءة المقال، فقرأه على طلب

---

(١) وقد صدرت مذكرات هذه الرحلة في كتيب مستقل بعنوان: «اثنا عشر يوماً في ولاية ميسور».

مني الأستاذ عمر الداعوق مؤسس جماعة عباد الرحمن في لبنان.

وقد كان يرافقني في هذا السفر الشيخ محمد معين الندوي، وقد كان سفرنا عن طريق كراتشي والبحرين، وزرنا المدينة المنورة بعد الفراغ من المؤتمر والحج، وحضرنا جلسات المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية.

آلام العين وأمراضها ودخول المستشفى عدة مرات:

كنت في إحدى جولاتي لهيئة التعليم الديني في المنطقة الغربية من أترابرديش في ٢٢/ يونيو ١٩٦٥ م، وكان الطقس حاراً جداً، وتهب السموم، وكانَ السفر بالباصات، وخطبت في الليل في اجتماع عام، ولما قمت من النوم عند السحر أحسست بأن عيني اليسرى التي كانت قد أجريت فيها العملية الجراحية قد ذهبت وكُفَّ بصرها، وتأثرت بذلك نفسياً تأثراً عميقاً، ورجعت إلى لكهنؤ، ثم سافرت إلى سيتابور حيث أدخلت بتاريخ ٢٦/ يونيو ١٩٦٥ م في مستشفى العين الشهير بسيتابور، وعلمت هناك أنني أصبت بـ (Haemorrhage) وعالجني الأطباء المتخصصون الحاذقون، وخرجت من المستشفى في ١٤/ أغسطس، وعدت إلى أعمالي العلمية والتأليفية، وأمليت مقالاً وأنا مصاب بالزكام الشديد لجلسة مهمة خاصة للمجلس الاستشاري، فكان من نتيجة ذلك أن أصبت بعِده بأربعة أيام بـ (Glaucoma) وأدخلت اليوم التالي ٧/ ديسمبر مرة ثانية في مستشفى سيتابور.

وقد كانت هذه الأيام التي قضيتها في المستشفى أشدّ أيام حياتي وأكثرها محنة وبلاءً وصراعاً بين الموت والحياة، وكنت أظن أنني سأقضي بقية أيام حياتي ضريراً مكفوفاً، وبقيت في المستشفى إلى ٢٠/ فبراير عام ١٩٦٦ م بدون جدوى، وأخيراً عدت إلى لكهنؤ، وعولجت بأدوية «هوميوبيتها» التي زال بها الألم وشفيت قليلاً، ولكني بعد خروجي من المستشفى بدأت أعتقد كأنني أسير أُفرِجَ عنه لمدة يسيرة، فيجب علي أن أنصرف إلى إكمال بعض أعمالي التأليفية وكان من أهمها كتاب «الأركان الأربعة» الذي ملك موضوعه مشاعري وتفكيري أثناء وجودي في المستشفى،

وإكمال كتاب والدي «جنة المشرق» وترتيبه من جديد، وقد طبع هو فيما بعد باسم «الهند في العهد الإسلامي» بـ «دائرة المعارف العثمانية» وإكمال تراجم المجلد الثامن من كتاب الوالد «نزهة الخواطر»[1].

وقد بقي ضعف بصري هذا واضطراري إلى الاستعانة بغيري في القراءة والإملاء إلى أوائل يوليو عام ١٩٧٨ م حين أجريت في عيني اليمنى عملية جراحية ناجحة في فلادلفيا بأمريكا، أصبحت بعدها أقرأ مباشرة، وكأنني عدت إلى الحياة مرة ثانية وتمتعت بحياة جديدة، وأصبحت أقوم بالمشي والقيام والقراءة والكتابة بحرية وبدون استعانة بشخص آخر، وقد سافرت أثناء هذا المرض عشرات من الأسفار خارج البلاد وداخلها كنت أعاني فيها مشقة شديدة وأواجه أحياناً ما يخجلني، ولكن الله ـ تعالى ـ حفظ ولطف، وانتهى بكرمه ولطفه هذا العهد من نصف العمي والاضطراب والألم.

﴿ رب أَوْزِعْني أن أشكرَ نعمتَك التي أنعَمْتَ عليّ وعلى والديّ، وأن أعملَ صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

---

(١) من نكران الجميل أن لا أذكر هنا الأستاذ الفاضل الدكتور عبد المعيد خان المرحوم مدير وسكرتير دائرة المعارف العثمانية، فإنه لذوقه العلمي وتقديره للعلم والمعرفة تهيأت أسباب طباعة «الهند في العهد الإسلامي» وعلى إلحاح منه وطلب أكملت تراجم المجلد الثامن من «نزهة الخواطر»، وقد كان الدكتور من فضلاء عهده الذين نالوا شهادات الدكتوراة من الجامعات الخارجية، وكان يحتل مع علمه وصلاحيته وفضله مكانة خاصة في الفضائل الخلقية وكرم النفس، ونبل الخصال.
توفي في ٢٦/ سبتمبر ١٩٧٣ م، رحمه الله رحمة واسعة.

الفصل الثامن عشر

بعض الأعمال التأليفية والبحث والدراسة

عـودة إلى الوطن:

لقد كنت تركت خيط الحياة الضعيف البالي حيث كنا شرعنا في عام ١٩٦٦ م، وقد عدت بعد البرء والصحة من مرض العين في مستشفى سيتابور إلى وطني رائي بريلي، وقد كانت انعقدت في خيط الحياة عقدة ٥٢ سنة من عمري، وأعود لأمسك هذا الخيط الذي ازداد في عمر السبعين ضَعْفاً ووَهْناً أكثر من حيث تركته (عام ١٩٦٦ م) ولله الأمر من قبل ومن بعد.

تأليف الأركان الأربعة:

لقد كانت الأيام التي قضيناها في مستشفى سيتابور أيام الصراع بين الموت والحياة، كنت أسأل فيها أحبتي وأصدقائي أحياناً هل تعود في حياتي أيام أقضيها على كيفي وعادتي، دَعْ عـنك شغل التأليف والتصنيف، وهل سأعود أمشي وأتجول، وأحضر مجالس الأصدقاء، وأزور الأحباب؟.

في هذه الحالة من الخوف واليأس والأمل والرجاء، اندفعت نفسي

اندفاعاً شديداً إلى تأليف كتاب فَوْرَ ما أخلص من المستشفى في موضوع «الأركان الأربعة في الإسلام»، وقد ملك هذا التفكير والاندفاع الشديد عليّ عقلي وقلبي حتى لم يستطع جو المستشفى المريض الحزين والوجع المنتاب في العين أن يصرفه عني.

وكان مما حفز المؤلف على هذا التأليف ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان العملية الجليلة: (الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج) ومقاصدها وغاياتها وفوائدها ومصالحها في هذا العصر، وإخضاعها في جرأة كبيرة وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية والمذاهب الاقتصادية والسياسية، ومصطلحاتها وتعبيراتها المحدودة، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا العرض تفقد حقيقتها وقوتها وتضيع مقاصدها التي شرعت لأجلها، وكاد معنى «الإيمان والاحتساب» يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية، وكاد التفكير المادي يطغَى على روح العبادة والإخلاص، فكان ذلك خطراً كبيراً على الأمة وطليعة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية.

وهكذا استولى هذا الموضوع على تفكير المؤلف وأعصابه، بحيث لم يكن يفارقه في غير أوقات التأليف والدراسة، وقد أصبحت هذه عادة المؤلف وطبيعته في جميع مؤلفاته، لا يستطيع الفكاك منها، ولا التخلِّي عنها، فكأنه يكون شبه «اعتكاف تأليفي» لا يتمكن من الخروج منه إلّا إذا بدا هلال عيد الكتاب، وقد انتهى تاء التمام، ولئن كانت المواد المتعلقة بموضوع الصوم والحج موجودة عندي من قبل، إلّا أنني رأيت حاجة لإطار هذا الكتاب الواسع وخطته الموسعة ومستواه المطلوب أن أزيد فيها زيادات كثيرة، وقد كانت أكثر استعانتي في هذا الباب بكتاب «حجة الله البالغة» للإمام ولي الله الدهلوي رحمه الله.

لقد انتهى الكتاب في الثاني من ذي القعدة عام ١٣٨٦ هـ الموافق ١٣/فبراير عام ١٩٦٧ م، وقد التزمت في الكتاب مع ذكر مقاصد هذه

الأركان وأسرارها وحِكَمها وآثارها في الإسلام، استعراض هذه العبادات في الديانات الأخرى، والدراسة المقارنة بين أوضاعها وهيئاتها وآثارها وبين أوضاع العبادات الإسلامية وطريقتها ومنهجها وتأثيرها في الحياة، وقد كانت هذه الدراسة المقارنة بهذا الشكل جديدة ـ في نظري ـ في اللغة العربية.

وكنت أعلم أن موضوع الدراسة المقارنة لعقائد الديانات يحتاج إلى دقة أكثر، وسعة في المطالعة ومراجعة المصادر الأجنبية: (اليهودية، والمسيحية، والهندوسية) وهي أكثرها بالإنكليزية واللغات الغربية، ولم تكن عيني إلى عام ١٩٧٧ م (حيث أجريت ـ بفضل الله تعالى ـ العملية الجراحية فيها في أمريكا بنجاح) بحيث أقدر على مراجعة الكتب بنفسي، ورأيت أنه سوف لا يتيسَّر لي في وقت قريب أن أخرج كتاباً مستقلاً مفصَّلاً في هذا الموضوع، فحاولت عرض العقائد الصحيحة لأهل السنة والجماعة في ضوء الكتاب والسنة وكتب العلماء الراسخين في كتابي «العقيدة والعبادة والسلوك»، الذي طبع بالعربية عام ١٩٨٢ م ونشرت ترجمته بالأردية باسم «دستور حيات» عام ١٩٨٣ م، وقديماً قيل: «ما لا يُدرك كلُّه لا يترك جُلُّه».

«نزهة الخواطر» (الجزء الثامن) و «جنة المشرق»:

لقد سبق طبع سبع مجلدات من كتاب: «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[1] للوالد رحمه الله، وبقي المجلد الثامن ينتظر الطبع لنقص في عدد من التراجم، فيها بياض يحتاج إلى إكمال وزيادة يسيرة، وكان مؤلف الكتاب ـ رحمه الله ـ أراد أن يقوم فيه بالزيادات حتى يملأ الفراغ ويسدّ عوز التراجم، إذ فاجأه الرحيل في جمادى الآخرة عام ١٣٤١ هـ (فبراير عام

---

(١) والكتاب في تراجم أعيان الهند منذ دخلها الإسلام (في القرن الأول الهجري) إلى وفاة المؤلف مستهل سنة ١٣٤١ هـ (فبراير ١٩٢٣ م)، اشتمل على أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة ترجمة، فأصبح بذلك موسوعة عن أعلام الهند ونوابغها ومؤلفيها وملوكها وأمرائها وأصحاب الفضل، وأكبر مصدر موثوق به في هذا الموضوع.

١٩٢٣ م) إلى الدار الآخرة، وبقي مكان تلك التراجم بياض، وأصرّ عليَّ الدكتور محمد عبد المعيد خان أن أكمل هذه التراجم وأملأ البياض وأعد الكتاب للطبع والصدور، وقد كانت مضت على صدور المجلد السابع عشرة أعوام، وكان أصحاب العلم والذوق يتطلعون إلى المجلد الثامن.

وكنت أشعر بصعوبة شديدة في تلقيح هذا الكتاب بالعبارات الجديدة والزيادات الحديثة، وذلك لإيجاز المؤلف ودقته وعبارته المحكمة الرصينة التي لا يسهل تقليدها، ولما يمتاز به المؤلف العميق النظر من اقتصاد في النقد والمدح والشعور بمسؤولية المؤرخ المقتصد العادل، ولكن اضطرني إلحاح الدكتور عبد المعيد خان والشعور بضرورة إكمال هذا الكتاب الجليل إلى أن أتحمل هذه المسؤولية.

وأخيراً أقدمت على العمل، وكنت أكرر النظر في عبارتي إذا كتبت عن ملامح شخصية ومناقبها وصفاتها وترك المؤلّف في ترجمتها بياضاً، أراجع هل عبارتي خالية من الإفراط والتفريط، وهل اقتصدت في الوصف أو زدت أو نقصت، وما هي الألفاظ والتعبيرات التي كان المؤلف ينتقيها لو كان كاتبها، وما هي الحدود التي كان لا يتجاوزها؟.

وكنت أتتبّع درجة تعبيراتي وألفاظي (درجة حرارتها وبرودتها) هل زادت عن الوصف المديحي أو الوصف التعريفي العام المرعي في الكتاب أو نقصت؟ فأرجع إليها بالتعديل والإصلاح وأطبّق مقاييس الكتاب وموازينه في الحكم العادل على الشخصيات.

وكنت لما فرغت من كتاب «الأركان الأربعة» رأيت أن لا ثقة بالحياة ولا معوّل على الصحة وأسباب التيسير، وأن كتاب والدي «جنة المشرق ومطلع النور المشرق» الذي هو من أروع الكتب التي تتجمل بها المكتبة الإسلامية الهندية، وهو دليل تاريخي مهم للعهود الإسلامية في الهند واستعراض تفصيلي لها، لا يزال غير مطبوع ينتظر الإخراج والخدمة، وقد

أكلته الأرضة من مواضع متعددة، ففي مكان ذهبت كلمة وفي آخر ذهبت جملة بكاملها، وهو لذلك يحتاج إلى جهد كبير، ونظر دقيق، ومراجعة دقيقة.

ولم تكن الوسائل مُيسَّرة لطبع هذا الكتاب الذي كان مأثرة كبيرة لعالم مؤرخ هندي، لا يوجد لها نظير في لغات الهند الأخرى: (الإنكليزية، والأردية، والهندية، واللغات المحلية الإقليمية) وليس في خارج الهند من مؤلفات العلماء ما يماثله إلّا كتاب «خطط مصر» للعلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي المتوفًى ٨٤٥ هـ.

وقد كان أخي الأكبر قد تناول الجزء المتعلق بما بعد التقسيم بالتذييل والإكمال في إجادة وإتقان.

وفي أثناء هذا الانتظار أصيب الكتاب مـرة ثانيـة بحملة الأرضة، واقتضى ذلك جُهداً مزيداً جديداً، وقد كان يحزُّ في قلبي أن هذا من قلَّة البر والوفاء بالوالد، أن لا أبذل ما في وسعي من جهد وطاقة في إكمال كتاب العلّامة الوالد ـ الذي كان له صيت ومكانة ـ وإخراجه إلى النور، وكم من عاطفة صادقة وشعور بالمسؤولية وأداء الواجب تغلب على جميع المعوِّقات والمثبِّطات.

وأخيراً سهَّل الله أمر الطباعة، وتوفرت الوسائل، وطبع الكتاب بحسن رعاية الدكتور عبد المعيد خان عام ١٣٩٢ هـ الموافق ١٩٧٢ م باسم «الهند في العهد الإسلامي».

معاملة الله تعالى مع المخلصين:

لقد جرَّبت وشاهدت مراراً أن جهد المخلص لا يضيع، فمهما تورطت سفينة المخلص في اليمّ وحسب النظّارة على الساحل أنها كادت تغرق، إذا بها تنجو بسلامة الله تعالى، وترجع بغنيمة الله، أما سفينة المغرض الفاقد

الإخلاص فيظن أنها واصلة في يسر وأمان إلى الساحل، وإذا بها تغرق فلا تعود.

لقد كانت معاملة الله تعالى مع الوالد ـ رحمه الله ـ معاملته مع المخلصين، فإننا نعجب ونستغرب من كيفية توافر الأسباب وتيسير الوسائل لطباعة كتب الوالد باللغة العربية، وإخراجها ونشرها، فإن فيها العبرة والعظة، وفيها تصديق قوله تعالى: ﴿ أني لا أضيعُ عملَ عامل منكم من ذَكَر أو أنثى ﴾.

«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»:

وفي تلك الأيام عام ١٩٦٨ م طُبِع لي كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، الذي ينبغي أن يعد حلقة ثانية من سلسلة «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بدار القلم ـ الكويت، مع زيادات وتنقيحات، وكان قد طبع الطبعة الأولى عام ١٩٦٥ م، بدار الفكر في بيروت، وكان المؤلف قد استعرض فيه قصة الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار والبلدان الإسلامية، ونتائج هذا الصراع، وموقف البلدان الإسلامية ومنهجها فيه، وقد كتبت في تصدير الكتاب:

«إنني أعتقد أن ذلك أضخم مشكلة للأقطار الإسلامية، وأن الجواب على هذا السؤال: وهو أنه أيُّ موقف تتخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة، وأيُّ منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعها بالحياة العصرية وتحقيق مطالب العصر الحديث، وإلى أيّ مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة؟.

إن الجواب على هذه الأسئلة هو الذي يحدّد مكانة هذه الشعوب في خريطة العالم، ويُعرف به مستقبل الإسلام في هذه البلاد ومدى وفائها لرسالة الإسلام الخالدة العامة».

والواقع أن هذا الكتاب من أهم مؤلفاتي، يدعو الطبقة المثقفة الذكية في العالم الإسلامي للتأمل والتفكير، وهو جدير بالدراسة والمطالعة، وقد صدرت له ثلاث طبعات بالعربية، كما صدرت له طبعات بالأردية والإنكليزية باسم:

«Western Civilization - Islam and Muslims».

«الطريق إلى المدينة»:

لقد شعر المؤلف في رحلاته المتكررة إلى البلدان العربية، ومطالعته للجرائد والمجلات والكتابات الصادرة منها، واجتماعه بكثير من الأخوة العرب ـ أن الطبقة المثقفة في هذه البلاد قد ضعفت صلتها ـ وهي تزداد ضعفاً على ضعف ـ بشخصية الرسول الأعظم ﷺ التي هي مصدر كل سعادة لهم وفلاح، والتي نالوا بها العز والكرامة والمكانة، وإذا وجدت هذه الصلة عند القليل فإنها لا تعدو صلة قانونية رتيبة مجردة عن عواطف الحب الدافق وحرارة الحياة الدافئة.

وقد تمالأت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع هذا الحب وإضعافه على الأقل، وقد غزت جيوش الفلسفات المادية والعلوم الغربية العرب ـ فضلاً عن العجم ـ في عقر دارهم: الحرمين الشريفين، والجزيرة العربية، وبلاد العرب، فضلاً عن الأقطار والبلاد الإسلامية البعيدة النائية عن مهبط الوحي.

فرأيت لسدِّ هذه الحاجة وإشعال هذه الجمرة - التي هي كشرارة كامنة في قلب كل مسلم ـ أن يجهَّز جيش من بلاد الحُبّ والعاطفة، في صورة المقالات القوية المؤثرة والخطب الجذابة التي تتدفق بمعاني الحب والحنان، ينفخ الحياة والحرارة في قلوب الشباب العرب، وأصحاب الأقلام ورجال التفكير والبحث فيهم، فيشعروا بالغَيْرة من العجم في حبهم

لرسولهم ﷺ ولذَّتهم بذكره، حتى يستطيع أن يقول قائل في تعبير الدكتور محمد إقبال:

«لقد عزمتُ على أن أجهِّز جيشاً جديداً من بلاد الحب والعاطفة، فقد بدت في مركز الإسلام طلائع ثورة يقودها العقل الفلسفي».

وقد صدرت هذه المجموعة من الخطب والمقالات في أواخر عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م أو أوائل عام ١٩٦٦ م) من المكتبة العلمية لصاحبها العالم البخاري الفاضل الشيخ محمد النمنكاني بعنوان: «الطريق إلى المدينة»، ثم صدرت له عدة طبعات من دار القلم بدمشق.

نحو التربية الإسلامية الحُرّة:

لقد كان هذا الموضوع يشغل بالي، وقد ألقيت في هذا الموضوع في مناسبات مختلفة خطباً ومقالات، وأعتقد أن أهم الأسباب للثورات السياسية والعسكرية في البلاد الإسلامية، والفجوة الواسعة بين الشعب المسلم وحُكّامهم واضطرابهم وقلقهم، أن معتقدات هذه الأمة وعواطفها ومشاعرها وحاجاتها في وادٍ وهذه الأنظمة التعليمية الغربية التي استوردتها الحكومات من الخارج في وادٍ آخر، وليس أن هذه الأنظمة التعليمية لا صلة لها ولا علاقة بعقائد هذه الأمة وعواطفها فحسب، بل إنها تحاول اقتلاع هذه المعتقدات والقضاء على هذه العواطف الدينية، وإقامة بناء جديد على أنقاضها، فأصبحت البلاد الإسلامية لأجل ذلك كمركب يسوقه فرسان من جهتين متقابلتين أو كقطار تقوده قاطرتان من جانبين مختلفين.

وقد ظهرت هذه المقالات والخطب التي ألقيتها حول هذا الموضوع في مختلف المناسبات بعنوان: «نحو التربية الإسلامية الحُرّة في الحكومات والبلاد الإسلامية» في صورة كتاب صدر من بيروت والقاهرة، وصدرت له عدة طبعات، وعندي الآن طبعته الثالثة التي صدرت من «المختار الإسلامي» بالقاهرة.

الفصل التاسع عشر

وقائع وحوادث

حادثة خطيرة شديدة والنجاة منها:

كنت حضرت إلى مكة المكرمة في شعبان عام ١٣٨٧ هـ (الموافق نوفمبر ١٩٦٧ م) لحضور جلسات رابطة العالم الإسلامي السنوية، وكان معي ابن أخي العزيز محمد الحسني، وكانت هذه رحلته الأولى معي كمرافق، وخرجنا في ١٣/ رجب الموافق ١٦/ أكتوبر على سيارة الرابطة إلى الطائف لزيارة صديق، وكان معنا صديقي القديم الأستاذ المجاهد الشيخ محمد محمود الصوَّاف، وعدنا من الطائف بُعيد العصر إلى مكة المكرّمة، وكنت أنا في السيارة ومعي العزيز محمد الحسني وقد كنا محرمين، صلّينا في مسجد ابن لادن، ونوينا العمرة، وكان خروجنا منها ما بين العصر والمغرب.

فلما تجاوزنا حدود الطائف ولم ندخل حدود عرفات بعد، إذا بنا نشعر كأن السيارة تهبط في الوادي ـ ولا يغيبن عن البال أن الطريق بين الطائف ومكة المكرّمة كثير النجاد والوهاد، وتقع على حافة الشارع أودية عميقة ـ فظننا أننا سائرون إلى وادي الموت، وأنه إذا لم يحل دون السيارة صخرة كبيرة فإن الموت واقع لا محالة، وكنا نشعر بأن السيارة تنقلب وتتحول رأساً

على عقب، إذا بها وقفت في مكان، وقال لي العزيز محمد: انزل يا عم فوراً، ورأيته واقفاً في الخارج يدعونني للنزول، وكان يخشى أن تنقلب السيارة من جديد، وأني لا أستطيع الخروج، فخرجت من الشباك، وقال لي السوّاق ـ وكان تحت المقعد ـ: يا شيخ هل أنت حيّ؟، قلت: نعم، وأحمد الله على السلامة.

وقد رأينا أن السيارة منقلبة سقفها تحت وعجلاتها فوق، وكنت على وضوء، وفي حالة الإحرام ولم ينحلّ الإحرام، ونجونا سالمين بحفظ الله ـ تعالى ـ وسلامته، وأجرينا بعد الوصول الكشف الطبي، والأشعة، فظهر أن لا شيء يدعو للقلق والهم، ولم يقع كسر في العظام ولا شيء والحمد لله.

وجاءنا الأصدقاء والكبار الذين سمعوا بهذا الحادث يعودوننا، كان منهم سماحة المفتي السيد أمين الحسيني، وقد كان علم بتفاصيل الحادث، فقال: «إنكم قد خرجتم سالمين كما خرج سيدنا يونس من بطن الحوت»؛ وقد كان الناس الذين رأوا السيارة في تلك الهيئة يتعجبون كيف سلم ركّابها ونجوا، ولكن الله سلّم.

وفاة الوالدة رحمها الله:

وقع في أغسطس عام ١٩٦٨ م ذلك الحادث الفاجع في حياتي الذي كان لا بدَّ أن يقع عاجلاً أو آجلاً، فقد كانت الوالدة بلغت من عمرها ٩٣ سنة، وكان وقوع حادث الوفاة غير بعيد في ظاهر الأمر ولا غريب، ولكن الحب والصلة لا يخضعان للمنطق والرياضيات، فكلما يقع هذا الحادث الفاجع يصدم الأولاد ويفجعهم ويهزّ كيانهم، ومهما كان الولد كبير السن ومتجاوزاً في العمر إلا أنه يشعر عند فقد الوالد أو الوالدة كأنه صغير تحمَّلَ صدمة اليتيم.

كنت في بوفال إذ تلقيت في ٣/ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٨ هـ (٢٨/أغسطس ١٩٦٨ م) برقية من العزيز محمد الثاني، «الجدة مريضة،

وعجّل بالعودة»، وعجَّلت بالعودة، ووصلت رائي بريلي في ٤ من جمادى الآخرة (٢٩/أغسطس)، فلما دخلت على الوالدة، استقبلتني وقالت: عادت لي نصف الحياة، سلَّمت عليها وأدنتني منها وقالت: رأيت رؤيا، رأيت كأنَّ كل شعرة من جسمي تُسبِّح بحمد ربها، وأشعر بحالة من سرور غامر ولذة غريبة. فقلت: هذه الرؤيا لا تحتاج إلى تعبير وتفسير، إنها مباركة جداً.

قضت الوالدة ليلة السبت في قلق وألم، وصلَّت الظهر يوم السبت بكامل حواسها ووعيها، وبدأت تذكر الله تعالى وتعد بالأصابع، ومن هناك بدأت منازل الآخرة، وشرعت في الاحتضار، وكان يسمع من نفسها ذكر «الله الله»، فلما توقَّف هذا الذكر كان ذلك إيذاناً بأنها ودَّعتنا وارتحلت إلى الرفيق الأعلى، الذي دامت على ذكره، والابتهال على عتبته وسؤال رحمته.

وقد كانت الليلة التي توفيت فيها ليلة ساجية تغشّاها سحابة من سكينة ونور، وكأنَّ الرحمة والبركة تنزلان، وكان يخيل إلينا كأن خيمة من السكينة مُدَّت على القرية، فلا وَحْشة ولا هَوْل ولا فَزَع، وكان ذلك في ٦/ من جمادى الآخرة عام ١٣٨٨ هـ (٣١/من أغسطس ١٩٦٨ م)، وصلَّى عليها في اليوم التالي ٧ / جمادى الآخرة عام ١٣٨٨ هـ الموافق أول سبتمبر عام ١٩٦٨ م، جمع حاشد فيهم العلماء والطلاب وأصحاب الدعوة والتبليغ في عدد كبير، ودفنت عند زوجها العلامة السيد عبد الحي الحسني، وهكذا لقيت زوجها النابغة الجليل في الحياة البرزخية بعد ٤٧ عاماً كاملاً.

رحلة تذكارية إلى الحجاز:

كنت أتشرَّف سنوياً مرة أو مرتين أثناء حضوري جلسة الرابطة والمجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بزيارة الحرمين الشريفين، ولكن رحلتي التي كانت في ٨ / صفر عام ١٣٨٩ هـ - الموافق ٢٦ / إبريل عام ١٩٦٩ م لحضور المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية كانت رحلة تذكارية، من حيث إنها كانت برفقة ريحانة الهند شيخ الحديث

مولانا محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى، صاحب المؤلفات المشهورة في شرح الحديث والمقاصد الدينية[1].

رحلة ثالثة إلى إنكلترا:

كنت في المدينة المنورة إذ تلقَّيتُ دعوة من الدكتور سعيد رمضان لحضور جلسة المجلس التنفيذي للمركز الإسلامي بجنيف، وقد أصرّ عليّ فيها، فعزمت على السفر، وسافرت وكان معي الشيخ محمد معين الندوي، فمكثنا في جنيف أياماً، ثم جئنا في وسط يونيو إلى لندن.

لقد كانت هذه الرحلة لإنكلترا رحلة طويلة مفصَّلة لم تسبقها لي رحلة مثلها إلى تلك البقاع، ولم تعقبها كذلك، والأماكن التي زرتها فيها أذكر منها ما يلي: برمنغم، مانشستر، بليك برن، شيفلد، ديوز بري، ليدس.

وقد ألقيت خطابات أمام المسلمين في جميع هذه الأماكن، وكانت عامة الخطب تدور حول تذكير المسلمين بمسؤوليتهم الدعوية، وإثبات وجودهم ونفعهم للبلاد، والحفاظ على خصائصهم ومعتقدات الجيل الناشىء في هذه البلاد، وتربيته على الأسس الإسلامية.

وكانت جامعة برمنغم، وجامعة ليدس من الجامعات التي ألقيت فيها محاضرات أمام الطلبة والأساتذة المسلمين، وأصرّ عليّ بعض الطلاب العرب الذين كانوا على معرفة واتصال بي عن طريق كتبي لزيارة غلاسغو، فزرتها معهم، وألقيت بها بعض الخطب بالأردية والعربية يوم الجمعة، وقضيت فيها سهرة في المسجد الجامع مع هؤلاء الطلاب العرب الذين كان أكثرهم من الإخوان.

---

(١) أشهرها وأكبرها: «أوجز المسالك في شرح مُوطّأ الإمام مالك» في ستة أجزاء كبار.

الفصل العشرون

الردّ على عبد الناصر
زعيم القومية العربية والاشتراكية

مأساة ٥/ يونيو ١٩٦٧ م ، وتغيُّر مجرى الحيــاة:

لقد كان حادث هزيمة مصر النكراء أمام إسرائيل في ٢٩ / من صفر ١٣٨٧ هـ (٥ / حزيران عام ١٩٦٧ م)، واستيلاء إسرائيل على القـدس الشريف، وخروج الضفة الغربية بكاملها ـ التي تشتمل على القدس والخليل والنابلس ـ وأرض سيناء، وتمخض الجبهة العربية عن خزي وعار، وانتكاس القومية العربية وفضيحتها، وعجز العالم الإسلامي العريض الواسع وتخاذله، حادثاً تاريخياً فاجعاً لا يقع في تاريخ الشعوب والأمم إلاّ نادراً في القرون والأجيال المتعاقبة، ولم يقع مثيلها في تاريخ الأمة الإسلامية إلاّ مرتين أو ثلاثاً.

لقد ركَّزَ هذا الحادث الأليم كل قواي ومواهبي في الخطابة والكتابة، وجُلّ أوقاتي وعنايتي على الردِّ والمعارضة الشديدة، لصاحب هذا الخزي والمسؤول عن هذه الهزيمة الشنيعة الرئيس عبد النـاصر، واستـولى هذا الموضوع على أعصابي وتفكيري، وأصبح الموضـوع الأساسي لخـطاباتي

وكتاباتي، حتى إن من كان يعرف اتجاه والدي وأخي الأكبر وذوقهما يتعجب ويستغرب مني ذلك، إذ أنهم كانوا يعلمون أن اتجاه هذا الفرع من أسرتنا وذوقه ذوق علمي تأليفي وفكري، ومن حسنات هذا الفرع من الأسرة أو سيئاته أنه لا صلة له بالتطرُّف، والعاطفية الشديدة، والحماس الزائد، وقيادة حركة أو مهمة ضد شخص أو جماعة أو حزب، فهذا يخالف طبيعة الأسرة الموروثة والمميزات السلالية، فقد ظهر مني بل من الناس الأقربين مني أيضاً[1] انتقادات شديدة صريحة ضد عبد الناصر وقيادته وحركته ومصر ذلك الحين، التي كانت أصبحت مطيَّته وبوقه الذي كان ينفخ فيه، وصدرت كلمات ملؤها الأسى والحزن والكمد، واحتجاج القلب والضمير، والقلق والاضطراب الشديد، لم يكن الناس يتوقعونها منا.

ولا يمكن لشخص أن يفهم هذا الانفعال والعاطفة وإعطاء هذا الحادث هذه الأهمية القصوى، واتخاذ هذا الموقف من عبد الناصر ـ الذي لم أكن على معرفة شخصية به ـ إذا لم ينظر إلى الحادث من خلفياته كلها وفي سياقه ومكانه، ولم يعرف صلتي العاطفية الدينية والفكرية والثقافية واللغوية بالعالم العربي، التي لم يكن كثير من علماء شبه القارة الهندية بل علماء البلدان العجمية ـ على ما لهم من فضل وعلم ومميزات ـ يشاركونني فيها.

قيادة مصر الجديدة وإقبال العرب عليها وأسبابه:

لقد كان العالم العربي يعيش حياة فترة وركود، وقد لقيت الجبهة الموحدة لسبعة من الحكومات العربية الفشل والإخفاق، وقامت دولة إسرائيل، وكان الشباب العرب في حاجة وتعطش إلى من يناهض القوى الغربية ويواجهها مواجهة الندِّ للندِّ، في جرأة وطموح وإقدام، وقد كان هناك فراغ كبير في قيادة العالم العربي، كل ذلك كان يقتضي حين وقف جمال

---

(١) ويجدر بالذكر منهم الأستاذ العزيز محمد الحسني المرحوم رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» سابقاً.

عبد الناصر يملأ هذا الفراغ في أوانه، ويروي غليل الشباب العرب، ويدوِّل قناة السويس، ويضطر اتحاد الدول الثلاث: (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) إلى الانسحاب، أن يسكر الشباب الطامحون بحبه والإيمان به، والاندفاع نحوه، وقد سحروا بقيادته حتى إن الصحافيين العرب والأدباء وأصحاب الأقلام فضلاً عن الشباب بدأوا يتغنَّون بتقديسه وعصمته، وقيادته الحكيمة العبقرية، وعادوا لا يستطيعون أن يتحملوا كلمة انتقاد فيه، حتى أثَّر ذلك على معتقداتهم وأعمالهم.

وقد كان نجَاحه في مسألة قناة السويس يحمل في الواقع تأثير السحر، ويمكن أن يقدِّر ما علقته الصحافة المصرية على وفاته التي وقعت بعد هزيمة ٥/ يونيو ١٩٦٧ م في المدح والإطراء كيف كانت عقلية القوميين العرب، وكيفيتهم النفسية عندما كان النصر حليفه، وكان في عنفوان قيادته وحركته. كتبت جريدة «الجمهورية» اليومية الشهيرة بمصر إثر وفاته:

«مات نبيٌّ هذا الزمان، مات جمال عبد الناصر في نفس اليوم من نفس عام الأحزان الذي تجلَّى الله فيه على نبيه محمد بن عبد الله برحلة الإسراء، وعرج به إليه حتى سِدْرة المنتهى تطييباً لنفسه وتثبيتاً لقلمه، وإشراقاً لروحه، وأنساً لفؤاده. نفس ما أراده الله لحبيبه جمال، نفس رحلة جمال إلى الله، لا، لم يمت جمال عبد الناصر، لقد رحل إلى ربه كما رحل كل الأنبياء والقديسين والهداة والمصلحين»[1].

«يا نبي الوطنية، يا رسول الحرية، في ليلة الإسراء تصعد إلى السماء، تلتقي بالقديسين الأبرار، تنضم إلى ركب صانعي الحياة على الأرض والحياة في السماء».

«يا أشرف من عرفته الدنيا، مكافحاً، مقاتلاً، جريئاً، حُرّاً، كريماً، مدافعاً عن الحق، صامداً في وجه الأحداث، صانعاً لها أيّاً ما شئت وكيف شئت»[2].

---

(١) صحيفة «الجمهورية»، أول أكتوبر ١٩٧٠ م، العدد الأسبوعي ص/٦.
(٢) أيضاً بتاريخ ٢٩/سبتمبر ١٩٧٠ م.

«لا بحار الدموع والآلام تجدي، ولا مداد الأنهار يكفي لتعزية الكلمات العزاء، لأنهم أكبر من كل الكلمات، فهم أنفس الكلمات»[١].

«أوزوريس، لقد تغنَّى بك آباؤنا وأجدادنا، جعلوا منك أسطورة يحلمون بها أربعة آلاف عام على أمل أن تظهر، وقد قدّر لنا نحن أبناء مصر في النصف الثاني من القرن العشرين أن نرى حلمهم يتحقق»[٢].

أسباب معارضتي:

لقد مهَّدت هذه القيادة لمصر وللعرب بصفة عامة طريق الفوضى العقلية والخلقية، والشعور باليأس من الانتفاضة الإسلامية وصلاحية الإسلام للقيادة والتوجيه، والبحث عن العز والكرامة عن طريق فلسفة أخرى للحياة، أو في حضن الكتلة الشرقية أو الغربية، وفرضت كل حظر على أي اختلاف في الرأي وانتقاد لتصرّف، وأطلقت عنان الحرية للنفوس الجامحة والشهوات العاتية، وقد حدث في إشراف هذه القيادة في مدة حوالي عشرة أو اثني عشر عاماً تغير خطير في شباب البلدان العربية، والطبقة المثقفة فيها، وظهرت نماذج صريحة للعيان من تحول أولاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى عُبّاد الأصنام والأوثان الجديدة، ولم تكن هذه ردَّة عقلية وحضارية فحسب، بل كانت تجاوز إلى حدود الردة الاعتقادية، وكانت تصدر من كثير من الشباب العرب كلمات كفرية صريحة، والتبري من الدين، وأهله ورجاله إلى السباب والشتيمة.

وقد آلمني ما رأيت في كثير من الأوساط الدينية الخالصة أن لم يَعُدْ لديها من معايير المدح والذم لشخص، إسلاميته أو عدم إسلاميته، أو نفعه وضرره للإسلام، بل أصبحت الفتوح والانتصارات المادّية والأعمال البطولية ـ

---

(١) أيضاً ٥/أكتوبر ١٩٧٠ م، من الافتتاحية.
(٢) أيضاً أول أكتوبر ١٩٧٠ م العدد الأسبوعي.

وإن كان الرئيس عبد الناصر ليس عنده من المآثر إلّا تدويله لقناة السويس - والدعاية السياسية هي الأساس والميزان، وعاد تحدّي أي قوة غريبة، وبذل أكبر ثروة كلامية ومناورات لسانية صك الغفران، بل وثيقة الولاية والتقى لأيٍّ زعيم أو قائد، وشعرت بأن الأوساط الدينية حتى في شبه القارة الهندية أصيبت بضعف شديد في حميتها الدينية وغيرتها الإسلامية التي كانت ميزتها ومفخرتها وشعارها، وكانت هي خسارة كبيرة لا يمكن تداركها، وهذا الذي ضاعف من ألم قلبي ووخز ضميري، فزاد صوتي قوة، واحتجاجي شدة، ولحني حزناً ومرارة.

أحاديثي في الحجاز والكويت:

لم أستطع السفر خارج الهند عام ١٩٦٦ م لأن الحكومة الهندية استردَّت جوازي، ثم بدأت عام ١٩٦٧ م سلسلة أسفاري خارج الهند، ولم يكن قد مضى على هزيمة مصر إلّا أربعة أشهر، ولم يندمل الجرح بعد، وكنت في مكّة المكرّمة، فطُلب مني أثناء إقامتي بها في شعبان ١٣٨٧ هـ الموافق نوفمبر ١٩٦٧ م أن ألقي كلمة في نادي الوحدة الرياضي، وقد أيّد هذا الطلب معالي الشيخ محمد سرور الصبان أمين عام رابطة العالم الإسلامي إذ ذاك، وأصرَّ عليَّ، فألقيت في ٦ / نوفمبر ١٩٦٧ م محاضرة في النادي بعنوان: «ميزان الربح والخسارة» وقد حضر الندوة لفيف طيب من أعيان مكة المكرمة وأدبائها وصحفييها، وأساتذة الكليات وطلبتها ، فألقيت الضوء على موازين الأرباح والخسائر والنجاح والإخفاق، وأثبتُّ أن قيادة عبد الناصر فاشلة تماماً، وذكرت ما ربحنا منها وما خسرنا.

وقد صرحت بأنه كيف دِيس المجد والكرامة العريقة، وكيف لُطِّخ تاريخنا بوصمة عار، وماذا ينبغي للشعوب الأبية عند ذلك وماذا يجب عليها من محاسبة قادتها وزعمائها، والتبرّي من المسؤولين عن هزيمة الخزي ونكسة العار، وقلت إن رمي الجمرات يعلِّمنا نحن المسلمين كيف نبغض

أعداءنا وكيف نذلهم ونكرههم، ثم ذكرت طريقة استعادة هذا المجد الضائع، وأنه لا سبيل إليه إلّا بالعودة إلى الإسلام، وإني أهيب بالعلماء العرب أن يتقدموا في المضمار ويضربوا لنا أمثلة تُحتذى.

ثم كان لي خطاب في شعبان العام التالي ١٣٨٨ هـ الموافق نوفمبر ١٩٦٨ م في قاعة المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة حول هذا الموضوع نفسه، حضره عدد كبير من أساتذة الجامعة الإسلامية والمدارس الثانوية وطلابها وعلمائها، وأعيان المدينة وأهلها، كان عنوانه: «نظامان إلّهيان للغلبة والانتصار»، فقلت في شرح هذا الموضوع:

إن هناك نظاماً سارياً في هذا الكون من إعداد القوة المادّية وتهيئة الأسباب والوسائل، وقد نجح هذا النظام مراراً، وقامت به حكومات قوية ودول عريقة، وهُزم به الأعداء وغيَّر مجرى التاريخ، وهو نظام طبيعي تكويني، نافذ في هذا الكون وساري المفعول فيه، ولكن هناك نظاماً آخر للإيمان والعقيدة والغايات النافعة الصالحة والحياة الصالحة الطيبة، تكفل الله ـ تعالى ـ له بالنجاح، وانتصر به المسلمون على العالم، وقد ثارت قيادة مصر الجديدة على كلا النظامين، فظهرت نتيجته الحتمية. . . وذكرت ما كان من وضع مصر المُتردِّي، أيام الحرب دينياً وخلقياً، وصرَّحت بأن هذه الهزيمة ليست غريبة ومثيرة للعجب، بل نتيجة طبعية لغرسها، وقلت إن القومية العربية لا تملك أي جاذبية لغير العرب، إنهم لا يستجيبون إلّا لدعوة الإيمان والعمل الصالح ورسالة الإسلام الخالدة العالمية.

وفي هذا العام نفسه عرَّجتُ على الكويت ليومين في العودة من الحجاز بتاريخ ٢٤ / شعبان ١٣٨٨ هـ الموافق ١٧ / نوفمبر ١٩٦٨ م، وألقيت خطاباً في الموضوع نفسه بقاعة جمعيّة الإصلاح الاجتماعي، كان عنوانه بل روحه وجوهره: «أن العالم العربي ليس في خطر من إسرائيل، بل من ذلك الضمير الذي ترك عمله وتخلّى عن مسؤوليته»، وقد صرَّحت فيه بأن التغاضي عن الحقائق والواقع وتعطُّل الضمير الإسلامي، وعدم احتساب القادة

ومحاسبتهم، وقلة الاتّعاظ والاعتبار بالحوادث والوقائع خطر حقيقي كبير، وهذا هو الخطر الذي يواجهه العالم العربي.

ثم كانت لي فرصة الخطاب في العام التالي ١٣٨٩ هـ الموافق ١٩٦٩ م في هذا الموضوع بالذات في المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة، وكان الحفل قد ضمَّ عدداً من أعضاء رابطة العالم الإسلامي، وأساتذة الجامعة وطلابها، وأعيان المدينة والممثلين للطبقة المثقفة في المجتمع، وقد اكتظت القاعة بالمستمعين، وكانت خلاصة ما قلت في الخطاب ما دار حول «ثلاثة دروس من مأساة فلسطين» وقد شرحت فيه قول الله تعالى: ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾، وقلت في ضوء الآية الكريمة: إن أعداءه ـ ﷺ ـ الذين يتحدّون قيادته العالمية الأبدية، لا تزال عاقبتهم الحرمان والخسران، وانقطاع سلسلتهم وأثرهم، وليس ﴿ الأبتر ﴾ يعني انقطاع النسل والسُلالة فحسب، بل إن معناه أوسع مدلولاً، يشمل قلة التوفيق أو سوء التوفيق، والذل والنكسة والخمول والذبول، وإنه لم تزل ولا تزال القيادات اللادينية تواجه الفشل والإخفاق، فلنكن منها على حذر، ولنعرف الزعماء المغرضين النفعيين، ولتجتنب الحكومات والمجتمعات تلك الحياة التي تبدأ بالزمجرة والسيوف، وتنتهي بالطبول والكؤوس والمزمار والطاووس.

مقابلة صحفية مهمة:

وقد جاءت بعض جوانب هذا الموضوع وبعض حقائقه وانطباعاتي فيه بصورة واضحة في مقابلة صحفية أجراها معي مندوب جريدة الندوة أستاذ عبد الكريم نيازي، فور وصولي مكة المكرمة في أكتوبر عام ١٩٦٧ م، ونشرت هذه المقابلة في عددها (١٧ / أكتوبر ١٩٦٧ م)، أنقل بعض مقتطفاتها فيما يلي:

«سؤال: ما هو ردُّ فعل الحادثة في نفسكم؟

كان جوابي: إن رد فعل الحادث في نفسي لم يكن مفاجأة، فقد كانت

كل الآثار والدلائل تدل على وقوع هذه النكبة في يوم من الأيام، فقد كان بعض الناس ممَّن رزقهم الله البصيرة والعقل المؤمن والتدبر في القرآن يتنبأ بوقوعها، كأنه يراها رؤيا عين. ولا يدل ذلك على عبقرية أو ألمعية خارقة للعادة أو نبوة أو إلهام، فمن رأى قِربة منفوخة وجسَّها بيده تكهَّن بمصيرها إذا مستها إبرة أو خرقتها شوكة، فقد كانت القيادة التي تزعمت هذه المعركة تقاوم كل استعداد حربي، وكل صرامة وجد من جهة القوة المنافسة بحذلقة الكلام، وبراعة الصحافة، وضجة الإذاعة، ولذع الشتيمة، وقد كان بأسها أشد على من يشاركها في العقيدة والدم والنصر منه على الأعداء الذين يتـربّصون بها الدوائر، ويقعدون لها بالمرصاد.

وقد انعكست الآية على أصحابها فكانوا أعزَّة على المؤمنين، أذلَّة على الكافرين، وأشداء على أنفسهم، ورحماء على غيرهم، وكان الأمر كله مناورة ومظاهرة ومسرحية كمسرحية علي بابا واللصوص التي تمثلها فرقة من أبناء المدارس، فلما جدَّ الجدُّ وجاء الجنود الحقيقيون تفرق هؤلاء الممثلون وتركوا المسرح تحت رحمة المغيرين.

وهكذا تغلب الحقيقة على الصورة، وقد دَعَم ذلك الحادث إيماني وعقيدتي بإعجاز القرآن وخلوده ونزاهته وتجرده من كل وشيجة وعصبية أو حمية الجاهلية، فلا يمكن لكتاب من تأليف إنسان أو نتاج عقل بشري أن يتجرّد عن الوشائج والأنساب والدماء والأرحام، ويقيم القسط والميزان، ويحكم بين الناس بالعدل، كما فعل هذا الكتاب، فحوَّل الحقائق والأعمال والأخلاق والسعي والأخذ بالجد واللباب، لا القشور والمظاهر.

ومما يبعث على الأمل أن الإسلام لا يزال جديداً في قوته، دافقاً بالحياة، لم يخض هذه المعركة، فتتلوث شهرته أو تتلطخ كرامته، أو تضعف الثقة به، وإنما أُقصِيَ عن الميدان، واستغني عنه، وكان كل الاعتماد على الشعارات الجاهلية والنعرات القومية والمبادىء المستوردة، وأخفق كل ذلك الإخفاق الذريع، وانهار الانهيار الفظيع الذي لا يترك حقاً لأحد في تجربة

جديدة لها، أما الإسلام فإنه لم يُجَرَّب ولم تمتحن جدارته وقوته في هذه المعركة.

إذن فلا داعي إلى اليأس والتشاؤم، فالإسلام مستعد لصنع المعجزة، وإعادة الأيام، وتبديد الظلام، وشقّ الطريق إلى الأمام.

سؤال: لقد زرتم هذه البلاد بعد وقوع النكبة، فهل شعرتم بتأثرها العميق في حياة أهلها ومشاعرهم وفي الحياة العامة والمدنية؟.

الجواب: إنني لم أشعر بأثر ملحوظ لهذه النكبة في حياة هذه البلاد، فإنني أرى رَحَى الحياة تدور كما كانت قبل النكبة، كأن لم يحدث حادث، ولم تنكب في أعز مقدساتنا وفي كرامتنا، ولم تفقد من اعتبارنا وقيمتنا ما فقدناه!!.

سؤال: ما هو الطريق الوحيد للخلاص من آثار هذه النكبة ونتائجها؟.

الجواب: الطريق الوحيد هو: إلى الإسلام من جديد، هو تكوين جيل جديد مؤمن لا يحتمل الضيم ولا يرضى بالهوان، ولا يتسلّى بالملاهي، جيل يعيش على الجدّ والصرامة والخلق والعقيدة، جيل يحمل حقيقة الإسلام لا صورته، فلتتعاون صحافتنا وأدبنا وإذاعتنا والمعارف والتربية والإرشاد الوطني، وكل أداة مؤثرة ووسيلة ميسرة في إنشاء هذا الجيل، ولنحتفظ بالبقية الباقية من ديننا وخلقنا وكرامتنا وأعصابنا ورجولتنا، فلا يعبث بها العابثون.. فإنها إذا ضاعت لا تعود، وإنها من وراثة النبوة التي انقطعت عن الأرض وخُتِمت بمحمد رسول الله ﷺ، ومن آثار المصلحين والمربِّين، وثروة هذه البلاد التي كانت ترسلها وتصدرها إلى أطراف العالم الإسلامي، والآفاق البعيدة من هذا العالم المترامي.

الفتح للعرب المسلمين:

لقد شعرت بإلقاء هذه الخطب والمقالات في هذا الموضوع أنها قد

تنتج في أذهان القراء السلبية واليأس من المستقبل الزاهر، فرأيت أن أكتب مقالاً يورث في نفوسهم ثقة جديدة، وطموحاً جديداً، وحماساً جديداً، ويعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن اليهود مهما انتصروا وحازوا من النجاح والغلبة ما حازوا، حتى ولو سيطروا ـ لا سمح الله ـ على نصف العالم، فإنهم إلى انكسار وهزيمة، لأنه لا مستقبل لهم، وقد ضمن الله ـ تعالى ـ ببقاء الأنفع للناس: ﴿ فأما الزَّبَدُ فيذهب جفاءً، وأما ما ينفعُ الناس فيمكثُ في الأرض ﴾، وإن الله رب العالمين ليس رب بني إسرائيل، لا صلة له بأحد، إنه يريد انتشار الخير والصلاح والعدل والمساواة، واحترام الإنسانية في الدنيا، لا سيطرة سلالة خاصة وغلبتها، واستعباد الإنسان للإنسان، ولا يملك اليهود رسالة عامة ولا احتراماً للإنسانية، وأن العرب ـ رغم جميع عِلّاتهم ـ حملوا هذه الخصائص والمميزات، فهم لا يزالون يملكون ذلك الدين وتلك الصحيفة والشريعة التي تدعو إلى هذه المعاني النبيلة، وذلك التاريخ الزاهر الذي يقدم أمثلة رائعة من احترام الإنسانية ووحدة بني البشر والمساواة الإنسانية، ولذلك فإن المستقبل للعرب المسلمين، فإنهم لو بقوا حملة الدعوة الإسلامية وأصحاب الدين الحق فالفتح والانتصار لهم لا محالة.

كتبت هذا المقال بعنوان: «الفتح للعرب المسلمين»، ونشرتها في رسالة مستقلة، ولما وصلت هذه الرسالة إلى سماحة المفتي الأكبر السيد أمين الحسيني تلقّاها بإعجاب، ونشرها من قبل اللجنة العليا لفلسطين بعنوان: «العاقبة للمتقين».

وقد نشرت هذه المجموعة من الخطابات والكتابات باسم: «المسلمون وقضية فلسطين» عدة مرات من دمشق وبيروت، وكنت كتبت مقدمة مسهبة لهذه المجموعة، تناولت فيها أسباب النصر والهزيمة والذلة والعزة بالتحليل والدراسة، في ضوء القرآن الحكيم والسنن الكونية الإلّهية، وضربت أمثلة من التاريخ لما تؤدي إليه الغفلة والترف والأمراض الخلقية والتعامي عن الحقائق بالقيادات والمجتمعات من العواقب الوخيمة، وكيف نشأت هذه الأمراض

ومواضع الضعف في جسم العالم العربي، وما هي أسبابها الحقيقية، وكيف كان يؤثر الأدب المنحرف والصحافة الماجنة في أخلاق الشعب وعقائده، ويزلزل كيانه، ويمهد الأرض لوقوع مأساة أليمة كهذه، فليست هذه المأساة إلّا النقطة الأخيرة في سلسلة الطريق والعمل الذي سار عليه الشعب.

الفصل الحادي والعشرون

العناية بقضايا الهند القومية والإسلامية والجهـود الميدانيـة

تعارض في الأعمال وسببه:

فاجأت الناس بأني أصبحت من الأعضاء المؤسسين للمجلس الاستشاري الإسلامي، وقد كان يغلب على أسرتي ذوق العلم والتأليف والبُعد عن جلبة السياسة وشغب الحركات والأحزاب، ونزلت إلى الجهود السياسية الميدانية، وبدأت أبذل الاهتمام الكبير بقضايا البلاد والأمة الإسلامية فيها، وقمت مع أعضاء المجلس الاستشاري بجولات طويلة في ولايات بهار، وأريسة، وكجرات، وميسور، وألقيت خطباً ومحاضرات، ونُشرت لي مقالات شديدة الانتقاد على وجهة البلاد الجديدة في جريدة «ندائي ملت» أشرتُ فيها على المسلمين بأن يعرفوا كيف الطريق إلى حياة العز والكرامة في هذه البلاد، بل يتقدموا للقيادة الخلقية المبدئية، ونبهتهم إلى الأخطار المحدقة.

كان ذلك تعارضاً أو لغزاً في حياتي لم يسهل فهمه حتى لأصدقائي الذين كانوا يعرفون طبيعة أسرتي ومزاجها وتقاليدها، وعواطفي وميولي منذ

الصغر إلى ذلك الحين، ففسر ذلك كثير من أصدقائي، كُلٌّ حسب رأيه وعلى شاكلته، فمنهم من حمل ذلك على عاطفة وإحساس مؤقّت، ومنهم من ردَّ ذلك إلى التأثير الخارجي وتأثير الأصحاب والزملاء القريبين، ومنهم من رأى أن هذا نشأ عن قلة تجربة وقلة نضج، وكان الأمر كما قال ابن الرومي:

«لقد أصبح كل واحد منهم صاحبي وصديقي، ولكنه لم يبحث في باطني عن أسراري ومكنونات صدري».

والإجابة على هذا السؤال تأتي من معرفة أن الحكومات - في عصرنا هذا - لم تعد تنحصر في دائرة ضيقة من جباية الأموال وتنظيم الدولة، وإعداد القوة الدفاعية، بل يسوغ لها الآن في تصورها الواسع أن تتدخل في أي شأن من شؤون الحياة، وتسنّ القوانين الجديدة لكل شعبة من شعبها، وتشرع قوانين الأحوال الشخصية العامة المشتركة (Uniform Civil Code) وتضع مناهج تعليمية وتربوية خاصة للتكوين العقلي والخلقي الخاص للجيل الجديد، الذي يترك تأثيره على عقائده ومُسلَّماته وتصوراته، ويمكن أن يقطع صلته بماضيه وحضارته وثقافته، وهي تملك الحرية المطلقة في تغيير اللغة وخطّها.

ثم إن هذه الحكومات تأتي إلى السلطة، وتعزل عنها عن طريق الانتخابات، فكيف يجوز في هذا العصر - الذي اتسعت فيه دائرة الحكومات هذا الاتساع الذي يشمل الحياة كلها، وفي البلاد التي لا نملك فيها أي وسيلة للحفاظ على حقوقنا أو دفع الأخطار المحدقة بنا، إلّا حق التصويت والنفوذ السياسي والحكمة واللباقة السياسية - لأي أمة أو ملة أن تعتزل سياسة البلاد والنفوذ والتأثير على الطريقة الديمقراطية، لا سيما إذا كانت هي أمة تصوّرها للدين شامل لجميع جوانب الحياة، وهي لا تؤمن بالتصور المسيحي للدين وهو أنه «قضية بين العبد وربه»، وديانة الأمة المسلمة بالعكس من سائر الديانات، أكثر حساسية وتأثراً لاحتوائها على أبعاد الحياة وشمولها وسعتها.

والذين يلقنون الناس بأن السياسة ليست إلاّ الشجرة الممنوعة، بل هي «الشجرة الملعونة في القرآن» ويشيرون على الأمة باعتزالها تفكيراً وعملاً، أو يوصونها بأن يشتغلوا مثل المجوس والماروارين[1] بإقامة المؤسسات الخيرية، أو رفع مستواهم الاقتصادي وحالتهم المعيشية، أو رفع مستوى التعليم فحسب، والذين يوجهون هذا التوجيه، إنهم في واقع الأمر يشيرون عليها بالانتحار الاجتماعي والقومي، فإن المسلمين حينذاك لا يستطيعون أن يحافظوا على شخصيتهم المليَّة، وفرائضهم وشعائرهم الدينية وقوانينهم الإسلامية، ولا يعودون قادرين على حماية معتقداتهم وحضارتهم، ولا يمكن لهم أن يعيشوا في البلاد أعزَّة كرماء، فضلاً عن «أن يتولّوا منصب القيادة والدعوة الذي هو دورهم الحقيقي ومهمتهم الأساسية».

وإن البيئة العلمية والعقلية الخاصة التي نشأتُ فيها، والتي لم تنقطع يوماً واحداً عن حقائق الحياة وقضايا الأمة، لم تسمح لي بهذا التفكير واختيار هذا المنهج السلبي، ولم أستطع أبداً أن أغمض عينيَّ عن خطورة قضايا المسلمين المليَّة، وضرورة الجهد في سبيلها، لقد كان من تأثير هذه التربية والتعليم أنني رغم ميولي الدينية العملية وأشغالي العلمية والتأليفية عُنِيت بهذه القضايا وكان في قلبي - على الأقل - إكبار وإجلال لمن جاهدوا في هذا السبيل وتقدير لجهودهم، ولم أدّخر وسعاً كلما سنحت الفرصة في التعاون معهم والوقوف في صفهم.

(١) عنصر في الهند ينسب إلى «ماروار» (ولاية في الهند) معروف بحذقه للأعمال التجارية واعتمادها على التجارة ورؤوس الأموال.

الفصل الثاني والعشرون

حركة رسالة الإنسانية: دوافعها وغاياتها

خلفية الحركة الفكرية والعملية:

إن الحركات والدعوات التي ذكرتها سابقاً والتي أسهمت فيها لم أكن السابق إليها ولا مخطّطها، بل رأيت من الضرورة التعاون معها والمشاركة فيها، أما حركة رسالة الإنسانية فهي تختلف في هذا الأمر عن غيرها، فإن تفكيرها انبعث من داخل النفس واستولى على القوة التفكيرية والخطابية، وملك الأعصاب، وحولتني داعية وشارحاً لها ـ مع طبيعتي ومزاجي الخاص الذي لا ينفك عنه أي شخص ـ ينبغي هنا أن أشير إلى الخلفية العقلية والفكرية لهذه الحركة وجوها ودوافعها.

لقد كان من المشاهدات اليومية أن هذه البلاد تسير بخُطىً حثيثة إلى الفوضى الخلقية والانتحار الجماعي، فتداس القيم الخلقية، ويصاب الناس بجنون النفعية والانتهازية ـ باستثناء أولئك الذين أثَّر فيهم الدين تأثيره أو الذين اعتزلوا معترك الحياة ـ ويفقد سريعاً احترام الأعراض والأموال والأنفس، فيُضَحَّى لأغراض تافهة حقيرة بمصالح قومية واجتماعية، وتنتشر

اللامسؤولية، وإضاعة الوقت، والرشي، والسوق السوداء، والادخار والاكتناز، وكل ما يخالف الدين والعرف والقانون، وقد أصبحت الحياة بذلك جحيماً لا يطاق، ولم تبقَ رغم استقلال البلاد وحريتها أي لذة في العيش أو متعة في الحرية.

وانتظرت أن يقوم أحد في وجه هذا الفساد، ولكن الحزبية والسياسة لم تدع للناس مجالاً للتفكير في مثل هذه القضايا، وأخيراً قرَّرتُ رغم شعوري بقلة بضاعتي ووحدتي وضعف تأثيري أن أنزل في الميدان وأخاطب الناس، من دون تمييز بين المسلمين وغيرهم، وأحذرهم من عواقب هذه الحياة المادية المتطرفة، ومعلوم أن الحرق إذا وقع فلا ينظر أحد إلى ضعفه وقلة حيلته، بل ينطق عند ذلك الأخرس ويسعى الأعرج.

ثم إنه من اللازم لأي بلد أو عهد إذا أراد الناس فيه القيام بأعمال تعليمية وإيجابية وبناءة - مهما كانت هذه الأعمال مقدسة محترمة ومفيدة - أن يتمتع ذلك البلد بالأوضاع العادية المعتدلة، أما حيث ينفجر البركان كَرَّةً بعد كَرَّة، وتهبّ العواصف الهوجاء، وتكتسح السيول العارمة، وتجتاح في طريقها المدن والقرى والولايات بكاملها، فكيف يمكن فيها أن يوجد الهدوء الذهني وعاطفة القيام بأعمال تعليمية بنائية، وهي أمور اضطرارية لا خيار للإنسان فيها، ولكن البقاع التي تأتي فيها موجات الاضطرابات الطائفية الجنونية، وقتل الإنسان للإنسان وإحراقه، ويصاب فيها المثقفون بنوبات هستيريا عصبية، ولم تكن فيها حقيقة حية يعترف بها إلا القوة والثروة، فأرى أنه لا يمكن أن تستمرَّ سفينة الحياة فيها، وأن يبقى المجتمع الإنساني بقيمه وأصوله وإنسانيته.

وإن من واجب المسلم أنه أينما كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن مجتمعه، ولا يتعامى عن الأخطار بدس الرأس في الرمل مثل النعامة، ولا يردد درس «كل شيء على ما يرام» فإن على المسلم حقاً في كل مكان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالإصلاح وإزالة الفساد، وليحسب نفسه راكباً

سفينة الحياة التي إذا غرقت غرقت مع الجميع، ولا أروع وأجمل من مَثَل ضربه الرسول ﷺ لذلك، فلم أجد له مثيلاً في آداب أي ديانة وفلسفة أخلاق، روى النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال:

«مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»[1].

فنحن كلنا رُكّاب سفينة واحدة، هي سفينة بلادنا، إذا غرقت ـ لا سمح الله ـ فلا تنجو مؤسساتنا ولا مكتباتنا ولا شخصياتنا المحترمة ولا العلماء الفضلاء ولا العاملون الصالحون.

فليس عندي من طريق لحياة العز والشرف للأمة الإسلامية في هذه البلاد إلّا بأن يثبت المسلمون نفعهم وإسعافهم لهذه البلاد، ويملؤوا فراغ هذه القيادة الخلقية الذي لا يزال منذ مدة طويلة، فإنه لا يمكن لأي أقلّية أو فرقة في أي بلد أن يعيشوا حياة الكرامة والعز إلّا بإثبات فائدتهم للبلاد وأنهم ضرورتها وحاجتها، وبالقيادة الخلقية والدعوة الإسلامية والإنسانية الفاضلة.

وقد قمت في صدد هذه الحركة بجولات في ولايات بهار ومدهية براديش، وراجستهان وهريانة، وبنجاب وأترابرديش، وعقدت في مختلف الأماكن احتفالات رائعة ناجحة، كان يحضرها عدد كبير من غير المسلمين من الطبقة المثقفة فيهم، وكانوا يستمعون الخطب والمحاضرات بإصغاء واهتمام، ويبدون تأثرهم وانطباعاتهم الطيبة، وقد قلت في إحدى هذه المناسبات:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشركة.

«إن على المسلمين مسؤولية ذات وجهين:

إحداهما: أن كتابهم الأخير الخالد القرآن، ورسولهم الخاتم محمداً عليه الصلاة والسلام، لا يرشدانهم إلى اجتناب هذا الفساد العام والحريق المستطير، ووحل عبادة المادة والمال فحسب، بل يأمرانهم بالوقوف دونه وسد سيله وحماية الناس منه.

والمسؤولية الثانية: أنهم كانوا وردوا هذه البلاد برسالة احترام الإنسانية والعدل الاجتماعي والمساواة الإسلامية، وقد أسعفوا هذه البلاد في ساعات حرجة دقيقة، ولا تزال هذه الرسالة محفوظة في صحائفهم الدينية، فلو لم يبذلوا جهودهم المستطاعة في الأخذ بهذه السفينة الغارقة أو المتورطة لكانوا عند الله أصحاب ذنب وتقصير وجريمة، وسجلهم التاريخ غير قائمين بالواجب، كافرين بالنعمة، مجرمين بالغفلة.

واستمرت الحركة بطريقة أو أخرى، ولكن لم يتيسر لها حتى الآن من العناية وبذل الاهتمام والرعاية، ومن الدعاة القديرين والممثلين الأقوياء ما تستحق، وأصبح جُلُّ الاعتماد فيها على رسائل ومحاضرات طبعت ونشرت باللغات الهندية والإنكليزية والأردية، أو على بعض أسفاري ورحلاتي التي تقع أحياناً، ولكني ـ رغم أزمة الرجال، وقلة الوسائل والأسباب، وعدم إدراك الناس لهذه الضرورة والحاجة الماسة ـ على ثقة كاملة ـ كاليوم الذي أنشئت فيه هذه الحركة ـ بجدِّيتها وأهميتها وضرورتها، بل إن الأوضاع المتردّية الشاذَّة في البلاد تؤكد هذه الضرورة، وتصدق على هذه الأهمية.

ويبدو لي في هذه الآونة أن الله ـ تعالى ـ يعطي فرصة طيبة للمسلمين لقيادة هذه البلاد عن هذا الطريق، والحصول على حياة العز والكرامة والاحترام بحماية هذه البلاد من الوقوع فريسة الفوضى والدمار، فإنه لم يُرفع ـ حتى الآن ـ أي صوت ضد هذه الأوضاع بصورة جادة من أي وسط أو فرقة، ولا تزال حركة «رسالة الإنسانية» حركة إصلاح المجتمع بصورة عامة ـ

رغم وجود كثير من الحركات والمؤسسات ـ لم تجد لهما دعاة حاملين، كأن الحكمة الإلٓهية تشير إلى المسلمين، وتهيب بهم أن الميدان فارغ، والناس في انتظار، وقد جدَّ الجدّ وحان الحين، وكأن لسان الحال ينشد:

يدعون سيّاراً إذا احمرّ الوغى ولكل يوم كريهة سيّار

الفصل الثالث والعشرون

وقائع مهمة لثلاث سنوات

الحرب بين باكستان والهند:

كانت أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٧١ م إذ اندلعت نار الحرب، بين الهند وباكستان، واستمرَّت هذه الحرب أسبوعين، وهي مدة ليست طويلة في تاريخ الحروب والغارات، فقد تستمر الحروب أعواماً وعقوداً من السنين وتهلك الحرث والنسل، ولكن نتائج هذه الحرب الخلقية والنفسية - بالنسبة إلينا نحن المواطنين المحبين للوطن - ونوعيتها كانت من الشدة والخطورة بمكان، بحيث كنَّا نحسب اليوم كأنه سنة، وقد كان المؤلف يعيش تلك الأيام من أحرج أيام حياته وأدقّها وأكثرها مرارة، وكان توجيه الناس من المسلمين في الهند إلى أن لا يتفاعلوا معها ولا يتأثروا بها أمراً غير طبيعي وغير معقول، ولم يكن للهند فحسب، بل كان من واجب كل مواطن باكستاني يريد الخير والبناء أن يعيش البلدان ويتقدما في أمن وسلام، وأن يبذلا جهودهما في المقاصد الخيِّرة والقيم الخلقية، واستعادة حالة الأمن والسلام في العالم، ودرء خطر الحرب التي قد تجر إلى دمار الإنسانية وهلاكها، ويتعاون بعضهما مع بعض.

أما باكستان فقد أسلفتُ آرائي وانطباعاتي في حركة قيامها، وقد تقدَّم قول مولانا أبي الكلام آزاد ـ الذي كان معارضاً للتقسيم إلى آخر حياته، والذي أبدى حيرته واستغرابه على قبول غاندي ونهرو للتقسيم ـ: (الآن لما قامت باكستان فيحق لها أن تبقى وتزدهر وتتقدم).

عاصفة العصبية اللغوية والحضارية في باكستان الشرقية:

لقد حدث في باكستان الشرقية لدى انفصالها عن باكستان الغربية حادث زلزل المسلمين، ورجال الفكر ودعاة الدين، والمطلعين على المبادىء الإسلامية، فضلاً عن روح الإسلام وجوهره، وأحدث رجّة في نفوسهم، ونكس رؤوسهم خجلاً وحياءً، وظهر أنه لا اعتداد بالأعمال الظاهرة والشعائر والمظاهر الدينية والحماس الديني الزائد عند أي شعب أو أمة حتى يكتمل وعيها، ويدق فهمها للإسلام، ويعمق تفكيرها، وتنقَى رؤوسها من شوائب الجاهلية ومخلفاتها، وتؤثر حميَّة الإسلام والانتماء إليها والغَيْرة عليه من كل انتماء إلى قوم أو سلالة أو حضارة أو وطن، ولا تلعب بعقولها وعواطفها أي نعرة لغوية أو قومية أو هتاف للاستيلاء والسلطة، حتى تفقد رشدها وترسل نفسها فلا تتجاوز حدود الدين والخلق، بل تتخطّى الحدود الإنسانية وتطغى موجة مجنونة من الانتقام والعداء من كل من يخاطب بلغة أخرى غير لغتها، أو يكون من غير وطنها ـ وإن كان يشاركها في ديانتها وثقافتها ـ فتقتله قتل العقارب والحيّات، وتلغ في دماء الناس وتضرب مثلاً قياسياً في الوحشية والضراوة.

وكنت في ترقب إلى أن أجد فرصة مناسبة في مكان قريب من حدوث هذا الحادث، حتى أخفف عن ألم قلبي وجرح فؤادي، وفاجأتني دعوة من كلكته، فانتهزت هذه الدعوة وتحدثت بمشاعري الجريحة المكلومة، أقتطف بعضاً منها فيما يلي:

(لقد حدث قبل أيام في بلد إسلامي عريق، وفي منطقة الأكثرية المسلمة

التي كانت أرض العلماء والمشايخ الصالحين والمدارس والرباطات العامرة، والتي كانت تزدان كل بقعة منها بالمساجد ودور العلم، والتي أفاض الدعاة الربانيون والأولياء العاملون عليها ماء عيونهم ودماء قلوبهم قروناً طويلة، حتى بُلَّت هذه الأرض بدموعهم الغزيرة الطاهرة، وحميت بحرارة آلامهم وأناتهم في السحر، فقد طغت فيها موجة عارمة من جنون اللغة والحضارة، وقضت في ساعات ودقائق على جهود مئات السنين، فقتل المسلم المسلم، وقُتل الأبرياء العُجّز كما يقتل العقارب والحيات، فلا قلب يرحمهم، ولا عين تدمع لهم، ويُفترس الإنسان كما يُفترس الوحوش في الغابات، وتصطاد الطيور أو تصطاد الأسماك في بركة أو نهر، ولا تبقى للنساء أي حرمة، ولا لأعراضهن أي عصمة، ولم يُرحم الكبير لكبره، ولم يُسمع أنين الطفل وعويله، ولم يُترك أي نوع من أنواع التعذيب والإيذاء من التجويع والتعطيش والوحشية والقسوة إلاّ عامل به الأخ أخاه، وغلبت الوثنية اللغوية على عقيدة التوحيد، والقومية والعرقية السلالية على الوحدة الإسلامية، والحمية الجاهلية والعصبية البغيضة على الأخوة الإسلامية، بصورة لم يسبق لها مثيل من بدء الإسلام إلى يومنا هذا في أي بقعة من بقاع الأرض، وما مُنِيَ المسلمون بهذا الذل والمهانة والصغار بأي عدو مثل ما مُنُوا به بأيدي إخوتهم المسلمين).

ثم قلت:

(إن الجانب الخطير المخجل الذي يتندّى له الجبين حياءً في هذه الوقائع البشعة، أن أعداء الإسلام وجدوا دليلاً على فشل الإسلام وإخفاقه، واستنتجوا من ذلك أن الإسلام لا يملك أن يصل بين الناس ويوحد بين جنسيات وشعوب مختلفة في لغاتها ولونها وسلالاتها، وأنه لا إمكان لقيام مجتمع أو دولة على أساس العقيدة الإسلامية، وإذا قامت فلا بقاء لها عليها، إنها خسارة معنوية فادحة لا تضاهيها خسارة، فقد زالت بذلك الثقة بالإسلام، ومكانه وعزِّه، وتعلمون أن أصل كل شيء اعتباره ووقعه).

ثم ذكرت أسباب هذه المأساة فقلت:

(إنني أرى أن أكبر سبب لوقوع هذا الحادث هو قلة الوعي الديني في هذا الشعب، فلا بدَّ من إيمان العقل ووعيه مع إيمان القلب، لا يكفي حب الإسلام في الظاهر، بل لا بدَّ معه من معاداة الدعوات والفلسفات المناوئة للإسلام، بل إن القرآن الكريم نصَّ على عداء الطاغوت والشيطان ودعاه الجاهلية قبل الإيمان بالله.

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بالطاغُوتِ ويؤمنْ باللّه فقد استمسكَ بالعُرْوة الوُثْقى ﴾.

ثم نبهتهم إلى ما جاء في كتاب الله تعالى من ذم شديد للعصبية الجاهلية، وقد كان الرسول ﷺ لا يستخدم الألفاظ الشديدة النابية لأعدى أعدائه، ولكنه أذن بل أمر بالقول الشديد الغليظ لكل من يَدَّعِي بدعوى الجاهلية أو يدعو إلى الجاهلية، ونهى في هذا الصدد عن كل كناية وإشارة وإيماء، وأمر بالتصريح فقال ﷺ: «من تعزَّى بعزاء الجاهلية فأعِضُوه بِهَنِ أبيه ولا تكنُوا»[1].

قلت: (إن اللغات وتنوّعها مبعث الرحمة، وليس مبعث شقاء وعذاب، لقد خلق الله اللسان ليصل القلوب المنكسرة، ولينفخ الروح في المَوَات، وينثر ورود الحب وأزهاره، ويقرِّب البعيد، ويؤنس الغريب، ويصادق العدو، إنه لم يخلق للنفور والعداء، وإشعال الجمرات، والتفريق بين الأخوة، وبثّ السموم، فلو أصبح اللسان يستخدم في الأغراض الشريرة لكان قطعه والخرس خيراً ألف مرة من الكلام).

وضربت أمثلة من تربية الصحابة رضي الله عنهم، بحيث لم يكن يستهويهم مستهو، ولا يخدعهم عن أنفسهم خادع، ولا تغويهم نعرة جاهلية، وذكَّرتهم بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما نبَّهتهم إلى أن حرمان أي لغة من الروح الإسلامية وتبعيتها للتصورات والمعتقدات والآداب الجاهلية نذير خطر كبير، وواجب على الأخوة البنغاليين أن يواجهوا هذا

---

(١) مشكاة المصابيح.

الخطر، ويثروا لغتهم بالآداب الإسلامية، والتصورات الإسلامية، وينفخوا في روحها وضميرها الإسلام، ويزيلوا مهابة تلك الشخصيات وجلالها وتفوقها العقلي التي تعمل في إبعادهم عن الإسلام، وتقريبهم إلى التصورات الشركية الوثنية، وبذلك يبدأ عهد جديد في تاريخهم.

﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾.

وذكّرتهم بأن أسلافهم في الماضي القريب ضربوا أمثلة رائعة مع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد من الفروسية والشجاعة والتضحيات الجسيمة في سبيل الإسلام مما حير أمثال الدكتور هنتر من المؤرخين الشديدي الانتقاد على الإسلام والمسلمين .

قيام هيئة قوانين الأحوال الشخصية:

وظهر في ساحة الهند خطر آخر كبير للحفاظ على وجود الشخصية الإسلامية الصحيحة وبقائها للأمة المسلمة، بل للحياة بعز وشرف وحرية في دائرة الدين الإسلامي، كان ذلك ميل الحكومة، ومطالبة المتجدِّدين المتحررين من المسلمين بتطبيق قانون موحَّد للأحوال الشخصية (Uniform Civil Code) إذ لا توجد بدونها في نظرهم الوحدة القومية، والمساواة والانسجام بين مختلف الطبقات والفرق.

وتجاوز هذا الخطر من تخوف وتوقع إلى وقائع وحوادث، وكانت بيانات الحكومة المتحفظة التي تحمل دلالات خطيرة تؤكد هذا الخطر، ثم نشأت ثُلَّة تحت قيادة عبد الحميد دلوائي، كانت ترفع صوتها حيناً بعد حين بمطالبة القانون المشترك، وكانت تقود هذه المهمة كحركة ودعوة، لقد كان هذا طليعة ردَّة اجتماعية وحضاريّة، وخروج على الشريعة، وحرمان من بركاتها وثمراتها في المسلمين، وكان يخشى من ذلك أن يصدق عليهم هذا الوعيد الشديد: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾.

لقد كان فيمن تنبَّه إلى هذا الخطر وشعر بفداحته لأول مرة الشيخ مِنَّة الله الرحماني أمير الشريعة لولاية بهار وأريسة، فقد هداه إلى ذلك عمله ومسؤوليته ومنصبه وتجاربه العلمية، وقد رزقه الله تعالى ـ مع فضائل ومناقب أخرى ـ سعادة إقامة الجبهة القوية ضد هذه الدعوة المنحرفة، فقرر أن يقود لذلك حركة منظمة ويقيم مؤسسة عظيمة، وأيد ذلك العلماء من أعضاء المجلس الاستشاري الإسلامي والجماعة الإسلامية، ودار العلوم ديوبند، ومظاهر العلوم، وندوة العلماء، وتقرر أن يعقد اجتماع في هذا الموضوع في ٢٧ ـ ٢٨ /ديسمبر عام ١٩٧٢م ببومبائي، بعنوان: «ندوة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين» ويدعى إليه الممثلون من جميع الفئات والطبقات والفرق والجماعات من المسلمين، وتقام بتعاونهم وتضامنهم جميعاً جبهة قوية منظمة ضد هذه الفتنة.

وكنت أنا والشيخ منظور النعماني في مكة المكرمة لحضور جلسات رابطة العالم الإسلامي، وكان المفروض أن نعود بعد الحج، ولكن جاءتنا برقيات ورسائل من الشيخ محمد يوسف (أمير الجماعة الإسلامية ـ سابقاً ـ) وغيره من العلماء والأحباب، أنه لا بدَّ من الحضور في هذه الندوة المهمة الأولى من نوعها، فرأينا أن هذه القضية هي من صميم قضايا المسلمين، بل هي قضية الموت والحياة بالنسبة إلى المسلمين، وقد سعدنا بالحج من قبل ذلك عدة مرات، ولعل الله سيسعدنا به فيما يستقبل إن شاء الله، وقد كان بقي أسبوعان أو ثلاثة للحج، وإذا بنا عزمنا على العودة، ورجعنا عن طريق بيروت إلى بومبائي، وحضرنا الندوة، والواقع أننا لم نَرَ تمثيلاً عظيماً جامعاً للمسلمين مثل ما رأينا في تلك الندوة.

الفصل الرابع والعشرون

زيارة ستة أقطار إسلامية وعربية في غرب آسيا والشرق العربي ورحلات إلى الخليج العربي

لقد قرَّرت رابطة العالم الإسلامي ـ التي كان قد تولَّى سعادة الشيخ صالح القزاز أمانتها العامة[١] ـ أن ترسل وفوداً لها إلى مختلف بلدان العالم، وقد كانت برامج هذه الوفود تشمل القارات الخمس، وكان هدفها الرئيسي الاطِّلاع على أوضاع المسلمين ومؤسساتهم ومنظماتهم العلمية والثقافية وحاجاتها وأعمالها ونشاطاتها، وتعريف أهلها بأهداف الرابطة ورسالتها.

وقد كانت لي صلات صداقة قديمة من قبل وجود الرابطة وتأسيسها بالشيخ محمد صالح القزاز، وكانت قائمة على أساس الإخلاص والاتحاد في الذوق الديني والانسجام الفكري والنفسي، وكان لأجل ذلك له صلة خاصة بي من بين أعضاء الرابطة ـ وكلهم كانوا نخبة بلادهم ـ ويحسن الظن بي، فقد قدَّم إليَّ قائمة بمختلف البلدان التي كانت تتوجه إليها الوفود، كانت فيها

(١) وذلك بعد وفاة أمينها العام السابق المؤسس الشيخ محمد سرور الصبان، وزير المالية في المملكة العربية السعودية سابقاً.

بلدان أمريكا وأوربا من البلاد الغربية، وكانت فيها اليابان وأندونيسيا من البلدان الشرقية، ولكنني أحببت - لصلاتي الثقافية والفكرية وصلاتي التعليمية - المشاركة في الوفد الذي كان يتوجه إلى أفغانستان وإيران ولبنان وشرق الأردن والشام والعراق، واختارتني الرابطة رئيساً للوفد.

كانت هذه الجولة ما بين ٤ /حزيران ١٩٧٣ م و ٢٠ من آب ١٩٧٣ م، ولما كانت بداية هذه الرحلة من كابل عاصمة أفغانستان وكانت نهايتها عمان عاصمة الأردن، حَلاَ للمؤلف أن يسمى الكتاب الذي ألّفه عن هذه الرحلة بهذه التسمية: «من نهر كابُل إلى نهر اليرموك».

وتحتلُّ مذكِّرة هذه الرحلة من بين كتب المؤلف مكانة وأهمية خاصة، إذ أن المؤلف شاهد فيها تلك البلدان التي يتصل بها الجزء الأكبر الأهم من التاريخ الإسلامي كمسلم واقعي، وطالب من طلاب علم التاريخ، ورحّال باحث عن آثار الحياة الإسلامية، يتمنى ازدهار الإسلام ورُقيّه مع النظر إلى الحوادث والوقائع بنظرة واقعية، وإعطائها مكانها اللائق والتفرُّس في الأخطار، فسوف يجد فيها القارىء انطباعات المسلم المتألم ومشاعره، وتخوفات المطّلع المهتمّ بالأوضاع وتنبؤاته، وليس فيها من الأمل والرجاء ما يتعدّى طوره ولا من اليأس والقنوط ما يزيد عن حدِّه، وقد جاءت فيها إشارات تفوق مستوى مسلم هندي عاش في بيئة دينية وعلمية محدودة، وقد يستغربها من يعرف المؤلف شخصياً كيف جرت على قلمه، وكيف توصل إليها في مشاهداته.

وكان من تقدير العزيز العليم أنه سنحت لي فرصة زيارة هذه البلدان والتجول فيها ومشاهدتها بحرية وفي غير كلفة، قبل تلك الثورات التي غيَّرت هذه البلاد رأساً على عقب، وظلَّ من الصعب العسير فيها بعدها أن يتجول فيها، ويقابل الناس، ويطلع على الأوضاع بحرية وطلاقة، فقد وقعت أربعة بلدان منها وهي: أفغانستان، إيران، لبنان، والعراق - إلى حد ما - تحت سنابك الثورة، وخيرٌ لنا أننا زرنا هذه البلدان حين لم تنقطع صلتها بتاريخها

القديم وحضارتها القديمة، ولم تكن قد حدثت أوضاع صناعية فرضت على البلاد فرضاً.

وبدأنا ٢٩/ يوليه ١٩٧٣ م بعد تكوين جديد للوفد برحلة أخرى كان منزلها الأول بيروت، وقد سعدنا في بيروت بزيارة المؤسسات والمنظمات المختلفة، وحضرنا حفلات الترحيب المتعددة، وزرنا طرابلس، وصور، وصيدا، وقابلنا أعيان البلد وقادته، والوزراء المسلمين، وكبار العلماء، وعقدت حفلة شرف وتكريم في دار الإفتاء بلبنان، نظمها سماحة الشيخ حسن خالد مفتي لبنان، وحضرها دولة الرئيس آنذاك الأستاذ تقي الدين الصلح رئيس وزراء لبنان، ودولة الرئيس الأستاذ صائب سلام رئيس الوزراء الأسبق، وعدد من الوزراء وأعضاء مجلس النواب، وأعيان البلد وكبار العلماء والقضاة الشرعيين، والأساتذة الكبار ورجال الفكر والثقافة في لبنان، فألقيت كلمة على هذا المسرح العالمي وملتقى الحضارات بعنوان: «موقف الشعب المسلم في ملتقى الحضارات» وأشرت إلى مسؤوليات العلماء والمتخصصين في الفقه الإسلامي.

يومان في دمشق:

سافرنا إلى دمشق ٥ / رجب ١٣٩٣ هـ الموافق ٣ / أغسطس ١٩٧٣ م، وكان ذلك يوم الجمعة، وكانت هذه الرحلة الرابعة إلى الشام، وقد قلت ـ فيما سبق ـ إنني لا أعرف مدينة ـ بعد الحرمين الشريفين ـ حلَّت من قلبي محل دمشق، وأَلِفْتُها وطابت لي الإقامة فيها.

وكانت هذه الزيارة الرابعة جاءت على فترة ثمانية أعوام، وهي فترة ليست طويلة، ولكنها مليئة بالحوادث، قامت فيها عدة انقلابات، وعدة تحوُّلات، وذهبت حكومات وجاءت حكومات، وهي الفترة التي وقعت فيها نكبة حزيران ١٩٦٧ م، وحدثت تغيرات عظيمة في خارطة البلاد العربية المتاخمة لإسرائيل.

إذاً فهي فترة حاسمة عميقة الجذور وبعيدة الأثر في تاريخ الأمة العربية الإسلامية، وكنت أتلمس آثار هذه التحولات والتحديات في حياة الشعوب المواجهة للخطر وفي أوضاع البلاد الواقعة على الثغر.

وكنا في دمشق، وإذا بنا قد أُخرجنا منها بطريقة مسرحية وعلى حين غفلة من أهلها في جنح ليلة الأحد، من حدود الشام إلى حدود لبنان، وقد كان هذا الواقع أشبه بخيال أو حلم يراه النائم.

كنا في حالة تعب نائمين في فندق أمية، وإذا بجرس يدق، وفُتح الباب فإذا بثلاثة أشخاص يدخلون الغرفة، وهم في اللباس المدني ويقولون لنا: ضُبّوا العفش واخرجوا معنا، وظننا أولاً أنهم يسوقوننا إلى السجن أو مقر الشرطة، وقد كنا نسمع ونقرأ قصص ذلك عن الأناس الطيبين من أهل البلد، وركبنا السيارة وانطلقت بنا، فإذا بنا متجهون إلى حدود لبنان.

ونشرت صحيفة «الحياة» البيروتية هذا الخبر يوم الاثنين ٨ / رجب ١٣٩٣ هـ (٦ / آب ١٩٧٣ م)، ومنها علم الأخوان في بيروت ما وقع لنا في دمشق، وأذاعته إذاعة بريطانيا، وإذاعة إسرائيل في نفس ذلك اليوم، وعلّقت على الحادث الصحف الإسلامية والعربية في بيروت وفي العواصم العربية الأخرى، واستنكرت الواقع، وزارنا الأخوان في بيروت يستوضحون الأمر ويستغربون ممّا حدث، ويبدون اهتمامهم بالقضية.

في عاصمة الرشيد:

كانت هي رحلة ثانية لي إلى بغداد، وكانت الرحلة الأولى عام ١٩٥٦ م، وكان يظهر في بادي النظر أن البلاد قبل ثورة عبد الكريم قاسم كانت أخصب وأنعم وأحكم، وكان الشعب يتمتع بحرية وثقة ورخاء، ويحق لطالب العلم والسائح في البلاد أن يستفسر ما هو الذي جنته هذه البلاد من الانقلابات والثورات، التي ظهرت لإصلاح الأوضاع وتخليص الشعب من قبضة الاستبداد والظلم وإعادة الحرية الطبيعية له؟.

في أرض الشهداء والمرابطين:

كانت نهاية المطاف في هذه الجولة شرق الأردن، غادرنا إلى عمَّان مساء ليلة الاثنين (١٢/٨/٧٣ م)، ونزلنا لساعة في مطار البصرة، وقد حِيلَ بيننا وبين هذه الزيارة، ووصلنا عن طريق الكويت إلى عمان ١٣ / أغسطس ١٩٧٣ م، ونزلنا في ضيافة وزارة الأوقاف، وقد كانت هذه الرحلة الثالثة للأردن، قابلت فيها الأصدقاء القدامى، وشاهدت المؤسسات المعروفة.

وقابلنا جلالة الملك حسين في ١٤ / أغسطس، وكنت قد لقيت جدّه الملك عبد الله بن الشريف حسين قبل ٢٢ سنة، ولعل الملك حسين كان على علم بذلك، دخلنا إلى مكتب الملك فمشى بضع خطوات لاستقبالنا، وفتح الباب، وأبدى دماثة وتواضعاً زائداً، واعتذر أنه يقابلنا في هذا الزي الذي كان فيه.

ألقيت في الأردن خطباً ومحاضرات في مختلف المدن والأماكن، نخص منها بالذكر السَّلْط وإربد، ووقفنا على جبل أُمّ القيس قرب إربد، وألقينا نظرة على نهر اليرموك، حيث وقعت معركة حاسمة بين المسلمين والروم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونظرنا منه إلى هضبة الجولان التي استولت عليها إسرائيل، والتي أصبحت الشام بسببها تحت رحمة إسرائيل وفي ظل مدافعها، وألقيتُ نظرة على قرية طبرية في المنطقة الإسرائيلية.

حديث إلى الجنود المرابطين:

وكانت أول تجربة رائعة مؤثرة لي في حياتي إذ زرت في ١٩ / أغسطس ١٩٧٣ م مركز للقوات المسلحة للمملكة السعودية، أقيم للدفاع عن الحدود وحماية الثغور، فقد طُلِبَ مني أن أخاطب الجنود المرابطين، فلما اصطف الشباب المسلحون وحيونا بتحية إسلامية غمرتني

موجة من سرور إيمان ونشوة، وأخذتني هزة لم أعرفها من قبل، فأدمعتْ عيني، وفتقت قريحتي، فتكلمت بلسان القلب قبل أن أتكلم بلسان الفم.

رحلةٌ إلى الخليج العربي:

قمتُ في شهر محرم ١٣٩٤ هـ الموافق يناير ١٩٧٤ م في عودتنا من مكة المكرمة حيث حضرنا جلسة الرابطة بزيارة قصيرة لأبو ظبي ودبي على دعوة من حاكم الشارقة الشيخ سلطان محمد القاسمي، كان يرافقني فيها الأستاذ سعيد الأعظمي والأستاذ واضح رشيد الندوي، وألقيت خطاباً في الشارقة ٥ / محرم ١٣٩٤ هـ بمسجد علي بن أبي طالب عَنْوَنْتُه مراعياً للوضع الجغرافي للبلاد بـ «خليجٌ بين الإسلام والمسلمين»، ذكرتُ فيه أنه كما يقع هذا الخليج بين إيران والبلاد العربية، وانفصلت به القطعتان من الأرض، كذلك من المؤسف المؤلم أنه قد وقع هناك خليج بين الإسلام والمسلمين، فالتعاليم الإسلامية في وادٍ، والمسلمون الذين يدينون بها في وادٍ، وواجبات المنصب والمكانة والخلافة تتطلب شيئاً، وسيرة المسلم ومنهجه ودوره على مسرح العالم تبغي شيئاً آخر. وفصَّلت القول في هذا الانفصال الشديد الذي هو غير طبيعي، ودعوت إلى العودة إلى الإسلام وسيرة المسلمين الحقيقية، وذكرت ما يلحق المسلمين والعالم كله من الخسائر بسبب هذا الوضع الشاذ البعيد عن الفطرة والأصالة.

وكان لي خطاب آخر في هذا السفر في المكتبة العامة بدُبَي بتاريخ ٢٨ / يناير حضره عدد كبير من أعيان البلد والعلماء والأساتذة الفضلاء، وكان عنوان الخطاب: «كيف دخل العرب التاريخ؟» ذكرتُ فيه كيف استطاع العرب أن ينالوا هذه الأهمية العالمية في التاريخ، ولفتوا إليهم أنظار العالم، وشغلوا أقلام المؤرخين بتسجيل مآثرهم وفضائلهم، ما هي الأسباب الحقيقية وراء ذلك، وما هو السرُّ في هذه المكانة المركزية؟.

ثم سافرتُ إلى الخليج عام ١٩٧٦م وكان يرافقني أيضاً الأستاذان: سعيد الأعظمي وواضح رشيد الندوي، وألقيت كلمة في الديوان الأميري بأبو ظبي في ٢٣ / ديسمبر ١٩٧٦م، كان موضوعها: «نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة».

الفصل الخامس والعشرون

المهرجان التعليمي لدار العلوم
ندوة العلماء بمناسبة مرور ٨٥ عاماً على نشوئها

لقد كان المسؤولون عن ندوة العلماء يفكرون من زمان في عقد اجتماع عالمي أو مهرجان كبير، وبدأوا ينطقون به من عام ١٩٦٣ م ويكتبون عنه، ولكن لم يتجاوز ذلك إلى العمل والتحقيق، وأخيراً صدر القرار بذلك في جلسة المجلس الاستشاري لندوة العلماء المنعقدة بـ ٢٣ / مارس ١٩٧٤ م، وتقرر أن يعقد هذا المهرجان التعليمي بمناسبة مرور ٨٥ عاماً على تاريخ نشوء ندوة العلماء، في ما بين ٢٥ ـ ٢٨ من شوال عام ١٣٩٥ هـ (٣١ أكتوبر و ٣/ نوفمبر عام ١٩٧٥).

وعندما عُيِّن هذا التاريخ لم يكن يُتوقع أن تفرض في البلاد حالة الطوارىء، ويتغير الوضع تماماً، فقد فرضت حالة الطوارىء في البلاد في يونيه عام ١٩٧٥ م، ولكن كانت قد تمت إجراءات المهرجان وأعلن عنه، وكان في الناس شوق وانتظار، حتى كان من غير المناسب إلغاؤه أو تأجليه، وقد تمَّ توجيه الدعوات إلى علماء البلاد الأجنبية لا سيما البلاد العربية، ورجال التربية والتعليم، والمسؤولين عن الجامعات ورجال الفكر وأصحاب

الأقلام، وقد كان الاتصال بالحكومات العربية والجامعات والمؤسسات العربية.

وكان من المحنة للمسؤولين عن المهرجان أنهم حاولوا أن يكون هذا المهرجان التعليمي بعيداً عن التأثير الرسمي السياسي، وأن لا نستعين في ذلك بالحكومة المركزية أو حكومة الولاية، وأن لا نقبل منهم اهتمامهم الزائد بإجراءات هذاالمهرجان ورعاية شؤونه.

وعلى كُلّ فقد عقد هذا المهرجان، ولقي نجاحاً عجيباً، وخيَّمَ عليه هدوء وسكينة، حتى إن الخطباء العرب كانوا يخطبون طويلاً، والناس الذين لا يفهمون لغتهم وينتظرون الترجمة كأنَّ على رؤوسهم الطير، وكما قال الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي: «كان الناس في هذا الاحتفال يستمعون إلى المحاضرين والخطباء كأنما هم يسمعون إلى خطب الجمعة في أدب ووقار وسكينة» وكان قد كتب الأستاذ محمد الحافظ يصور استماع الناس: «كأنهم سُمّروا بالمسامير».

مَقْـدَم الضيـوف:

بدأ الضيوف الأجلَّة يردون لكهنؤ، وكان أول وفد وصل لكهنؤ صباح الخميس ٣٠ / أكتوبر الوفد المصري بقيادة شيخ الأزهر الأستاذ الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود، وكان معه وزير الأوقاف المصري، والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية معالي الدكتور حُسَين الذهبي، ووفد رابطة العالم الإسلامي، وعدد من علماء مصر الكبار، وبعض الضيوف الهنود. وكان قد وصل قبلهم وفد البحرين يوم الثلاثاء، ووفد الجزائر وأوغندا يوم الأربعاء، ومن سوريا والعراق والأردن وموسكو.

وكان ذلك اليوم في لكهنؤ يوم سرور وفرح كفرح العيد، لم أرَ مثل هذا السرور والاغتباط والفرح في مدينة لكهنؤ قبله، وقد كان سكان المدينة قد خرجوا مع ٣٠ باصاً ـ عدا السيارات والشاحنات ووسائل المواصلات

الأخرى - لاستقبال الوفود، وقد تقدَّم المستقبلون وكسروا حصار البوليس، وارتجَّ المطار بهتاف الله أكبر، ثم جاءت وفود أخرى يوم الجمعة، وكمل عدد الضيوف الذين كان يتوقع مجيئهم، وقد كان أهل المدينة نصبوا الأبواب وأقواس النصر، وأقاموا على شارع الندوة أبواباً بأسماء الإمام ولي الله الدهلوي، والإمام أحمد السرهندي، والعلاَّمة السيد سليمان الندوي.

موقع المهرجان:

لقد أعدّوا عشرة آلاف كرسي للمستمعين، وكان على المنصة أيضاً عدد كبير من الكراسي للضيوف المحترمين الكبار، وكان جناح خاص للصحفيين، وقد سُمِّيَ الباب الأول الذي يدخل منه المندوبون بباب رائد التضامن الإسلامي الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.

وقد صوّر مؤلف «روداد حسن» هذا الاحتفال بريشته البارعة:

(لعلها كانت المرة الأولى في تاريخ شبه القارة الهندية، إذ شاهد الناس فيها المجرة الجميلة من العلم والفضل والجمال والكمال، إن مشهد ممثلي الجامعات الإسلامية ومسئوليها وقادتها الجذاب الرائع، وهم جالسون في صفوف من الكراسي المنضدة، أمانة في سجل التاريخ، لا يمكن أن يتغاضى عنها أي مؤرخ أو مسجل للمذكرات والوقائع، لقد كان يخيل إلينا أن هذا المسرح ليس مسرحاً بل إنما هو باقة جميلة زاهية من أزهار العالم الإسلامي، اقتطفت لها من البلاد الإسلامية المترامية الأطراف كلَّ لون من الأزهار والرياحين، وزينت بها هذه الباقة في جمال وإجادة وإحسان).

لقد كان الممثلون عن البلدان العربية في هذا المهرجان ستة وخمسين مندوباً، لم يجتمعوا قبل هذا التاريخ في أي مناسبة رسمية أو غير رسمية، ولم نعدَّ في هؤلاء أولئكَ الضيوف الذين كانوا من جنسية هندية وجاؤوا من البلدان العربية وكان هناك ممثلون - عدا العالم العربي - من أوغندا، وروسيا، وإيران، وتايلندا، والنيبال، وشرق إفريقيا، وبنغلاديش. وكان

الضيوف أفضل وأسمَى مكانة، وإن لم يكونوا أكثر عدداً، فكان فيهم عدد من الصفوة المختارة من كبار الشخصيات في العالم العربي والإسلامي، كما كان من الهند ممثلون من كبار الشخصيات الإسلامية والعلمية، والقادة والعلماء ورجال الفكر، والمسؤولون عن المؤسسات والمدارس والجامعات الإسلامية الموقرة.

كلمة ترحيب واستقبال:

لقد كانت هذه الكلمة التي أعدها المؤلف تمتاز عن الكلمات الرسمية لحفلات الترحيب والاستقبال بأنها كانت تشتمل على دراسة تاريخية، وتحليل علمي في ضوء فلسفة التاريخ للعهود الإسلامية في الهند، ودعوة إلى التأمل والتفكير.

وكان من أكبر خصائص هذه الكلمة ـ التي كانت من توفيق الله تعالى لا غير ـ أنه خوطب فيه الضيوف العرب الموقرون، ورجال الفكر من مندوبي العالم الإسلامي من مستوى الداعية الرفيع الذي يغض النظر عن مكانتهم السياسية والاقتصادية، ووسائلهم المادية الغنية، والذي يود أن يفيدهم ويخدمهم بشيء بدلاً من أن يستفيد منهم، من إمكانياتهم الواسعة، ويوقظ فيهم العاطفة الإسلامية والغَيْرة الدينية، ويفيدهم بتجارب مسلمي الهند وحميتهم الدينية، ومنهج المصلحين والمجدِّدين وربانيتهم وفراستهم، ويضيف إلى معلوماتهم أشياء جديدة وتاريخاً جديداً.

وأحب أن أقتطف هنا من هذه الكلمة ما يدلُّ على ذلك:

(أصبح الشعب المسلم الهندي اليوم مكتفياً بالإسلام، يستمدُّ قوته وصموده من منابع الإسلام الأصيلة: كالكتاب، والسنة، وسلوك الرعيل الأول من المسلمين، وجهاده ووفائه، وبطولاته، وسيرة السلف الصالحين الذين أحسنوا فقه الإسلام، وأساغوا تعاليمه، واستقاموا على الطريقة. قد ربط عقيدته ومصيره وسلوكه بالإسلام، ولم يربطه بالمسلمين عرباً كانوا أو عجماً.

فليس «إمّعة» يقول إن آمن الناس آمنًا، وإن كفروا كفرنا، وإن استقاموا استقمنا، وإن انحرفوا انحرفنا، ولا يشترط لوفائه للإسلام وفاء شعب من الشعوب الإسلامية للإسلام، بل يرى ذلك لزاماً عليه وشكراً لنعمة الإيمان التي لا نعمة أعظم منها.

وهو يدعو الله أن يبقى متمسكاً بالجامعة الإسلامية معتزّاً بحضارة الإسلام وفلسفته، متمسّكاً بالدين الإسلامي كدين كامل يقود الحياة كلها والأزمنة والمجتمعات كلها، في حين تؤمن شعوب كثيرة بقومياتها وحضاراتها البائدة، وفلسفات عتيقة وحديثة، منافية للإسلام أو منافسة له، ويدعو الله جاهداً مخلصاً أن يُلْهَمَ الثبات على المبادىء والقيم والمثل العليا، مهما كانت قيمته في الحياة المادية وَالفرص المواتية، حتى يستطيع أن يخاطب ربه وينشد:

فليتكَ تحلُو والحياة مريرة ... وليتك ترضَى والأنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحَّ منك الوُدّ فالكل هيّن ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

لذلك كله ـ أيها السادة ـ كانت هذه الأرض جديرة بأن تلتقي عليها هذه الصفوة المختارة من علماء الإسلام، وقادة الفكر، وأقطاب التربية والتعليم، ليطّلعوا على مدى النجاح الذي حققه هذا الشعب المُحاط بالْمِحَن والمشكلات ـ التي قلما أحيط بها شعب من الشعوب الإسلامية ـ في الاحتفاظ بشخصيته، وأداء رسالته، وإثبات جدارته، ويطّلعوا على المسافة التي لا تزال أمامه، وهو يطلب من إخوانه في العالم الإسلامي والعربي التوجيه الرشيد والرأي السديد).

أرى العنقاء أكبر أن تُصادا:

وفي إحدى جلسات المهرجان اقتضت بعض الأوضاع أن أقول في صراحة ما يلي:

(كنا نتمنى من زمان أن يكرمنا الله تعالى بساعة طيبة يقدم فيها الفضلاء العرب، ودعاة الإسلام، وأصحاب المنّة علينا إلينا، فنُشهدهم على جراحات قلوبنا، ونصارحهم بأن الثروة الإيمانية التي حصلنا عليها منهم كيف احتفظنا بها وسهرنا عليها، وكيف حفظنا الدرس الذي تلقيناه منهم، تعالَوا اختبرونا هل خانتنا ذاكرتنا في حفظ هذا الدرس، لم نكن في لحظة من اللحظات نتصور بأننا نمد إليهم أيدي السؤال، فقد ذكّرناهم بدورهم ومكانهم دائماً في بلادهم، وأصارحكم بأني وجدتهم في الاستماع إليّ أصحاب سماحة ورحابة صدر، لقد دعوتهم إلى هذه البلاد لنعرض عليهم بعض آثار الجهود الإصلاحية والتجديدية التي بذلها أسلافنا حتى يستفيدوا منها، لا أن نستجديهم ونطلب منهم العون والمساعدة، لقد كنت أنشدت أمام سفير موقّر لحكومة من أغنى الحكومات وأكثرها احتراماً بيتين للدكتور إقبال، ولا أزال أعتقد فيهما:

«يا رب إن منتك أنك ما خلقتني مجرّداً عن علم وفضل، ولست خادم الملوك والسلاطين، وإن من طبيعتي ودوري أن أنظر إلى العالم، ولكني لست كأس جمشيد»[1].

أيها السادة، إن هذه العصافير الذهبية سوف تطير، ولسوف تبقون أنتم، فلا تحسبوا أننا تركناكم، كلا، إننا معكم، وإن مدارسنا وجامعاتنا هذه تقوم بتبرُّعاتكم القليلة، وإنها أحبُّ إلينا وأعزُّ لدينا من أموالهم الكثيرة، فلا تظنوا أننا دعوناهم لنملأ جيوبنا منهم، ولكن لنقرَّ عيوننا منهم ويقرّوا بنا عيناً، ولنلتقي بهم على صعيد الأخوّة الإسلامية والعلوم الدينية العربية، ونتداول معهم قضايا الثقافة الإسلامية ونستفيد من تجاربهم، ونعرض عليهم تجاربنا وحصيلة معلوماتنا، وقد تمَّ ذلك بفضل الله وعونه).

وعلى كُلّ فقد كان الاحتفال فصلاً جديداً في تاريخ الشعب المسلم

---

(١) المشهور أن جمشيد أحد كبار ملوك إيران كانت عنده كأس يتجلّى فيها خارطة العالم ووضعه الجغرافي والسياسي.

الهندي، وفي تاريخ المؤسسات الدينية العلمية، ولله الحمد في الأولى والآخرة.

وفاة الأخت الكريمة أَمَة الله تسنيم:

توفيت أختي الكريمة العالمة الفاضلة في ٢٨/ يناير ١٩٧٦ م، وأسلمت نفسها لبارئها في الساعة العاشرة ضحًى، في ذلك البيت الذي قضت فيه أيام الصبا والشباب والكهولة، وأيام السرور والحزن الكثيرة.

لقد كانت الأخت الكريمة صالحة عابدة، مؤلفة فاضلة، شاعرة أديبة، تفوق مثيلاتها في المحاسن والمزايا التي تختص بها نساء البيوتات الشريفة، ترجمت كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي إلى الأردية، في أسلوب سهل جميل، وطبعت هذه الترجمة باسم «زاد سفر»، وقد أذيع أجزاء الكتاب من إذاعة الحجاز أكثر من مرة، ولعلها لا تشاركها في هذا الشرف امرأة هندية أخرى، وألَّفت عدداً من الكتب الأخرى للأطفال مثل سيرة الرسول للأطفال، وقصص الأنبياء للصغار، ورسائل أخرى، وكانت تقيم احتفالاً دينياً أسبوعياً للنساء، وهي التي أسست في قريتنا العمل الدعوي في النساء، الذي لا يزال يستمر رِفْده وخيره.

وقد صحبتُها صحبة الأخ الصغير للأخت الكبيرة، قَلَّ أن توجد مثل هذه الفرصة الطيبة الكريمة بين الإخوة والأخوات، كانت أكبر مني بست سنوات، ولكنا كنا نطالع الكتب سواء، ولها مِنَّةٌ عليّ في تنشئة الذوق العلمي والأدبي، إذ أنني وقفت بواسطتها على عدد من الكتب في السيرة والتاريخ ومجاميع المدائح النبوية والشعر والأدب، وقرأتها معها وفي إشرافها، واستفدت منها، وقمنا بأداء الحج معاً عام ١٣٦٦ هـ الموافق ١٩٤٧ م، وترافقنا في الإقامة بالحجاز حوالي تسعة أو عشرة أشهر، وبدت لي خلالها كثير من جوانب حياتها المشرقة، وجوانب الفضل والكمال.

ولكن الصفحة الذهبية المشرقة في كتاب حياتها والعنوان النوراني

اللامع فيه كان دعاؤها، وابتهالها، ولوعة قلبها واضطرابها، وفيض عيونها، وتضرُّعها على عتبة ربها صباح ومساء، وقد كان ذلك في ظاهر الأمر نتيجة لحياتها الخاصة، ولكنها كان في الحقيقة زاداً ربانياً لإظهار عبوديتها، ورفع درجاتها وتقدمها في مدارج الخير، ولا يحلو لي أن أجاوز ذكرها بدون ذكر بيتين من شعرها:

(قد بقيتُ سحابةَ النهار واقفةً مُستجدية متلهّفة، وقد حان الأصيل، وقد جرت عادة الكرام الأسخياء العطف على المتسوِّلين في آخر النهار، يا ربي يا كريم، ارحمني ولا تردني خائباً، فإن لم أستحق ذلك لِفَضلٍ فيّ، فانظر إلى رحمتك التي وسعت كل شيء).

الفصل السادس والعشرون

مقابلة رئيسة الوزراء أنديرا غاندي ورسالة تاريخية إليها، وبعض الحوادث المهمة

خلفية إعلان حالة الطوارىء:

لم تحقق الأعوام الخمسة من حكومة أنديرا غاندي ورئاستها للوزراء آمال الناس التي علقوها بحكومة المؤتمر الوطني، وشخصية رئيسة وزاراتها أنديرا غاندي التي كانت أصبحت وارثة لتقاليد أسرة نهرو، ورمزاً لرحابة الصدر، وسَعَة النظر وحُبّ الوطن، فلا انخفضت الأسعار المرتفعة، ولم يزل أصحاب إدارة البلاد وموظفو الحكومة في استرخاء وقلة مبالاة، وغفلة عن أداء الواجب وانتشار الرشى والفساد.

وكانت صلة الناس بالمؤتمر الوطني تضعف بل تنقطع، وعادت حركة المؤتمر الوطني التي كانت رائدة استقلال البلاد وحريتها حكومة حزبيةً خاصة، تنسب إليها جميع الشكاوى التي يحملها العامة من الإدارة والحكومة بصورة مشروعة أو غير مشروعة.

زِدْ على ذلك فرض تحديد النسل بجهر وإكراه قبل الانتخابات العامة، وقد نُفِّذ ذلك في مختلف المناطق بشدة وعنف، فلما جاء موعد الانتخابات

العامة عام ۱۹۷۱ م كانت ـ نظراً إلى هذا الوضع ـ قد تغيرت مشاعر الناس ونظرتهم حتى في رائي بريلي منطقة رئيسة الوزراء للانتخاب، ولكن ـ بالرغم من ذلك ـ كان يتوقع نجاحها إلى حد كبير.

وتمت الانتخابات، وظهر نجاحها، ولكن مناوئها راج نرائن رفع قضية التزوير واستعمال ثروات الدولة، ووسائل الترهيب والترغيب غير المشروعة في الانتخابات من قبل رئيسة الوزراء إلى المحكمة العليا، وكانت هذه القضية محنة للمحكمة وللقاضي جك موهن لال سِنْها، وقد تأجل الحكم فيها إلى أربع سنوات. وقد بُذلت كل المحاولات من قبل الحكومة في عدم إصدار الحكم، ولكن القاضي ـ لجرأته وصرامته أو لأمور واعتبارات أخرى ـ تمسك برأيه، وإذا به يفاجىء الناس في ١٢ / يونيو في الساعة العاشرة بإدلاء حكمه المشتمل على ٢٥٨ صفحة، وقرأ صفحات منها، وأعلن قبول المرافعة ضدها، وشاع في الناس أن أنديرا غاندي حُرمت مقعدها، وأنها لا تستطيع أن تشارك في الانتخابات لمدة سنوات.

كان أمام رئيسة الوزراء بعد ذلك خياران: إما أن تستقيل من الوزراة، أو ترافع إلى محكمة الاستئناف، فآثرت الثاني.

وبقيت الأحزاب المعارضة في قيادة جي براكش نرائن تصعِّد حملتها الدعائية ضدها، حتى لم يبق لديها إلاّ أن تفرض حالة الطوارىء، إذا أرادت البقاء في الحكومة، والتمسك بالوزارة، فكان أن وقع رئيس الجمهورية بتاريخ ٢٥ / يونيو في الساعة الحادية عشرة و ٤٥ دقيقة على قرار فرض حالة الطوارىء، وقيل في البيان الحكومي الصادر أن سلامة البلاد معرضة للخطر، ولذلك تفرض حالة الطوارىء، وخوّلت بهذا الإعلان جميع الحقوق لوقف الإجراءات القضائية للحفاظ على الحقوق المدنية الأساسية، وفرضت الرقابة الشديدة على الصحافة، وكانت قد حصلت على حق اعتقال أي شخص بدون أي إجراء في المحكمة.

وفي جانب آخر كان ابن أنديرا غاندي الأصغر (سنجي غاندي) ـ الذي

كان ابن ٢٨ سنة، ولم يتم دراسته ـ عنصراً نشيطاً في الحكومة قبل حالة الطوارىء، وإذا به يبرز على المسرح بعد حالة الطوارىء كأقوى شخصية، وأملكها لـزمام البلاد، ورأى الناس كأنه أصبح مالكاً لمصائر الناس في شبه القارة، وفيهم المفكرون والقادة السياسيون، والمخلصون للبلاد، وأصحاب مكانة وريادة، وفيهم كبار الوزراء، وأنه لا يحكم البلاد إلاّ هو، يتصرف كما يريد، لا رادع ولا حاجز، وقد كتب «Lowis M. Simons» في واشنطن بوست، يقول: (إن أنديرا غاندي لم تعد تثق بالوزراء، وجُلُّ اعتمادها على ابنها «سنجي» ولم تكن تسمع الشكاوى ضد سنجي، فإذا رفع إليها أمرٌ أو شكوى عنه، قالت: راجعوا سنجي).

وقد كان سنجي مأخوذاً بقوته وشبابه، لا يعرف هوادة ولا عطفاً، ويسرع في الحكم، ويفرط في التنفيذ حتى ولو على الأشلاء، وقد ركبه الشوق إلى تنظيف المدن وتزيينها، وحمل لواء حركة تحديد النسل، وكانت حارة «تركمان كيت» ـ وهي معمورة بالأكثرية المسلمة ـ هي هدفه الأول في إبريل ١٩٧٦ م لتنفيذ قراره، وقد كان يسكن هذا الحي الأسر القديمة من عهد الحكومة المغولية، فكانت فيه بيوت كبيرة للأثرياء، وبيوت حقيرة صغيرة للفقراء، وبيوت مكيفة على الطراز الحديث، وذاع الخبر أنه سوف يهدم هذا الحي، فحاول السُكّان وقف هذا القرار، فقُبل منهم على شريطة أن يتقدموا بأفرادهم لتحديد النسل، وخضع الناس تحت الإكراه الشديد، وتقدم واحد ومائتان لتحديد النسل، ولكن فوجىء الناس في ١٩ / إبريل بأربع عشرة من تركتورات الهدم وشق الطريق التي بدأت بهدم البيوت، وصرخت النساء وأنّ الأطفال، واعتقلت ألسنة الناس، ووقفوا مكظومين ينظرون إلى بيوتهم وهي تهدم وتخرَّب، حتى هدم حوالي ألف بيت، وقُتل مائة وخمسون شخصاً، واعتقل سبعمائة، ولم ينشر شيء من ذلك في الصحف.

أما تحديد النسل، فقد استعملت فيه كل وسائل الإرهاب والعنف، ونُفِّذ ذلك في مديريات مظفر نكر، وسلطان بور، بوحشية نادرة، وعنجهية

بغيضة، وأوذي كل من حاول الفرار، أو رفع صوت الاحتجاج، وكم من الناس في القرى قضَوا ليالي الشتاء مُسْتَخفين في مزارعهم وحقولهم، وكان الناس يخشَون من الذهاب إلى دلهي والمدن الكبرى كما يخشى المجرمون من سوقهم إلى محطة البوليس، أو الطلاب الفاشلون من ذهابهم إلى المدرسة.

ولم يكن يراعَى في تنفيذ هذا القرار الأعمى عمر الفرد ولا مكانته ولا حالته الصحية، ولا تزوجه أو عزوبته، فقد استولى على البلاد جوٌّ الإرهاب، والخوف والرعب، لقد كانت الحالة من الذل والرعب والخضوع المكره، والعجز والضياع في الناس المثقفين ما كانت عند هزيمة المسلمين أمام الإنكليز عام ١٨٥٧ م واستيلائهم على البلاد.

مقابلة أنديرا غاندي ورسالة مفتوحة إليها:

رأيت في هذه الأوضاع الشاذة وحالة الخوف والإرهاب أن أقوم بمحاولة ـ كأحد أفراد هذه البلاد الذي يملك القلب والضمير، وكمواطن واعٍ وعالم من علماء الدين ـ لمقابلة أنديرا غاندي، والتحدُّث معها في هذه الأوضاع وما تجرُّ على البلاد من شقاء ودمار، وقررت أن يكون هذا اللقاء شخصياً وخاصاً، فكتبت إليها مرتين بالبريد.

كان يوم ٢٣ / أغسطس عام ١٩٧٦ م، وقد خرجت من بيتي في قريتي إلى المسجد لصلاة الظهر، وإذا بي أخبر بأن ضابط البلد ينتظرني، فقابلته، فأخبرني بأنه أرسله حاكم البلد، وقد جاءته رسالة من دلهي؛ توجه رئيسة الوزراء إليكم الدعوة لحضور الغداء في قصر الرئاسة، وقد أوصى وزير مصلحة القطارات السيد محمد شفيع أن يحجز لكم مقعداً في القطار اليوم، وجئناكم لإشعاركم، فرأيت أن هذه فرصة لمقابلة رئيسة الوزراء، فلأنتهزها، وأطلب منها موعداً للمقابلة والحديث الخاص، ولم أكن أعلم خلفية هذه الدعوة وأغراضها.

ووصلت دلهي، وسلّمت إلى مندوب وزير المواصلات فور وصولي إلى المحطة بطاقة الدعوة من رئيسة الوزراء، أن حفلة غداء ستقام على شرف رئيس موريتانيا مختار ولد دادا من قبل رئيسة الوزراء، ولعلّ الهدف من وراء ذلك كان تقريبي وإبعادي عن جبهة المعارضة، فذهبت حسب الموعد، وكنت في الحفل إذا برئيسة الوزراء واقفة أمامي، فحييتها، وقلت لها: إنني كنت كتبت رسالتين مسجلتين، وطلبت فيهما موعداً لمقابلة، فنفت وصول الرسائل، وأنها لا تعلم بشيء من ذلك، فقلت: يمكن الآن أن تحدّدي موعداً للتحدث في بعض الموضوعات الهامة، قالت: هل تمكث للغد؟ قلت: سأمكث لهذه المهمة، فقالت: سوف يصل إليكم الخبر اليوم.

ولما وصلت إلى البيت بعد الغداء أخبرت بالهاتف أن رئيسة الوزراء قد حدَّدت موعد المقابلة غداً في الساعة الثالثة ظهراً في مكتبها.

ووصلت إلى المكتب حسب الموعد، وكانت وحيدة في المكتب، وبدأت الحديث، ووضعت أمامها الرسالة، فقالت سوف أنظر فيها، وكنت أعلم أن الفرص عند المسؤولين عن الحكومات قليلة، فقد لا تفي بالوعد، فقلت: إنها لا تستغرق إلاّ دقائق، فلو تفضلت بإلقاء نظرة عليها، فقرأت الرسالة، ثم بدأ الحديث، وكان مما جاء في هذه الرسالة:

(لقد توتر الوضع وازداد سوءاً من ستة أشهر من حين بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدة وعنف، وأخاف أن الأخبار الصحيحة لا تصلك، وإلاّ فكان من غير المعقول أن تتركي الأوضاع تظل من سوء إلى أسوأ، وأن الوضع الصحيح أن حكومات الولايات - على عكس مقاصد المشرفين على الحكومة والمسؤولين عنها - قد اتخذت تنفيذ هذا القانون، والحصول على النجاح وسيلة هنية للبقاء في السلطة والجاه، وهم يتسابقون في هذا، ويقع بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية مكلومة وعملائها وأذنابها مع المواطنين الآمنين الوادعين، وقد أنتج ذلك أن تحوَّلت هذه البلاد إلى ثكنة يسودها القلق والرعب والخوف، ويرتكب الناس لتحقيق

مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف المطلوب من تحديد النسل كل الأعمال الخسيسة والوحشية، فيُصطاد العمال المساكين والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات، وتستخدم وسائل الترهيب والعنف والإطماع والترغيب حتى يكملوا هدفهم، ويشترط للمحافظة على الترخيصات الرسمية للتجارات، أو الحصول على الترخيصات الجديدة أن يقدموا كذا عدداً من الأفراد لتحديد النسل، وأصبح الموظفون الذين هم العمود الفقري للحكومة والذين كانوا يتمتعون بحرية واحترام زائد إلى الآن، يعيشون في خوف وقلق، والأساتذة والمدرسون الذين عليهم عهدة تربية الجيل الجديد يعانون من الاضطراب النفسي والعقلي الشديد، وعاد هذا الموضوع حديث النوادي والمجالس، والناس في هَمّ وعذاب وبلاء.

وكان نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي الذي يسببه الخوف والطمع في بلاد عمَّ فيها الجهل من سابق، ومن أخطر الجوانب وأشدها أسفاً أن أهل البلاد يكادون يُحرمون من الشعور بكرامتهم وثقتهم بأنفسهم، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني، وجهود حركة الخلافة، ومساعي قادتنا السياسيين: غاندي، ومولانا آزاد، ومحمد علي، وأسرة نهرو، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية والقهر والذل، ولعله ما تمر لحظة يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنها بلاد حرة ديموقراطية، بعيدة عن كل إجبار وإكراه وعنف، استطاعت بجهودها أن تنال حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية وأخذت بيدها زمام أمورها.

ولا أرى أحرص على إيجاد هذه الثقة والاعتماد وأقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو، فإن لهذه نصيباً أساسياً في هذه الجهود، وقد سقَوا هذه الشجرة بعروقهم ودمائهم، فكيف يسوغ أن يروا هذه الشجرة في عهد حكمهم وهي تذوي وتصفر؟ لقد مسَّت الحاجة الآن إلى مراجعة الأوضاع في البلاد، فإن أي شعب إذا تعود على العبودية والجبن

والخوف، وفقد صفات الجرأة والطموح، والثقة، وعمل ـ عكس ما يحب ويريد ـ تحت ضغط الخوف، أو طمع المال، واعتقد أن المحافظة على الحياة والمنصب والوظيفة أهم شيء، ولو على حساب الضمير، والغيرة، والثقة بالنفس ـ فإنه لا موضع للطمأنينة والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدم سياسياً واقتصادياً وتعليمياً في الظاهر، فإن البلاد بالشعوب، وليست الشعوب بالبلاد، والشعوب لا تعيش إلاّ بسيرتها وصفاتها الباطنة الصالحة، وعزتها وجرأتها الخلقية، لا بوسائل معيشتها وارتفاع مستوى حياتها).

وقلت: (إنه لمن الفشل والخيبة لحركة تحرير البلاد وجهودها وقادتها أن يضطر الناس إلى تذكّر عهد العبودية والحكم الأجنبي، وإنه عار أن يتذكر الناس اليوم عهد الإنكليزي، ويتمنوه).

وكنت أثناء حديثي معها قد أُخبرت بوصول بعض الشخصيات المهمة لمقابلتها، ولكنها أشارت بالتأخير، ولمّا شعرتُ أنني قد أتممتُ حديثي ولا حاجة إلى إطالة وزيادة استأذنتها.

انقضاء حالة الطوارىء، وبعض النتائج المستفادة منها:

وأعلن عن رفع حالة الطوارىء بعد أن دامت تسعة عشر شهراً (من ١٥ / يونيو ١٩٧٥ م إلى ١٨ / يناير ١٩٧٧ م) وتنفس الناس في حرية وطمأنينة.

الانتخابات العامة لعام ١٩٧٧ م ونتائجها ومجـيء أنديرا غاندي إلى بيتي:

انتهت حالة الطوارىء، وأعلن عن الانتخابات العامة، ورُشحت أنديرا غاندي للانتخاب من منطقة رائي بريلي حسب العادة، وكان منافسها هو المنافس السابق راج نرائن، وظهرت نتيجة الانتخاب حسب ما كان يتوقع، والذي كان ردّ فعل طبيعي لعهد حالة الطوارىء، وتحديد النسل الإجباري،

وكان ينبغي أن يقع هذا في شعب لم يعدّ لهذا العمل خُلُقياً ولا فكرياً، ولم تكن هذه القضية هي قضية البلاد الحقيقية أو حاجة من حاجاتها.

اختارت أنديرا غاندي منطقة رائي بريلي، وسنجي غاندي منطقة أميتهي للانتخاب، وقد لقيا كلاهما هزيمة نكراء لما ظهرت نتائج الانتخابات ٢٢ / مارس ١٩٧٧ م، وقد أبدى سكان هاتين المنطقتين سرورهم وفرحهم بمناسبة هزيمتها الساحقة، وقامت بعد هذه الانتخابات حكومة حزب جنتا.

واختفت أنديرا غاندي من منطقتها لمدة، ولم تزرها، ثم قامت بإشارة من أصحابها المخلصين لها بجولة لمدينة رائي بريلي، وما يجاورها للاتصال الجديد بمنطقتها القديمة، وتجديد علاقتها بسكانها، ودراسة الأوضاع فيها.

كان اليوم الثاني من شهر شوال ١٣٩٧ هـ الموافق ١٦ / سبتمبر ١٩٧٧ م، وإذا بركب من السيارات وصل إلى باب بيتي، وظهرت أنديرا غاندي مع أصحابها وحواشيها، واستقبلتُها، وكان معها كبير وزراء ولاية أترابرديش سابقاً، ولما استقر بها المجلس، قلت لها: إنني أراك مظلومة من بعض الجوانب، وهو أن الناس حجبوا عن أنظارك الحقائق والوقائع، فلم تقفي على مشاعر الناس والأوضاع القائمة، حتى آل الأمر إلى ما أنت فيه. وقلت: إنني أدعو لمن ينفع البلاد ويخدمها الخدمة الصحيحة الحقيقية أياً كان، واستمعت إلى كلمتي، ثم دخلت البيت وسلَّمت على النساء ورجعت، وكانت تلك آخر مقابلتي معها.

حكومة حزب جنتا وانهيارها:

إن حكومة حزب جنتا التي قامت بعد انتخابات ١٩٧٧ م وهزيمة المؤتمر الوطني لم تستطع أن تستمر في حكمها إلاّ سنتين وأشهراً، (من إبريل ١٩٧٧ م إلى أغسطس ١٩٧٩ م)، ولم تثبت هذه الحكومة جدارتها، وتفهمها للأوضاع، ويقظتها ووحدة الصف في رجالها، وصلاحية الحكم لهذه البلاد العريضة، وفشلت في هذه الناحية. كان من اللازم أن تثبتها

حكومة قامت في مثل هذه الأوضاع الدقيقة الحرجة، وقد كان هذا الحزب مؤلفاً من ممثلي أحزاب متعددة، فكان مزيجاً يفقد الجمع والوحدة والانسجام، وكان بين أصحابها صراع على رئاسة الوزراء، كما كانوا يتبادلون التهم في المحسوبية وجر النفع إلى أهل أسرتهم وأهل ودّهم وصِلاتهم، وكانوا يفقدون الحيوية والنشاط والطموح الذي لا بد منه لإقامة الصلات القوية مع الجماهير، ونفخ الروح في الهيكل الإداري، وإزالة الفساد والمنكرات من البلاد والقضاء على الاضطرابات الطائفية.

وأخيراً عقدت انتخابات عام ١٩٨٠ م، وسقطت هذه الحكومة وعاد المؤتمر الوطني مرة ثانية إلى الحكم.

حديثي مع قادة حزب جنتا:

قام ذات مرة عدد من كبار قادة حزب جنتا ـ وكان منهم من تبوأ مناصب الوزارات المهمة ـ بزيارتي في مقرّي في لكهنؤ، لعلهم أحسنوا بي الظن، وكان منهم من أثبت أيام حكمه واقعيته ورحابة صدره، لم تكن تُرجى منهم لعلاقتهم بحزبهم والتجارب السابقة عنهم، فأثنيت على ذلك، ولكني ذكّرتهم بقصة من قصص «ألف ليلة وليلة» تفيد بأن قاضياً ذكياً من علماء النفس استخرج المال من الشخص الذي أودع عنده أمانة، وجحدها.

وتحكي القصة أن شخصاً تجهز للغزو، فلما تهيأ للخروج إلى جبهة القتال أودع جميع أمواله التي كان كسبها عند شخص محترم معروف بأمانته في بغداد، وقال له: إذا رجعت سالماً فإني آخذه منك، وإلا فسوف ترده إلى ورثتي، فلما عاد بعد برهة من الدهر بسلامة الله تعالى وذهب إليه وعرفه بنفسه، وأنه جاء يسترد الأمانة التي أودعها عنده، أبدى الأمين استغرابه، وقال له: من أنت، وأي أمانة تريد؟، لا أذكر أمانة عندي، فإذا كان عندك شهادة، أو كتابة فاعرضها عليَّ، وكان ذلك الشخص إحساناً للظن به، واعتماداً على حاله الظاهرة، أودع المال عنده بدون وثيقة ولا شهادة، فلم يكن عنده شيء

إلا أن رجع بخفي حُنَين، ورفع أمره إلى القاضي، فأوصاه القاضي بالصبر، وقال: سوف أدبر الأمر.

وذكر القاضي في أحد مجالسه أن الشخص الفلاني سوف يبوأ من الحكومة منصباً خطيراً، ولم يبق حديثه هذا سراً، بل انتشر وذاع، وأصبح حديث الناس، فقال القاضي لمودع المال بعد أيام: اذهب إليه الآن فسوف يرد إليك المال، وهكذا كان، فحينما وقع بصره هذه المرة على صاحب المال، قال له: أين كنت؟ لقد كنت أبحث عنك، ولم تخبرني بعنوانك، وإلا أتيتك، الأمانة عندي، خذها سالمة محفوظة.

فسأل أحد الحاضرين القاضي: ما هذه الحيلة التي احتلت عليه حتى إنه رد المال وكأنه أخرج اللقمة من فمه، فقال القاضي: إنه إذا نال أحد شيئاً أكبر، زهد في الأصغر، فلما علم هو بهذا المنصب الكبير هانَ في عينه ذلك المال الحقير، وخاف أن تكون التهمة في المال حائلاً دون الوصول إلى المنصب.

فقلت لهؤلاء القادة: (إن الله تعالى كان قد وهبكم الحكم في هذه البلاد الواسعة، ووثق بكم الشعب، فكان يلزمكم أن تترفعوا عن الأمور التافهة من المحسوبية، وانتهاز الفرص والصراع على المناصب، والمنافسة في رئاسة الوزراء. وكان ينبغي أن تتفهموا جيداً أن الحزب المناوىء لكم دائماً بالمرصاد، يريد حرمانكم من الحكم والسلطة، وله أصول وجذور راسخة في البلاد، وهكذا فَقَدتُمْ فرصة ذهبية، وضيَّعتم هذه الفرصة لخدمة البلاد وصيانتها من الأخطار ومواضع الضعف التي كنتم تشكونها في عهد الحكومة السابقة)، فسكتوا ولم يحيروا جواباً، ولعلهم اعترفوا في ضمائرهم بهذا الواقع، وأن حديثي مؤسس على الواقعية، وقد قابلني هؤلاء مرتين، وأبديت لهم هذه الانطباعات والمشاعر.

الفصل السابع والعشرون

زيارة المغرب الأقصى وأمريكا

من جدّة إلى الرباط:

كنت منذ عدة أعوام عُضواً في رابطة الجامعات الإسلامية التي مقرُّها الرئيسي في الرباط، وقد تقرر انعقاد جلستها في شهر جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ (مايو ١٩٧٦ م)، فوجهت سكرتاريتها الدعوة إليَّ بالهند لحضور جلستها، وكنت آنذاك في الحجاز، وجاءت دعوة مثلها إلى معالي الشيخ محمد صالح القزاز الأمين العام للرابطة بمكة المكرمة، وكان لا يستطيع المشاركة لبعض الأعذار، فرشَّحني لأمثله في تلك الندوة، وبذلك أصبحت ملزماً بقبول الدعوة من جهتين، ونظم معالي الشيخ جميعَ الأمور لسفري ومرافقي الأستاذ محمد الرابع الندوي، وأخبرني بذلك وأنا في المدينة المنورة، وكان من الممكن أن أسافر عن طريق القاهرة، ولكني كنت أحب السفر من تلك المنطقة التي تقع فيها مدينة طرابلس وتونس والجزائر التاريخية، التي لم أكن زرتها من قبل، حتى أسعد بزيارتها فأمرّ بها على الأقل، وألقي عليها نظرة من المطار أو من الطائرة.

وأخيراً وصلنا إلى الدار البيضاء، وفاجأتني في إحدى المآدب زيارة أستاذي العلامة تقي الدين الهلالي، وقد شاهدت عدداً من كتبي في مكتباتها، وتقدم إليّ أحد الشباب في مسجد وقال: كيف الشيخ أبو الحسن الندوي، فقلت: من أين تعرفه؟ قال بكتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فقلت: إن الذي تكلمه هو أبو الحسن.

وصلينا الجمعة في (٧ /مايو) في مكناس، حيث يقيم الشيخ الهلالي، وزرت مدينة فاس التاريخية في ٨/مايو، تلك المدينة التي تحتل من المكانة العلمية في التاريخ ما تحتلها دلهي ولكهنؤ في الهند، ولاهور وملتان في باكستان.

وبدأ المؤتمر في ١١ /مايو، وكنت من ضمن من ألقى خطابه في الحفل الافتتاحي، وقد قلت فيه:

(إنه لغز من ألغاز التاريخ أن الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنساني والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشري، نبعتا من نبوة نبي أمي، إن ارتباط هذه الحركة العلمية وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة ـ التي كانت هذه الأمة حاملة لوائها ـ بهذه الأمية، يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابة مقنعة عليه، وصدق الشاعر الإيراني والحكيم الرباني الشيخ مصلح الدين الشيرازي المعروف بسعدي حينما قال: (إن اليتيم الذي لم يتلقن مبادىء العلم استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان، وجعلها لا تغني غناءً ولا تحمل معنىً).

(لكن المرء قد يفهم من هذا البيت أن معجزة النبي ﷺ في هذا الصدد كانت سلبية، حيث إنه نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجردت عن رسالتها ودورها الإيجابي، وبدأت تمثل دور التضليل ونشر الأباطيل، لكن الواقع أن هذه المعجزة كانت إيجابية بنّاءة أكثر من أن تكون سلبية، إنه نسخ ذخيرة كتب محدودة لكنه حَبَا الإنسانية بمكتبات واسعة زاخرة ينقطع نظيرها في تاريخ الأمم).

استمرت جلسات المؤتمر إلى ١٣ /مايو، ونظمت على شرف المندوبين حفلات ترحيب واستقبال ومآدب سخية، ونظمت وزارة الثقافة بـ ١٤ /مايو حفلاً ألقيتُ فيه خطاباً بعنوان: «أزمة العالم الإسلامي الحقيقية»، وقد أعلنت عنه إذاعة الرباط، وقد حضره وزير الثقافة أيضاً، وكانت خلاصة خطابي وجوهرها ما يلي:

(إنّ أكبر ما يعانيه العالم الإسلامي من الفراغ والعوز، وأشد ما يقاسيه من أزمات هي الضعف الإيماني والفساد الخلقي والتزعزع العقائدي، وحين أردُّ هذا الوضع الذي يعيشه المسلمون إلى الأزمة الإيمانية، فإني لا أريد به مفهوم الإيمان الكلامي والاعتقادي الذي يخرج به الإنسان من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام، وتجري عليه الأحكام الشرعية، ويكون مخاطباً بالآداب الدينية، وإنما أريد بذلك تلك الحرارة الإيمانية، والصلابة العقيدية، والإيمان كل الإيمان بكون الإسلام هو الوسيلة الوحيدة للنجاة والخلاص والفوز في الدنيا والآخرة التي كانت مزية الصحابة رضي الله عنهم، الأمر الذي تغلغل في أحشائهم، وملك عليهم عقولهم، وجرى منهم مجرى الدم والروح).

وغادرنا الرباط بتاريخ ١٥ /مايو إلى مراكش التي هي مدينة تاريخية في المغرب الأقصى، ولم تزل مركز الحكومات الإسلامية وعاصمتها، وكانوا يذكرون اسمها مكان المغرب الأقصى، وتسمى هذه المنطقة كلها مراكو (Morocco). ومكثنا في الطريق قليلاً بالدار البيضاء، وحضرنا فيها حفلة تأبين لزعيم المغرب العلامة علاّل الفاسي - الذي كنت أعرفه شخصياً من قبل، وزاملته في جلسات الرابطة، وكان قد انتقل إلى رحمة الله تعالى قبل عام أو عامين - وألقيت كلمة في هذه الحفلة، وذكرت فيها خصيصته هذه أنه بدأ حياته العلمية عالماً دينياً، فكان أستاذاً فاضلاً في جامعة القرويين قبل أن يكون زعيماً سياسياً، وأن بينه وبين علمائنا في شبه القارة الهندية شبهاً كبيراً، فقد قادوا حركة التحرير للبلاد. وكان خصيصته الثانية أنه درس النظم

والفلسفات المعاصرة بدقة وعمق، ولم يتخلف عن ركب العلم والحياة قط، وكانت خصيصته الثالثة أنه كان أعرف بعلماء الهند ومفكريها وقادتها من غيره من العلماء والمفكرين العرب، وقد كان ـ بصفة خاصة ـ معجباً إعجاباً كبيراً بالإمام الدهلوي، وكلما قابلته ذكر كتاب الإمام الجليل «حجة الله البالغة».

وزرنا آثار مراكش القديمة في ١٦ /مايو يوم الأحد، وهي مترامية في منطقة واسعة، وهي ثروة عظيمة وذكريات جليلة للعالم الإسلامي. وكانت في ١٧ / مايو مأدبة ملوكية ومقابلة للملك، وكان من حسن المصادفة أن الملك كان مقيماً في مراكش، ووقف الضيوف في دائرة مثلثة وجاء الملك وسلَّم عليهم، وعرَّفه رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي بهم واحداً واحداً، ثم أُعطيتُ فرصة لإلقاء كلمة نيابة عن الضيوف، فقلت:

(إني أكتفي بالتحية التي علَّمنا إياها نبينا الأعظم وجدُّكم الأجل محمد ﷺ ـ أرواحنا فداه ـ أعني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكذلك أكتفي لكم بالدعاء الذي يدعوه الخطباء في يوم مبارك في ساعة مباركة وعلى منابر المساجد كل يوم الجمعة أعني: اللهم انصر من نصر دين محمد ﷺ واجعلنا منهم).

وأضفت قائلاً: (إنني أسعد بتبليغ رسالة كريمة إليكم عن العالم الإسلامي، أراها أمانة في عنقي ومسؤولية على عاتقي، وهي أن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلع من أفق العالم الإسلامي نجم جديد، يعلِّقون به آمالهم، إنهم يعيشون وضعاً متردِّياً عصيباً عجيباً، يحتاجون فيه إلى قائد عصامي، مؤمن ألمعي، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ وقلبه الواثق).

وعُدنا من مراكش ونزلنا في الطريق بالدار البيضاء لليلة واحدة، ووصلنا الهند في ١٨ /مايو، وكنت أثناء إقامتي بالمغرب بدأت بكتابة مقال بعنوان: «نحن الآن في المغرب»، وقد بدأته بقولي:

(قُدِّرت لي زيارة أكثر الأقطار الشرقية الإسلامية في شَرْخ الشباب، وفي فجر الحياة وظهرها، وتأخرت زيارة المغرب الإسلامي العربي الحبيب ـ لحكمة يعلمها الله ـ إلى أن دنا الأصيل ومالت شمس الحياة إلى المغرب.

لقد تأخرت زيارة المغرب الحبيب جسدياً، وبحساب الشهور والأعوام، ولكن لم تتأخر زيارته والتعرف به في ظلال العلم والدراسة، وفي رحاب المكتبة الإسلامية العالمية الواسعة، التي يشغل فيها المغرب الإسلامي حيزاً كبيراً، وله فيها ركن خاص هو من أغنى أركان المكتبة وأجملها، وقد عشت في أطيافه، وعشت مع أعلامه ونوابغه ردحة من الزمن، وتقلبت بين مدنه وعواصمه، وجوامعه وجامعاته، وحكوماته وحضاراته، وبطولاته ومغامراته، وعثرته ونهوضه، وسايرت ركب تاريخه الطويل المليء بالألوان المختلفة، والأحداث الجسيمة، التي تمر بها جميع الشعوب الحية الكريمة القوية الراجحة في ميزان الشعوب والأمم الغيورة على رسالتها وشخصيتها، المحاطة بالأعداء والمنافسين من كل جانب).

ثم تحدثت عن تلك الأمور التي تساعد على استعادة المغرب الأقصى القديم من جديد، والحصول على فتوح وانتصارات جديدة، وقد بينت في هذا المقال أهمية المدينة الإسلامية، وآثارها على الحياة الإسلامية ـ وقد شعرت بالحاجة الشديدة إلى هذا الموضوع أثناء إقامتي بفندق هلتون ـ ودعوت المغرب الأقصى والبلدان الإسلامية إلى أن تقوم بأداء دورها الرائد الاجتهادي في هذا المجال.

رحلة إلى أمريكا:

لقد كنت أرى رحلة أمريكا حاجة دعوية دينية وعلمية، فإنَّ من دَأَبَ على نقد الحضارة الغربية والمجتمع الغربي والأنظمة الغربية لا بدَّ أن يشاهد أمريكا، التي بلغت القمة في الرقي العلمي والصناعي والتكنولوجي، والتي تترك آثارها ـ بطريق مباشر وغير مباشر ـ على سائر العالم.

وتهيأت لي فرصة السفر إلى أمريكا في إبريل ١٩٧٧ م بدعوة من منظمتها الإسلامية المعروفة (M.S.A.) «Muslim Students Association of America and Canada» لحضور مؤتمرها السنوي المنعقد في Bloomington (Indiana)، الذي كان يبدأ في ٢/مايو ١٩٧٧ م، وقد جاءت مع هذه الدعوة رسائل إلحاح وطلب شديد، ورسائل تأييد وشفاعة حتى لم يبقَ لي مجال للاعتذار.

وقد كان مما يبعث على السفر ويؤكد حاجته ضرورة طبية، بل قضية مهمة في حياتي، وهي إجراء عملية جراحية لكتريكت في عيني اليمنى، وكان ينبني على نجاحها بدء حياة علمية تأليفية جديدة، وقد أخبرني أصحاب التجربة والخبرة أن أنسب مكان لهذه العملية ليس إلّا أمريكا.

وتحقَّقَ هذا السفر، وركبنا الطائرة من بومبائي إلى أمريكا، ومكثنا ساعات في نيويارك، ثم سافرنا إلى إنديانا بولس، ومن ثَمّ إلى بلومنغتن، حيث كان المؤتمر قد بدأ قبل وصولي بيوم، وقد كان هذا المؤتمر الرابع عشر لهذه المنظمة، واستمر أربعة أيام، وقد ألقيت خطابي فيه مساء ١٨/مايو، كان موضوعه «العلاقات بين العاملين للإسلام»، وألقيت كلمة أمام الأخوة العرب، وكلمة أخرى عامة في صورة حديث حُرّ، وألقيت يوماً درساً في القرآن الكريم.

ولقد ضمَّت هذه الرحلة جميع المدن بشمال أمريكا وكندا، ذات الأهمية الصناعية والحضارية والتعليمية، التي يقيم فيها عدد كبير من الطلاب والأساتذة والعاملين المسلمين في مختلف مجالات الحياة، من هنود وباكستانيين وعرب، وقد بدأت هذه الرحلة من مين هاتن، نيويارك ستي، وانتهت في شيكاغو، وشملت الرحلة في شمال أمريكا مدن: نيويارك، جرسي ستي، فلادلفيا، بالتي مور، بوستن، شيكاغو، دترايت، سالت ليك ستي، سان فرانسسكو، سان جوزي، لاس أنجلس (كيلي فورنيا)، ومن مدن كندا: مونتريال، تورنتو.

أما برنامج منظمة .M.S.A، فقد زيد في مدينة واشنطن فحسب، حيث ذهبت بعد هذه الرحلة، وألقيت خطاباً في المركز الإسلامي بها.

وقد كانت الخطابات التي ألقيتها في هذه الرحلة حوالي عشرين خطاباً، وقد ألقيت المحاضرات في هذه الرحلة بخمس جامعات من جامعات أمريكا وهي: جامعة كولمبيا (نيويارك)، جامعة هارورد (كيمبرج)، جامعة دترايت (آن آرير)، جامعة جنوب كيلي فورنيا (لاس أنجلس)، جامعة أوتا (سالت ليك ستي).

كما ألقيت خطب الجمعة في قاعة الصلاة بالأمم المتحدة، وجوامع تورنتوو دترايت، وقد كان يحضر هذه الخطب والمحاضرات عدد كبير من المثقفين المسلمين - وفي أمريكا أكثرية المسلمين من المثقفين - من الهنود والباكستان والعرب، في شوق واهتمام، وكانت توجه إلى الخطيب أسئلة بعد محاضرته أو خطابه، تتعلق بالقضايا المعاصرة المهمة، وكان الناس في عدد كبير يسجلون هذه المحاضرات، وينشرونها بين معارفهم وأصدقائهم ويقدمون نسخها هدايا للناس.

وقد تحدثت في هذه الخطب والمحاضرات بأحاديث صريحة واقعية، وأشرت على المسلمين بأمريكا ما كان في صالحهم في الصميم، وقدمت لهم خلاصة دراساتي وتجاربي، أما ما يتعلق بالحضارة الغربية والمدنية الأمريكية فقد كان الحديث معهم من ذلك المستوى الرفيع العالي الذي يبوئه القرآن والإسلام كل أتباعه وطلابه المخلصين، والذي إذا استوى عليه الإنسان تتراءى له الدنيا القديمة والجديدة كسراب، ويتراءى بريقها ولمعانها كفصوص مزورة مغشوشة، لا يرجع ذلك إلى ذكاء الخطيب أو المحاضر وسعة دراسته، أو بعد نظره، وعمق تفكيره، بل إنما الفضل لتلك التعاليم الجليلة والرسالة العالمية الخالدة التي ترفع الإنسان المتحلي بها إلى ربوة عالية، بل قمة جبل سامقة يرى الدنيا منها كلها كأنها تحت قدميه، ويزول عن عينه كل مهابة وجلال وتأثر، ويشاهد الأشياء في حقيقتها.

ويُقدَّر مما يلي من بعض العناوين والخلاصات ما ارتكزت عليه محاضرات المؤلف وخطبه:

إن أمريكا تتمتع بحياة ميكانيكية، ورقي مادي علمي وتكنولوجي، ولكن الإنسانية فيها في سقوط وزوال، فلو نالت هذه البقعة ثروة الدين القيم لكان تاريخ العالم اليوم غير تاريخه. إن أمريكا شقيّةٌ وسعيدةٌ في آن واحد، سعيدة لأن الله تعالى قد أنعم عليها بالخيرات المادية الوفيرة القوية الكبيرة، والوسائل الكثيرة، وشقية لأنها حرمت نعمة الدين الحق، ولأنها اعتنت بالمادة مثل ما لم تعتن بالأخلاق الفاضلة والوجهة الصحيحة، فلو سئلت: أي ديانة أنسب وأولى لغرب؟ وأي ديانة أضرُّ بها وأقل مناسبة؟، لكانت الإجابة الصريحة الواقعية أن أنسب ديانة لها كانت الإسلام، وأن أضرّ ديانة بها كانت المسيحية.

وقلت في المحاضرات التي ألقيتها أمام عامة المسلمين المقيمين بأمريكا، حذار حذار من أن ينشأ إسلامٌ أمريكيّ أو أوربيّ!!! إن الإسلام يحتاج إلى طقس خاص وجو خاص ودرجة خاصة من الحرارة والبرودة، وهو يجمع في وقت بين العقيدة والعمل، والأخلاق والمعاملات، والعواطف، والوعي والشعور، والذوق الخاص الذي يحيط بالإنسان ويصوغه في قالب جديد.

وقلت لإخوتي المقيمين بأمريكا: إنه لا بدَّ من إيثار الإيمان والدين على كل رقي وتقدم مهما كلَّفكم ذلك، واطمئنوا - قبل كل شيء - على النشء الجديد، فإن كان هو في خطر الردة الفكرية والحضارية فلا مبرّر لكم في بقائكم هنا ولو يوماً واحداً، وإن كنتم على يقين وطمأنينة بأنكم تستطيعون أن تعيشوا هنا وفق مرضاة الله تعالى، ويشهد لكم ضميركم الحي بأنكم تحافظون على إيمانكم وعقائدكم ومستقبل جيلكم الجديد، فإن بقاءكم هنا لا يجوز فحسب، بل يفيد ويُبارك فيه.

عملية جراحية ناجحة:

سافرنا إلى فلادلفيا لإجراء العملية الجراحية، ووصلنا إلى محطة فلادلفيا، حيث استقبلنا البروفيسور أنيس أحمد، وأدخلت ٢٩ /يونيو في معهد العين، وتمت إجراءات العملية، وأُجريت فحوص طبية مختلفة، وأخيراً أُجريت العملية في اليوم الأول من يوليو، وقد كان الطبيب شي الذي أجرى العملية، يبدي اهتماماً بالغاً، وعطفاً كبيراً على المريض الغريب، وكان قد أبدى طمأنينته واقتناعه بنجاح العملية.

وانتهت مدة السفر، وقد عادت إليّ حياة جديدة بعد نجاح العملية، ورجعنا إلى الوطن، ووصلنا لكهنؤ يوم الثلاثاء ٩ /أغسطس ١٩٧٧ م، وهكذا انتهت هذه الرحلة الدعوية والطِبّية بنجاح، وأصبحت بحمد الله ـ تعالى ـ أتحرك وأمشي بحرية، بل أدرس وأباشر القراءة والمراجعة بنفسي، وهكذا قرأت بعد ١٣ أو ١٤ عاماً كلمتي الافتتاحية في المؤتمر الملي لعموم الهند المنعقدة في ٣ ـ ٤/أكتوبر ١٩٧٧ م، وسُرّ بذلك الأحباب والأصدقاء، وهنّؤوني على هذه النعمة، ولله الحمد في الأولى والآخرة.

الفصل الثامن والعشرون

رحلة باكستان، وحادثتان مهمتان

المؤتمر الآسيوي لرابطة العالم الإسلامي، ورحلة باكستان:

تلقيت في أواخر يونيو لعام ١٩٧٨ م دعوة من الرابطة لحضور مؤتمرها الآسيوي الأول المنعقد في كراتشي بباكستان بتاريخ ٦ / يوليو ١٩٧٨ م، وقد كان حضوري فيه أمراً لا بدّ منه لكوني عضواً تأسيسياً في الرابطة، ومواطناً هندياً له علاقات دينية وعلمية وتاريخية بباكستان، وهي جارة لبلاده.

وقد افتتح هذا المؤتمر الآسيوي الأول للرابطة الجنرال محمد ضياء الحق، واختير أي كي بروهي الذي كان عند ذاك وزير القانون والشؤون الإسلامية بباكستان رئيساً للمؤتمر كممثل للحكومة المضيفة، واخترت أنا والدكتور البروفيسور رشدي ممثل أندونيسيا والأستاذ أبو بكر ممثل الفلبين نائبي الرئيس من قبل سكرتارية الرابطة، وقد كان حضر المؤتمر شخصيات موقرة كبيرة تمثل العالم الإسلامي، وجميع أعضاء الرابطة تقريباً، وحضر من الهند الشيخ قاري محمد طيب عميد دار العلوم ديوبند سابقاً، والشيخ المفتي عتيق الرحمن رئيس المجلس الاستشاري الإسلامي بالهند، والشيخ محمد

أسعد المدني رئيس جمعية العلماء، والشيخ محمد يوسف أمير الجماعة الإسلامية، والشيخ محمد منظور النعماني عضو المجلس التأسيسي، والأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»، والأستاذ إسحاق جليس محرر لسان حال الندوة «تعمير حيات»، ومرافقي الشيخ محمد معين الندوي مساعد الأمين العام لندوة العلماء، وعدد من رؤساء تحرير الجرائد والمجلات والعلماء الفضلاء.

وقد انعقد المؤتمر في جو هادىء رزين، وأسند إليّ الخطاب في جلسته الأخيرة، وبدأت خطابي بثلاثة أبيات؛ بيت عربي، وبيت فارسي، وبيت أردي، وكان العربي:

حمامة جرعى دومة الجندلِ اسْجَعي   فأنت بمرأىً من سُعاد ومسمع

ثم ذكرت أن الرسالة التي ينبغي أن يحملها من هذا المؤتمر السادةُ الحاضرون، والتي هي روح المؤتمر وجوهره، والتي لا تزال تذكرهم بمسؤوليتهم وواجبهم الكبير كقادة ودعاة، وورثة للرسول الكريم ﷺ في بلادهم وأوضاعهم الخاصة، لا يمكن أن تكون أفضل من تلك الكلمة الصادقة الجريئة التي قالها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم الردّة، والتي تمثل مسؤوليته كخليفة للرسول الأعظم ﷺ، وتعبر عن مشاعره وغَيْرته الإيمانية المتأججة في صدره وصدِّيقيته، والتي غيَّرت مجرى التاريخ حتى عاد تيار الردة تياراً آخر، بل سيلاً عارماً اكتسح الكفر والشرك، وفتح البلدان، وسخّر الممالك، كانت تلك الكلمة الجليلة:

«أينقص الدّين وأنا حيّ؟».

وقد كانت في هذه الرحلة خطابات ومحاضرات عديدة، حضرها عدد كبير من أعيان المواطنين ورجال الفكر والتعليم، وكبار العلماء والصحافيون والعاملون في المجالات الاجتماعية، وقد قدَّمت في هذه الكلمات خلاصة تجاربي ودراساتي ونتائج تفكيري واستعراضي، وعصرت أمامهم ما عندي من

قطرات الإخلاص، لا يُبتَغى وراءه غرض سياسي، ولا يُفكَّر في ردود الفعل الموافقة أو المخالفة.

وعرضت أمام الحاضرين تلك الحقائق التي قد يدركها من هو في الخارج أكثر وأجلى من أن يدركها أهل البلد، لأن الذين يعيشون في درجة خاصة من الحرارة والبرودة يتعودونها ولا ينظرون إلى الأشياء إلّا من خلالها، وكان القدر المشترك في هذه الخطب والمحاضرات تذكير الإخوة الباكستانيين بمسؤوليتهم ودورهم، وتذكير بذلك الإعلان العظيم والدعوى العريضة الكبيرة التي قامت عليها باكستان، والتي بذل لأجلها المسلمون الهنود أكبر تضحياتهم وجهودهم ولكنهم لم ينتفعوا بها، ونبهتهم إلى أن دراسة التاريخ الإسلامي، وقصة ازدهار الملل والحكومات ورقيها وسقوطها وانحطاطها تفيد أن أكبر خسارة جنتها الحكومات والمجتمعات والقوى الإسلامية إنما كانت على أيدي الطامعين الحريصين على الحكم والسلطان، والطامحين الباغين للجاه ونزعات الشيطان.

وكان أهم حديث في هذه السلسلة ذلك الذي ألقيته في حفلة ترحيب في بيت البروفيسور غفور، وقد حضرته شخصيات موقرة تمثل الجماعات والأوساط الدينية والتعليمية والاجتماعية، وقادة الأحزاب السياسية وكبار الصحافيين والأدباء والعلماء ورجال الفكر وأصحاب الأقلام، وقد قلت فيه:

(إنه يجب عليكم القيام بأنواع ثلاثة من التضحيات، ولنا إمام في تاريخنا لكل نوع من هذه التضحيات، فتضحية قام بها سيدنا خالد بن الوليد في معركة اليرموك، فإنه لما بلغه أن عمر بن الخطاب عزله عن القيادة لم يَثُرْ ولم يقطِّب، وقال: لو كنت أقاتل في سبيل عمر لوقفت عن القتال، ولو كنت أقاتل في سبيل الله ازددت اندفاعاً وحماساً، وشهدت الدنيا أنه مَثَّل أروع الأمثلة في جهاده، ولم يحدث هذا العزل فيه تغييراً، بل زاده شوقاً وحنيناً إلى الشهادة.

وتضحية أخرى قدم نموذجها سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، إذ

تنازل عن حقه في الخلافة لسيدنا معاوية رضي الله عنه، وقضى على الفرقة والخلاف.

والتضحية الثالثة: هي التي ضرب مثلها الرائع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بتغيير حياته، والتغاضي عن مصالح أسرته في سبيل إقامة الحكومة الراشدة، وإصلاح المجتمع على أسس الحياة الإسلامية الفاضلة والسيرة الإسلامية العالية.

وهذه التضحيات الثلاث تواجهها الأمة الإسلامية في باكستان الآن).

ثم قلت: (إن القرن الحالي يبحث عن معتصم آخر، يتظاهر كالمعتصم العباسي بغَيْرته وحميته الدينية والوحدة الإسلامية، يلزمكم أن تكونوا حماة للحق والإنصاف والعدل والمساواة في العالم كله، ولا يمكن لأحد في حدود قدرتكم وتأثيركم الخلقي والاجتماعي أن يظلم أحداً، وتهضم حقوقه وتهدر كرامته.

وزرت لاهور وكان لا بدَّ من أن أقابل هناك الأستاذ المودودي الذي كانت بيني وبينه علاقات قديمة، فطلبت موعداً للمقابلة معه، وتقرر الموعد ساعة ٩ - أو ١٠ - ضحىً، فاجتمعت به وكان لقاءً حاراً كريماً، وقد كان الأستاذ لا يستطيع - لوجع ركبته - المشي، وجاء ذكر الجنرال ضياء الحق أثناء الحديث معه، فأثنى الأستاذ عليه، وقال: إنه يلزمنا أن لا نخيِّبه وندعه يفشل في مهمته، وعرَّفت الأستاذ بحركة «رسالة الإنسانية»، التي نقوم بها في الهند، فقال: إنها حاجة باكستان أيضاً لإصلاح المجتمع وإزالة المنكرات.

حادثة فاجعة شديدة في الأسرة:

لم يمضِ عام كامل على العودة من رحلة باكستان التي كان يرافقني فيها العزيز الأستاذ محمد الحسني، حتى وقعت في ١٤ /يونيو ١٩٧٩ م تلك الحادثة الفاجعة الأليمة التي هدَّت أعصابي، وهزَّت كياني، وقلبت ليس حياة

الأسرة المحدودة، فحسب، بل جميع مخططاتي وحياتي الدعوية والعلمية والفكرية وآمالي في المستقبل رأساً على عقب، لقد كانت هي حادثة وفاة عزيزي الأعز، الذي كان مثل ابني الأستاذ محمد الحسني، وقد كان وقوع هذه الحادثة كحادثة وفاة أبيه، وأخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني ـ رحمهما الله تعالى ـ لقد ذكر القرآن الكريم دعاء سيدنا موسى عليه السلام:

﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي، اشْدُدْ به أزْرِي، وأشْرِكْه في أمري ﴾، كان هذا الدعاء قولياً، وقبله الله تعالى، وقد كان دعائي الحالي، واجعل لي وزيراً من أهلي «محمد بن أخي» بدلاً من «أخي»، دعاء القلب والروح، فقد كان بيني وبينه من الانسجام والشبه في التفكير والذوق والطبيعة، والمزاج والآراء والأفكار، والكتابة والتحرير، حتى الخط ما لم أشاهد مثله بين شخصين اثنين.

كنت في بومبائي فأُخبرت بمرضه الشديد، ولما وصلت إلى رائي بريلي ١٥/يونيو كانت قد وقعت الواقعة، وانتهى كل شيء.

ولا أريد أن أقول شيئاً عن قدرته الكتابية الفائقة، فقد كتبت عن ذلك كلمة في تصدير كتابه «الإسلام الممتحن» إنما أكتفي هنا باقتطاف بعض عباراته:

(أحدثت الجوانب المتناقضة ـ جانب تربيته ودراسته الإسلامية، وجانب الواقع المرير، والمُشاهَد القاسي، وحركات القومية والاشتراكية الثائرة على الإسلام، والدعوات المادية واللادينية ـ صراعاً في نفسه حوّل قلمه إلى شلّال يتدفق بقوة، وينحدر بقوة، فصدرت هذه المقالات في أسلوب قوي ملتهب، هو نتيجة كل صراع نفسي، رافقته قدرة بيانية، وقلم سيّال رشيق، وثروة لغوية، وهذا الأسلوب له قيمته في إيقاظ الشعور وفي تحريك النفوس والعقول، ومحاربة «مركّب النقص»، وإعادة الثقة بصلاحية الرسالة والأمة

والاعتزاز بالقيم والمفاهيم، خصوصاً إذا كان مدعَّماً بالدلائل والوثـائق، ومسلحاً بالشواهد والتجارب.

وكان متأثراً في كل ذلك بطبيعة الحال بالبيئة التي نشأ فيها، ودعوة المجدِّد الكبير والمجاهد العظيم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الذي كان من سلفه وعظماء أسـرته في المـاضي القريب، وبفكـرة «الإخوان المسلمون» ورائدهم الإمام الشهيد حسن البنا، الذي تعرف به وأحبَّه عن طريق عمّه كاتب هذه السطور، الذي كانت له صلات وثيقة بأصحاب هذه الدعوة وزملاء الفقيد الشهيد وتلاميذه النجباء، فتجلَّى تأثير كل هذه العوامل القوية والدراسات العصرية ومطالعة الكتابات الإسلامية التي أنتجتها هاتان الحركتان القويتان في المقالات التي كتبها بين آونة وأخرى، وتتكون منها هذه المجموعة)[1].

لقد فارقني بوفاة محمد الحسني مترجمٌ قديرٌ مجيدٌ لكتاباتي ومؤلفاتي العربية، وقلم سيّال بارع في نقد القومية العربية وانتقاد انحراف العرب، وداعية ديني قوي، ومجاهد أديب ناهض في اللغة العربية، وكاتب بارع ومؤلف تراجم وسير باللغة الأردية، وكانت من الخسارة الكبيرة أيضاً أن فارقني ترجماني بقلمه في «حركة رسالة الإنسانية»، الذي كان يتفق وينسجم معها مائة في المائة، والذي ساعدني وكان عضدي دائماً، رحمه الله رحمة الأبرار المتقين وأدخله جنات النعيم.

حـادثـة أخـرى:

لقد كـانت بعد وفاة العزيز محمد الحسني وفاة العزيز إسحاق جليس الندوي، الذي كنتُ أستعين به في شؤون حركة رسالة الإنسانية، وكان ترجماناً قديراً، وصحافياً بارعاً بالأردية، وكنت أثق به في التمثيل عن الحركة

---

(١) الإسلام الممتحن، ص /١٥ ـ ١٦/.

أكثر من غيره، وقد كان أوتي ملكة عجيبة في الحديث الذي يكون في محله وأوانه، والتأثير في أصحابه ومخاطبيه، وكان الناس يعجبون به ويحبونه أينما حلَّ ونزل، فقد انتقل هو أيضاً إلى جوار ربه بعد ثلاثة أسابيع من وفاة محمد الحسني في ٨/يوليو ١٩٧٩ م،ولم أستطع أن أحضر الصلاة عليه ودفنه، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعه مع زميله في جنات عدن، إنه غفور رحيم.

الفصل التاسع والعشرون

حادثة الحرم، مؤتمر السيرة بقطر وجائزة الملك فيصل العالمية

حادثة الحرم:

توجّهت إلى جدة في آخر يوم من ذي الحجة سنة ١٤٠٠ هـ - ٢٠/نوفمبر ١٩٧٩ م، يرافقني العزيز عبد الله الحسني ابن العزيز محمد الحسني رحمه الله، ووصلت جدة في نصف الليل، وكان سفري هذا لمشاركة لجنة وزراء الأوقاف التي عينتها الرابطة، وكان عملها قد بدأ من غرّة محرم الحرام ١٤٠٠ هـ، الموافق ٢١/نوفمبر ١٩٧٩ م بمكة المكرمة.

وقد كان من أعضاء هذه اللجنة وزير الأوقاف السعودي معالي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع، ووزير الأوقاف السوري عبد الستار السيد، ووزير الأوقاف الأردني السيد كامل الشريف، ووزير الأوقاف لبلد إفريقي (لا يحضرني اسمه)، وقد اختارت الرابطة الأمين العام الشيخ محمد علي الحركان وإيّاي لنمثل الرابطة، ونزلت بجدة، عند مضيفنا القديم الشيخ محمد نور عبد الغني نورولي، وقد كنا أحرمنا، وأردنا أن نعتمر صباح الليلة ونشارك بعدها في اللجنة، فلما هَبَبْنا من النوم إذا بمضيفنا يخبرنا بأنه جاءه

التليفون من مكة المكرمة بأن الإيرانيين استولوا على الحرم الشريف، ثم نفى هذا الخبر بعد قليل، وقال: بل إن ثُلَّة من العرب السعوديين المتطرفين أثاروا هذه الفتنة، ثم اتصل بعض مسؤولي الرابطة بنا هاتفيّاً، وأمر بأن يقال للشيخ أبي الحسن أن لا يأتي الحرم مباشرة بل يأتي رأساً إلى فندق أنتر كونتيننتال، ووصلنا رأساً إلى الفندق، وحضرنا مأدبة الرابطة على شرف الضيوف، وبدأت اللجنة في المساء عملها، وسألت وزير الأوقاف السعودي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع، ما الأمر؟ فقال: إن عدداً من المتطرّفين الغُلاة أثاروا هذا الشغب، ثم علمنا من بعد أن محمد عبد الله القحطاني كان قد ادَّعى المهديّة غرة محرم الحرام ١٤٠٠ هـ، عندما كان الحرم مليئاً غاصاً بالناس، وكانت أكثرية الحجاج لم ترجع إلى أوطانها بَعْدُ، وبدأ يبايع الناس، وهذا الذي أثار الناس ونشر الاضطراب، وسرت به موجة من قلق وحَيْرة في العالم الإسلامي، كان هذا أول حادث من نوعه بعد حادث القرامطة، واستيلائهم البشع على الحرم، وقد انتكست بهذا الحادث رؤوس المسلمين خجلاً وحياءً في العالم الإسلامي كله، وتعرَّض أمان الحرم وهدوؤه والأدب معه في الخطر الشديد، وانقطع الحرم عن كل ما حوله وعن سائر مكة المكرمة.

وعلم فيما بعد أن هؤلاء كانوا يُسرّبون الأسلحة إلى الحرم عن طريق توابيت الجنائز، وكانوا يجمعونها في خلواته، وتدخل البوليس والشرطة وأفراد الجيش، ولكنهم كانوا يخافون القيام بأي إجراء عسكري لمكان الحرم، ولا يصعب قياس ما جرَّ ذلك على الحجاج الغرباء الذين حوصروا فيه من ضيق واضطراب ومشاكل لا يمكن أن نقدرها، وقد كنت سمعت قصة هذا الاستيلاء بتفصيل من بعض من حوصر في الحرم في صلاة الفجر.

مؤتمر السيرة بقطر:

هذا وكان هناك مؤتمر عالميٌّ للسيرة النبوية في الدَّوْحة بقطر، في تاريخ ٥ ـ ٩/محرم الحرام ١٤٠٠ هـ (٢٦ ـ ٣٠ /نوفمبر ١٩٧٩ م) وكنت

عضواً في مجلسه الإداري ولجنة الاختيار، وكان لا بدَّ من حضوري فيه، فسافرت ٣/محرم الحرام إلى الدوحة، وكان في الطائرة التي ركبناها الوفد الممثل للرابطة أيضاً، ونزلنا في الدوحة بفندق الخليج.

ولما دخلنا يوم السبت ٥/محرم ١٤٠٠ هـ مقر الاحتفال كان قد غص بالحضور، وكانت فيه شخصيات محترمة موقرة من تركيا والمغرب الأقصى وأمريكا وأوربا إلى البلدان الشرقية والجنوبية، وكنت أعرف كثيراً من الوجوه، ورأيت أن البرامج المطبوعة للمؤتمر موضوعة على المقاعد، وقد أُسندت كلمة الوفود إليّ، فلم يكن بدّ من أن يكون خطابي مرتجلاً، وأتحدث بما يفتح الله به عليّ، وافتتح المؤتمر ولي العهد ـ الذي هو وزير الدفاع أيضاً ـ لسفر حاكم قطر خليفة بن حمد آل ثاني خارج البلاد، وقرأ كلمة حاكم البلاد، ثم ألقى رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود كلمته.

مِنَّةُ البعثة المحمدية على الإنسانية:

وجاءت نوبتي في الخطاب فشعرتُ بأنَّ عقلي وقلبي تغمرهما عذوبة هذا الموضوع وحب ذلك النبي الطاهر الذي أنتسب إليه، والشعور بعظمته ومكانته، فكأنني أشعر بلحظات صفاء وإشراق، وتنهال عليّ الكلمات والمعاني، وهناك علمتُ بحكمة كوني لم أُعدّ المقال أو المحاضرة من قبل، وقد أشرتُ في خطابي أولاً إلى مؤتمرات باكستان وتركيا في هذا الموضوع، ومناسبتها وحسن موقعها، وذكرت منّة البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ على هذه البلاد، وتلك الثورة العظيمة والحياة الجديدة التي وهبت لهما عن طريق هذه البعثة، وأن هذه المؤتمرات إنما هي شيء من الاعتراف بالفضل والمِنّة والشكر على المنن والنعم، وقلت:

(إن هذه الجزيرة يجب أن تعرف نعمة الإسلام وأن لا تكون كنوداً، اسمحوا لي أن أقول بكل صراحة ألاّ تكون كنوداً أمام هذه النعمة الجسيمة التي أخرجت جزيرة العرب من عالم الخمول، ومن عالم التناحر، ومن

الجاهلية الشنعاء الرذيلة الخسيسة، الموغلة في السفالة والجهالة، أخرجت هذه البعثة المحمدية هذه الجزيرة العربية من لا شيء إلى كُلِّ شيء.. فكل ما جاء في هذه الجزيرة هو من فضل البعثة المحمدية، وإنني أستحضر الآن بيتاً لشاعرنا شاعر الإسلام الذي أصبح ترجماناً للفتوة الإسلامية وللشهامة الإسلامية، الدكتور محمد إقبال، اسمحوا لي أن أنشده أولاً بلغته التي قال فيها هذا الشعر، فإن هناك عدداً من إخواننا الباكستانيين:

ازدِم سيرابِ آل أُمّي لقب لاله رُست درريَلِ صحراء عرب

يقول: لقد هبت نفحة من نفحات محمد النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، وفاضت قطرة من ماء الحياة من فمه الذي لم يكن ينطق إلاّ بالوحي، فنشأت جنات وحدائق، وفاحت روائح عبير من صحراء العرب.

قَدِّروا أيها الإخوان، ارجعوا إلى الماضي السحيق، وليس سحيقاً، ارجعوا إلى الماضي القريب، وما يوم حليمة بسِرٍّ، وما قضية أربعة عشر قرناً بقضية كبيرة معقدة، ارجعوا إلى الماضي القريب، أين كانت الجزيرة العربية؟، أين كانت الأمة العربية؟، أين كانت هذه الإمارات ـ رغم دعائي وتقديري لها ـ أين كانت المملكة العربية السعودية حفظها الله وصانها من الفتن[1]، أين كانت باكستان وأين كانت إيران؟، وأين كنا؟، نلتقي نحن في هذا الملتقى الكريم، ملتقى السيرة النبوية، ملتقى السنة النبوية، لا والله لو مرَّت الآلاف من السنين، ولو حلم الحالمون وتغنَّى الشعراء، وكتب الأدباء، وتكهَّن الكهان، لما قُدِّر لهذه الأمة العربية، ولما قُدِّر لهذه الجزيرة العربية أن ترتفع لها راية وأن تسمع لها كلمة.

جائزة الملك فيصل العالمية:

فوجئت يوماً من الأيام باختياري لجائزة الملك فيصل العالمية التي تحمل من التقدير والمكانة في العالم الإسلامي ما تحمله جائزة نوبل، كنت

---

(١) كانت هذه الكلمة على أثر حادثة الحرم المشؤومة بأربعة أيام.

مشغولاً بأعمالي التأليفية في مستقري بقريتي في رائي بريلي، إذ جاء العزيز محمد الرابع، وأخبرني بأنكم اخترتم لجائزة الملك فيصل العالمية، وقد جاءت هذه الرسائل والبرقيات تهنئكم، وكانت فيها برقية من رئيس لجنة الجائزة الأمير خالد بن فيصل بن عبد العزيز تفيد بإعلان فوزي بالجائزة، وتدعونني للحضور إلى الرياض.

فكتبت رسالة إلى رئيس اللجنة، قلت فيها بعد كلمات الشكر: لقد كان خيراً أن ينال العاملون في مجال الخدمات الإسلامية جائـزتهم في الآخرة، وقد أعلن عن هذه الجائزة لي في غيابي، ولم يبقَ لي بدٌّ الآن ـ احتراماً للملك فيصل المرحوم رائد التضامن الإسلامي، وتقديراً لخدماته الإسلامية ـ أن أقبل هذه الجائزة، وأدعو الله تعالى أن يحقق ما ترمز إليه الجائزة، وما تتضمنه من تقدير للخير وترغيب مزيد فيه، ولا أستطيع أن أحضر بنفسي، فيمثلني الدكتور عبد الله عباس الندوي، فهو يتلقى الجائزة ويبلغ شكري وسلامي).

وقلت: (إن هذه الجائزة تحمل جوانب متعددة، فأما الجانب المعنوي فيها وهو الاعتراف والتقدير، فأنا أقبله بتقدير وشكر، أما الجانب الآخر المالي الذي يلازمه، فأنا أستيمحكم أن أصرفه فيما أرى من مصالح الخدمات الإسلامية، سوف يعلن عنها الأستاذ عبد الله عباس الندوي).

وقد عقدت حفلة توزيع الجوائز في فندق أنتر كونتيننتال بالرياض بتاريخ ١٢/فبراير سنة ١٩٨٠م في الساعة الثامنة مساءً، وقام الأمير فهد بن العزيز ـ ولي العهد سابقاً، والملك حالياً ـ بمسؤولية رئاسة الحفلة نيابة عن الملك خالد بن عبد العزيز، وحضر الحفلة عدد من الأمراء والوزراء والولاة، وقدم الأمير فهد الجوائز إلى الفائزين بها، وقُرئت نبذ من كلمات التعريف بالفائزين، وأعلن في الحفل أن أبا الحسن الندوي أناب عنه الدكتور عبد الله عباس الندوي، فهو الذي يتلقى عنه الوسام والجائزة والشهادة، وهكذا كان، وقرأ الأستاذ عبد الله عباس الندوي رسالتي، وأعلن أن نصف المبلغ

مخصص للمجاهدين الأفغان، وربعه لجماعة تحفيظ القرآن التي يشرف عليها معالي الشيخ محمد صالح القزاز (الأمين العام للرابطة سابقاً)، والربع الباقي للمدرسة الصولتية بمكة المكرمة، وقد كان الفائزون الآخرون ـ كان منهم من نالوا الجوائز على خدماتهم العلمية والأدبية ـ حضروا الحفل، ونالوا الجوائز مباشرة.

الفصل الثلاثون

احتفال دار العلوم ديوبند المئوي،
مأساة مراد آباد
مؤتمر رسالة الإنسانية بلكهنؤ

احتفال دار العلوم ديوبند المئوي:

لقد حدث بعد تقسيم الهند من الوقائع والحوادث ما اقتضى أن يعقد احتفال عالمي كبير لدار العلوم ديوبند، تظهر به عالميتها ودعوتها وتأثيرها، حتى يدرك المسؤولون في الحكومة خطورتها ومكانتها العالمية، ولا يقفوا نحوها موقفاً ينافي مكانتها ويعود عليها بالضرر، ولكن سماحة الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله، كان يعارض هذا الرأي لما في تحقيقه من متاعب ومسؤوليات، وما يتطلب ذلك من يقظة واحتياط.

وكنت عضواً في المجلس الاستشاري لدار العلوم منذ عام ١٩٦٢ م، أحضر جلساتها المهمة التي كان يُدرس فيها موضوع هذا الاحتفال.

وأخيراً تقرَّر عقد هذا الاحتفال رغم تحفُّظ بعض الأعضاء، وكنت خارج البلاد، ولما رجعت إلى بومبائي يوم ١٩/مارس اتصل بي بعض أصدقائي هاتفياً وأخبرني بأن رئيسة الوزراء أنديرا غاندي تحضر الحفلة

الافتتاحية، وقد وجهت إليها الدعوة، فأحدث فيَّ هذا الخبر امتعاضاً، وكدَّر صفوي ورأيته أمراً في غير مكانه، لا يناسب تقاليد دار العلوم ومكانتها واحتفالها، فإن المسرح الذي يزدان بالعلماء الفضلاء في هذا العدد الجم الكبير، يكون كل مظهر وكل عمل فيه حجة للناس ووثيقة يستندون إليها، ويكون حجة ودليلاً في المستقبل.

وصلت دلهي في ٢٠/مارس، وكان معي عدد من ضيوف الاحتفال، وقد أمضينا وقت الحفلة الافتتاحية في حي نظام الدين بدلهي، ثم توجهنا من دلهي إلى ديوبند في وقت كانت رئيسة الوزراء ترجع فيه على طائرتها من ديوبند إلى دلهي.

ولما وصلت إلى مكان الاحتفال في اليوم التالي ٢٢/مارس رأيت الحشود المكتظة من الناس تمثل إلى حدٍّ ما ميدان عرفات، وكان صديقنا فضيلةُ الدكتور عبد الله الزائد نائب رئيس الجامعة الإسلامية سابقاً يرأس الحفلة، وكان عدد من الفضلاء العرب والشخصيات الموقرة على المنصة، من أمثال صديقنا معالي الدكتور الشيخ عبد المنعم النمر وزير الأوقاف بمصر، والدكتور يوسف القرضاوي، ومعالي الشيخ يوسف الحجي وزير الأوقاف لدولة الكويت، والصديق عبد الله العقيل وغيرهم.

وقد كان مقرراً أن ألقي خطاباً في هذا الحفل بالعربية، وأشار المسؤولون عليّ بذلك، ولكني رأيت أن الخطاب بالعربية أمام هذا الجمع الحاشد العظيم ـ الذي كان يمتد مدَّ البصر ـ عمل صناعي ميكانيكي، لم يوافقه ضميري، وكنت أشعر ـ وقد علمت بذلك إلى حدٍّ ما ـ بأن هذا الجمع الذي جاء من كل صَوْب وحدب من الهند لم يسمع حتى الآن شيئاً يرجع به، ويكون زاد سفره وشحنة جديدة في إيمانه وعقيدته، وقوي عندي الدافع برؤية هذا الجمع إلى خطاب يرجع بسماعه هؤلاء الناس البسطاء الذين اجتمعوا من البقاع والأماكن النائية وهم في شوق للقاء العلماء الصالحين وسماع كلام الله تعالى، وحديث الرسول، بشعور بمسؤوليتهم وواجبهم، كأمة ذات دعوة

ورسالة، وصاحبة شريعة ونظام، وبثقة جديدة، وعرض نماذج حياة إسلامية في الهند، وأن لا نحمل ـ نحن الدعاة والعلماء ـ وِزْر السؤال غداً عند الرب تبارك وتعالى، لماذا دعوتم هؤلاء الناس؟ ولماذا جمعتموهم على هذه الأرض؟.

فقلت بضع كلمات بالعربية اعتذرت فيها إلى الضيوف عن الخطاب بالعربية، وقلت: إن هذا الجمع العظيم يستحق الخطاب في لسانه، وجاء في شوق وحنين إليه، ولذلك فإني أخاطبهم بالأردية، فبدأت بالخطاب، وكنت أشعر أن المعاني تنثال عليَّ، وأن ذلك لسبب هؤلاء المستمعين البسطاء الطيبين الذين جاؤوا لسماع حديث الدين، أقتطف بعض عبارات خطابي الذي ذكّرتُ فيه المسلمين الهنود بمسؤوليتهم، وهي الحفاظ على شخصيتهم الإسلامية في هذه البلاد، بل أن يقوموا بمسؤولية القيادة والتوجيه والدعوة، قلت:

(نعلن صراحة ونريد منكم أن تعلنوا صراحة بأننا لا نرضى أبداً أن نعيش كعجماوات ودواجن لا تحتاج إلاّ إلى علف ومكان تأوي إليه، إننا نكفر بهذه الحياة ألف مرة، إننا سوف نعيش على هذه الأرض بأذاننا وصلاتنا، بل إننا سوف لا نرضى بترك قيام الليل ـ لمن وفقه الله ـ وصلاة الإشراق والتراويح، نبقى متمسكين بكل سنة من سنن نبينا، ولا نرضى بأن نتنازل عن كلمة من كلمات سيرة نبينا وأي حرف من حروفها.

ليست القضية قضية مدرسة وجامعة، أو مدرسة فكر ورأي، أو قضية مخططات ومشروعات، وإكمال مبان ومؤسسات، إن القضية قضية الحفاظ على العلوم الإسلامية والشخصية الإسلامية، إنكم لم تخلقوا أبداً لتمشوا في ركب الناس، ولم يبعثكم الله تعالى في هذه البلاد لتكونوا حاشية الناس وخدمهم، إن من واجبكم أن تتعرفوا على ما يختلج في الصدور ويتحرك على الشفاه، وإلى أين تتجه البلاد، إننا لا نعرف أي تيار قومي، إننا لا نعرف إلا التيار الإسلامي، فقد خُلِقنا للإمامة والقيادة).

ثم أحببت أن أفسر بعض مميزات هذه الدار وخصائصها، فقلت:

(إن أكبر خصيصة لهذه الدار أنها ركّزت جل عنايتها على حماية التوحيد والسنة المطهرة بدلاً من النزاع في المسائل الخلافيَّة، وهو إرث ورثته هذه الدار من الإمام الدهلوي، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد، والعلامة إسماعيل الشهيد.

والخصيصة الثانية: الاهتمام بإصلاح الباطن، وتقوية الصلة بالله، والإيمان والاحتساب والعناية بذكر الله تعالى، واستحضاره، والخصيصة الثالثة: عاطفة الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى والحمية الدينية).

وقلت: (إن الديوبندي لا يكون ديوبندياً إلّا إذا اكتملت فيه هذه الخصائص والعناصر السابقة).

ورأيت أثناء الخطاب أن التأثر والانفعال باديان على وجوه الحاضرين، وقد ذكر لي عدد من أصحابي ما شاهدوا من تأثير الخطاب، وشعرت بأن هذا كان حديث القلب للقلوب، فقد أروَى غليلهم.

مأساة مراد آباد:

إن أعظم الحوادث الأليمة والمآسي المخزية الفاجعة ـ إلى حين كتابة هذه السطور ـ كان ذلك الاضطراب الطائفي، بل الحملة الإرهابية المنظمة من عصابة فرقة واحدة (الهندوس) يوم العيد سنة ١٤٠٠ هـ (١٣/أغسطس ١٩٨٠ م) على المسلمين المصلين صلاة العيد في المصلى، عند انتهاء صلاتهم بمراد آباد.

ومعلوم أن الاضطرابات الطائفية ـ سواء كانت من الجانبين أو من جانب واحد ـ أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من تاريخ الهند بعد التقسيم، وأسلفت فيما مضى أن ستة آلاف مسلم كانوا قد قتلوا وذبحوا في اضطراب جمشيد بور، وراوركيلا الطائفي، ولكن اضطراب مراد آباد الطائفي حمل من

العار والشقاء ما لا يقيّد، لأنه وقع من قبل عصابة طائفة واحدة يوم العيد والمسلمون في مصلاهم ومعهم أطفالهم، وهو يوم فرح وسرور، وليس في أعمال ذلك اليوم وواجباته من صلاة العيد والاستعداد لها بالغسل ولبس الثياب الجديدة، وتهنئة بعضهم بعضاً بالعيد، ما ينافي ويكون موضع اعتراض عند أي طائفة أو ديانة، وإن احترام هذه المناسبات بل المشاركة في مسراتها وسعادتها لا يحرّم حتى عند الشعوب البدوية الصحراوية، وهو من مقتضيات عواطف الكرم والسماحة في الإنسان وحق من حقوق المواطنين.

وكان السبب الثاني لفظاعة الحادث وشدة وقعه أنه قتل فيه كثير من الأطفال الْبُـرَآء الصغار، الذين يخرجون مع آبائهم وولاة أمورهم في فرح وسرور، ويلبسون الثياب الجديدة، ويكون عددهم كبيراً[١].

وقد كان دور البوليس المسلح في هذه الحملة دوراً عدائياً يثير الريب والظنون، وهم الذين تعود عليهم مسؤولية الحفاظ على حياة المواطنين وأعراضهم وأموالهم، وهم أكفأ الناس لتحمل هذه المسؤولية ما داموا مسلحين، ومن الواجب عليهم أن يكونوا محايدين إنسانيين، ولكن التجربة الواقعة بمراد آباد والتجارب التي مرت في مدن عليكراه وميرتها،وولاية بهار وغيرها من المدن والولايات أثبتت أن هذه المنظمة أكثر الناس تعصباً وعداءً وحقداً ضد المسلمين.

ولم يحرك هذا الحادث المخزي الأليم ساكناً من إدارة الحكومة، فإن ذلك يرجع إلى السياسة الانتخابية التي تعتمد فيها الأحكام والإجراءات على تقدير ما يترتب على ذلك من أثر في الانتخاب القادم؟، وماذا سيكون أثرها على الطبقة الإدارية التي تكون أكبر عون في إعلان الانتخاب والنجاح فيه

---

(١) لقد قيل في المجلس التشريعي بولاية أترابرديش أن عدد المقتولين بمراد آباد ألفان، كان سبعمائة منهم من الأطفال، وذكر إمام المصلّى أن ثلاثة صفوف أمامية كانت ضحايا، وقد قتل في كل صف ١٦٥ نسمة، كما قتل عدد كبير منهم خارج المصلّى برصاصات البوليس.

في المدينة أو الولاية، وإلى ما يميل أكثر المصوِّتين؟، هذا هو الداء الذي أصاب المجتمع كله، وحوّل الإدارة إلى إدارة مشلولة، وجعل المجرمين أحراراً طلقاء، بل أسود الغابة يفترسون من يشاؤون.

وقابل وفد المجلس الاستشاري الإسلامي في ١٥/ سبتمبر رئيسة الوزراء، وأشعرها بتنظيمه لجولة في مراد آباد والاطلاع على نتائج الاضطراب، وطلب منها الإسراع في إصلاح الوضع، ثم سافر الوفد ـ وكاتب السطور فيه ـ في ١٧/سبتمبر إلى مراد آباد حيث وصل الساعة الحادية عشرة، وكان يشتمل على ١٩ شخصاً يمثلون مختلف الجماعات والمنظمات، واطَّلع الوفد على ما جرى، واستمع إلى انطباعات المسلمين وغير المسلمين، وفكَّر في طريق معالجة هذه الأوضاع، وأن تعود الأوضاع المتردية إلى الحالة العادية.

مؤتمر رسالة الإنسانية:

كانت مأساة مراد آباد مع الاضطرابات الطائفية في عليكراه، وإلّه آباد، والمدن الأخرى مبعث شعور زائد بضرورة حركة «رسالة الإنسانية» وأهميتها وفائدتها، وأنها حقيقة بديهية، وقوي الدافع إلى عقد مؤتمر لعموم الهند لرسالة الإنسانية، يُدعى إليه ممثلو جميع المدارس الفكرية بلكهنؤ، ونحاول ـ في ضوء الأحداث الجديدة التي لم تهز المسلمين فحسب، بل اضطرت كل من يملك الضمير الحي ويقدر أن يستنتج محايداً من الحوادث، إلى التفكير في خطورة الأوضاع وشدتها ـ أن نصل إلى منهج للعمل، لقد عقد هذا المؤتمر في ٢٧ ـ ٢٨/أكتوبر ١٩٨٠م، وشهدنا بعد زمن طويل مثل هذا الحفل المنتقى والتمثيل الشامل في مؤتمر عقد بكل هدوء وسكينة، وقد حضره صفوة المفكرين وأساتذة الجامعات وعدد من الوزراء السابقين والحاليين، وأعضاء المنظمات والحركات الاجتماعية والعاملون في مجال الإصلاح والدعوة والأدباء والشعراء ورجال التعليم والتربية، وعدد من

المسؤولين عن الأحزاب السياسية والتجار والمحامون والأطباء والممثلون عن مختلف ديانات الهند، ورأيت أن أقبل ـ من دون اعتذار وإظهار للتواضع ـ رئاسة المؤتمر حتى أستطيع أن أعبِّر من كرسي الرئاسة عن آرائي بكل حرية، وأعرِّف بهذه الحركة في صورتها الحقيقية.

وقد تناولت أولاً في محاضرتي ـ التي نشرت بالأردية والهندية والإنكليزية في رسالة ـ نتائج ذلك الظلم والجَوْر وسفك دماء الأبرياء الذي كثيراً ما قضى على البلاد والشعوب والحضارات كلها، وأتى عليها من قواعدها، والذي لا يمكن أن يقوم أحد في جوه المُكفهَر المتوتر بأي عمل بنَّاء، أو يخدم الشعب والبلاد، ثم أثبتُّ حاجة البلاد إلى أناس صرحاء صادقين يقولون عن الخطأ إنه خطأ، وعن الصواب إنه صواب، وقلت إن وجود أمثال هؤلاء الرجال هو ثروة البلاد الحقيقية وقيمتها الغالية، وضمان لبقائها وسلامتها، ثم قدَّمت بعض مقتطفات من كتابات كبار قادة البلاد التي كتبوها بعد اندلاع الاضطرابات الطائفية السابقة.

وقد قال البروفيسور سوندهي في تلك المناسبة:

(لقد فشل نظام الشيوعية والرأسمالية كلاهما، فلا يُرجى أي خير منهما، إنني أقول لمولانا الشيخ، إن الأنظمة التعليمية في جامعاتنا مختلة ناقصة، فليتقدم مولانا ويرشدنا في هذا الطريق).

وهكذا استطعت أن أرفع صوتي الضعيف عن طريق هذا المؤتمر، وأبلغ رسالتي إلى دائرة أوسع، ولا أملك أكثر من ذلك، وإلى الله المشتكى.

الفصل الحادي والثلاثون

الندوة العالمية للأدب الإسلامي، تكريم علمي، محاضرات في كشمير، حادثة في الأسرة، مؤتمر «الإسلام والمستشرقون» بدار المُصنِّفين، مؤتمر الجزائر

الندوة العالمية للأدب الإسلامي بدار العلوم ندوة العلماء:

قررنا أن نعقد ندوة عالمية للأدب الإسلامي بندوة العلماء في ما بين (١٧ ـ ١٩/إبريل ١٩٨١ م) كان موضوعها: «البحث في الأدب العربي وآداب اللغات الأخرى عن العناصر الإسلامية» وقد نالت هذه الدعوة من القبول في البلدان العربية أكثر مما كنا نؤمِّل ونتوقع، وحضر للمشاركة فيها في لكهنؤ عدد لا بأس به من الأدباء والشعراء الفضلاء من البلدان العربية، ومن كبار المؤلفين المعاصرين وعمداء كليات اللغة والأدب وصفوة الشعراء والأدباء الإسلاميين.

وكان وفد البلاد العربية يمتاز عن جميع الوفود بأهميته ومكانته، وكان عدد الضيوف العرب حوالي أربعين، كان منهم سعادة السيد عبد العزيز الرفاعي سكرتير مجلس الوزراء بالمملكة السعودية سابقاً، الذي أعدَّ سلسلة كتب في سِيَر الأدباء والشعراء من الصحابة رضي الله عنهم مستفادة من كتب الأدب والتأريخ، والدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا الذي قام مباشرة أو عن

طريق تلاميذه بإنتاج مكتبة بأسرها في الشعر الإسلامي والنثر الإسلامي وأدب الدعوة، كما كان من الحضور رؤساء الأقسام الأدبية في الجامعات العربية الموقرة، والدكتور زكريا البري وزير الأوقاف المصري، ورئيس الشؤون الدينية بقطر الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

وكان هناك في الجانب الآخر أساتذة محترمون من الجامعات الموقرة، والمدارس الإسلامية في الهند، وكانت ندوة خاصة باللغة الأردية، وندوة خاصة للغة العربية، وقد أعددت الكلمة الافتتاحية على عَجَل، ألقيت فيها الضوء على ضرورة عقد هذه الندوة وغاياتها الأساسية، واستعرضت ما تمَّ في هذا الصدد من الأعمال الأدبية في الهند، وقد أصبح هذا الخطاب أو المحاضرة كلمة الرئاسة، إذ أصبحتُ رئيساً للندوة.

محاضرة مهمة حول دور الحديث الشريف ومهمته:

طلب مني عام ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) معالي الشيخ محمد علي الحركان ـ الأمين العام للرابطة سابقاً ـ وكان محدثاً وعالماً جليلاً ـ أن أفتتح دورة المحاضرات لهذا العام، وألقي محاضرة حول «حُجّية الحديث» فقبلت هذه الدعوة والطلب شاكراً، ولكني استأذنته في التعديل اليسير في الموضوع، إذ أن الموضوع حجّية الحديث قد نخل وغربل وقيل فيه الشيء الكثير، واخترت لنفسي موضوع «دور الحديث الشريف في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته»، وقد حاولت في هذه المحاضرة أن أعرض ـ بأسلوب جديد ونظرة جديدة ـ ما للحديث الشريف من مكانة ودور في حياة المسلمين، وإلى أي مدى تحتاج الأمة الإسلامية إلى التمسك بالسنة المطهرة، وكم تكون خسارتها عظيمة لو انقطعت صلتها بالحديث الشريف والسنة النبوية وحرمت هذه الثروة الكبيرة، وكم يكون خطرها شديداً للكيان الإسلامي.

تكريـــم علمـــي:

لما رجعت في ١٦/أكتوبر ١٩٨١ م من المشاركة في جلسات الرابطة وأداء الحج إلى موطني، إذ فاجأني الإشعار بأن جامعة كشمير قررت منحي شهادة الدكتوراه في الآداب الفخرية، وهي تقدم في ٢٩/أكتوبر ١٩٨١ م في حفلتها لتوزيع الشهادات، وجاءتني في هذا الصدد برقيات ورسائل من حاكم ولاية جمون وكشمير (بي، كي، نهرو) والأستاذ وحيد الدين ملك نائب رئيس جامعة كشمير، والبروفيسور آل أحمد سرور أن نعجل في إخبارهم بالقبول.

ولما رأيت أنَّ هذا تكريم علمي بعيد عن كل نوع من السياسة أو الاستغلال، قبلت هذا التكريم.

وعقدت حفلة توزيع الشهادات بتاريخ ٢٩/أكتوبر ١٩٨١ م، وكانت أول تجربة لي في حياتي، ومحنة جديدة لي، وكان يهمني في أثناء هذه الحفلة التي جلست فيها كغريب لا عهد له بهذه الحفلات أن ألقي محاضرتي التي أعددتها بعنوان «مكانة المثقفين الجامعيين ومسؤولياتهم»، وحاولت أن أقدِّم فيها عصارة نفسي وخلاصة تفكيري أمام الطبقة المثقفة الجديدة والمسؤولين عن الجامعة.

وقد عقدت الحفلة برئاسة حاكم ولاية جمون وكشمير، وحضور الشيخ عبد الله كبير وزراء كشمير المعروف بـ «أسد كشمير»، وكانت رئيسة U.G.C. أيضاً موجودة بهذه المناسبة، واختيرت هي أيضاً لشهادة الدكتوراه.

وجاءت نوبتي لإلقاء المحاضرة، وقد بدأت محاضرتي بذكر الوحي القرآني الأول الذي أعلن على لسان النبي الأمي للأمّة الأمية هذه الحقيقة الكبيرة: أن العلم لا يجوز أن يبدأ إلّا باسم الرب الحكيم العليم تبارك وتعالى، وفي رقابته وإشرافه وهدايته ﴿ اقرأ باسمِ ربِّك الذي خَلَق ﴾ وذلك لأن رحلة العلم طويلة شائكة ملتوية، ولم يغفل هذا الوحي الأول ذكر القلم الذي قد لا يجده أحد بعد البحث والتفتيش الكبيرين في مكة المكرمة آنذاك، وأعلن أن مصير العلم مرتبط بالقلم، وأن الأمة التي بُعِث ببعثة هذا

النبي الأميّ ـ الذي لم يمسك القلم في حياته ـ ستستخدم القلم في أوسع نطاقه ﴿ الذي علَّم بالقلمِ ﴾ ثم صرَّحت بهذه الحقيقة الثورية الخالدة: أن العلم لا نهاية له ﴿ علَّم الإنسان ما لم يَعْلَمْ ﴾، ثم ألقيت الضوء على مسؤوليات الجامعات، وقلت: إن أول مهمة للجامعة هو تكوين السيرة المثالية، وقلت:

(إن على الجامعة أن تبني من طلابها وفضلائِها سيرة مستقيمة صالحة لا ترضى ببيع الضمائر، وحسب تعبير الدكتور إقبال «مقابِلَ حفنةمن شعير»، إن النظم والفلسفات المعاصرة تظن أن كل شيء مساوم، وأن له ثمناً معلوماً، فإذا لم يشتروا بثمن بخس يشترونه بثمن مضاعف، إن النجاح الحقيقي لأي جامعة أن يعمل في حقل تكوين السير والأخلاق الفاضلة، وأن ينشىء حملة العلم الذين لا يساومون على علمهم وضمائرهم، ولا تستطيع أي قوة في الدنيا وأي فلسفة هدَّامة أو دعوة وحركة خاطئة مغرضة أن تبيعهم وتشتريهم.

والمسؤولية الثانية أن يتخرج من جامعاتنا طلاب يستعدون ليهبوا حياتهم ومواهبهم وصلاحياتهم للحق والعدل والعلم والهداية، الذين يشعرون من اللذة في الجوع ما يجد غيرهم في الشبع، والذين يجدون من المسيرة في الفقد ما يجدها غيرهم في القبض، والذين يبذلون أروع وأفضل مواهبهم وطاقاتهم العقلية وشبابهم وعطاء جامعتهم في حماية الإنسانية من التردي والسقوط.

ولما قام بي كي نهرو حاكم الولاية بعد خطابي ليلقي كلمة الرئاسة، قال: (إنني حضرت كثيراً من حفلات توزيع الشهادات، ولكني لم أسمع في أي منها مثل هذا الخطاب المثير الذي يدعو إلى التأمل والتفكير).

حادثة فاجعة في الأسرة:

كنت في رحلة إلى الحجاز في الأسبوع الأخير من شهر يناير ١٩٨٢ م لحضور بعض الجلسات المهمة، ولما عدت منها في (١٥/فبراير) وقعت

تلك الحادثة الفاجعة التي هدَّت كياني، وهزَّت قلبي وعقلي، كانت هي حادثة وفاة العزيز ابن أختي وعضدي ومفخرة أسرتي الشيخ السيد محمد الثاني رئيس تحرير مجلة «رضوان» بالأردية سابقاً، ومؤلف «حياة الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي»، و«حياة المحدث العلامة خليل أحمد السهارنفوري»، وقد وقعت هذه الحادثة عليّ موقعاً أثَّر في قلبي وتفكيري تأثيراً شديداً عميقاً، وزاد في أحزاني وآلامي.

لقد كان العزيز محمد الثاني ـ رحمه الله ـ يمتاز بكثير من خصائص أسرتنا وسماتها ومميزاتها، فقد كان عالماً، صالحاً، مؤلفاً أديباً، شاعراً مفلقاً، مؤرخاً بصيراً، ونساباً ماهراً، وبارعاً في الفرائض، مشتغلاً بخاصة نفسه، وداعية اجتماعياً، ومشرفاً على مدرسة دينية، ويملك شخصية محببة مألوفة، وكان تلميذ العلاَّمة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ وخليفته في التسليك، وكان الشيخ عطوفاً عليه، مَعنيّاً به، وكان يمتاز بعاطفته الدعوية الإصلاحية الجياشة، والاهتمام بالتبليغ، وقد استفاد أيام دراسته من مدرسة مظاهر العلوم ودار العلوم ندوة العلماء، وكان يجمع بين محاسن المنهجين والمدرستين، وقد رافق الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي أمير جماعة الدعوة والتبليغ طويلاً في أسفاره وجولاته، وظعنه وإقامته، وكان موضع ثقته، مهتماً بعمل الدعوة والتبليغ في مديرية رائي بريلي معنياً به، متصلاً بعامة الناس، اتصالاً لم يكن لأي واحد منا في الأسرة.

وقد رافقني في أسفاري وإقامتي أكثر من غيره من أفراد الأسرة، وكان معي في سفر الحج عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)، وقد شاهدت منه من آثار السعادة والنجابة والصلاح والتواضع ما ذكرته في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب بشيء من التفصيل.

مؤتمر «الإسلام والمستشرقون» بدار المصنفين بأعظم كَرَه:

عقد مؤتمر «الإسلام والمستشرقون» بدار المصنِّفين على النطاق العالمي في الفترة ما بين ٢٦ ـ ٢٨ ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ (٢١ ـ ٢٣/فبراير

١٩٨٢ م)، وقد حضره من الضيوف العرب وعلماء الهند وباكستان ما لم نكن نتوقعه، فكان جمعاً طيباً كريماً، وتولّى الدكتور يوسف القرضاوي رئاسة المؤتمر، وكانت محاضرتي الأصل باللغة العربيـة، وقرأ العـزيز سلمـان الحسيني الندوي مقتطفات منها، جاءت فيها خلاصة الموضوع وروحها أمام الفضلاء العرب، أما أنا فإنني نظراً إلى الجمع الذي كان أكثر الحاضرين فيه لا يفهمون العربية، ألقيت كلمة بالأردية.

وقد طبعت هذه المحاضرة العربية بالمجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ، وطبعت ببيروت أيضاً[1]، وصدرت ترجمتها الأردية والإنكليزية من المجمع الإسلامي العلمي كذلك.

وقد اعترفت في هذه المحاضرة ـ إلى الحد الضروري المناسب ـ وفق التعاليم الإسلامية الخلقية بجهود المستشرقين وإنتـاجهم، وذكرت كتبهم ومؤلفاتهم التي لا انتقاد لها من الناحية الإسلامية، ثم انتقدت عادة تَلَمُّسهم للنقص والمعـايب حسب نظرهم، وتصيُّدهم لمواضـع الضعف والنقد، وصرَّحت بمنهجهم الاستشراقي الخطير، والنتائج الخطيرة للاعتماد الزائد في الأوساط العلمية على كتب المستشرقين والثقة الزائدة بهم.

وبعد إلقاء الأضواء على أعمال المستشرقين ومنهجهم في البحث والعرض استعرضت جهود العالم الإسلامي في الموضوعات الإسـلامية، وذكرت فيه ضحالة الإنتاج الإسلامي في العالم العربي والإسلامي باللغات الغربية، وتفوُّق الهند وميزتها، وإنتاج علمائها وكتابها لمكتبة إسلامية قوية في اللغة الإنكليزية، ولعل هذا المقال كان أول مقال بالعربية استعرضت فيه جهود العلماء والمؤلفين الفضلاء في البحث والتحقيق والدراسة في الهند، ومـا امتاز بـه علماء المـدارس القديمـة من تفانٍ في الهـدف، وشغف

(١) باسم «الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين»، طبعته مؤسسة الرسالة في بيروت.

بالموضوع، وجهد وإخلاص، وفضل ورجحان، ثم استعرضت أعمال البحث والدراسة في العالم العربي والإسلامي.

ونوَّهت أخيراً بأن من أكبر أنواع الجهاد في العصر الحاضر ومسؤوليته اللازمة، هي مقاومة تلك الرِدّة العقلية والحضارية التي نشرتها كتابات المستشرقين الغربيين أو «بحوثهم ودراساتهم» في العالم الإسلامي.

ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر:

كان ذلك الملتقى السادس عشر للفكر الإسلامي، وقد قرّر له أن يبدأ من ١٠/شوال ١٤٠٢ هـ وينتهي في ١٣/شوال ١٤٠٢ هـ، وكثيراً ما يقع فرق يوم أو يومين في مطالع الهلال بين الهند والبلدان العربية، فكان لزاماً عليّ أن أسافر بعد العيد مباشرة، وكان ذلك صعباً عليَّ لتوارد الضيوف، وبدء السنة الدراسية في دار العلوم لندوة العلماء، فكتبت للمسؤولين لعلي سأتأخر في الحضور يومين، فقبلوا ذلك، واستأذنتهم في تقديم محاضرتي في الملتقى بعنوان: «طبيعة هذا الدين وسماته البارزة» التي كنت كتبتها قبل مدة، وألقيت فيها الضوء على مكانة النبوة ودورها، وأهمية العقيدة الصحيحة، والحاجة إلى الحديث الشريف والسنة النبوية، فقبلوا ذلك أيضاً.

وسافرت مع العزيز الأستاذ محمد الرابع الندوي الذي كان قد تلقّى دعوة مستقلة من الملتقى، وكان قد أعدَّ محاضرة بعنوان: «لمحات شعورية ونفسية في كلام الرسول ﷺ». سافرنا عن طريق دلهي، ووصلنا الجزائر في ٢٩/يوليو، وكان من عادة المسؤولين أن يعقدوا الملتقى كل عام في مدينة من مدن الجزائر، وقد عقد هذه المرة في مدينة تِلِمْسَان التي تبعد عن الجزائر العاصمة حوالي ٣٥٠ كيلومتراً، وكنا قد وصلنا بعد يومين من بدء الملتقى، وكان أصحاب الإدارة والاستقبال كلهم قد انتقلوا إلى تلمسان، لم نجد أحداً يستقبلنا في مطار الجزائر ويوصلنا إلى المقر المطلوب، وضاق بنا الحال حتى بعث الله رجلًا من أهل الدعوة ساعدنا في الوصول إلى مسؤولي

الشؤون الدينية، ثم تهيأت الأسباب، وجئنا تلمسان، ونزلنا في فندق في ضيافة وزارة الشؤون الدينية، وعلمت هناك أنه قد حضر الملتقى الصفوة المختارة من علماء العرب والمفكرين وأساتذة الجامعات، وقليل من المؤتمرات والملتقيات هي التي تساوي هذا الملتقى في التمثيل الموقر الضخم، فكان عدد كبير من الأصدقاء القدامى والفضلاء العرب والعاملين في حقل الدعوة والفكر الإسلامي، والتقى هنا أخوان فرّق بينهم الزمان الطويل.

ولما حضرت الحفل علمت بأن محاضرتي بعنوان: «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» التي كنت قدمتها في الموسم الثقافي بالرابطة بمكة المكرمة قد طبعت هنا ووزعت.

وقد قرأت محاضرتي التي أعددتها لهذا الملتقى، وقرأ الأستاذ العزيز محمد الرابع أيضاً كلمته في بعض جلسات الملتقى، كما تولّيت رئاسة بعضها.

وكنا عندما نخرج من مكان الملتقى يحف بنا الطلاب والشباب من أبناء الجامعات وغيرهم، ومعهم المسجلات يوجهون الأسئلة ويسجلون الأجوبة، ويحرصون عليها في وقت يسير حتى نركب السيارة ونتوجه إلى الفندق، وعلمت أن مؤلفاتي العربية وكتبي الدعوية تلقت هنا استجابة كبيرة قوية، وسررت ـ بصفة خاصة ـ عندما علمت أن كتابي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» الذي لا يسمح به في بعض الدول العربية قد قرىء ودرس هنا كثيراً، وقد جاءت فيه انتقادات لحكومة الجزائر، ويشير بعض الأساتذة والمدرسين في الجامعات على الطلاب بقراءة كتبي ومؤلفاتي.

وكنت زرت الجزائر بعد مدة طويلة من الإلحاح والشوق، فبذلت وزارة الشؤون الدينية ووزيرها الموقر معالي الشيخ عبد الرحمن شيبان لأجل ذلك عناية كبيرة واهتماماً بالغاً بزيارتي، وكان يعاملني معاملة خاصة، ودعا حاكم

تلمسان السيد دقسي الضيوف بعد انتهاء الملتقى إلى مأدبة في المغنية التي تبعد عن حدود المغرب ستة كيلومترات، وعن مدينة وجدة المعروفة أحد عشر كيلومتراً.

وبلاد الجزائر كلها مخصبة جميلة، متحضرة راقية، ويمتاز الشباب بها بحماسهم للدين واندفاعهم إلى أهله.

وقد زرت آثار تلمسان والأمكنة التاريخية، ورجعنا إلى الجزائر حيث أقمنا ليومين، ثم توجهنا في ١٠/أغسطس ١٩٨٢م، إلى باريس، ومن ثَمَّ إلى الهند.

الفصل الثاني والثلاثون

السفر إلى سري لنكا (سيلان)، بيانات وتصريحات بمناسبة مأساة بيروت وحول الجهاد الإسلامي في أفغانستان، افتتاح المركز الإسلامي بأكسفورد ومحاضرة: «الإسلام والغرب»

السفــر إلى سيــلان:

تلقيت رسالة في فبراير عام ١٩٨٢م من معالي الشيخ محمد علي الحركان - الأمين العام للرابطة - أن الجامعة النظيمية مؤسسة تعليمية كبيرة في سيلان، وقد رغب إلينا مؤسسها الحاج محمد نظيم ونائب رئيسها الدكتور محمد شكري أن تتكرم بزيارتهم، فإن كتبك تدرس هناك، ونحن نرى ضرورة سفرك إلى هذه البلاد حتى تفيد أهلها بكلماتك النافعة.

أما أهل الجامعة النظيمية فقد بعثوا رسولهم الشيخ شهيد الله نائب مدير الجامعة ليبلِّغ رسالة مسؤولي الجامعة إليَّ شخصياً، ويقرر تاريخ السفر إلى سري لنكا.

وأخيراً، قررت السفر إليها، ورافقني فيه العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي، وخرجنا في ٧/مايو ١٩٨٢م، عن طريق دلهي إلى بـومبائي،

وغادرنا بومبائي ٩/مايو بالخطوط السويسرية إلى كولمبو رأساً، وكانت هذه هي الرحلة الأولى إلى سيلان، ولم يكن في ذهني تصور واضح عن أهلها، وكنا سمعنا منذ الصغر ـ وقد ذكر ذلك بعض المحققين العرب ـ أن سيدنا آدم عليه السلام لما أُهبط من الجنة نزل على هذه الأرض.

ورأينا البلاد مخصبة كثيرة الخضرة، وأهلها ـ لا سيما مضيفنا والمسؤولين عن الجامعة ـ أصحاب سماحة وضيافة كريمة، وقد استقبلنا في مطار كولمبو مسؤولو الجامعة، وقد ذهبوا بنا منه إلى منزل مؤسس الجامعة الحاج محمد نظيم حيث مكثنا قليلاً، ثم توجهنا إلى بيرو والا (Beruwala) التي تبعد عن كولمبو على الساحل الشرقي لبحر العرب حوالي ٣٤ ميلاً، والحاج محمد نظيم تاجر كبير للمجوهرات، وقد تقدم بمهارته الفائقة في معرفة الجواهر من حالة متواضعة فقيرة إلى أن أصبح من كبار التجار المسلمين في سري لنكا، وليس هو خريج أي مدرسة، ولا يعرف اللغات الأجنبية، ولكنه أسس هذه الجامعة على نفقته، ولا يزال يقوم بنفقاتها الباهظة.

وقد أخبرني الدكتور محمد شكري نائب رئيس الجامعة أن فكرة إقامة هذه الجامعة إنما تبلورت وقويت بل ظهرت بكتابكم: «رِدَّةٌ ولا أبا بكر لها»، فقد أُعجب الحاج المؤسس بهذا الموضوع، وملك تفكيره وقلبه، وخلاصته أن أهم قضية للعالم الإسلامي اليوم هي قضية الردّة العقلية والعلمية التي انتشرت في الطبقة المثقفة انتشار النار في الهشيم، وقد تجاوزت إلى الردّة العقائدية، ولكن المجتمع المسلم لا يُلقي لها بالاً، ولا يهتم بها الاهتمام الذي تستحقه، وإنه لا بدَّ لها لمقاومتها من إعداد جيل صالح مُثقَّف يؤمن بخلود الإسلام، وصلاحيته للبقاء والقيادة من أعماق قلبه وبدلائل علمية وعقلية ويستعد لمقاومة هذه الفتنة.

فقامت هذه الجامعة بناءً على هذه الفكرة، وتولَّى الحاج محمد نظيم مسؤوليتها في التمويل، وبنى عمارة الجامعة المركزية، والمكاتب، والمجمع

السكني للطلاب، وبيوت المدرِّسين، والقاعة الفسيحة الجميلة، وبيوت الموظفين، ومسجداً واسعاً جميلاً، وقد طلب مني في ذلك السفر بإرساء حجر الأساس للمكتبة المركزية للجامعة، وقد أنفق الحاج محمد نظيم على هذه المشروعات إلى الآن حوالي خمسة ملايين روبية من حُرّ ماله، فجزاه الله خيراً وأجزل مثوبته.

ألقيت كلمتي في حفلة توزيع الشهادات بالعربية، وقلت فيها: (لقد شاع عن هذه البلاد، ونقلت رواية مشهورة ـ من دون أن نقطع بصحتها أو نتحمل عهدتها ـ أن جَدَّنا وأبا البشرية جميعاً سيدنا آدم عليه السلام هبط من الجنة على هذه الأرض، وقد قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد».

إن هذا الإعلان الذي هو أساس محكم للأخوّة الإنسانية، وأهم بند من الدستور العالمي للحقوق البشرية ـ ينبغي لكونكم أهل مهبط آدم حسب الرواية المشهورة أن تعلنوه عشر مرات إذ أعلنته البلاد الإسلامية الأخرى مرة واحدة، ولو قالوه خفية وعلى حياء، فأنتم أحرى بأن ترفعوه مدوّياً مجلجلاً، وتكونوا دعاته وحملته).

وقد كانت لي هناك ـ سوى هذا الخطاب في حفلة توزيع الشهادات الذي دُعينا لها ـ أحاديث متعددة أمام الطُلّاب والمدرّسين وأهل البلاد.

لقد كان هناك قديماً علاقات طيبة قوية بين بلاد سيلان والحكومات الإسلامية، وعدد سكانها أربعة عشر مليوناً، ونسبة المسلمين إلى سائر سكان البلاد ٧٪، فهو مليون ومائتا ألف نسمة، وسكانها يشبهون جداً سكان جنوب الهند من ولايات كيرالة، وتامل نادو، وتشبه أرضها أرضها، وتتراءى أشجار النارجيل ممتدة على مئات الأميال على حافتي الطريق، وكانت معاملة الحكومة ـ في حدود علمنا ـ مع المسلمين طيبة، وتغلق جميع المحاكم والإدارات والمدارس يوم الجمعة لساعة واحدة، وقد خصصت الإذاعة ساعة

ونصف ساعة لما يهم المسلمين بصفة خاصة، وتخصص زيادة على هذا الموعد أيام الأعياد وفي شهر رمضان، ويشتمل البرلمان على وزيرين مسلمين، وزير الخارجية شاه الحميد وصديقنا عضو الرابطة محمد حنيفة محمد الذي يشغل ثلاث وزارات.

عواطف ومشاعر قلبية عن مأساة بيروت والجهاد الإسلامي في أفغانستان:

وقعت في سبتمبر ـ أكتوبر عام ١٩٨٢ م مأساة بيروت، وقتل المسلمون اللبنانيون والفلسطينيون، وذبحوا ذبح الخراف والنعاج بصورة لا يوجد لها مثيل في الماضي القريب، ولا في منطقة قريبة، وشاهدنا من عجز العالم الإسلامي وخفة وزنه وفقده لأي كرامة، وضياع الحكومات العربية وقلة شعورها وموت ضمائرها، وسكوت القوى الكبرى بل تفرُّجها وتمالُئِها ـ ما فطر القلب وفَرَق الفؤاد، ولم يكن هذا الحادث ـ بالنسبة لي ـ حادثاً جديداً غريباً أو كشفاً جديداً، فأنا أعرف الشيء الكثير عن العالم العربي، ولقد كان له موقف غير محمود من قضية فلسطين، وكنت قد سافرت إلى ستة أقطار عربية عام ١٩٧٣ م في وفد رابطة العالم الإسلامي، ومكثنا عدة أيام في بيروت، وأبديت حينذاك انطباعاتي ومشاعري وما كنت أتوجَّس منه في بيروت، وقلت فيها:

(مررنا بالمنطقة التي يسكنها اللاجئون الفلسطينيون، وما تتَّهم به هذه المنطقة من تخلُّف وفقر، وعدم نظافة، وعدم ثقة بالمستقبل، وتذمُّر من الأوضاع القائمة، وكله نذير خطر ليس في هذا البلد فحسب، بل في العالم العربي كله، وهو وضع غير صالح للبقاء والاستمرار مهما طالت مدته، وأُرخِيَ الستار عليه، هذا والبلد يرفل في حلل من رَغَد العيش وفائض من الأموال والخيرات، ويتقلَّب في أعطاف الحياة الرخيَّة والعيش الهنيء، ورأينا ما تركته الرصاصات والقنابل من آثار في البنايات، وفي قلوب سُكَّانِ هذا

البلد، وما تكتنفه قضية اللاجئين ومسألة فلسطين من تعقُّد وغموض، وتناقُض وتردُّد، لا يوجد نظيره في قضايا العالم المعاصر الأخرى)[1].

وقد آلمتني هذه الوقائع في بيروت، وأثرت فيَّ تأثيراً شديداً، وأصدرت بياناً نشرته بالعربية والأردية والإنكليزية في الجرائد والمجلات، وقلت فيه:

(لقد تجلّى من ذلك كالصبح لكل ذي عينين أنه لا يزال في الجيل الإنساني الحاضر وفي الناس المتمدنين المثقفين الذين يدَّعون الحضارة تلك الوحشية الظامئة للدماء، والضراوة الوالغة في دماء الأبرياء، التي كانت إحدى خصائص الجاهلية العمياء قبل آلاف من السنين، ولا يزال منها بقايا في بعض القبائل الموغلة في الصحارى التي تعوَّدت افتراس الآدميين، وأكل لحومهم، والتي اعتقد الناس عنها أن العلم والحضارة وتبادل المعارف والتعارف بين الشعوب، والشعور بالحاجة إلى الوحدة والتآلف قد قضى عليها بتاتاً، واستأصل شأفتها للأبد.

كما أثبتت المجزرة الفظيعة الهائلة للاجئين الفلسطينيين التي ارتكبتها الأيدي الآثمة لحزب الكتائب، بالتعاون مع اليهود أن الكراهة والعصبية الدينية لا تزال في العالم المسيحي بصفة خاصة، أو في هذه المنطقة بالذات على أقل تقدير، حيَّةً مشتعلة متأججة، كما كانت تتلظّى في صدور المهاجمين الأوربيين الصليبيين، الذين قادوا الجيوش إلى فلسطين بقيادة الملك رتشارد وغيره من رؤساء الدول الأوربية، وسفحوا دماء المسلمين حتى جرت على الأرض كالأنهار وغاصت فيها الخيول الصليبية إلى ركبها، على حسب تصريح الكاتب المسيحي في الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia of Britaninca).

كما تجلت أيضاً حقيقة أخرى كالشمس في رابعة النهار، وهي أن الضمير الإنساني، والشعور الخلقي، وتنديد الشعوب المُحِبَّة للعدالة

---

(١) نقلاً عن كتاب «من نهر كابل إلى نهر اليرموك»، ص/١١٤ ـ ١١٥/ للمؤلف.

والسلام، وشجبها واستنكارها، بل واستنكار الحكومات واحتجاجات منظمة عالمية كبيرة كهيئة الأمم المتحدة وقراراتها، لا قيمة لها ولا تأثير، إزاء قوة أثيمة مصممة تمضي لتحقيق أغراضها الدنسة ونواياها الخبيثة، ولا تقف في وجهها إلّا قوة منظمة مسلّحة، تعتمد على إرادتها الصارمة وعزيمتها الأكيدة، وأنه لا تزال تتحكم في هذا العالم المتمدن شريعة الغابات وقانون العصابات، والقاعدة المنحرفة الشاذة التي تقول: Might is Right (أي القوة هي الحق)، وسفيهٌ وعدوّ نفسه من يعقد الأمال في مستقبل الأيام بهذا الضمير العالمي، أو بهيئة الأمم المتحدة، أو بالحلفاء والموالين، وباستنكار الناس المحبّين للعدالة والسلام، واحتجاجاتهم ومظاهراتهم، فإن ذلك لا يعدو تسلية الأطفال وخداع النفس، ولا يقلُّ عن الانتحار، ولم يتبدّ للناس عياناً وجهاراً ضعف هذه الوسائل، وقلة غَنائها من زمن بعيد كما تبدَّى ذلك واضحاً جلياً في هذه المأساة المفزعة التي استفزّت الوجدان، وتندَّى لها جبين الإنسان).

وقد نُشِر هذا البيان في الصحافة العربية والإسلامية بصورة واسعة، كما نشرتُه مستقلاً بالأردية والعربية والإنكليزية، وقد أرسل بهذا البيان صديقنا العزيز القاضي أفضل ياباني - صاحب مطبعة المدينة في شيكاغو وناشر الكتب الإسلامية - مع رسالة منه بتاريخ ١٦/نوفمبر ١٩٨٢ م إلى الرئيس ريغان، وجاء الإشعار بوصوله إليه، وقد أرسل إليَّ هذا الإيصال.

كذلك كتبت في ديسمبر ١٩٨٢ م رسالة تأييد وتهنئة وتبريك إلى المجاهدين في أفغانستان الذين ضربوا مثلاً رائعاً في مقاومة الحملة الشيوعية الشرسة والقوة العالمية الكبرى، وأعادوا ثقة جديدة وهمة جديدة في قلوب المسلمين، وبيَّضوا في العهد الحاضر وجه الإسلام والمسلمين، ودافعوا عن كرامتهم وبيضتهم وكان عنوان هذه الرسالة «كلمة للمجاهدين الأفغان» وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي:

(إنَّ الشعب الأفغاني حذق «صناعة الموت» وظلَّ محافظاً عليها طيلة

قرون، وهي الصناعة التي لا بقاء لأمة ولا كرامة لها بغيرها، وقد تناساها كثير من الشعوب الإسلامية والعربية، وبقيت عاطفة الجهاد قوية جيّاشة في صدور أفراد الشعب الأفغاني، شبّاناً وشيوخاً، بل غلماناً ونساءً في بعض الأحيان، وهو الذي يسميه الأفغاني: «بالغزا»، فإن هتافاً واحداً بالغزا يثير فيه نخوة إسلامية أفغانية، ويفير الدم في عروقه، ويُغلي فيه مرجل الحماس، فيثور كالأسد.

هذه العاطفة التي فترت وفقدت الكثير من قوتها في كثير من الأقطار الإسلامية والحكومات العربية، هذا الفتور الذي جرّ على هذه الأقطار والحكومات، ضعفاً كبيراً وقلة حمية عند المآسي القومية والدينية، كانت من أكبرها مأساة بيروت ـ الفلسطينية، التي وقفت أمامها الحكومات المواجهة والأقطار الإسلامية القريبة والبعيدة مكتوفة الأيدي، مكمومة الفم، مشدوهة حائرة. وذلك رغم وسائلها وإمكانياتها الواسعة الغنية، وصلتها بلغة القرآن والسنة ووجود كثير من المراكز الثقافية والجامعات العلمية التي تدرس الكتاب والسنة، والمكتبات الهائلة التي تجري سيلاً من المطبوعات الإسلامية فيها من كتب التاريخ والبطولات، ووجود الخطباء المصاقيع والندوات الدينية.

فارق عجيب، يجب أن يكون موضع دراسة المعنيِّين بدراسة واقع العالم الإسلامي، ومستقبل الدعوة الإسلامية.

فتحياتي للمجاهدين الأفغان، وتحيّاتي لقادة الكفاح الأفغاني الإسلامي، متمثّلاً بأبيات أحد شعراء «الحماسة» أبي الغول الطهوي:

فَدَتْ نفسِي وما ملكت يميني ... فوارسَ صدَّقت فيهم ظُنوني
فوارس لا يملّون المنايا ... إذا دارت رحا الحرب الزَّبون
ولا تبلَى بسالتهم، وإن هم ... صُلُوا بالحرب حيناً بعد حين)

أصدرتُ هذا البيان في نوفمبر ١٩٨٢ م، ونشر بصورة موسَّعة في الجرائد العربية والأردية، وكان هذا إبداءً من المسلم النائي لعواطفه الدينية،

وتأييداً خلقياً ومبدئياً للجهاد الإسلامي في أفغانستان، يستطيع به مسلم هندي وسائله قليلة، وقضاياه كثيرة ومُعقّدة أن يخفف عن عبئه، ويطمئن قلبه، ويلبي نداء ضميره.

المركز الإسلامي في أكسفورد ومحاضرة «الإسلام والغرب»:

فاجأتني في أحد أيام شهر مايو ١٩٨٣ م رسالة من الباحث الإسلامي الكبير الأستاذ البروفيسور خليق أحمد نظامي ونجله الدكتور فرحان نظامي[1]، أن هنالك فكرة في إقامة مركز إسلامي بجامعة أكسفورد ـ هي من أكبر جامعات بريطانيا ومن أشهر جامعات العالم ـ وكان هذا لأول مرة في تاريخ الجامعة الممتد على سبعة قرون أن يفكر في القيام بخطوة جادّة نحو دراسة الإسلام، وبحثه وتعريف فضلاء الغرب وعلمائه، وطلاب الحق وناشديه به، بإقامة هذا المركز في بيئة علمية وتعليمية مسيحية، ومن أكثر المهتمين بهذا الموضوع نائب عميد St. Croos College وأستاذها Dr. D.G. Browning الذي له صلة خاصة بالدكتور فرحان نظامي، ويود الدكتور براوننك أن تشارك في هذا العمل الخيِّر وتساعد في تأسيسه، ووضع دستوره وأهدافه، وتلقي محاضرة حول موضوع «الإسلام والغرب».

ولا بأس بأن أصرح بأنني كنت أتمنّى من زمان وأدعو الله تعالى أن يتيح لي فرصة الاجتماع بفضلاء الغرب وعلمائه ومفكريه، وأن أعرض عليهم بكل حرية وثقة آرائي في الحضارة الغربية وفلسفة الحياة الغربية، وخيبة القيادة الخلقية والفكرية والحضارية الغربية للعالم البشري، وأقدم أمامهم تلك الحقائق التي لا يجدون فرصة سماعها أعواماً وسنين، ولا يسمح لهم شعورهم بمركب الاستعلاء (Superiority Complex) بالتفكير فيها.

فرأيت في هذه المناسبة المتاحة تحقيقاً لأمنيتي القديمة، ولم يمهلني

---

(١) كان يعمل أستاذاً في جامعة أكسفورد، وقد تبنى فكرة إقامة المركز الإسلامي في هذه الجامعة.

هذا السرور والشعور بتحقيق هدف مهم أن أدرس دوافعه وخلفياته وأفتش عنها، وأن أستعرض الإمكانيات البعيدة في ضوء التجارب السابقة للاستخدام الخاطىء المغرض لمثل هذه المؤسسات، إذ أن مثل هذا التفكير والدراسة قد تحول دون أي إجراء أو خطوة أن تكون سبباً لخير كبير، فقبلت هذه الدعوة، وكان يصعب الوصول في الموعد المقرر، فطلبت بعض التعديل، ورضي به الدكتور براوننك، وجاءتني منه رسالة شكر وتقدير على قبولي لهذه الدعوة، وأعطاها أهمية بالغة، وأبدى إعجابه بمؤلفاتي وكتاباتي التي كان اطَّلع عليها، وكنت أشرت في رسالتي بمراعاة ما ألتزمُ به من أصول ومبادىء وطريق ومنهج ومن أنخرطُ في سلكهم من علماء الدين ودعاته في المجالس والمحافل والمآدب، فقبل كل هذه الشروط، وبعث بتذكرتين لي ولمرافقي العزيز محمد الرابع الندوي، وكنت قد أعددت محاضرتي: «الإسلام والغرب» وترجمت إلى الإنكليزية.

غادرت الهند في ليلة ٢١/ يوليو ١٩٨٣ م إلى لندن، وجاء إلى مطار أيترو بلندن الدكتور فرحان مع الدكتور براوننك بسيارته لاستقبالنا، فذهب بنا إلى جامعة أكسفورد رأساً.

كان في اليوم التالي ٢٢/يوليو ساعة ١٠/ضحىً حفلة عامة في قاعة الاختبارات، دعي إليها الضيوف الأجانب، وأصحاب العلم والفضل ورجال الفلسفة والتفكير من داخل البلد، وكان عدد الحاضرين قليلاً للأسف، بسبب الإجازة في الجامعة، وعدم توجيه الدعوات إلى الفضلاء ورجال العلم في إنكلترا بنطاق واسع، فلم يكن ما كنت أتوقعه من عدد المستمعين، إلاّ أنه رغم ذلك غصَّت القاعة بالحاضرين.

وألقيت أولاً كلمات بالعربية مراعاة للأخوة العرب الحاضرين، ثم ألقيت محاضرتي، وأقتطف منها ما يلي:

(لقد قال أحد العلماء المُختصِّين في العلوم الغربية والذي طالت إقامته

في الغرب قبل أكثر من نصف قرن الدكتور محمد إقبال عن الحضارة الغربية والبيئة الغربية:

«إن نور الحضارة باهر، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة، ولكن ليس في ربوعها من يُمثّل دور موسى فيتلقّى الهداية والإلهام، ويبدِّد باليد البيضاء الظلام، ولا من يمثل دور إبراهيم عليه السلام، فيحطّم الأصنام، ويحوِّل النار إلى برد وسلام، إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب، وينمو على حساب العاطفة. إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد، فلا يخرجون - حتى في ابتكارهم وثورتهم - عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة»[1] .

«إنه لا بدَّ الآن لحماية الحضارة الإنسانية وحماية الغرب نفسه - الذي يُعَدُّ بريطانيا فرداً كريماً محترماً من هذه الأسرة، ويحمل تاريخاً رائعاً من قوة الإرادة، وعلوّ الهمة، والذكاء والطموح - من الجهود العلمية والفكرية الثورية الواقعية المخلصة، والجهود الجريئة المغامرة، التي تنفخ في هذه الحضارة المحتضَرة والمجتمع المُحتضَر روحاً جديدة من الحياة، وتؤهلهما من جديد للبقاء في العالم، وتبرر وجودهما واستمرارهما.

ولا شك أن جامعات هذه البلاد ومدارسها العلمية ومراكزها الفكرية، والمؤلِّفين وأصحاب الأقلام وقادة الفكر، يستطيعون أن يقوموا في هـذا المجال بدور كبير، وأعتقد أن مشروع «المركز الإسلامي» الذي يُدرَس في هذه الجامعة والذي دعي له هذا المجلس، يقوم في موضعه المناسب وموعده المناسب، وسيكون حلقة في هذه السلسلة ومَعْلَمة في الطريق، هذا هو الأمل الذي ساقني - رغم ضعفي وزحمة أشغالي - إلى هذه الجامعة، ودفعتني للحضور في هذه المناسبة الكريمة».

وقد قُرِّرت بتاريخ ٢٣ - ٢٤/يوليه ثلاثة أمور فيما يتعلق بهذا المركز المقترح: تقرر أن الدكتور فرحان سيكون مديره الأول، وأن الدكتور برواننك

---

(١) «روائع إقبال» لصاحب المقال.

يكون المسجل الأول. وأن يُعقد مجلس استشاري آخر للبت في أمر الدستور ودراسة تفاصيله. وتقرر أيضاً أن أكثرية أعضاء المركز تكون ـ دائماً ـ من الفضلاء المسلمين، لتبقى له طبيعته الإسلامية، ولا يستهدف لأغـراض منحرفة، أو يكون مطيّة لطبقة أو فرقة.

ومكثنا في إنكلترا بعد انتهاء هذا الحفل ستة أيام، زرنا خلالها المراكز الإسلامية في مدليند (Midland)، وتجولنا في القرى التي يسكنها عدد كبير من المسلمين، كما زرنا المراكز التبليغية وأهم المساجد، وزرنا المركز الإسلامي في ليستشتر (Leicester) بتفصيل، وكان الموضوع المشترك في الخطابات والمحاضرات التي ألقيتها مسؤولية المسلمين المقيمين ببريطانيا، والتنبيه إلى المنهج الصحيح، وتفرُّس الأخطار ومقاومتها، والحفاظ على الشخصية الإسلامية.

ورجعنا بطائرة «Pan American» يوم ٣١/يوليو إلى الهند.

رحلة إلى الكويت والإمارات:

لقد وقع حادث وفاة سماحة الشيخ عبد الله العلي المحمود بتاريخ ٢٤/جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ (٢٢/مارس ١٩٨٢ م)، وكان شخصية مُحبَّبة موقَّرةً كريمة في الإمارات العربية، وكان يحتل مكاناً كبيراً في أولئك الذين تأثرتُ بهم وأعجبتُ بهم في البلاد العربية، لإخلاصهم، وتوجعهم للإسلام، وحميتهم الدينية، واهتمامهم الزائد بقضايا المسلمين ومنظماتهم وحركاتهم وجهودهم.

وقد بقي مدة يشغل منصب مدير الأوقاف بالشارقة، ثم كان المشرف على «مركز الدعوة الإسلامية» بها، وقد كان حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي يعامله معاملة خاصة، وكان مستشاراً دينياً له، وأشدّ ما أثر فيّ من خصاله وصفاته، إيمانه واحتسابه، والتفكير في أجر الآخرة.

وقد زار لكهنؤ عدة مرات، وكان على معرفة جيدة بجماعاتها الدينية،

ومؤسساتها التعليمية والجهود الدعوية الدينية فيها، وكانت له صلة خاصة قريبة بشخصي الضعيف ومسؤولي دار العلوم لندوة العلماء، وكان يحب أن يصحبني في جلسات الرابطة، وفي أي مؤتمر أو احتفال، وكان يأتي إلى الفندق الذي أنزل فيه إلى غرفتي ليصلّي معنا، وقد أحدثت وفاته فراغاً كبيراً في الشارقة بل في الخليج العربي، رحمه الله تعالى وغفر له وأسكنه جنات عدن.

وقد قرّر أبناؤه البرَرَة بعد وفاته وعلى رأسهم ابنه الكريم الصالح الدكتور سالم عبد الله أن يحولوا مكتبته الشخصية ـ التي تشتمل على آلاف من الكتب ـ إلى مكتبة عامة، وتكون أكبر دار للمطالعة ومكتبة عامة في الشارقة، وقد سألني ـ لما كان يعرف من صداقة حميمة وصلة قوية بيني وبين والده ـ أن أحضر حفلتها الافتتاحية التي كانوا يريدون الاحتفال بها باهتمام بالغ، وأردت لكثرة أشغالي وسلسلة أسفاري أن أعتذر، وكتبت إليهم أن لا يؤجلوا الافتتاح من أجل انتظاري، ولكنهم أصرّوا على حضوري حتى ولو كان ذلك بعد عام.

وتقرر عقد الحفلة الافتتاحية في ١٢/صفر ١٤٠٤ هـ (١٦/نوفمبر ١٩٨٣ م)، وسافرت للحضور فيها، ورافقني العزيز الأستاذ محمد الرابع الندوي، وقد حضر الحفلة حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي وحاكم عجمان الشيخ حميد بن راشد النعيمي، وعدد من وزراء الإمارات وأعيانها، وكان لِحسن الحظ معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام للرابطة موجوداً بالإمارات في زيارة، فشارك في الافتتاح.

وألقيت خطاباً بهذه المناسبة، يمكن أن يُقرأ في كتاب المؤلف «أحاديث صريحة لإخواننا العرب والمسلمين».

ومكثت أسبوعاً بالإمارات في هذه الرحلة، كان لي خلالها عدد من المحاضرات والخطب، وكان من أهمها خطابي في قاعة جامعة العَيْن الفسيحة بتاريخ ١٥/صفر ١٤٠٤ هـ (١٩/نوفمبر ١٩٨٣ م) كان موضوعه:

«أزمة هذا العصر الحقيقية»، وألقيت خطاباً في كلية البنات بهذه الجامعة بعنوان: «دور البنات المسلمات في المجتمع الإسلامي»، وخطاباً في مسجد سيدنا سعد بن أبي وقاص بأبو ظبي، بعنوان: «إلى الإسلام من جديد» وخطاباً في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب بالشارقة في تفسير قوله تعالى:

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أُولُوا بَقيّة يَنهَوْن عن الفساد في الأرضِ ، إلاّ قليلاً ممَّن أنجينا منهم، واتَّبَعَ الذين ظلموا ما أُترِفوا فيه وكانوا مُجْرمين ﴾.

وتوجَّهنا من الشارقة ودبي في ٢٣/نوفمبر إلى الكويت، وكنت تلقيت قبل أسابيع دعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في وزارة الإعلام لإلقاء مُحاضرة بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجري، بعنوان: «الإسلام والمدنية الإنسانية»، فأحببت أن يتمّ هذا في هذه الرحلة الواحدة، ونَظَّمَ المجلس الوطني الاحتفال العام بهذه المناسبة في ساحة كلية العلوم بجامعة الكويت، ووجه دعوات إلى الحاضرين على نطاق واسع، وألقيتُ محاضرتي بتاريخ ١٨/صفر ١٤٠٤ هـ (٢٣/نوفمبر ١٩٨٣ م) بعد صلاة المغرب بعنوان: «الإسلام والحضارة الإنسانية»، وقد طبعت ونشرت[١]، تعرضت فيها بصورة إجمالية لتأثير الإسلام العالمي الذي تركه على المدنية الإنسانية بل الحياة البشرية كلها، والذي أصبح جزءاً منها لا يمكن فرزه بأي طريق من التحليل الكيمياوي، والذي قام بدور ثوري كبير في تاريخ البشرية، وقد تناولت عشرة أنواع من التأثير الإسلامي العالمي الذي كان له الفضل الأكبر في إحداث الثورة في الحياة البشرية.

وسافرنا بعد الكويت إلى الحجاز، وقمنا بأداء العمرة وزيارة طيبة الرسول ﷺ، وعدنا في ١١/ديسمبر ١٩٨٣ م إلى الهند بسلام آمنين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) وقد ظهرت لها طبعة موسعة، زيدت فيها مواد جديدة بعنوان «أثر الإسلام في الحضارة الإنسانية» أصدرها المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء لكهنؤ ـ الهند.

فهرس أسماء الأعلام

يتضمن أسماء الأشخاص والشعوب والجماعات والقبائل والجمعيات ونحوها

* : هذه العلامة (=) تعني: انظر.

(خ)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

فهرس أسماء الأماكن
يتضمن أسماء البلاد والمناطق
والمدن والولايات والجبال ونحوها

(ت)

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ن)

فهرس الموضوعات